المركز القومى للترجمة



المشروع القومى للترجمة

الإنسان وهموم الموت

تأليف

أرنولد تُوينبى وآخرين

ترجمة وتقديم

عزت شعلان

1659

الإنسـان وهـمـوم الموت

المركز القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد: 1659
- الإنسان وهموم الموت
- أرنولد توينبى وآخرين
- عزت شعلان
- الطبعة الأولى 2011

هذه ترجمة كتاب:

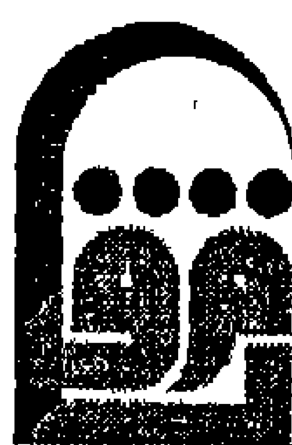
Man's Concern with Death

Originally published by Hodder & Stoughton Ltd. London, England 1968

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ - ٢٧٣٥٤٥٢٦ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya st. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

الإنسان وهموم الموت

تــأليـــف : أرنولد تُوينبى وآخرين
ترجمة وتقديم : عزت شعلان



2011

بطاقة الفهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

الإنسان وهموم الموت / تأليف : أرنولد توينبي ..آخرين،
ترجمة وتقديم : عزت شعلان
ط ١ - القاهرة ، المركز القومي للترجمة ، ٢٠١١
٤٢٨ ص ؛ ٢٤ سم .
١ - الموت (فلسفة) .
(أ) توينبي، أرنولد (مؤلف مشارك)
(ب) شعلان، عزت (مترجم ومقدم)
(جـ) العنوان ١٢٨,٥

رقم الإيداع : ٢٤٤٢٤ / ٢٠١٠

الترقيم الدولي 978-977-704-407-3

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

كان لنا صديق من الأطباء الظرفاء، واتفق له أن عمل زمنا في إحدى البلاد العربية. وزارهم هناك أستاذنا النابه الكبير الدكتور أنور المفتى ، رحمه الله ، ولاحظ الأستاذ أن صديقنا يكثر فى حديثه من قوله : الحقيقة هى كيت وكيت! ... فالتفت إليه وقال : أراك يا فلان تذكر الحقيقة كثيراً، وهناك حقيقة أكيدة ؛ هى أننا جميعًا سوف نموت!..

صدق أستاذنا من غير شك .. يقول الله فى كتابه الكريم :

﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴾ «الأنبياء: ٣٥» .

﴿ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لاَّ تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلا تَسْتَقْدِمُونَ ﴾ «سبأ: ٣٠» .

﴿ فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾ «الأعراف: ٣٤» .

﴿ مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ ﴾ «المؤمنون: ٤٣» .

إذا كانت هذه الدنيا زائلة فانية وكان الموت قدراً محتومًا فقد أدى ذلك إلى اختلاف موقف الناس من الحياة والموت : فكان منهم من غلب عليه الهيام بالدنيا والتهالك عليها، كما كان منهم من زهد فيها وانصرف عنها.

كذلك كان هناك من يميل إلى التوسط والاعتدال بين الزهد والهيام.

ويعتبر أستاذنا عباس العقاد رحمه الله من هؤلاء؛ حيث قال[(١)]:

زاهد الهند نعى الدنيا وصام   أنا أنعاها ولكن لا أصوم!

طامع الغرب رعى الدنيا وهام   أنا أرعاها، ولكن لا أهيم

بين هذين لنا حدٌّ قوام   ولْيَلُمْ من كل حزبٍ من يلوم

أما المتشائمون من الحياة فإمامهم بلا منازع هو الشاعر الحكيم أبو العلاء المعري، وكان من أوصاف المعرى أنه رهين المحبسيْن : كف بصره وبقائه فى داره ثم زاد على ذلك محبسا ثالثا هو كون النفس فى الجسم الخبيث! ..

وكلنا يعلم أنه أوصى أن يُكتب على قبره:

هذا جناه أبى علىّ   وما جنيتُ على أحد

وإذا كان أبو العلاء قد اعتزل الحياة الاجتماعية للناس ترفعا عن الإسفاف والابتذال؛ فإنه وقف حياته على دراسة اللغة العربية واستكناه أسرارها. وفرض على نفسه فى "اللزوميات" من قيود النظم ما لا تفرضه قواعد النظم المألوفة، فكان فى هذا نسيج وحده. من أجل ذلك لم يكن اعتزاله سلبيا، وإنما كان إيجابيا فعالا فى عالم اللغة والأدب. ولم يسلم أبو العلاء من دسائس الناس ومكائدهم، واتهامه من حاسديه وشانئيه، فكان يقول : ما للناس ومالى وقد تركتُ لهم دنياهم. وقد ذهب هؤلاء الحاقدون فى طوايا النسيان، وبقى أبو العلاء وسوف يبقى إلى آخر الزمان .

(١) خمسة دواوين للعقاد تأليف عباس محمود العقاد (فى وحى الأربعين). الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة.

كان أبو العلاء يرى أن الحياة ليس فيها سوى العذاب والشقاء بعد أن جرب مراحلها وهو فى شوق إلى أصدقائه وأقربائه الذين سبقوه إلى الموت. وإذا كان اللقاء بهم قريبا فإن الموت طيب المذاق(٢):

وقد بلونا العيش أطواره فما وجدنا فيه غير الشقاء
تقَدَّمَ الناسُ فيا شوقَنا إلى اتباع الأهل والأصدقاء
ما أطيب الموت لشُرَّابه إن صَحَّ للأموات وشكُ التقاء

وكان أبو العلاء يرى أن العذاب قضاءٍ مقدور على الإنسان حتى نهاية حياته. وأهل الميت جديرون بالتهنئة عند وفاته على ما كسبوه من إرثه – أما الميت فقد انتهى من عذابه وآلامه وبلغ راحته:

قضى الله أنّ الآدمى معذَّب إلى أن يقول العالَمون قضى
فهنِّئ ولاة المْيت يوم رحيله أصابوا تراثا واستراح الذى مضى

يحسن بنا فى هذا المقام أن نشير إلى آراء بعض الأدباء العرب فى القرن العشرين. ونبدأ بالأديب الكبير نجيب محفوظ الذى نال جائزة نوبل فى الأدب(٣). وكان يقول : "الزمن بالنسبة للفرد هو هادم لذاته ومُفنى شبابه وصحته والقاضى على أصدقائه وأحبائه. والموت هو النهاية .. هو الفناء.. ولقد خرجت بدرس من تأملى للزمن والموت هو أن أنظر إليهما بعين الإنسان الاجتماعى لا الفردى .. هما أمام الفرد مصيبة .. لكنهما أمام الاجتماعى وهم، أو لا شىء ففى أى لحظة ستجد مجتمعا واسعا ومركزا مُشعًّا بالحضارة .

(٢) صوت أبى العلاء تأليف طه حسين سلسلة اقرأ. دار المعارف. القاهرة.
(٣) نجيب محفوظ : أتحدث إليكم (جمع صبرى حافظ). دار العودة. بيروت.

ماذا يفعل الموت بالمجتمع البشرى؟ لا شيء .. ففى أية لحظة ستجد مجتمعاً يعجّ بالملايين" .

وكان يرى أنه عبّر عن " كل وجوه الموت وتنويعات الموت.. وربما بصورة متزامنة ؛ هناك الموت الميتافيزيقى والموت الاجتماعى والموت الروحى والموت التدريجى البطىء والموت المفاجئ .. وكل أشكال الموت وضروبه".

ويقول : ".. الموت كان دائماً يغزو خيالى بإلحاح وإثارة، مجموعة دنيا الله تتميز فيها فكرة الموت بطابع انتصار الإنسان على الموت.

إننى أجد فرقا بين مواجهة الموت بالبكاء كأن الدنيا تزلزلت، وبين مواجهته بالدهشة والتساؤل والحيرة - الموت فيه عنصر محيّر ولا معقول .. وهذا العنصر يتضح بشكل حاسم فى الموت الجزافى".

كان من رأيه أن فى الإمكان التغلب على مشكلة الموت بطرق مختلفة:

« باعتناق عقيدة الخلود بعد الموت.. باعتناق المبدأ العلمى البسيط : ما يوجد لا يُعدَم، إذ إن العلم يعرف التحول ولا يعرف العدم..أو بالتطلع إلى انتصار بعيد جدا يستخدم الإنسان فى تحقيقه كل ما وُهب من قوى روحية ومادية».

أما الأستاذ توفيق الحكيم(٤) فيقول : "هل يُقدّر لنا أن نرى أحباءنا مرة أخرى بعد موتهم؟ ... كان أوليفر لودج العالم الفيزيائى المعروف منذ القرن الماضى بأبحاثه فى الضوء والكهرباء والإلكترونيات والرياضيات التطبيقية والفلسفة الطبيعية قد انتهى فى أواخر حياته إلى الاعتقاد الراسخ فى إمكان الاتصال بالموتى ...

ومهما يتعمق العالم فى علمه فإن اكتشافاته على علو قيمتها وسمو غايتها وقوة دفعها لتقدم الإنسان إنما تتم بالفحص والفهم عن طريق ما تدركه وتمارسه حواسنا ؛

(٤) نظرات فى الدين - الثقافة - المجتمع، توفيق الحكيم، المكتب المصرى الحديث، القاهرة.

ولا شيء غير حواسنا، هذه الحواس التى تقرر لنا الموجود وغير الموجود.. وماذا تكون حواسنا الضعيفة القاصرة فى هذا الكون الهائل غير المتناهى؟! هذه الحواس التى تعجز عن إدراك ما خرج عن نطاقها المحدود- لذلك لجأ الإنسان إلى شيء يستطيع أن يجيب له عن الأسئلة التى ليس لها جواب عند العالم : إنه الدين ..

إذا قلت لنا أيها العقل البشرى ويا أيها العلم الوضعى إن اجتماعنا مرة أخرى مع عزيزنا الذى مات هو أمر مستحيل عقلا فإن كلمتك لن تكون الأخيرة ولن تدفعنا إلى الضغوط.. فإن فى قدر الله وتقديره ما يتجاوز أى فكر لأى كائن مهما يبلغ عقله وعلمه فى أى جرم من أجرام الكون اللانهائى".

أما الدكتور مصطفى محمود فيقول(٥):

«الموت فى حقيقته حياة، ولأنه لا يحتوى على مفاجأة، ولأن الموت يحدث فى داخلنا فى كل لحظة حتى ونحن أحياء..

الموت فضيلة وخير بالنسبة للكون كله لأن به تكون الأشياء موجودة ولكن المخلوقات مضطرمة بالشعور والحياة.

ولكنه شر الرذائل بالنسبة للإنسان الفرد .. بالنسبة لك أنت.. ولى أنا.. لأنه ينفقنا كضرائب إنشاء وتعمير .. ويُقدمنا قرابين على مذبح الوجود ..

إن الحب كله قصة جميلة .. مؤلفها هو الموت نفسه .. وليس الحب فقط .. بل كل العواطف والنزوات والمخاوف والآمال وشطحات الخيال والفكر والفن والأخلاق.. كل هذه القيم تدين للموت بوجودها ..".

كتب طاهر الطناحى فى تقديم كتاب «أنا» للأستاذ عباس العقاد(٦):

(٥) لغز الموت. دكتور مصطفى محمود. دار العودة. بيروت.

(٦) أنا. عباس محمود العقاد. كتاب الهلال. دار الهلال. القاهرة.

«أما الموت فقد كان العقاد يكرهه ولا يخشاه .. وذكر له فى حديث معه :

إذا فاجأنى الموت فى وقت من الأوقات فإننى أصافحه ولا أخافه بقدر ما أخاف المرض؛ فالمرض ألم مُذلّ ولا يُحتمل، لكن الموت يُنهى كل شىء !

نعم إن الخوف من الموت غريزة حية لا عيب فيها، وإنما العيب أن يتغلب هذا الخوف علينا، ولا نتغلب عليه كلما وجب أن نغلبه فى موقف الصراع بين الغريزة والضمير، فإن الخضوع له فى هذه الحالة ضعف، والضعف شر من الموت».

وكتب العقاد عن خوف الموت[٧] وبلاء الموت:

«خوف الموت كلمة مرادفة لخوف الحياة، وكلاهما من شيمة الضعفاء؛ لأن الأقوياء لا يخافون الموت ولا يخافون الحياة. ولكنهم يكرهون الموت كما يكرهون عدوا، ويحبون الحياة كما يحبون عشيقة، وليس من الضرورى حين يكره المرء عدوا أن يخافه، وإنما خوف الأعداء دأب الضعفاء، وإذا خاف المرء الموت فذاك ضعفه. والضعيف يخاف الوجود كما يخاف الفناء؛ لأنه لا يقوى على هذا ولا ذاك».

الموت أعم المصايب وقوعًا، ولا يزال أشدها إيلاما وأقلها قبولا للعزاء. على أن ذلك لا يفيد أنه غير مألوف، ولكنه يدل على أن الإنسان لا يجزع لمصاب غيره كما يجزع لمصاب نفسه.

إن من أصدق التعبير عن وساوس الخوف من المرض والموت ما كتبه إبراهيم عبد القادر المازنى[٨].

«وطال تفكيرى فى هذا الموت، وخامرنى خاطره، فهو لا يفارقنى فى يقظة أو منام، وإنى لأحلم به وإن كنت بلطف الله أصبح ناسيا ما تراءى لى من الصور

(٧) الكلمات الأخيرة للعقاد. دار الكتاب المصرية. القاهرة.
(٨) إبراهيم عبد القادر المازنى. قصة حياة. دار الشروق. القاهرة.

والحوادث فى رقادى، وما غمضت عينى ليلة إلا وأكبر ظنى أن أفقد نفسى فلا أعود إلى الشعور بها..».

"وأحسّ دقات قلبى فى رأسى قوية تكاد تغلق العظم، وأسمعها بأذنى مدوية تعصف بسكون النفس واتزان الأعصاب. وأشعر كأن كيانى كله يرتج بل يُزلزل، فأحتال لاستعادة السكون، وأوثر لهذا أن أنام وأنا قاعد فإن القعود - فيما جربت - يعفينى من حدة الشعور بدقات القلب...

وقد قال لى طبيب استشرته إن القلب سليم وإن جسمك الضئيل لا يكلفه جهداً، وإن أيسر عمله كاف جدا لإدارة الدم فى البدن كله، وهذه أعصابك قد أتلفتها بهذا التفكير الدائم فى الموت، فهل تستطيع أن تُبيّن لى على أى شىء تحرص فى الحياة حتى تجزع من الموت هذا الجزع؟" "... يا هذا، لقد جاوزتَ الخمسين فأنت الآن فى المنحدر .. ولا مفر لك من النزول. وقد يتيسر لك أن تقف هنا قليلاً، وتتلبث هناك لحظة، ولكن الانحدار مهما طال الوقوف، لا مهرب منه. ثم إنك وأنت لا تستطيع أن تجعل عينك إلى فوق، فهى أبداً أو فى الأغلب الأعم إلى تحت .. إلى المصير المحتوم.. وهو محتوم .. محتوم، ما فى هذا أدنى شك، فما قولك فى رياضة النفس عليه؟؟ تروض نفسك على الموت.. على الاطمئنان إليه.. على السكون إلى ما يهولك منه، والرضا به؟؟ واعلم أن هذا لا ينفى حرصك على الحياة وضنَّك بها وكل ما فيه أنه يُعدُّك لما بعدها؛ فأنت كالذى يذهب إلى مدرسة ليهيئ نفسه لغده المأمول، فهذا غدك الذى لا ريب فيه، فمن أصالة الرأى أن تتهيأ له.

وسينفعك هذا، ومواجهة الحقائق أولى وأردّ على المرء من تجاهلها والمكابرة فيها.. وراقنى هذا، فصحّ عزمى على رياضة النفس على السكون إلى الموت".

يقول المازنى فى آخر الكتاب:

«ثم صرت لا يُعزّينى علمى أن غيرى لا محالة ذاهب، إلى حيث أذهب، وأن المآل واحد، ولا يقنعنى إلاّ أن أصور لنفسى فناء العالم كله، بل العوالم أجمع، وحتى هذا لم يكن فيه مقنع، فكنت أشتهى أن أكون آخر من فى الدنيا لأشهد مصرعها بعينى، وأطمئن. وربما غالطت نفسى فزعمت لها أن هـذه شهـوة فنية، ولكنى لا أصدق ! كلا لا أصدق.. "وقد خلّفت ورائى هذه المرحلة أيضًا، فلست ألتمس عزاء، أو أنشد ما أغالط به نفسى فى الحقائق. وسيان عندى اليوم أن يذهب الناس أو لا يذهبون، فما أحفل شيئًا من هذا، وإنه لآثر عندى أن يبقوا لو كان إلى هذا سبيل، على أنى لا أُعنّى نفسى بأمرهم. وحسبى أمر نفسى، وهمى فى هذه الآونة أن أروضها رياضة جديدة على سكون لا يفسده اضطراب، لا على الركود فإن هذا شر من الموت، بل طعمه يُذاق فى الحياة، والسكون قوة لأنه ابن الإدراك الصحيح والإرادة".

وإذا رجعنا إلى الإمام حجة الإسلام أبى حامد الغزالى وهو الفقيه المتصوف الفيلسوف[(٩)] فإننا نجده يستخدم كلمات مثل النفس والروح والقلب والعقل باعتبارها معانى مترادفة تعنى حقيقة النفس – وذلك على علمه بالفوارق بينها؛ فالنفس هى جوهر الإنسان الذى تحل فيه المعقولات ولها وجوه مختلفة من النشاط؛ فإذا كانت تمثل الغرائز والشهوات فهى النفس الأمّارة، وإذا كانت تقوم بدور الرقيب على الأعمال فهى النفس اللوامة، وإذا كانت تتجه نحو عالم الملكوت وتتنزل عليها السكينة فهى النفس المطمئنة – وأما القلب فهو يدل على العضو الذى يدفع الدم وهو عند الإنسان وغيره من الحيوان، ولكنه يدل كذلك على حقيقة الإنسان .

وللروح معان مختلفة فهو يعنى روح القدس وهو جبريل عليه السلام، كما يعنى القرآن، وكذلك يعنى ما يتصرف فى الحياة الجسمية والعقلية.

---

(٩) أبو حامد الغزالى. إحياء علوم الدين. دار الشعب. القاهرة.

يرى الغزالي أن الموت هو تغيّر حال فقط، وأن الروح باق بعد مفارقة الجسد فى نعيم أو عذاب. والموت طور آخر من الترقى وضرب آخر من الولادة والانتقال من عالم إلى عالم كما قال النبىﷺ : "القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة". وإذا كان تصرف الروح فى الأعضاء ينتهى عند الموت، فلا يعنى ذلك أن الروح يفقد العلوم والإدراكات والأفراح والغموم، ولا يقبل الآلام واللذات.

يقول الإمام الأكبر فضيلة الشيخ محمود شلتوت(١٠): «والذى ترشد إليه الآثار الدينية (فلا تزال حقيقتها (أى الروح) من الغيب الذى لم يكشفه الله للإنسان) أنها تخرج من بدن الإنسان فيكون الموت، وأنها تبقى ذات إدراك تسمع السلام عليها، وتعرف من يزور قبر صاحبها، وتدرك لذة النعيم وألم الجحيم، وأن مقرها يختلف بعد مفارقة البدن بتفاوت درجاتها عند الله...".

ويستدل الغزالي بالآيات الواردة فى القرآن الكريم على خلود النفس مثل:
﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ (١٦٩) فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلاَّ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ «آل عمران: ١٦٩، ١٧٠»
﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَن يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ ﴾ «البقرة: ١٥٤»

يقول الغزالي : "وقد ترسّخ فى جيمع عقائد أهل الإسلام هذا، فإن رسول المغفرة والرحمة لمن يكون باقيا، لا لمن يكون فانيا. وكذلك إهداء الصدقة فاعتقادهم أنها تصل إليه، وكذلك المنامات، فكل ذلك دليل على أنها باقية".

روى البخارى حديثا عن النبى ﷺ أنه نادى على شهداء غزوة بدر بأسمائهم وأسماء آبائهم قائلا: "يسركّم أنكم أطعتم الله ورسوله، فإنا قد وجدنا، ما وعدنا ربنا حقا، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا؟

(١٠) الفتاوى، محمود شلتوت، دار الشروق، القاهرة.

فقال عمر : يا رسول الله ما تُكلِّم من أجساد لا أرواح فيها؟ فقال النبى عليه الصلاة و السلام : "والذى نفس محمد بيده ما أنتم بأسمعَ لما أقول منهم، إلا أنهم لا يجيبون" .

أما الماهية التى للنفس بعد الموت فنحن لا نعلم عنها شيئًا، وهى من علم الله . ولو تأملنا حالة الماء فنحن نجده سائلاً كالذى نشربه، أو جامدا مثل الثلج أو فى حالة غازية مثل بخار الماء. ولم يختلف تركيب الماء فى هذه الحالات الثلاث إذ يتكون الجزىء من ذرتين من الإيدروجين وذرة من الأكسجين. ولست أزعم أن هذا تشبيه تام للنفس وعلاقتها بالبدن، وإنما القصد أن تختلف الصور مع بقاء الماهية. والذى لا أشك فيه أن الذاكرة لا بد من استمرارها على نحو ما بعد الموت، حيث إن انعدامها يعنى جهل الإنسان بنفسه وبغيره، ولا يمكن أن نعتبر هذا بقاء نافعا على أية حال:

لماذا يخشى الناس الموت؟

يقول شاعر العربية الكبير أبو الطيب المتنبى:

إِلف هذى الحياة علّم الناس أن الحمامُ مرّ المذاق.

ويقول الغزالى:(١١)

"هناك أربعة أسباب:

١ - شهوة البطن والفرج وخوف الحرمان منها.

٢ - ترك ماله؛ وعلى الإنسان أن يعلم أنه لا وجه للمقارنة بين خساسة الدنيا والنعيم الموعود للمتقين.

٣ - الجهل بما بعد الموت: وعلى الإنسان أن يطلب العلم الحقيقى والبحث فى الأمور النفسية والعلاقة بين النفس والبدن. وقد أمر الشرع بالتفكر فى النفس مثل التفكير فى ملكوت السماوات والأرض.

---

(١١) ميزان العمل، أبو حامد الغزالى، مكتبة صبيح، القاهرة.

٤ – خوف الإنسان من سابق عصيانه: وعليه أن يبادر إلى التوبة وإصلاح أمره".

كما يرى الغزالى أن حال الإنسان عند الموت تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

«١ – أصحاب البصيرة يرون أن الحياة رق والموت حرية. وقد قال النبى عليه الصلاة والسلام : "من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه، ومن كره لقاء الله فقد كره الله لقاءه».

٢ – إنسان منهمك فى الأمور الدنيوية، وييئس من الحياة الأخرة.

٣ – موقف بين الأول والثانى. عرف غرور الدنيا ولكنه ألفها وكره الخروج منها . ولكنها إذا خرج ورأى النعيم الذى ينتظر الصالحين لم يأسف عليها".

وإذا بلغنا العصور الحديثة وجدنا طائفة من العلماء يتجهون نحو دراسة الموت والاحتضار، وكيف يواجه الناس والأطباء المشكلات المتعلقة بهذه الأمور.

يرى العالم كارل يونج[١٢] أن الحياة عملية من الطاقة تتجه إلى هدف الاستقرار، وهى نمائية بامتياز، وأن الكائن الحى نظام من الأهداف المُوجَّهة تسعى إلى التحقيق – وسرعان ما تتغير إلى الخوف من الحياة والمقاومات العُصابية وألوان المخاوف والاكتئاب إذا بقيت فى إحدى المراحل متعلقة بالماضى، أو تقاعست عن المخاطرات التى لا بد منها لتحقيق الهدف الخفى. وكما يقف الخوف فى سبيل الحياة، فكذلك يقف فى سبيل الموت. وإذا كان النصف الأول من الحياة يمثل الصعود، فإن النصف الثانى يمثل الهبوط نحو النهاية وهى الموت. يرى يونج أن الحقيقة الأساسية فى أنواع العُصاب المختلفة تكمن فى اغتراب الإنسان عن غرائزه وانفصال الوعى عن حقائق النفس الأساسية وعلينا أن نُوطِّن أنفسنا على الموت ونتهيأ له.

---

(12) The meaning of Death, Editor: Herman Feifel; Mc Graw- Hill.

– يونج طبيب نفسى سويسرى ١٨٧٥-١٩٦١، بدأ تابعًا لمدرسة فرويد فى التحليل النفسى ثم انفصل عنها وأنشأ مدرسة علم النفس التحليلى . اهتم بدراسة الأساطير واللاشعور الجماعى والأنماط النفسية، وكان يولى الأحلام أهمية كبرى.

آمن يونج بأن النفس تتجاوز حدود الزمان والمكان، وأن ظواهر التخاطر Telepathy(١٢) من الحقائق التى لا سبيل إلى إنكارها. وإذا كنا عاجزين تماما عن تصور نوع من الوجود لا يحتاج إلى الزمان والمكان فإن هذا لا يثبت بحال من الأحوال أن مثل ذلك الوجود مستحيل فى ذاته. ونحن ننتهى إلى أن النفس تشارك فى أبعد آفاقها فى صورة من الوجود تتجاوز حدود الزمان والمكان وتتعلق بالأبدية. هذا الشعور مغروس فى أعماقنا، وهو يمثّل اتجاها عاما - وإذا أنكرنا هذا الأمر تعرضنا لمشاعر الاقتلاع من الجذور وعدم الاستقرار والإحساس بفراغ المعنى والدونية. إن مشاعر القلق تستدعى الإحساس بانعدام المعنى، وهو مرض روحى لمّا يبدأ عصرنا فى فهم مدى أهميته فى رأى يونج حين كتب هذا الكلام.

أما الكتاب الذى يطّلع عليه القراء والقارئات فقد قام بتأليفه طائفة من المتخصصين فى الطب الشرعى وطب الأطفال والطب النفسى والدراسات الدينية والصحافة والأبحاث النفسية - وعلى رأس هؤلاء جميعا الأستاذ أرنولد توينبى (١٨٨٩-١٩٧٥) الذى قال عنه أستاذنا عباس العقاد فى أحد أحاديثه الإذاعية إنه من أكبر مؤرخى الغرب فى زماننا، إن لم يكن أكبرهم على الإطلاق - وكان توينبى عظيم الإعجاب بفيلسوف الاجتماع العربى ابن خلدون، وقال عن مقدمته: إنها ولا ريب أعظم عمل أبدعه عقل من العقول فى أى زمن وأى مكان.

للأستاذ توينبى دراسات واسعة فى التاريخ العالمى المقارن، وله نظرية التحدّى والاستجابة، إذ يرى أن الحضارات نشأت نتيجة الاستجابة للتحديات العسيرة البالغة، عندما ابتكرت النّخب الخلاقة من الأقلية حلولا تؤدى إلى توجيه جديد للمجتمع كله. وربما كانت هذه التحديات متصلة بالبيئة الطبيعية أو الأحوال الاجتماعية. وإذا استجابت الحضارة للتحديات أدى الأمر إلى تقدمها. وإنما تدهورت الحضارات

---

(١٢) التخاطر : هو انتقال الخواطر والأفكار على تباعد المكان بغير كلام.

عنـدما توقـف زعماؤهـا عـن الاستجابة الخلاقة نتيجة للقومية أو الروح العسكرية أو طغـيان الأقلية الغاشمة المستبدة. ويؤمن توينبى بأن الحضارات تموت بالانتحار، لا بالاغتيال.

تتكون الحضارة من شبكة من العلاقات الاجتماعية فى نطق حدود معينة، وهى من أجل ذلك تتعرض للقرارات الحكيمة أو السفيهة التى تحدث فيها. وقد عاصر توينبى الحرب العالمية الأولى والثانية واشترك فى محادثات السلام بعد كل منهما.

كتب توينبى(١٤) يقول إن من أسوأ صفحات التاريخ ما قامت به الولايات المتحدة تجاه الهنود الحمر فى أمريكا وما قامت به إسرائيل تجاه العرب فى فلسطين. كذلك اشترك فى حوار تليفزيونى مع أبا إيبان سفير إسرائيل فى لندن حول الحق التاريخى للعرب فى فلسطين.

بلغ نصيب ما كتبه توينبى فى كتابنا نحو ثلثه تقريبًا، إذ تناول فى القسم الأول منه مواقف متغيرة تجاه الموت فى العالم الغربى الحديث، وتحدث عن وفيات الأطفال المرتفعة فى القرون الماضية، وأشار إلى مخاوف الأطفال من الموت، والحاجة إلى شرح الموت للأطفال حسب إدراكهم.

وتناول فى القسم الثانى مواقف تقليدية تجاه الموت وأكّد الشعور بالكرامة الإنسانية فى طقوس الجنازات منذ التاريخ القديم. وتحدث عن القرابين البشرية فى العصور القديمة، وما جاء فى سجلات العهد القديم عن ذلك - أكد حاجة الإنسان إلى التواضع، وبين اعتقاد الشعوب القديمة فى خلود الروح، وأثر المصريين فى هذا الاعتقاد.

---

(14) Arnold Toynbee : Experiences, Oxfovd Universily Press.

كما تناول الموقف تجاه الموت فى العالم الغربى الحديث. فقد تغيرت النظرة تجاه الموت فى القرون الثلاثة الأخيرة منذ القرن السابع عشر. وظهر اتجاه التسامح أمام الإلحاد وكان للحروب الدينية أثر في ذلك. زاد الخوف من الموت بعد القرن السابع عشر. كما ضُمرت ملكة التأمل الروحى ونَقَص الإيمان.

بحث توينبى الموت فى الحروب، وشرح دين القومية وعبادة القوة الجماعية والحروب الدينية. أوضح فظائع الحروب فى الحربين العالميتين. تناول العصر الذرى، وأشار إلى العقلية الأمريكية العسكرية وإيمانها بالنصر دائماً.

تحدث المؤلف عن الآثار الناجمة عن طول العمر والنقص في وفيات الأطفال. وجعل قتل الألمان لخصومهم فى الحرب العالمية شبيها بمذابح المغول فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر، ومذابح تيمور لنك فى القرن الرابع عشر. كان عمل المرأة خارج البيت من التغيرات الاجتماعية. ولم تعد العائلة ممتدة كما كانت فى الماضى. ظهرت مشاكل المسنين من النواحى المالية والصحية والاجتماعية - ودعت الحاجة إلى تنظيم النسل. بانت ظاهرة الانتحار للأسباب المرضية، وارتفعت الدعوات لإباحته بإشراف السلطات!

فى القسم الثالث والأخير من الكتاب يتناول توينبى مواقف من الزمان والمكان والطبيعة، ويذكر أثر الاكتشافات الفلكية على مكان الإنسان فى الكون، وكذلك اكتشافات علم النفس، ونظرية اللاشعور الجماعى ونظرية النسبية.

فى التعقيب الأخير عن العلاقة بين الحياة والموت، والعيش والاحتضار يرى توينبى من الأفضل أن يستعد الإنسان للموت دائماً، وقد تأثر كثيراً لموت أحد أصدقاء المدرسة فى الحرب العالمية الأولى، وأصبح الموت مألوفاً عنده.

وإذا كان الاغتيال جريمة شريرة، فكيف تكون جرائم الحروب مقبولة؟! كما أصبحت الحروب الهجومية مبررة للأسف بأسباب دفاعية. وهناك على الرغم من ذلك أمثلة على التضحية فى سبيل الإنسانية. وهناك اختلافات حول عاقبة الموت، تتراوح بين الفناء أو الاتحاد مع الحقيقة الروحية النهائية والخلود. وإذا كان توينبى لا يؤمن بالخلود الشخصى أو الحساب بعد الموت، فإنه يحب أن يتخلص من خطاياه. وهو فى هذا الموقف يحمل مسئولية نفسه أمام الله. وهو على نقيض موقف كارل يونج الذى كان يؤمن بخلود النفس وقد يكون الموت راحة للميت من شرور الدنيا، لكن الباقين من أقربائه وأحبائه يتعرضون للحزن والأسى.

تعددت موضوعات الكتاب وتشعبّت فيما كتبه المؤلفون الآخرون.. إذ تحدث الفصل الأول عن تعريفات الموت والتفرقة بين الموت الجسمى والموت الخَلَوى، وهى من الأمور المهمة فى نقل الأعضاء، وما يثار حوله من جدل كبير فى الوقت الراهن.

تناول الفصل الثانى المفاهيم الفلسفية للموت، والتفرقة بين الموت والاحتضار، والعواطف المختلفة عن مواجهة الموت، وكذلك التفسيرات الأسطورية للموت فى الإنجيل، إذ يكون الموت ثمنا للخطيئة ... أشار الفصل إلى تأثير الفلسفة الوجودية، فقد دعا هيدجر إلى موقف إيجابى من الموت والاستغراق فى الهموم المفيدة. ورأى سارتر أن الموت يؤدى إلى تحطيم قدرة الإنسان على خلق القيم وإنهاء الحرية.

أما الفصل الثالث من القسم الأول فكان موضوعه الاحتضار والطبيب، وقارن بين الحقيقة وإخفائها عن المريض. شرح التكيف مع الموت المنتظر، والإفادة من الحياة الباقية فى الاستمتاع بها. وقرر أهمية الإيمان فى الأمل والعزاء.

تطرّق القسم الثانى فى الفصل الثانى إلى مواقف تجاه الموت فى الديانات الشرقية من قبيل البوذية والجينية والهندوسية والتاوية والكنفوشية والشنتوية.

بحث الفصل الثالث موضوع الموت فى التقاليد اليهودية - المسيحية. كما تحدث الفصل الخامس عن بعض أنواع القصور فى الفكر المسيحى الحديث عن الموت.

ناقش الفصل السادس مسألة الموت وهبوط الدين فى المجتمع الغربى منذ القرن العشرين فيما عدا أمريكا. وبدأ تطبيق الوسائل العلمية التاريخية على النصوص الدينية منذ القرن التاسع عشر : وظهر الاهتمام بالحياة الدنيوية والشك فى الحياة التالية. كما تعددت الطوائف الدينية، وتعددت أدوار القسيس. يرى بعض علماء الاجتماع أن الدين ضرورة مستمرة فى المجتمع الإنسانى، ولكن صور الدين تتغير مع التغيرات فى المجتمع.

تناول القسم الثالث آفاقًا للتأمل، وموضوعاته طريفة شائقة؛ إذ يبحث الأحلام وعلاقتها بالموت عند يونج فى الفصل الثانى، وتجربة خروج النفس من الجسم. يرى المؤلف أن الوعى يستخدم المخ، وفى إمكانه أن يتصل بآفاق أخرى ولا يستطيع العلم اليوم أن ينفى بالبرهان، حتى إذا كان لديه اعتراض على هذه الأمور.

بحثت المؤلفة فى الفصل الثالث موضوع الموت والبحوث النفسية وعلم النفس المشابه Para psychology ؛ الذى يبحث فى الملكات الإنسانية التى تستعصى على التفسير حسب القوانين المعروفة - وتناولت مسألة الوسطاء الروحيين والكتابات التلقائية، وفى كتاب الأديب الكبير أنيس منصور(١٥):

أرواح وأشباح حكايات كثيرة غريبة في هذا المجال ....

ترى المؤلفة أنه لا يوجد نفى ولا إثبات من الناحية العلمية المطلقة، وهناك للإيمان والعقيدة أثر فى الإيمان بالبقاء بعد الموت.

يذكر الفصل الرابع بعض الهيئات التى يمكن تصورها للبقاء فى العالم الآخر بعد الموت؛ إذ يكون هناك بقاء متجسد على هيئة جسد أثيرى أو روحى من تنوع أعلى من المادية توحيه تجربتنا فى العالم المادى، أو تكون الحياة التالية نوعا من عالم الأحلام،

(١٥) أرواح وأشباح. أنيس منصور. دار الشروق. القاهرة.

يلعب فيها التصور العقلى دور الإدراك الحسى فى الحياة الدنيا - وليس للصور فى الأحلام مكان معين . ونحن نشعر بأن الصور العقلية فى الأحلام حقيقية وإن كانت ليست مادية. فهناك على ذلك مثلان للعالم الآخر:

الأول مثل مادى توحيه تجربتنا فى العالم المادى.

والثانى مثل نفسى توحيه تجربتنا فى الأحلام والصور العقلية .

لقد طوّفنا فى ميادين مترامية الأطراف لموضوعات متنوعة متعددة تتعلق بالموت تناولها الباحثون من زوايا مختلفة. وخلاصة الأمر أن العلم حتى اليوم لا يستطيع أن يتقدم بالنفى أو الإثبات فى مسألة الخلود بالبرهان القاطع. وتتعلق هذه الأمور بالغيبيات والذى يفصل فيها هو الدين الذى يؤمن الإنسان بأنه من عند الله العلىّ الحكيم. والإيمان يقوم على الغيب الذى لا يقع تحت الحس. وإنكار الغيب يحرم الإنسان من الإيمان الحق الذى ينتهى به إلى السكينة والاطمئنان، ويعصمه من القلق والمخاوف والشعور بالعزلة الأليمة فى هذا الكون الهائل. وقد سبق لنا أن ذكرنا الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة وهى صريحة واضحة فى بقاء النفس بعد الموت. ولا بد أن تحتفظ بذاكرة، لأن انعدامها ينفى وعى النفس بذاتها وبغيرها. وعلينا أن نؤمن بما جاء فى القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة، وألا يكون جهلنا بالهيئة التى تكون عليها النفس سببا فى شك أو قلق؛ لأن الله سبحانه لا يعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء، وهو على كل شىء قدير.

إن المسألة المهمة الكبرى أن يدرك الإنسان رسالته فى هذه الدنيا وأن ينهض بها قدر ما يستطيع. ولقد اقترن الإيمان وعمل الصالحات فى كثير من آيات القرآن الكريم. وكان من أحاديث النبى عليه السلام "أن الإيمان ما وقر فى القلب وصدّقه العمل" ، وأن الأعمال بالنيات كما قال النبى عليه السلام فيما روى البخارى والترمذى : "اغتنم خمسًا قبل خمس : شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك".

لكن شواغل الإنسان وما في الدنيا من بهارج وزخارف ومغريات قد تحيد بالإنسان عن سواء السبيل، فيخرج عن الصراط المستقيم ويرتكب السيئات ويقترف الذنوب. لكن باب التوبة مفتوح بفضل الله دائمًا في الليل والنهار. ومن الآيات الدالة على رحمة الله بغير حساب :

﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا ﴾ «النساء :٣١»

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُوراً رَّحِيماً ﴾ «النساء :١١٠»

﴿ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ «التوبة :١٠٤»

﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ «الزمر: ٥٣»

﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ «الشورى :٢٥»

هناك كذلك أحاديث تدل على رحمة الله الهائلة وفرحه بالتوبة ؛ مثل حديث النبي ﷺ الذي رواه الشيخان ، فيما معناه " أن الله أفرح بتوبة عبده من رجل نزل منزلا وبه مهلكة، فلما نام إلى جوار راحلته واستيقظ وجدها هربت، واشتد عليه الحر والعطش، فنام ثم قام فإذا هي عنده».

وحديث آخر رواه الشيخان يدل على أن المرأة لا تطرح ولدها في النار، وهي قادرة على ألا تطرحه، وأن الله أرحم بعباده من هذه المرأة بولدها.. كل أولئك فضلا عن مضاعفة الثواب بغير حساب، وعقاب السيئة دون أية مضاعفة. والأكرم جزاء النية على عمل الحسنات وإن لم تخرج إلى حيز العمل، والامتناع عن عقوبة النية على ارتكاب السيئة، إذا امتنعت على التنفيذ.

ألا يدل ذلك كله على فضل الله العظيم وكرمه الهائل العميم ؟!

وإنما يحتاج الإنسان إلى دوام التأمل والتفكر في المعاني الروحية وعمل الخير وإسداء المعروف وإحسان العمل، ومجاهدة النفس.

والله يقول ﴿الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ «الملك :٢»، فقد أصبح مقياس التفاضل بين الناس إحسان العمل – ليت المسلمين الآن فى عصورهم الزاهرة!.. وأحوالهم الباهرة! .. يفهمون ويعملون ! ..

بقى علينا أن نضرع إلى الله أن يهدينا إلى الخير ، ويُرشدنا إلى سواء السبيل، ويدخلنا برحمته فى عباده الصالحين .

دكتور عزت شعلان

القسم الأول
الموت والاحتضار

الفصل الأول

التعريف الطبى للموت

كيث مانت Keith Mant

إن التعريف الطبى الصحيح للموت ، وما يصاحبه من خوف مَرضى من الدفن أو التشريح قبل الأوان ، قد شغل عقل الإنسان من بواكير الزمان. كما زادت التكنيات والممارسات الحديثة - تحت ظروف معينة - فى صعوبات التعريف الدقيق، بدلا من التخفيف منها.

تشخيص الموت :

إن شهادة الوفاة ، التى يحررها طبيب مؤهل حقا، ذات أهمية معروفة لجميع الأفراد الذين يألفون عمليات التحقيق، وهى التى يجريها الطبيب الشرعى، وقد سمعوا ضباط الشرطة الذين تم استدعاؤهم إلى مشهد حالة الموت يقررون: "حضر الطبيب فلان فى ساعة كذا وأعلن انتهاء الحياة " . وقد يشعر البعض بألا ضرورة لاستدعاء الطبيب للشهادة بالموت الذى حدث بصورة واضحة قبل اكتشاف الجثة، ولكن الطبيب فى بلاد كثيرة ينبغى بحكم القانون أن يشهد بحقيقة الموت. ولا يمكن فى بريطانيا العظمى أن يتم التخلص من جثة بصورة قانونية من دون استخراج شهادة وفاة ، ولا تُستخرج شهادة وفاة إلا بواسطة طبيب مرخص أو طبيب شرعى. وعندما يُبلَّغ الطبيب الشرعى بحالة وفاة ، فإن حقيقة الموت يجب أن يشهد بها طبيب بعد فحص

الجثة. فى الجانب المقابل ، قد يصدر الطبيب شهادة وفاة من دون مشاهدة الجثة بعد الموت أبدا ، على شرط أن يكون الطبيب معالجًا فى أثناء المرض الأخير ، وإن كان من الواجب تسجيل هذه المعلومات فى شهادة الوفاة. ويؤدى هذا فى بعض الأحيان إلى إصدار شهادات قبل الأوان أو الأخطاء فى شخصية المتوفى.

منذ بضع سنين ، نمى إلى علمى أن طفلا أرسل إلى عيادة طبيب، ومعه رسالة بأن جده قد مات ، والمطلوب من الطبيب أن يصدر شهادة وفاة. كان الباب الخارجى لبيت جده مفتوحا، وكان فى استطاعة الطبيب – لو أراد – أن يدخل البيت. وذهب الطبيب إلى البيت ، وشاهد الرجل العجوز ميتا فى فراشه فيما يبدو – ولما كان يعالجه من حالة فى القلب، فقد كتب شهادة الوفاة ، وتركها إلى جانب فراشه. وتذكر عند عودته إلى عيادته أنه لم يشاهد مريضه حيًا خلال الأسبوعين المنصرمين ولذلك أخبر الطبيب الشرعى بالحقائق. وذهب الضابط فى مكتب الطبيب الشرعى إلى البيت ، وأدهشه حين قراءته شهادة الوفاة، أن "المتوفى" كان جالسا فى سريره ، يسأله عما كان يفعله. أوضح السبب فى وجوده إذ أقر بأنه ضابط الشرطة ، وأنه دخل للتحقيق إذ كان الباب الأمامى مفتوحا. وظل الرجل العجوز يتمشى طوال ستة أشهر فيما بعد! لدينا هنا مثل على شهادة وفاة لأن الطبيب وافق على ما قُدِّم إليه من معلومات ، ولم يكترث بتحقيق وقوع الموت فعلا. إن الأخطاء فى شهادات الأطباء بالوفاة ، وهم الذين لا يفحصون الجثة، أو يؤدون كشفا سطحيا فقط أخطاء نادرة ، ولكنها ليست غير معروفة.

إن مرجع الطب الشرعى الذى ألفه تيلور Taylor (1) يسجل حالات حديثة من شهادات الوفاة الخاطئة . وقد تم اكتشاف سيدة عجوز فى بعض الأمكنة العامة، وأحضرت إلى المستشفى بسيارة الإسعاف. واستدعى الطبيب من قسم الحوادث،

(1) Taylor's Principles and practice of medical Jurisprudence 12 thedition, Ed. Simpson, K., Churehill, London, 1965, p104.

وأحس بأنها باردة ، كما عجز عن الشعور بالنبض أو ضربات القلب حيث وضع يده على صدرها. ولم يتضح الأمر إلا حين تم خلع ملابسها ، ووضعها على طاولة المشرحة ، ولوحظ أنها كانت ما زالت تتنفس.

يذكر الأستاذ سيمبسون(1) حالة عجوز عمرها ٧٨ عاما ، تم اكتشافها ميتة فى الظاهر، وقد كتبت مذكرات عن الانتحار ، وإلى جانب فراشها زجاجة حبوب منومة. وحملت إلى المشرحة العامة ، فوجد ضابط الشرطة الذى كان يقوم بالتَّحقق من شخصيتها بعد ست ساعات أنها كانت لا تزال تتنفس.

فى كلتا هاتين الحالتين، نشأت الأخطاء لإسراف الأطباء كثيرا فى الاعتماد على الظروف المحيطة باكتشاف الجثتين ، ولم يقوموا بإجراء الفحص التفصيلى.

أما فى الحالة الأولى، فقد أدى إلى علامات الموت الظاهرى مرض طبيعى شديد من النوع الذى يؤدى فى حد ذاته إلى ضعف ضربات القلب، بالإضافة إلى تبريد الجسم الذى أعقب الهبوط فى الخارج. أما فى الحالة الثانية، فقد كانت السيدة تحت تخدير تام. فى هذه الحالة يكون التنفس ضحلا ، والنبض بطيئا ضعيفا، وفقدان لحرارة الجسم . حدثت الإشارة إلى هذه الحالة من تعليق النشاط الحيوى نتيجة لتأثير المخدرات فى مسرحية روميو وجولييت (iv.i.98)، عندما قدم فراير لورنس Friar Laurance إلى جولييت شرابا يجعلها فى سبات عميق، وقال:" لا دفء أو تنفس يشهد بحياتك".

فى الثالث من نوفمبر فى عام ١٩٦٧ ، نشرت صحف عديدة حكاية جندى أمريكى تعرض لإصابة بالغة من جراء انفجار فى فيتنام. وتم حمل الجندى إلى المستشفى وهو ميت فى الظاهر، وتوقفت الجهود لإنعاشه بعد ٤٥ دقيقة. وأرسل إلى المشرحة ، حيث لاحظ المحنّط هناك أنه ما زال حيا على كل حال، وتمت إعادته بالطائرة فى النهاية إلى الولايات المتحدة ، حيث تماثل فيما بعد للشفاء.

(1) Simposn, K, Abbotempo, 1967, 3, 22.

تتزايد فرص الخطأ عندما يحاول عامة الناس الشهادة بالموت. لقد سألنى أحد المدنيين بعد غارة جوية على أوروبا فى أثناء الحرب الأخيرة عما إذا كنت أفحص واحدا يبدو أنه حىّ فى كومة من الجثث. ولم أُثبت فحسب أن هذا الجسم كان حياء وإنما أخرجت جسمين آخرين من الأحياء كذلك فى الكومة. كانت شهادات الوفاة لجميع الأفراد فى كومة الجثث قد تمت بواسطة المشرفين على الغارة المحلية الذين أثبتوا الوفاة بالفحص البصرى للإصابات، لا نتيجة لأى فحص إكلينيكى. لا بد من الاعتراف بأن الأفراد الثلاثة الذين استخرجتهم كانوا يعانون جميعا من إصابات عنيفة. وتحملت سيدة رحلة طويلة فى سيارة الإسعاف قبل أن تموت فى المستشفى – ولما كانت شهادة وفاتها صادرة منذ ساعتين أو ثلاث قبل استدعائى فربما جاز حقا أن يؤدى وصولها إلى المستشفى فى زمن مبكر إلى إنقاذ حياتها.

لقد تفادت بعض المراجع الأولى فى الطب الشرعى أى تعريف للموت، أو كان التعريف غامضا بصورة عامدة. ولو راجعنا مثلا شروط الموت فى مرجع سميث المطبوع فى عام ١٨٢١ عن مبادئ الطب الشرعى فإننا نقرأ: "إذا كنا على وعى بما يدل على الحياة، والمفروض أنه معروف لكل إنسان ، فإننا نصل فورا إلى تمييز الموت، وإن كان أى إنسان لا يستطيع أن يقول إنه يفهم حقا بصورة واضحة ما يصنع الحياة. إن الموت هو توقف الظاهرة المألوفة لدينا بصفة خاصة، وهى ظاهرة الحياة"(١). إن كتابات أخرى باكرة– وإن كانت تذكر قائمة بعلامات الموت – تُفسح مجالا أكبر كثيراً للأخطاء التى يمكن أن تنشأ عن الاعتماد على هذه العلامات. ويعرض كثير منها أمثلة على التوقف الظاهرى للحياة، والدفن قبل الأوان ، والعمليات القيصرية قبل الأوان ، والتعجل فى إجراء الصفات التشريحية Autopsies.

(1) Smith, J.G. Principles of Forensie Medicine, Handerwood, London, 1821, p.16.

لقد كتب الأطباء الشرعيون فى أوروبا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر كتابات كثيرة عن الشك فى علامات الموت ، وقدموا أمثلة عديدة على الأخطاء فى شهادات الوفاة . ويجد الإنسان على كل حال أن الحالات المسجلة بصورة موثوقة قد ذكرها كثير من المؤلفين المختلفين ، ويوحى هذا بأن الأخطاء التى نعترف بحدوثها من حين إلى حين لم تكن بالتأكيد شائعة على نحو ما ذكر الكتاب الذين يزيدون فى التهويل.

جمع جون بروييه John Bruhier[١] – وهو طبيب فرنسى فى القرن الثامن عشر– تواريخ الأشخاص الذين قيل إنهم دفنوا أحياء. وذكر ٥٢ مثلا عن حالات مزعومة من الدفن قبل الأوان ، و٧٢ حالة من شهادات الوفاة الخاطئة ، وأوصى بأن الدفن لا ينبغى أن يحدث حتى يتم التعفن المبكر. ثم سجل فونتينل Fontenelle Civille[٢] بعد قرن ٤٦ حالة من الدفن قبل الأوان أو أخطاء شهادات الوفاة، بينما أكد كاريه Carre[٣] أن هناك ٤٦ حالة من الأشخاص الذين تم تسجيل وفاتهم، ثم أفاقوا بينما كانوا فى انتظار الدفن. وفى النصف الأخير من القرن السادس عشر كان هناك زعم بأن السيد النورماندى م. فرانسوا سيفيل M. Francois Civille مات ثلاثة مرات، ودُفن ثلاث مرات ، ثم تم استخراجه وإنعاشه ثلاث مرات[٤] . وقد أشير إلى حالة الكولونيل تاونسند Townsend فى إنجلترا على نطاق بالغ فى مراجع الطب الشرعى[٥] . كان الكولونيا تاونسند قد دخل باختياره فى حالة توقف للنشاط الحيوى ، فى حضور

(1) Bruhier - d' Ablaincourt, J.J., Dissertation sur l'incertitude des signes de la mort et de l'abus des enterrements et des embaumonts precipitiés, Paris, 1742.

(2) De Fontenelle, J., Recherches medico- legales sur l'incertitude des signes de la mort, etc., Paris 1834

(3) Carré, De la mort apparente. Thése de Paris 1845.

(4) Sedillot, Manual complete de medicine legale, Paris 1835, Orfila, M. Medicine legale, Paris, 1823, P.460.

(5) Cheyne G. the English malady, Risk Eqing & Smith London, 1733.

الدكتور شينى Cheyne وهو طبيب وصيدلى آخر. وقد توقفت حركات التنفس وتوقف قلبه فى الظاهر، وبينما كانوا يتركونه بعد نصف ساعة باعتباره ميتا ، أفاق ببطء.

وصف الأستاذ الشهير لويس Louis[1] عميد الطب الشرعى الفرنسى- حالة عجيبة من الحمل ، بينما كانت الشابة ميتة فى الظاهر. إذ توقف راهب شاب فى بيت ، كانت فيه شابة مهيئة للدفن ، وعُرض عليه أن يقضى الليلة فى الغرفة حيث وضع صندوق الكفن. فخلع ملابس الجثة فى أثناء الليل ، وعاشرها جنسيا. وفى صباح اليوم التالى بعد خروجه ، أُنعشت الشابة وهى على وشك الدفن، ثم وضعت طفلا بعد تسعة أشهر!.

نشرت مجلة لانست Lancet مقالة رئيسة فى عام ١٨٦٦[2] عن حديث ألقاه الأسقف الكاردينال دُونّيه من بوردو Bonnet of Bordeaux أمام مجلس الشيوخ الفرنسى. وصف الكاردينال فى حديثه كيف أنه وهو قسيس شاب تعرض للهبوط وهو على المنبر فى كنيسة مزدحمة ذات يوم رطب حار. وأعلن الطبيب وفاته، وتم اتخاذ الإجراءات لجنازته ، وبينما عجز عن رؤية شىء ، فقد استطاع أن يسمع ما كان يقال - وقال الكاردينال أنه سمع صوتا عرفه من عهد الطفولة، أدى إلى الجهد فى إخراج نفسه من الغشية. وقد وقف فى اليوم التالى على نفس المنبر. واستمر الكاردينال فى قوله إنه قام بنفسه بإنقاذ عدة أشخاص كانوا يعتبرون فى عداد الموتى ومهيئين للدفن. من الحالات التى وصفها شابة كانت على وشك التغطية قبل الدفن . واستفاقت الشابة ، وكبرت حتى تصبح أما لعائلة.

هناك سجلات عديدة لجراحين أجروا عمليات قيصرية لنساء كُنَّ يُعتَبرن موتى فى أثناء الولادة على سبيل الخطأ. وكانت مثل هذه العمليات قاتلة دون استثناء فى أثناء

(1) Louis, A., letters sur la certitude des signes de la mort, Paris 1752.
(2) Lancet (1966), 1.295.

الحياة قبل عهد التخدير والجراحة المعقمة والجراحة الحديثة. لكن قانون نوما يومبيليوس Numa Pompilius كان يستدعى العملية القيصرية للنساء عند الموت قبل الولادة. وسُجل عدد من العمليات قبل الأوان. وأجرى الإخصائى الباريسى البارع فى أمراض النساء والولادة بيو Peu[١] عملية قيصرية لسيدة كان من المعتقد أنها ميتة ، وآلى على نفسه ألا يجرى مثل هذه العملية مرة أخرى أبدا.

لم تقتصر الأخطاء فى إعلان الموت على الأطباء عديمى الخبرة. إن فيساليوس Vesalius[٢] مؤسس التشريح الحديث وطبيب الملك شارل الخامس وفيليب الثانى كليهما فى إسبانيا ، قام بإجراء الصفة التشريحية على رجل - كان المفروض أنه ميت - وقد شوهد قلبه ينبض بالإضافة إلى علامات أخرى على الحياة، عندما تم فتح صدره ، ثم اتُّهم فيساليوس بالقتل والفسوق ، وجىء به إلى محكمة التفتيش ، ولم ينقذ حياته سوى تدخل ملك إسبانيا.

فى خلال أوبئة الطاعون والأوبئة التى اجتاحت أوروبا فى أثناء القرنين السابع عشر والثامن عشر ، لا شك فى أن أشخاصا عديدين تم دفنهم قبل الأوان ، نتيجة للرغبة الطبيعية فى التخلص من الأجساد المصابة بالعدوى بأسرع ما يمكن.

يذكر هادوين Hadwen[٣] حالات عديدة مستخلصة من المنشورات الإنجليزية والأمريكية والأوروبية عن إفاقة درامية قبل الدفن الموعود بزمن قصير، وأمثلة مرعبة لا تدع مجالا للشك فى أن أشخاصا دُفنوا أحياء.

إن أولئك الذين أفاقوا جميعا قبل الدفن يبدو أنهم دخلوا فى حالة من الغَشْية trance شبيهة بتلك الحالة لدى الكولونيل تاونسند. كانوا جميعا على وعى بما كان يدور حولهم، لكنهم كانوا عاجزين تماما عن أية حركة.

---

(1) Peu, P., Prax obsretr. 11 C 11.2 .

(2) Paris, H.A. and Fonlanque, J.S.M., Medical Jurisprudence, Phillips, London, 1823.

(3) Hadwen, W.R. Premature Burial, Swan Sonnenschein, London, 1905.

واستمر بعض هذه الحالات أياما عديدة ، وكان من نتيجة انعدام أية علامة على التعفن أن تستمر إجراءات الإفاقة. ولو كان الشخص ميتا ، لأدت إجراءات الإنعاش المُطَبَّقة - من قبيل الاحتفاظ بتدفئة الجسم واستخدام لبخات الخردل مثلا - إلى الإسراع ببداية التعفن- أن هذه الحالات الشبيهة بالغشية - مثل الأبخرة Vapours الشائعة فى القرن التاسع عشر - قد اختفت فيما يبدو فى القرن العشرين. وإذا صدرت اليوم على كل حال شهادة وفاة لشخص فى مثل هذه الحالة الشبيهة بالغشية ، فإن فرصه فى استعادة الحياة تتناقض، لأن الأجساد لا تبقى عادة فى البيت، وإنما تُنقل إلى الثلاجات فى المشارح العامة ، أو كنائس الدفن، حيث تصبح الحالة الشبيهة بالغشية دائمة!.

ويبدو أن بعض أولئك الذين تم دفنهم أحياء - وقد ذكر هادوين أمثلة عديدة لهم - ربما أمكن إنقاذهم لولا الخرافة والإنكار والرسميات . يقرأ الإنسان عن أشخاص يسمعون أصواتا من قبر جديد، وإنكارا ، ثم تنقضى ساعات عديدة من التأخير قبل إتمام الرسميات لاستخراج الجثة. وعندما يفتح الكفن فى النهاية نسمع عن أكفان ملتوية، وجسد مُتكوّم ، مع إصابات جديدة كانت تنزف عادة ، وكل أعراض الاختناق. هل هذه حالات حقيقية ؟

إن الدكتور ت.ك. مارشال T.K. Marshal يعتبر فى بحث إلى الجمعية الطبية الشرعية أن أغلب الحكايات بعيدة من الإقناع ، ويصف كيف أن بعض الشروط (لا كلها)، وهى التى قام على أساسها الدليل على الدفن قبل الأوان، يمكن أن يكون لها تفسير طبيعى؛ من قبيل فعل القوارض والتعفن ونبش المدافن.

يسجل هادوين[1] أنه فى أثناء وباء الكوليرا فى عام ١٨٤٩ عندما مات ١١٩ شخصا فى جلوسستر وحدها Gloucester أن الرجل والمرأة المسئولين عن المنطقة أخبرا محاميا - عملا فى مكتبة فيما بعد - أنهما وضعا المرضى فى أكياس حال

(1) Hadwen, W.R., (Ibid), p 118.

موتهم ، وأحكموا إغلاقها ، حتى يتخلصوا منها بأسرع ما يمكن. ثم عادوا إلى الحياة أحيانا بعد ذلك، وسُمعوا وهم يرفسون فى أكفانهم. ولم يطلق سراحهم قط، حيث اعتبر الرجل وزوجته وهما المسئولان أنهم سوف يموتون على كل حال. وقد اعتبر عدد من الكتاب فى القرن التاسع عشر أن هناك خطرا من الدفن قبل الأوان فى أثناء الأوبئة.

العلامات الطبية للموت :

إن علامات الموت التى عددها السابقون من الأطباء الشرعيين تختلف قليلا عن تلك الموجودة اليوم فى مراجع الطب الشرعى. وهى باختصار: توقف التنفس وضربات القلب، وتغيرات فى العين ، وعدم الاستجابة للمنبهات الكهربية ، والتيبس الرُّمِّى rigor mortis، والاصفرار pallor، وارتشاح فى الأجزاء السفلية Hypostasis، وارتخاء المحابس العضلية sphincters، إن الصعوبات التى كانت موجودة فى الأيام الباكرة فى الإعلان عن الموت لا تزال قائمة، وإن كانت اليوم أيسر فى الغالب بواسطة ازدياد المعرفة والتحسن فى التكنيات. إن الخطأ فى وضع ريشة أمام فتحتى الأنف قد سجلها شكسبير، عندما قام أمير ويلز فى الجزء الثانى من مسرحية هنرى الرابع بخلع تاج أبيه إذ كان يعتقد أنه ميت، وهو يقول هذه الكلمات :

" .... على بوابات أنفاسه

كانت هناك ريشة رقيقة لا تتحرك

هل كان يتنفس ؟ كان ينبغى على تلك الريشة الخفيفة بلا وزن أن تتحرك بالقوة».

يشير شكسبير كذلك فى "الملك لير King Lear" إلى طريقة أخرى معرضة للخطأ عند التأكد من الحياة ، وهى تلك الخاصة بوضع مرآة أمام فتحتى الأنف كدليل على أن كورديليا Cordelia كانت ميتة.

" أعِرْنى مِـرآة ..

إذا كان نفسها يؤدى إلى الضباب أو الأثر على المرآة

فالسبب أنها عندئذ تعيش» (king lear,v.iii263)

منذ بواكير الكتابات الطبية عن الموت ، كان من المعروف أن أمثال هذه الوسائل خطيرة لا يعتمد عليها – وأدى الخوف المرضى من الدفن قبل الأوان إلى أمر البعض فى وصاياهم بالتثبيت من الموت قبل الدفن بإحداث شق بالجراحة incision أو بصب سوائل مغليّة أو استخدام مكواة ساخنة حتى الاحمرار فى لمس الجلد. بل إن البعض طلب قطع رأسه قبل الدفن.

إن بعض الأوائل من الأطباء الشرعيين عَزَوْا أهمية لعلامة معينة على الموت. فقد أكّد الأستاذ لويس[(١)] أهمية التغيرات فى العين : مثل جفاف القرنية، الذى تعقبه فى غضون بضع ساعات ليونة المقلتين . ويعتبر نيستن Nysten أن الموت موجود عندما تفشل العضلات فى الانقباض عند مسها بالتيار الجلفانى galvanic، إذ إن الاستجابة للمنبهات الكهربية يمكن أن تحدث بصورة طبيعية حتى بعد ساعتين تقريبا من حدوث الوفاة. ويعتمد الأستاذ لويس وآخرون كذلك على ظهور التيبس الرمى ، وكتب كتابة مستفيضة عن التفريق بين التيبس الرمى وأحوال أخرى مثل الكزاز (التيتانوس tetanus).

وقد أوصى فُوديريه Fodere[(٢)] بفتحة بين الضلوع على الجانب الأيسر، وإدخال أصبع لجسّ القلب لمعرفة ما إذا كان ينبض.

ويتفق جميع هؤلاء الأطباء الشرعيين على أن العلامة الوحيدة الثابتة على الموت هى بداية التعفن.

(1) Louis, A., op. cit.

(2) Foderé F.E., traité de medicine legale, Paris, 1813, 2nd edition, vol.2, p. 366.

الموت الجسمى والخلوى : Somatic and Cellular Death

أعلن ريان Ryan (١) فى عام ١٨٣٦ رأيا نافذا يصدق اليوم : "إن الأفراد الذين يهلكون بصورة مفاجئة ، نتيجة لأمراض أو جراح معينة، أو حتى قطع الرأس، ليسوا موتى فى الواقع ، ولكنهم فى أحوال لا تتوافق مع استمرار الحياة وحسب" .

يتعرف ريان هنا على الفوارق بين الموت الجسمى وتلاشى الشخصية ، وبين الموت الحقيقى للخلايا التى تصنع الجسم.

هذه هى المشكلة التى تواجه الأطباء اليوم عندما يتناولون مسألة نقل الأعضاء : متى يكون الشخص ، الذى ينقل منه العضو ، فى حالة لا تتوافق مع استمرار الحياة ؟

إن الموت الجسمى هو توقف جميع الوظائف الحيوية مثل نبض القلب والتنفس، ثم يتبعه الموت الخلوى أو الجزيئى molecular or cellular وتستمر خلايا كثيرة فى الجسم فى الحياة فترة من الوقت بعد الموت الجسمى، إذ تستجيب العضلات مثلا للمنبهات الكهربية حتى ساعتين.

إن التيبس الرِّمى المعروف جيدا ، وهو تيبس الجسم بعد الموت.، يرجع إلى عمليات الأيض Metabolism فى الخلايا التى تستمر بعد الموت الجسمى، وفى الإمكان استخراج مجموعات من الخلايا من الجسم بعد الموت ، والاحتفاظ بها حية إلى الأبد أحيانا فى مزرعة الأنسجة tissue culture – ويختلف معدل الوفيات للخلايا فى الأعضاء المختلفة . وكلما زاد تخصص العضو ، تسارع موت الخلايا فى أعقاب الموت الجسمى، وقد أدى عهد الجراحة فى نقل الأعضاء إلى زيادة الأهمية البالغة فى الموت الخلوى.

---

(1) Rayan M., Manual of medical jurisprudence and state medicine, Sherwood, Gilbert Piper, London, 1836, 2nd edition. P. 499.

لقد دعا كثير من الكتاب إلى تأخير الدفن بعد الموت ، نظرا لما يتعرض له تشخيص الموت من الخطأ. فاقترح بروبيه Brubier[1] انقضاء أربعة أيام، أو حتى بداية التعفن. وفي فرنسا ، لا يمكن أن يتم الدفن رسميا حتى انقضاء ٢٤ ساعة على إصدار شهادة الوفاة. وتصر التعليمات في بعض الأماكن في أوروبا على إبقاء الأجساد في المشرحة، تحت إدارة مفتش المقبرة الذى يكون على نصيب من المعرفة الطبية ، حتى تظهر العلامات التى لا شك فيها على التعفن. وكانت هناك غرفة ملحقة لإنعاش أولئك الذين كانوا موتى فى الظاهر فقط.

كان الخوف من الدفن قبل الأوان شائعا فى فرنسا بصورة خاصة فى القرن التاسع عشر. وقد أُجريت الأبحاث على علامات الموت فى الأكاديميات المختلفة، وقُدمت الجوائز للأبحاث على الموضوع. تلقى الدكتور إ. بوشيه E. Bouchet[2] جائزة مانى Manni وقدرها ألف وخمسمائة فرنك في عام ١٨٤٦ لاكتشافه علامة معينة على الموت. واعتمد بوشيه على السمع. وقد بين بصورة نهائية أن نبض القلب لا يتوقف فى أي وقت ، وإنما تقل سرعته وقوته فقط، فى حالات الموت الظاهرى، حتى لو ظهر التوقف الكامل للوظائف الحيوية، ويشمل برودة الجسم.

تم منح جائزة دوسجيت Dusgate التى تعطى كل خمس سنين وقيمتها ٢٥٠٠ فرنك للدكتور ميز Maze الذى اعتبر – مثل ما فعل الآخرون من قبل – أن التعفن هو العلامة الأكيدة الوحيدة على الموت ، وأوصى بإعداد مشارح فى المقابر، حيث يمكن حفظ الأجساد حتى يبدأ التعفن . ثم قُدمت جائزتان فيما بعد للدكتور إيكار Ecard، الذى أوصى بحقن صبغة فى الدورة الدموية. فإذا كانت الحياة موجودة تلّوّن الجسم كله فى بضع دقائق. كانت هناك توصيات عديدة أخرى باختبارات مبتكرة، مثل غرس إبرة فى القلب لملاحظة الحركة، أو تسليط البخار أو الحرارة على الجلد ، وإمرار تيار جلفانى.

---

(1) Brubie - d'Ablaincourt, J.J., Mémoire sur la necessité d'un reglement au sujet des enterrements et des embauments, et project de reglement, Paris, 1746.

(2) Bouchet, E., m traite des signes de la mort et des moyens de prévenir les enterrements preciptés, Paris, 1849.

إن الاهتمام البالغ بوسائل التمييز بين الموت الحقيقى والظاهرى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، يؤكده المرجع الذى ألفه جانال Gannal[1] فى الموضوع، ونشر فى عام ١٨٩٠ . وتحتوى مراجعه على ما لا يقل عن ٤١٨ مرجعا.

الشروط الحديثة للموت :

يكفى هذا عن تاريخ البحث عن علامة يعتمد عليها فى الموت. ماذا عن العهد الراهن ؟ هل يستطيع المرء بكل معارفنا المكتسبة أن يقدم الشرط الطبى للموت فى صورة موجزة ؟

تمت دراسة هذا الموضوع فى أبحاث عديدة فى أثناء السنوات القليلة الماضية فى مختلف الاجتماعات الدولية والعلمية الأخرى. وليس هناك إجماع حتى الآن، حيث إن الموت ليس عملية فورية ، وقد تكون مراحله الأولية قابلة للتراجع أحيانا. إن إنسانا قد يهبط مثلا من جراء نوبة قلبية . وهو يبدو ميتا. إذ ليست هناك حركات للتنفس ، ولا نبضات للقلب. وإذا وقعت هذه النوبة فى المستشفى، حيث تكون الوسائل الحديثة للإنعاش متاحة على الفور، ففى الإمكان أن يستعيد قلبه النبض، وأن يستعيد الرجل حياته بالمعنى الحرفى. وربما كان الموت دائما من دون هذه العمليات ، التى كانت غير معروفة منذ بضع سنين.

هل يمكن أن يكون المرء حيا وميتا فى الوقت نفسه ؟

إن كتاب الإحصاءات الحيوية للأمم المتحدة يُعرِّف الموت بأنه الاختفاء الدائم لكل علامة على الحياة. ويعتبر الدكتور فُوَا voigt[2] أن هذا التعريف ليس شاملا بصورة كافية، ويجب تعديله على النحو التالى : "يحدث الموت عندما تتوقف إلى الأبد كل وظيفة

(1) Gannal, F., Mort Apparente et mort réelle, Muzard et Fils, Paris, 1890.
(2) Voiget., J., (1967), world med. J., 14; 144.

حيوية تلقائية". ولكن ، ماذا لو طبقنا هذا التعريف على رجل قطعت رأسه، أو علق فى المشنقة؟ فقد تستمر الوظائف الحيوية التلقائية بضع دقائق بعد قطع الرأس ، أو الشنق القانونى.

إن الشروط الطبية للموت اليوم ذات أهمية لا يحلم بها الأطباء الأوائل، الذين كان همهم الرئيسى منع الدفن قبل الأوان. ولو تأخر الدفن حسب القانون فى بعض البلاد الأوروبية على مدى فترة محدودة من الزمن بعد إصدار شهادة الوفاة، لاستحال الدفن قبل الأوان فيما يبدو، كما استحال تماما أن يتأخر الدفن حتى بداية عمليات التعفن.

نقل الأعضاء وإطالة الحياة بصورة صناعية:

إن اللحظة المحددة للموت اليوم ذات أهمية بالغة ، فى عصر نقل الأعضاء من أجساد الموتى إلى الأحياء ، حيث تتحسن الفرصة فى حياة العضو المزروع كلما تم الإسراع فى استئصال الأعضاء من الجثة بعد الموت الجسمى. إن المتبرعين بأعضائهم هم فى العادة شباب يموتون نتيجة لبعض الحوادث الخطيرة. وغالبا ما تُستَبْقَى حياتهم بواسطة الأجهزة الصناعية التى تقوم بوظائف قلوبهم ورئاتهم ، وإذا توقفت الأجهزة، فلن يكون لديهم حركات تلقائية للقلب أو التنفس . إن هذه البدائل الميكانيكية للوظائف الحيوية تُستخدم فى المحل الأول فى الأحوال الطبيعية إذ كان فى الاعتبار أنها قد تساند المريض فترة حتى تستطيع المراكز الحيوية استعادة وظائفها بطريقة تلقائية. وعلى الطبيب أن يقرر مدى المنفعة من هذه الوسائل الصناعية المساعدة ، أى متى تتعرض مراكز المخ التى تتحكم فى وظائف الجسم الحيوية للتلف الدائم دون رجعة. هل يكون من الصواب أن يقوم الطبيب المسئول عن الحالة باستبقاء الحياة الجسمية الصناعية حتى يمكن استئصال العضو من أجل الأهداف فى نقل الأعضاء ، بينما تظل الدورة الدموية تحمل الدم المزوّد بالأكسجين.

يشير الأستاذ سيمبسون[1] إلى مسألة طبية قانونية مهمة ، تنشأ من استبقاء الحياة صناعيا. تصور إنسانا - يقلق على ضرائب تركاته بعد الموت - ويرغب فى تقديم إهداء، ثم يحدث فى غضون بضعة أيام قبل انتهاء المدة المحددة أن يتعرض لحادث يؤدى إلى تلف مراكزه الحيوية بلا رجعة ، بحيث لا تستطيع أن تستعيد وظيفتها أبدا بطريقة تلقائية. هل ينبغى على الطبيب أن يحاول استبقاء الحياة الجسمية صناعيا حتى الوصول إلى المدة المحدودة ، أو يتعرض للدعوى القضائية من الورثة إذ امتنع عن ذلك ؟ ويستطيع الإنسان أن يرى مثل هذه الحالة تنتهى إلى تعريف الموت بالمعنى القانونى.

إن بقاء الحياة الطبيعية يعتمد على كفاءة ذلك الجزء الذى يتحكم فى الوظائف الحيوية فى الجهاز العصبى المركزى ، وعلى كفاءة الأعضاء الحيوية نفسها. وإذا فشل واحد منها فشلت جميعا . وحتى عهد قريب نسبيا، كانت الشهادة بحقيقة الموت قائمة على توقف ضربات القلب ، أو "موت القلب". أما اليوم ، مع تقدمنا فى المعرفة، وظهور جهاز رسم المخ الكهربى (electroencphalo gram (E.E.G) فلدينا الآن "موت المخ" أيضا. فى الأحوال الطبيعية، يسبق "موت القلب" " موت المخ" ، لكن التكنيات الحديثة فى الإنعاش تؤدى إلى موت المخ قبل موت القلب.

كان من المعروف من زمن طويل أن خلايا معينة فى المخ ، وهى التى تخصصت حديثا فى الوظيفة ، إذا حُرمت تماما من الأكسجين أكثر من بضع ثوان فإنها تموت ولا يمكن أبدا أن تستعيد وظيفتها ، حيث إنه لا يوجد تجديد فى أنسجة المخ. أما الأجزاء الأكثر بدائية فى المخ، وهى تلك التى تتحكم فى الوظائف الحيوية، فهى تتحمل صدمات أعظم كثيرا، ولذلك قد يفقد الإنسان تحت ظروف معينة شخصيته ، وهى الجزء من المخ الذى يتناول التفكير والحركة الإرادية، ومع ذلك يعيش كالنبات vegetable،

(1) Simpson K., (1967), Guys hosp. Gaz., 81; 605.

لأن المراكز الحيوية سليمة. وربما استنتج الإنسان أن رسم المخ الكهربى لو كان خطًا ، أى أن وظيفة المخ غائبة تماما طوال خمس دقائق ، فقد انتهت الحياة. والواقع أن بعض البيولوجيين(١) يتفقون على أن دقيقة واحدة دليل على الموت لا ينكر. وهذا مقبول فى الحالة الطبيعية ولكن هناك استثناءات ، كما هى الحال فى العلامات الأخرى على الموت الجسمى. وقد نشر الأستاذ هامبورجر Hamburger (٢) عودة استفاقة كاملة بعد رسم خط مستقيم طوال ساعات عديدة من رسم المخ الكهربى فى مريضين بالتسمم الشديد من الباربتيورات barbiturates. وعند الوصول إلى درجات منخفضة من الحرارة بواسطة التكنيات الحديثة المستخدمة فى جراحة القلب الحديثة ، فإن احتياجات المخ من الأكسجين تقل إلى حد كبير ، وفى الإمكان الإبقاء على دورة الدم المزود بالأكسجين بواسطة جهاز القلب والرئتين Heart- Lung machine، على الرغم من توقف الدورة الدموية والقلب عن العمل بطريقة تلقائية ، نتيجة لانخفاض درجة حرارة الجسم إلى مستوى لا يناسب الحياة. إن المريض ميت حسب التعريفات القديمة ، ولكنه فى الحقيقة فى حالة سُبات أو توقف للنشاط. إن تسجيلات رسم المخ الكهربى ورسم القلب الكهربى جميعا تبين أنه لا المخ ولا القلب يعمل، ولكن عندما يعاد تدفئة الجسم من جديد عند نهاية العملية ، فإن الوظائف الحيوية تبدأ فى العمل تلقائيا ، وتستعاد الوظيفة الطبيعية.

كذلك الإنسان الذى يعانى من توقف ضربات القلب نتيجة لإصابة حادة، مثل جلطة فى القلب، فهو ميت حسب الشروط القديمة ، ومصاب بموت القلب cardiac death . إن لحظة الموت المخى لم تحن بعد على كل حال، وإذا أمكن استعادة ضربات القلب بالوسائل الصناعية قبل بداية الموت المخى ، فقد يستعيد المريض حياته تماما.

(1) Ethics in Medical progress, Ciba Foundation Symposium Churchill, London, 1966, p. 68.

(2) Ibid, 69.

ويبدو من المعقول تحت ظروف معينة أن تستخدم الوسائل الصناعية المساعدة لاستبقاء وظيفة حيوية زمنًا طويلاً أو بغير نهاية. إن المريض المصاب بشلل تام فى الأعصاب التى تتحكم فى التنفس بعد شلل الأطفال مثلا قد يعيش سنوات طويلة فى جهاز صناعى للتنفس. كما أن المريض بأنواع معينة من أمراض القلب قد يعيش زمنا أطول كثيرا إذا أُدخل فى صدره منظم صناعى لضربات القلب artificial pacemaker يتولى التحكم فيها. هناك مكنات متاحة لتنهض بعمل الكلى ، ويمكن إطالة الحياة ، وكانت مستحيلة من دون ذلك . وسوف يموت المريض فى جميع هذه الأمثلة حالما تستبعد هذه الوسائل المساعدة. وتختلف هذه الحالات عن تلك التى وصفناها فيما سبق ، من حيث إن المرضى لا يزالون يحتفظون بشخصياتهم . إن المراكز العليا فى المخ سليمة ، على الرغم من تدخل المرض فى تحكم المخ فى وظائف حيوية معينة ، أو فى وظائف أعضاء حيوية معينة. ويكون الإنسان حيا بكل اعتبار آخر ، على شرط أن يتم استبقاء هذه الوظائف بطريقة صناعية.

يعتبر الدكتور فوا voigt[1] أن وظيفة المخ إذا توقفت فى حالة معينة، وكذلك توقفت الدورة الدموية وحركات التنفس التلقائية فقد تحقق تعريف الموت فى سجل الإحصاءات الحيوية للأمم المتحدة. ولا يستطيع أحد إنكار هذا القرار. إنما تنشأ اختلافات الرأى حول التشخيص فقط.

وقد قرر الدكتور هنرى بيتشر Henry Beecher[2] فى جامعة هارفارد منذ عهد قريب أن توقف ضربات القلب ليس قرينا لبداية الموت ، ولكن هناك الآن ثلاثة تعريفات منافسة :

١- اللحظة التى يحدث فيها التلف فى مادة المخ ، عندما يتم التحقق بصورة نهائية من انعدام الفرصة فى استعادة الوعى consciousness.

(1) Voigt, J., (1967), world med., J., 14: 145.
(2) Beecher, H., The Times, December 12th 1967.

٢ – اللحظة التى لا يمكن فيها استعادة ضربات القلب التلقائية.

٣– "موت المخ" كما يقرره رسّام المخ الكهربى.

ويمضى الدكتور بيتشر ليقول إن أى تحديد حديث للموت سيصبح فى هذا الوقت مستحيلا من الناحية القانونية ، مهما كان يبدو معقولا من الناحية اللاهوتية والعلمية.

الخلاصة :

لم تتغير الشروط الطبية للموت بصفة جذرية منذ بواكير الأيام ، فيما عدا مفهوم الموت الدماغى أو موت المخ. ويمكن للأجهزة الحديثة مثل رسام المخ الكهربى ورسام القلب الكهربى – عند إتاحتها – أن تُمكِّن الطبيب من تطبيق اختبارات أكفأ متعمقة فى البحث. والإنسان – فى الأحوال العادية – يعتبر اليوم ميتا كما كان منذ ألف سنة مضت ، إذا توقف قلبه عن النبض خمس دقائق. وإنما تنشأ الاستثناءات لشرط أو عدة شروط من الشروط المقبولة للموت ، عندما يتعرض المريض لبيئة غير طبيعية ، أو يكون فى حالة غير طبيعية نتيجة للعقاقير أو المرض أو العلاج . ويجب على الطبيب الذى يصدر شهادة الوفاة أن يكون فى غاية الحذر، ويستبعد أى احتمال بعيد لعامل خارجى يؤدى إلى حالة من توقف النشاط الحيوى. وقد ذكرت مجلة لانست Lancet[1] فى تعليق لها على دفن حالات المرضى بالكوليرا أحياء فى عام ١٨٨٤: " لا يتعلق الأمر بالعجلة التى لا مبرر لها بقدر ما يتعلق بالإهمال الذى لا مبرر له والذى يجب توجيه اللوم إليه، من أجل الدفن قبل الأوان لأشخاص ما كانوا فى الحقيقة موتى". إن الأخطاء القليلة فى شهادات الوفاة التى تحدث اليوم ، كما حدثت فى الماضى ، ترجع إلى الإهمال والجهل.

(27) Lancet (1884), 2; 329.

الفصل الثانى

مفاهيم فلسفية عن الموت

نينيان سمارت Ninian Smart

لا يجذب الموت في السنوات القريبة اهتماما كبيرا عند الفلاسفة وهناك استثناءات ، فقد كتب هيدجر Heidegger[1] مثلا كتابات مستفيضة عن فكرة الموت، وإن كانت غامضة. وقد حدث أن أثرت الوجودية existentialism تأثيرا بالغا إلى حد ما على اللاهوت المسيحى ، واللاهوت البروتستانتى بصفة خاصة، بحيث استمرت اهتمامات هيدجر مع المحاولة فى صياغة عقيدة مسيحية معاصرة. لكن الوجودية لا تمثل سوى جانب من الفلسفة الحديثة. وهناك فى الغرب أسلوب مختلف جدا من التفلسف يغلب على الفلاسفة المتحدثين بالإنجليزية، وهو أسلوب معروف بصفة عامة بالتحليل اللغوى Linguistic analysis، ويرجع الفضل الكبير فيه إلى أعمال فيتجينشتاين Wittgenstein، كما يرجع بعضه إلى أبحاث الواقعية الحديثة modern empiricism (كما فسرها أ.ج. آير A.J.Ayer مثلا) ويرجع بعض الجهد إلى الأبحاث اللغوية التى قام بها ج.ل. أوستن. ومن دواعى البلبلة التى نعترف بها أن فروعا مختلفة من الفلسفة ، لا تتوافق أحيانا فيما بينها فى الواقع ، يميل الاتجاه إلى تقسيمها على أنها تحليل لغوى ، لكن هناك تقليدا عاما معينا فى الفلسفة الإنجليزية من هذا النوع بعد الحرب ، وسألتزم بالعنوان من أجل ذلك.

(١) هيدجر (١٨٨٩-١٩٧٦) فيلسوف وجودى ألمانى يميل إلى التشاؤم. المترجم

لقد كان هناك بين أصحاب التحليل اللغوى مزيد من الاهتمام بدوام الموت أكثر من مفهوم الموت نفسه . وامتزج الشك في عظمة الميتافيزيقا القديمة مع سهولة نقد الدين ، وما يشمله من العقائد التقليدية فى الحياة الآخرة . وكان هناك اتجاهان رئيسان فى هدم هذه العقائد ، عند اعتبارها من الناحية الحرفية على الأقل. يكمن أحد الاتجاهين فى كيفية تأكيد مثل هذه العقائد أو إنكارها ، وما هو الدليل الممكن على الحياة فى عالم آخر ؟ وإذا لم يكن هناك دليل على أى الجانبين، فإن العقيدة تكون فارغة أو بلا معنى. إن الدعاوى المفهومة عن الواقع تُصمد أمام الهجوم إن صح التعبير، وتتعرض للتهديد بطلب الدليل، ولكن الدعوى بوجود خفىّ بعد القبر ، وفى عالم آخر، هو من قبيل الممانعة فى وجود دليل مضاد إلى الأبد. وإن نقد الحياة بعد الموت تطبيق لفكرة عن معنى اللغة، تُستخدم لإفراغ معنى الإيمان بالله. وأوضح تمثيل لهذا الموقف موجود فى كتاب أيرْ الشهير "اللغة والصدق والمنطق Language, Truth and Logic"[1] (لكن الذى حدث أن أغلب الفلاسفة هجروا شرط المعنى الذى استخدمه ، وإن ظلت قوة الفكرة العامة فى كيفية تحقيق الدعاوى الدينية).

أما الاتجاه الثانى في مواجهة صعوبات الإيمان بالحياة الآخرة فهو يتعلق بفكرة الهوية الشخصية . والمسألة هنا لا تتعلق كثيراً بالصلة المفروضة بين المخ والوعى (بحيث يبدو من الناحية الواقعية أنه لا يمكن أن يوجد وعى بعد تلف معين بغير رجعة فى خلايا المخ) ، وإنما تتعلق بمعنى الحديث عن وجود بغير جسم. إن الطريقة التى يمكن بها التعرف علىّ هى- بناء على ذلك - من خلال جسمى، ويتعلق مفهومنا الطبيعى عن الهوية الشخصية باستمرار العلاقة المكانية الزمانية. ألا يتهدم مفهومنا عن الهوية عندما نحاول التفكير فى وجود بغير جسم فى مجال آخر يفترض أنه الفرد نفسه الذى يستمر هناك كما عاش هنا على الأرض؟

(1) Ayer, A. J. Language, Truth and Logic, Gollancz, 1946.

إن المبادئ التى نطبقها على الأفراد – فضلا عن ذلك – تستلزم الإشارة إلى الجانب المادى فى الصورة المعهودة، وعندما أقول إن فلانا يرى أرنبا بريا فى الجانب المقابل من المزرعة، فإنى أشير ضمنا إلى عينيه ، وحين أقول إنه مبتهج فإنى أشير ضمنا إلى صورة معينة من السلوك البدنى ، مثل الابتسام ، وعندما أقول إنه يكتب كتابا فإنى أشير ضمنا إلى تسجيل أشياء على الورق، أو الإملاء، أو التواصل بطريقة ما من خلال وسائل مادية. من أجل ذلك ، كان طبيعيا أن ننظر إلى مفهوم الشخص باعتباره يتناول وجودا مُجسَّداً ، وهناك عندئذ تعارض فى مفهوم الوجود الشخصى دون تجسيد فى عالم آخر . بل إن هناك فى الواقع صعوبات فى معرفة المفهوم من وجود الأشباح فى هذه الدنيا. وتثير مقالة شهيرة جدا كتبها أنتونى فلو Anthony Flew – على سبيل المثال – صعوبات حول المعقولية عند تصور احتمال رؤية الفرد لجنازته الخاصة. وهو يناقش القدرة على تخيل مثل هذا الحدث فى مقالة بعنوان : "هل يمكن أن يرى الإنسان جنازته الخاصة؟"(١). كما كتب جون ويزدم John Wisdom" إنى أعرف فى الواقع كيف يمكن أن تكون الحال عند مشاهدة جنازتي: أتصور الرجال ذوى قبعات حريرية طويلة ، والأزهار، والوجه أسفل الغطاء الزجاجى لصندوق الكفن"(٢). يريد فلو أن يتحدى هذا. ويبين أن مثل هذه الفكرة تتعارض بصورة جذرية مع مفهومنا العادى عن الشخص. وهو يجادل بأن تصور جنازتى يختلف تماما عما يبدو لى وكأنى أشاهد جنازتى الخاصة. إن تقديم فكرة الشخص بغير تجسّد – فضلا عن ذلك – يغير مفهومنا عن الشخص كما نفهمه فى الأحوال العادية ، ولا يوضح كيف يمكن وجود الشخص بغير تجسّد. والأشخاص هم منْ تقابل : "إننا لا نقابل مجرد حاويات عضلية تحفظ الآخرين من الناس..".

(1) Hibbert journal, vol. 54, p. 243 ff.

(2) Other Minds 1952, p. 36.

ويمكن أن نضع هذه الأسئلة فى صورة أخرى – تصور أن كل واحد منا يملك روحا خالداً ، ويمكن أن تكون وظيفته شيئا باقيا يسرى فى هذه الحياة الدنيا وفى الحياة الآخرة كلتيهما . فإذا انعزل هذا الروح عن جميع تلك الجوانب من الحياة الشخصية – التى تشير بالضرورة إلى الأنشطة الجسمية .. إلى آخره – فإن "حياتى" تصبح فى الحياة التالية إذن ضعيفة جدا ، وتترك جانبا كثيرا جدا مما يصنع شخصيتى الفردية ، حتى يصبح من المشكوك فيه أن يزداد الحديث أكثر من ذلك عن "ذاتى".

ولكن على الرغم من الأهمية فى مثل هذه الأسئلة عن القدرة على فهم الحياة الأخرى أو معناها ، فإنها لا تتعلق مباشرة بمفهوم الموت نفسه. ها هنا اهتمام نادر حتى الآن لتوضيح المقصود. ومن الحق أنه ظل هناك اهتمام ضرورى على المستوى العملى "بتعريف" الموت من الناحية القانونية والأخلاقية ، ذلك بأن من الأهمية الحيوية عند الأطباء تحديد الظروف التى لا يكون أحد أعمالهم فيها وسيلة لإزهاق الحياة. ويبقى من النافع على كل حال أن نتناول فكرة الموت من زاوية فلسفية ، وأن نُحلّل معناه. وسأحاول هنا القيام بهذا العمل ، قبل التقدم فى اعتبار بعض الأفكار الوجودية الرئيسة وما يتعلق بها من الأفكار اللاهوتية.

الموت Death باعتباره متميزا عن الاحتضار Dying :

المسألة الأولى التى نلاحظها هى أن من المعقول اعتبار الموت حدثا، غير أن الاحتضار غير ذلك – نقول – على سبيل المثال – إن شخصا مات ببطء. ولعله مات فى ألم. ولكن إذا مات أحد بسرعة أو ببطء، فإن الاحتضار عملية أكثر من كونها حدثا – هذه النتيجة مبالغة فى التبسيط كما سنرى ، وإن كان معناها مهما . إن بعض التفسير فى سبب معاملة اللغة للاحتضار باعتباره عملية يمكن أن نَسْتشفّه من أن فعل يموت "to die" فعل ناشط Active. ولا يعنى هذا أن الفرد يكون ناشطا فى موته بالطريقة

العادية ، ولكنه يفيد أن مصدر الموت موجود في الفرد على نحو ما بدلا من الوجود فى خارجه ها هنا مكان الفارق بين الاحتضار وتعرض الفرد للقتل. ويمكن أن يُقَتل الفرد بواسطة البرق أو القاتل أو السيارة، ومن المجاز أن نتحدث عن قتله بواسطة ورم أو حزن. فى بناء اللغة إذن ، تمييز بين ما يكون فى "داخل" الفرد ، وما يكون فى "خارجه". وينطبق الاحتضار على الفرد نفسه كأنه عملية فى الواقع تنشأ فى داخله.

لا يعنى هذا أن يكون السبب النهائى كامنا فى داخله. والمسألة أننا ننظر إلى الأحداث والعمليات فى أثناء وجود الفرد من منظور يتحول باستمرار. يتعرض رجل لجراح قاتلة من رجل آخر ، وينقل إلى المستشفى . ونستطيع أن نقول إنه يحتضر بصورة واضحة ، من الموقف الذى حدث بعد إطلاق الرصاص. يعنى أنه كان فى حالة مَنْ سوف يموت ، إلاّ إذا حدث تدخل رائع فى العملية التى كانت ستحدث، ويمكن أن نقول حقا عندما يموت إن سبب موته كان تعرضه لإطلاق الرصاص عليه ، ونحن هنا نعود إلى منظور أسبق ، ونفسر وجوده فى حالة أدت إلى وفاته.

فى هذه الفوارق ، نعتمد على إحساس مبدئى بما هو عادى طبيعى متوقع . ما كان له أن يموت لولا إطلاق الرصاص. كان هذا حدثا تدخل فى استمرار حياة الرجل المتوقعة. وهذا هو السبب فى تمييزه سببا لموته. وقد يبدو من زاوية النظر عندما تكون أعمق وأشمل أن يرجع السبب فى موته إلى حالته العامة وبيئته الكلية، لكنا فى الحقيقة – لأسباب عملية وأسباب أخرى– نهتم بالتدخلات المهمة فيما يكون متوقعا بصورة عادية، لولا ذلك.

يأتى هذا فى مفهوم عملية الاحتضار– وحين نقول عن إنسان إنه يحتضر فنحن لا نعنى أنه سيموت مطلقا. "ألا ترى أن الرجل يحتضر؟ بالله عليك، اعمل شيئا فى الموضوع!" مثل هذا الأمر لا يخلو من الاتساق، وليس فيه تناقض. وقد يكون الرجل فى كلامنا يحتضر حقا ، لكن يبقى هناك إمكانات من التدخل بصورة درامية، وإنقاذه من براثن الموت الوشيك. وليس من المدهش أن يكون مفهوم الاحتضار فى اللغة العادية

عسير التطبيق بصورة متزايدة فى مواقف المستشفيات، حيث تتضاعف إلى حد هائل مصادر التدخل الدرامي في التتابع العادى لمراحل المرض.

يجب ملاحظة أن الفكرة فيما يمكن أن نتوقعه فى الأحوال الطبيعية ، عند اعتبار حالة الشخص الراهنة، لا تتعارض مع خطأ الإنسان في قوله : إن الشخص يحتضر. إذ ليس الاحتضار مسألة أعراض، لكنه الوجود حقا فى عملية الاحتضار . وربما توقع الإنسان في الأحوال الطبيعية من أعراض معينة أن حالة الشخص توحى بأنه سيموت ، ولكن الأعراض قد تكون خادعة إلى حد كبير ، ولعل الرجل لا يكون حقا فى حالة احتضار على الإطلاق. والذى يعنينا فى القول بأن إنسانا يحتضر هو حالته الحقيقية، التي تظهر في الموت فى الأحوال العادية، ولا تعنينا الأعراض والدلائل الأخرى ، التى تجعلنا نتصور وجوده في تلك الحالة الحقيقية ؛ إذ إننا نتحدث عن حالته ، لا عن الدليل الذى يدعونا إلى الحديث عن حالته بهذا الأسلوب.

إذا كان الاحتضار عملية على نحو من الأنحاء ، ما هو مداه ؟ ولو كان الإنسان مصابا بإصابة بليغة ، فيمكن أن يقال عنه إنه يحتضر الآن، وقد يموت فى غضون دقيقة أو اثنتين . ويجوز أن تستمر العملية زمنا وجيزا جدا ، لكن الاحتضار فى أحوال عديدة يستعرض بالطبع زمنا طويلا . أما إذا صحّ تحليلنا الراهن فقد يكون من التناقض والكلام الخطابى أن نقول عن طفل فى الخامسة إنه يحتضر باعتباره سوف يموت بسبب أو آخر عاجلا أو آجلا .

إن الموت محتوم حقا ، ولكن علينا قبل أن نستطيع القول بأن إنسانا يحتضر أن تكون لدينا فكرة عن حالة أو أحوال محددة يحتضر بسببها. وقد نعرف حقا فى بعض الأحيان أن إنسانا يحتضر ، لكنا نعجز عن تحديد الحالة التى أحدثت هذا الموقف. ونحن مع ذلك نعتقد بالتأكيد أن هناك مرضا معينا (أو عددا من الأمراض) هو المسئول . من المعروف على كل حال في الظروف العادية ، أن إنسانا يحتضر وأن سببا معينا يسبب احتضاره كذلك.

يظهر هذا فى الطريقة التى ننظر بها إلى الموت بسبب الشيخوخة. ومن المؤكد أننا نقول في الغالب إن إنسانًا مات بالشيخوخة ، ولكن هناك شيئا يبعث على عدم الرضا إلى حد كبير عن تشخيص يقال فيه: "إنه يحتضر" ، "وما هو السبب؟" : "الشيخوخة وحسب" . والأدعى أن نتوقع أمراضا معينة فيما يتعلق بالشيخوخة، إذ يبدأ القلب فى الهرم مثلا. ونستطيع بالتأكيد أن نقول إن إنسانا عجوزًا يحتضر بسبب حالة معينة مثل هذه.

من أجل ذلك ، قد تكون عملية الاحتضار عملية طويلة. ولكنها من ناحية المفهوم لا ترتبط فحسب بالتوقع العادى لما سوف يحدث، باعتبار حالة الشخص الراهنة، وإنما ترتبط بتلك الحالة المعينة بصورة خاصة. ويكون الاحتضار- على هذا المعنى - بسبب ما.

لكن الاحتضار إذا كان عملية، فإن الموت حدث. وقد نسأل عن العملية "كم من الزمن استغرق احتضاره ؟"، أما الحدث فقد نسأل عنه "ومتى مات؟"، ويمكن تحديد هذا الحدث الأخير بالدقيقة والثانية من ناحية المبدأ. (ومن الصدق أن بعض شروط الموت ذات تطبيقات غامضة نوعا ما أو حتى متناقضة، فقد تظل وظيفة المخ حتى لو توقف القلب ... إلى آخره[1]، ولكننا لا نشك فى موت الملك شارل الأول قريبا جدا من اللحظة التى قطع فيها الجلاد رأسه بالمفصلة). والتمييز بين عملية الاحتضار وحدث الموت تؤكده الحقيقة في موت الإنسان حتى لو لم يكن يحتضر حقا في السابق ، لكنه قد يواجه الموت الفورى تحت عجلات السيارة. كما يمكن أن يموت الإنسان بسبب بعض الأحوال الباطنة أيضا، دون أن يحتضر حقا. إن الرجل السليم الذى يحفظ نتفا من الشظايا باقية فى جسمه ، قد تصيبه كارثة الحظ السيئ إذ تدخل نتفة فى قلبه بواسطة تيار الدم. ونحن لا نقول إنه كان يحتضر طوال هذه السنين منذ أيام

(١) انظر الفصل الأول : التعريف الطبى للموت.

نورماندى. وقد ينفجر وعاء دموى فى مكان حرج نتيجة للعطاس مرة أخرى فيسقط ميتا ، ولكننا لا نستطيع القول بأنه كان يحتضر.

حدثت مثل هذه الحالات من الموت حسب أغلب المألوف فى حالات الموت المفاجئ ، حين كان الإنسان لا يحتضر ، من جراء أسباب باطنة أو خارجية ، ويمكن فى حالة الموت المفاجئ أن يحدث بالإضافة إلى عملية الاحتضار، لكن هذا هو الموت المفاجئ بواسطة الحوادث ، مثل موت الذى يحتضر من السرطان فى صدمة سيارة ، فهذا موت مفاجئ ، لكنه من جراء الحادث على اعتبار أن سبب الموت لا يرجع إلى ما كان يحتضر الإنسان بسببه.

العواطف المجربة عند مواجهة الموت:

يتعلق الموت المفاجئ بغياب الإنسان عن الوعى ، أو بالوعى فترة وجيزة فقط بمناسبة الموت وطبيعته ، ويذكرنا هذا بالمزيد من التمييز الواجب، أى بالموت على وعى به والموت بغير مثل هذا الوعى . عندما يقع الموت الفورى ، قد يكون هناك – كما ذكرنا من قريب – بعض الوعى المتقلب. لكن من العسير أن يكفى هذا كى يسمح لنا بوصف الموت بأمثال أحوال الشجاعة أو الوقار أو الابتهاج أو الخوف أو الرحمة وهكذا . إن هذه الأحوال تظهر مواقف أولئك الذين يموتون وهم على معرفة بموتهم أو بأنهم على وشك الموت[١].

دعونا قبل بحث هذه المواقف نلاحظ فى إيجاز أن الاحتضار والوجود على شفا الموت مفهومان مختلفان. وإذا كنتُ محكوما علىّ بالشنق فى مدى خمس ساعات، ففى الإمكان أن يقال إننى على شفا الموت ، لكن من الخطأ أن يقال إننى أحتضر

(١) انظر الفصل التالى : "الاحتضار والطبيب" ، فيما يتعلق بمناقشة الشئون العملية فى مواجهة الموت.

(إلاّ بحادثة مرة أخرى، فقد أحتضر من السرطان ، لكنى محكوم علىّ بالموت شنقا) . لكن الوجود على شفا الموت والاحتضار كثيرا ما يصاحبهما معرفة بأن هذا الأمر كذلك ، وهما يبعثان من أجل هذا عواطف واستجابات متشابهة.

إن إظهار الشجاعة أو الخوف فى الاحتضار أو على شفا الموت بحيث يمكن أن يقول الواحد: "مات موتا بطوليا" ، أو "مات موت الجبان" ، فإن الشجاعة الشخصية وغيرها يجب أن تتعلق بموته أو طريقة موته. تصور إنسانا وهو مريض مرض الموت يستلقى فى أثناء غارة جوية ، وقد يواجه موته شخصيا ومعاناته فى سكينة ، ومع ذلك ربما امتلأ بالخوف والرعدة عند الانفجارات. هل يكون من الصواب هنا أن نقول إنه لم يمت بشجاعة على معنى معين؟ لعلنا نتردد فى الإجابة ، حيث إن هناك شعورا بأن الاحتضار يتعلق بالإنسان كله على حد قولنا ، وإنّ نقص الشجاعة فى أحد الجوانب لا يسمح لنا بالتسليم بالشجاعة فى الاحتضار. وقد نتحفظ ونقول: "نهاية شجاعة ، ولكن ... " مثل الإشارة إلى السعادة (فهى فى أهم معانيها ترجع إلى الإنسان "كله") : وإذا قلت إن صديقا لى سعيد، وإن كان زواجه غير سعيد ، فإنى أميل إلى الاستدراك بقولى "بصفة أساسية" قبل ذكر كلمة "سعيد" . وتبقى المسألة على الرغم من ذلك، وهى أن الموت الشجاع هو الموت الذى تظهر فيه الشجاعة على علاقة بوعى الإنسان بأنه يحتضر ، وربما كان يشعر بالألم. وليس فى الإمكان بناء على ذلك أن نتحدث عن شجاعة إنسان فى عملية الاحتضار – (بمعنى الاحتضار بشجاعة) حيث لا يكون هناك وعى باحتضاره.

تتعلق الصفات إذن بمواجهة الموت وعملية الاحتضار. إن مفهوم عملية الاحتضار على وعى بها من الناحية العملية فى غاية الأهمية ، ذلك بأن من العسير التهيؤ لمواجهة نهاية مفاجئة ، إلا كما يتهيأ الإنسان للمواقف الخطيرة عندما تكون النهاية المفاجئة محتملة تماما. هنا فارق يمكن ذكره. فإذا أمكن أن يظهر الموت لنا باعتباره حقيقة أكيدة ، إذا اعتبرنا معرفتنا بموتنا فى غضون فترة محددة ، فيمكن أن يظهر فى

صورة الاحتمال. ويمكن على ذلك أن يقال عن الجندى فى المعركة إنه يموت موتا بطوليا ، حتى إذا لم يكن هناك زمن كان يمر فيه بعملية الاحتضار. ولا يتعلق الأمر الذى يتميز بالبطولة بتفجيره بقنبلة مورتر، فالأسلوب نادر فى مثل هذه الأمور من جانب الشجاعة. والأولى أن يرجع الأمر إلى أعماله السابقة، ولنذكر مثلا أنه الانقضاض على موقع للعدو معرضا حياته لخطر هائل فكان عملا بطوليا ، وواجَهَ النتيجة المحتملة ، أى الموت. كان واعيا بكل هذا ، ولذلك واجه الموت ، وإن لم يكن متأكدا من موته ، أو اقتراب أجله ، بل كان شديد التعرض للموت فحسب . وربما أمكن التهيؤ لهذا النوع من الشجاعة كذلك (والمظنون فى الجيش أن فضائل الشجاعة والكفاءة يمكن غرسها بالتدريب) . وإذا أمكن أن يستعد الإنسان لهذه المواجهة للموت ، بحيث يأمل الإنسان فى إظهار الشجاعة والاطمئنان .. إلى آخره ، فلا يمكن أن يوجد مثل هذا الاستعداد لمواجهة النهاية المفاجئة دون سابق التعرض لها.

يستطيع الإنسان كتابة وصيته ونحو ذلك. ولكن ليس هناك مجال للبطولة أو الجبن أو الاطمئنان عندما يتعرض المرء للقتل فورا من سيارة فى ليلة ظلماء.

تميز الصفات إذن سلوكنا فى مواجهة الوجه المعروف للموت (سواء فى عملية الاحتضار ، أو عند الإشراف على الموت، أو التعرض لخطر الموت) . ولكن كيف يتعلق هذا بالمواقف التى يتخذها الإنسان الآن حين لا يواجه الموت بطريقة من هذه الطرق؟ هل يمكن أن يقال عنى إننى نظرت إلى موتى فى اطمئنان، أو رباطة جأش ، أو خوف؟ تدل المناقشة حتى الآن على أن من غير الصواب أن يقال عن نظرتى إلى الموت مثل ذلك ، لأننى لا أواجه الموت حقا. ألا ينبغى أن نعرف أن الموت وشيك أو محتمل قبل أن نستطيع الحديث عن "مواجهته"؟

من المفيد هنا أن نرجع إلى مسألة أثيرت على سبيل المرور بها فيما سبق، أى إن حتمية الموت يجب تمييزها من تأكيد الموت الوشيك. وإذا كنت أحتضر فمن المؤكد أننى سأموت فى غضون فترة معينة (ونتذكر التحفظ فى الواقع، وهو أن الممارسة الطبية قد تستطيع التدخل بصورة غير متوقعة) ، وإذا كنت على وشك الموت فهناك شىء محقق

فى الواقع كذلك، ولكن التأكيد مرتبط هنا بالتواريخ بصفة عامة . والذى يهم فى الوجود على شفا الموت هو أننى أتوقع الموت فى غضون خمس ساعات أو أية فترة ، بينما أنا أتوقع فيما عدا ذلك أن أعيش فترة أطول كثيرا ، ولا ترتبط حتمية الموت بناء على ذلك بتواريخ ، إلا فى الأجل الأبعد جدا . من أجل ذلك أنا واثق أننى لن أعيش فى عام ٢٠٦٦ بعد الميلاد ، لكنى لا أستطيع الآن بصفة عامة معرفة العمر الذى أموت فيه عند بلوغه ، وكيف أموت ، وسبب الموت. ولا يمكن أن أدعى البطولة ، لأنى أعيش حياتى وأنا أعرف حتمية موتى مستقبلا ، وأعيشها دون علامات ظاهرة على الجبن أو الخوف.. إلى آخره.

إن مواجهة الموت بالمعنى الدقيق تتطلب معرفة عامة بوقت موتى وطريقته (أو احتمال وقت معين وطريقة معينة). ما الذى يجب قوله إذن عن المواقف تجاه موتى المحتوم ببساطة ، وإن كان موعده وطريقته فى عداد المجهول؟ ها هنا مجال لموقف عملى أحرى أن يكون من باب التخمين.

يمكن أن يقال – على المستوى العملى على الأقل – إننى قادر على الحقيقة ، وهى أن هناك فرصة حقيقية فى مواجهتى للموت ذات يوم ، وعلىّ من أجل ذلك ترتيب حياتى بحيث لا تكون هذه المواجهة للموت تجربة مريرة. هذه طريقة حكيمة فى النظر إلى الأمر، ولكنها قد ترتبط بموقف أخلاقى يتزايد تطلّعه نحو الخارج، لأن مواجهة الموت هى مواجهة انهيار المشروعات التى توفّرتُ عليها، والخطط والمباهج التى أعتز بها، وسوف تُظهر لى حدّاً لتطلعاتى الأنانية. وربما ازدادت قدرتى على مواجهة الموت حقا لو تخليت عن أنانيتى بصورة نسبية.

اختلاف مواقفنا تجاه الميلاد والموت:

قد يثير التأمل فى الموت – عند زيادة التصور– بعض التساؤلات عن القيم الإنسانية والوجود الإنسانى. وسنتناول بعض هذه الأمور عما قريب فيما بعد، فيما

يتعلق بالوجودية. ولكننا نستطيع فى الوقت نفسه ملاحظة اختلافات معينة فى مواقفنا من الميلاد والموت. إننا نميل إلى اعتبار الموت ساخرا من إنجازاتنا ، إذ يبدو أننا فى النهاية لا شىء ، ولا نعتبر الميلاد أو الحمل سخرية بنا ، وإن كانا يدلأن على أننا فى زمن سابق كنا لا شىء، ويبدو أن عدم الوجود فى المستقبل أدعى إلى القلق من عدم الوجود فى الماضى. ليس هذا مجرد انعكاس للمبادئ المسيحية أو غيرها والتى تنذر بالحساب بعد الموت. ولا شك أن هذا يزيد من هيبة الموت. وربما كان الأهم أنه يعكس تكوين الفعل العملى. إن قدرا عظيماً من النشاط الإنسانى يتجه إلى الغايات الأبعد. والحق أن مزاولة رياضة الكريكيت cricket وتأليف الموسيقى ، وممارسة الحب وأمثالها تعتبر غايات فى ذاتها فى الأحوال العادية ، لكننا نمارس أنشطة كثيرة ، لأنها أسباب لغايات أبعد ، تقع بحكم الضرورة فى المستقبل ، وحتى الأنشطة العديدة التى نمارسها فى حد ذاتها نتوقع فيها تغييرات فى المستقبل. إن لاعبى الكريكيت لا يعتبرون تاريخ الكريكيت مغلقا ، لكنهم يتطلعون إلى أساليب جديدة ، وأسباب جديدة للإثارة لا تزال فى المستقبل. وكذلك الحال فى الموسيقى والفنون .. إلخ. ولا تقنع الحياة العائلية تماما أيضا بتلك الحياة فى الحاضر ، لكنها تتطلع إلى جيل متوقع فى المستقبل. وهناك شىء محزن فى التقاليد التى تصبح مغلقة.

هناك من أجل ذلك توجه نحو المستقبل فى مجال عظيم من الاهتمامات الإنسانية ، ويحضر المستقبل أحيانا بصورة صريحة من أجل بعض التبرير للحاضر. لكن الإنسان الذى يهتم فقط بتنمية رفاهيته وطموحاته الشخصية لا يمكن أن ينظر بعيدا جدا فى المستقبل، فلا يمكن أن يكون لأى شىء قوة فى تبرير أنشطته الراهنة وإضفاء المعنى عليها سوى موته الشخصى. فليس من المدهش إذن أن يثير التأمل فى الموت بعض الأسئلة المتشعبة عن قيمة الأنشطة الإنسانية ومغزاها. ويصبح الأمر أقوى إذا تأملنا احتمال تدمير الجنس البشرى كله.

إن الاختلاف في موقفنا من الموت والميلاد سبب في ألوان من جاذبية الأساطير عن استيفاء التاريخ في المستقبل ، سواء من خلال المملكة القادمة ، أو تحقيق الشيوعية ، أو بلوغ ذروة التاريخ العليا.

إذا كانت مواجهة الموت بالمعنى الدقيق ليست غاية كل إنسان (فقط يسقط البعض صرعى من دون تحذير ، ولا يعرف آخرون أنهم يحتضرون ، وإن كانوا كذلك) ، فإنها مرحلة مهمة في الوجود الإنساني بصورة واضحة ، وقد تكون في حد ذاتها أسلوبا في التعبير عن شخصية الإنسان. ولا شك أن هذا سبب في ظهورها وكأنها نوع من الإنجاز أحيانا. إن عملية الاحتضار قد تواجه الإعجاب، إذا احتواها الإنسان بالكرامة والاطمئنان.

إن الفرض القائل بأن الإنسان يواجه شيئا لا يبعث على السرور عند مواجهة الموت يشجعنا على اعتبار الموت الذي يحسن استقباله أمرًا شجاعًا. لكن مع العسير أن نرى على أي أساس يعتبر الموت في ذاته شيئا لا يبعث السرور. من المؤكد مثلا أنه ليس من الواضح أن يكون الموت المفروض على الإنسان في زمن أو آخر كارثة على نحو ما. ها هنا ما يشير إلى ما يدل عليه التحليل الحالي لمعنى مواجهة الموت (أي حيث يحتضر الإنسان ، أو يكون خطر الموت عليه عظيمًا). والذي يكون كارثة على الأقل في الموت أحيانا أن يقع أبكر مما كان متوقعاً ، كأن يختطف الموت رجلا في قمة حياته كما نقول. لكن من الواجب علينا– فضلا عن ذلك – أن نأخذ في اعتبارنا طريقة الموت ، فهذه قد تكون مؤلمة مخيفة. ومن المناسب في هذه الحالة أن نتصور مواجهة الموت ، لا على أنها مجرد مواجهة حقيقة الموت الوشيك ، بل على أنها مواجهة عملية الاحتضار. والإنسان الذي يكون على وعي باحتضاره يدرك طريقة احتضاره.

نلخص حتى الآن تحليل المفاهيم عن الموت والاحتضار، أولا: الاحتضار عملية process والموت حدث events. ثانيا : قد يعي الإنسان أو لا يعي عملية الاحتضار. ثالثا : إذا كان الإنسان على وعي بها فهذه إذن هي حالة يواجه فيها الإنسان الموت

(تكون الحالات الأخرى عندما يوشك الإنسان أن يموت، أو يكون خطر الموت عليه عظيما). رابعا : لا يحتضر كل إنسان ، ولكن كل واحد سوف يموت ، خامسا : لا يكون كل إنسان فى موقف يضطره إلى مواجهة الموت. سادسا : لعلنا نتأمل جميعا فى الموت ونكون واقعيين - أو على النقيض - تجاه الاحتمال فى اضطرار الإنسان إلى مواجهة الموت حقا. سابعا: الموت بشجاعة ، ... إلخ هو مواجهة عملية الاحتضار (أو موقف الإشراف على الموت) بطريقة معينة . لكن مثل هذا التحليل لمفاهيم الموت والاحتضار قد يكون سطحيا على نحو ما. فهو يترك - جانبا - بعضا من الأفكار الشاعرية والأسطورية التى ترتبط بالموت ؛ وهى أهم.

التفسيرات الأسطورية للموت :

من المناسب هنا أن ننتقل إلى المواقف الوجودية واللاهوتية من مفهوم الموت. لقد اشتد اهتمام اللاهوتيين المسيحيين مثلا فى السنوات الأخيرة فى إعادة اكتشاف الأفكار التاريخية ، التى مكنت منها الأبحاث التاريخية الحديثة فى العهد القديم والجديد. لكن الأفكار عن الموت فى الإنجيل ذات غموض أسطورى يُعتبر نموذجيا لصور التفكير فى ذلك العصر : عند بولس مثلا يكون الموت ثمن الخطيئة ، وهناك أيضا فى سفر التكوين علاقة بين الخطيئة والموت .. ومن التعميم الكبير أن نعتبر العلاقة سببية ، كأن الخطيئة هى سبب الموت. إن التفكير الأسطورى عند كُتَّاب الأناجيل لا يمكن ترجمته إلى اللغة الإنجليزية المعاصرة ، لأننا فى العصور الحديثة ندرك الفوارق بصورة دقيقة وهى التى لم يلتفت إليها فى العصور القديمة. ويمكن توضيح الأمر بصورة عامة فنقول إن الموت كان يعتبر عندئذ كأنه رمز للكارثة فى الاغتراب بين الناس والله ، نتيجة للخطيئة. وكانت العلاقة الصحيحة بالله تعتبر- على النقيض - كأنها الحياة الأبدية، ويمكن تحقيقها هنا الآن. ويمكن من أجل ذلك أن نتناول معنى الموت من زاوية "إيجابية" ، أى عند محاولة توضيح المعنى المقابل للموت

وهو الحياة . ولكن الموت إذا كانت له نبرات أسطورية شاعرية عالية ، فكذلك تماما يكون نقيضه وهو الحياة، فهى ليست مجرد مسألة بيولوجية ، من التنفس والاستمرار بوسائل أخرى فى هيئة كائن حى، لكنها مسألة طبيعة الحياة quality.

ليس من المدهش تماما – على ضوء هذا – أن المحدثين من اللاهوتيين البروتستانت (والكاثوليك إلى حد ما) حاولوا إعادة تفسير أسطورة الموت حسب التعبير عنه فى الإنجيل بالالتجاء إلى الوجودية الحديثة؛ لأن هذه الأخيرة تهتم إلى حد بالغ بنوع معين من خصائص الحياة يتعلق بالموت ، وهى تعتبره فى ذاته رمزا للنهاية الإنسانية.

الحياة على ضوء الموت:

من أجل ذلك ، كانت هناك جاذبية خاصة لتقرير هيدجر عن الوجود الأصيل. والحياة الأصيلة هى أن يقبل الإنسان نهايته ، ويتجنب الهرب بناء على ذلك من مسئوليته من خلال الاستغراق فى الهموم المفيدة. إن الدنيا عند الرجال ليست مهيئة لهم فحسب ، لكنها مفتوحة للمداخلات ، ومع ذلك فإن إمكاناتنا فى تغيير العالم هى بعينها مشروطة بطرق لا نختارها. وقد ألقت بنا الأقدار فى الدنيا على هذا الاعتبار، وأشد اللحظات تميزا فى هذا "الإلقاء" هو الموت نفسه، وهو الحالة التى تحدد إمكاناتنا . إن الطريقة الأصيلة فى مواجهته هى أن نعيش على ضوء الموت. ونحن حالما نتقبله بصورة واقعية تماما ، فلن يصبح شيئا يحدث لنا (أو يحلّ علينا من الخارج كما يحدث ، فى صورة تدمير لا معنى له لجهودنا) . وقد أفاد رودلف بولتمان Rudolf Bultman من هذه الأفكار الوجودية ، ولكن فى إطار المسيحية ، وعنده مثلا (أن الحرية الأصيلة هبة من المسيح)، وكذلك أفاد كارل راهنر Carl Rahner، وعنده (أن تقبّل الموت يوجد فى قداسة المشاركة فى موت المسيح ، وكلاهما على التوالى يمثل اللاهوت الحديث عند البروتستانت والكاثوليك.

يبدو من الناحية السطحية ، أن سارتر(*) يتخذ موقفا مختلفا تماما من الموت. إذ ليس في الإمكان تناول الموت بطريقة إيجابية حسب ما أشار هيدجر ، فالموت تدمير لقدرة الفرد على خلق القيم ، وهو القضاء على الحرية. إن السخافة الحق للموت تضعه مع ذلك إلى جانب الموقف الحقيقى للإنسان ، ذلك بأن تقبل السخيف يُضفى على الفرد الحرية والأصالة الصحيحة.

هذه الآراء عن الموت ليست تعريفات له حسب الكلام الصحيح ، وإنما هى تحليلات للمفهوم بطريقة جزئية فقط . لكنها مهمة فى بيان النبرات الرمزية الأسطورية العالية لفكرة الموت فى صورة حديثة. وقد تدلنا– فضلا عن ذلك – على شىء من المفهوم أغفله التحليل السابق. إن محاولة للجمع بين شىء من الموقف الوجودى تجاه الموت مع الاهتمامات فى التحليل اللغوى قد حدثت أخيرا فى مقالة طريفة كتبها و. هـ. بوتيت[(١)] W.H. Poteat فى هذه المقالة بعنوان "سوف أموت I will die"، يفيد بوتيت من ملاحظة فيتجشتين الغامضة فى "مقالة وجيزة فى فلسفة المنطق Philosphicus - Tractatus Logico" : " كما فى الموت أيضا، لا تتغير الدنيا ، ولكنها تتوقف. إن الموت ليس حدثا فى الحياة".

يجادل بوتيت فى أن فكرة موتى الشخصى عجيبة من ناحية المنطق ، ذلك بأننى حين أفكر فى موتى شخصيا فإننى لا أتفكر فى حدث فى العالم فحسب، والأحرى أن أتفكر فى توقف العالم الذى يخصّنى. ويمكن أن نجادل بناء على هذا بأن التمثيل الأسطورى للموت فيما يتعلق بوجودى أمر طبيعى، مثل الأسطورة المسيحية فى إعادة التجسد ، ذلك بأن الإنسان حين يبلغ حدود العالم ، ينبغى أن يمتد أفق اللغة التى نستخدمها فى الأحوال العادية كى نصف الأحداث فى العالم . إن اللغة الأسطورية هى التى تظهر عندما تكون لغة الإنسان تحت مثل هذا النوع من الضغط المنطقى.

(*) سارتر فيلسوف فرنسى من زعماء المدرسة الوجودية وأديب روائى ومسرحى. المترجم

(1) Now reprinted in D.Z. Phillips, Religion and Understanding, Oxford, 1967.

ليس من الواضح تماما أن يكون تفسير بونتيت تشخيصا معقولا للأساس فى اللغة الأسطورية وأصلها الحقيقى ، وهناك شك قليل فى ألا يكون كثيرون من الناس المؤمنين قد استخدموا اللغة فى التعبير عن البقاء والجنة بطريقة أسطورية متعمدة ، وأنهم تقبلوا بعض النتائج الحرفية للتعاليم التقليدية عن الخلود.

يستطيع الإنسان أن يقول بصفة عامة إن الموقف الوجودى من الموت يؤكد تأكيداً على "هذه الدنيا" : إن الوجود الأصيل هنا والآن ، وهو الذى يقدم بصفة أساسية ، بوصفة الشىء الممكن لدى أولئك الذين تقبلوا النهاية التى يوحى بها الموت.

تمت بعض الإشارات فيما سبق إلى مشكلات البقاء بعد الموت من زاوية النظر الفلسفية. وترجع هذه بصفة رئيسة إلى مشكلات الهوية الشخصية، وكيف يمكن الاحتفاظ بها فى حالة تتجاوز الموت. قد لا تكون هذه المسائل غير قابلة للحل، ولكن لعلها تذكرنا بأن مجرد البقاء النفسى لن يكون باعثا على الرضا ، باعتبار أن البواعث على الإيمان بالبقاء بعد الموت قد ترتبط ارتباطا وثيقا بالاهتمامات الشخصية التى تستدعى التعبيرات الجسمية(١).

وعلى ذلك يكون بعض التأكيد الوجودى على تقبل الموت شيئا مناسبا ، من حيث ألا يكون الناس مكرهين على تأمل الموت فحسب، بل يسألون أنفسهم عن دوافعهم (إن وجدت) للرغبة فى البقاء فيما وراء القبر.

---

(١) انظر القسم الثالث : الفصل الثالث : الموت والبحث النفسى ، وكذلك الفصل الرابع : أى نوع من العالم الآخر؟

الفصل الثالث

الاحتضار والطبيب

جون هينتون John Hinton

سيكون لدى الإنسان حيث يحتضر بعض الأسباب التى يشك فيها ، إلا إذا دهمه الموت بصورة مفاجئة. والأرجح أن يكون عند طبيبه دليل سابق رأى فيه أن مريضه يعانى من مرض الموت. وعليهما أن يتكيّفا مع تزايد الإدراك لاحتمال الموت بالمرض. ويعلم الطبيب الأمر عادة فى وقت أبكر قليلا من المريض. وهما يرغبان فى أن يكون الأمر على غير ذلك ، لكن التقدم المحتوم يؤثر على طريقة كل منهما فى النظر إلى الآخر، فضلا عن أمور أخرى. إن الطبيب بالنسبة للإنسان المحتضر – مهما كانت ثقته به كبيرة وكان مصدرا للعلاج فى اعتباره – لم يَعُدْ إنسانا يملك القدرة على الشفاء. أما الطبيب فقد أصبح عاجزا عن منع الموت عن المريض على الرغم من كل جهد ممكن. ويؤدى هذا إلى ظهور مشكلات فى العلاقة المهنية الخاصة التى تنشأ غالبا بين المريض وطبيبه ، ولديهما – إلى جانب ذلك – مشكلات تواجه أى إنسانين يحاولان التكيف مع الحقيقة، وهى أن واحدا منهما سيموت عما قريب.

لما كان هناك فى الغالب تأكيد على أنه كثيرين مصابين بمرض الموت عندهم وعى قليل بحقيقة احتضارهم ، ويغلب أن يشيروا إلى شفائهم أو مستقبلهم حقا، فهل يكون من التضليل أن نعتبر وعيهم الظاهر أو الخافى بالموقف الحقيقى أساسا مهما فى استبصارنا بمشاعرهم ؟ لا يستطيع أحد أن يقول بالتأكيد مدى ما يعرفه الناس

المحتضرون ، لأنهم هم أنفسهم غالبا ما يكونون غير متأكدين ، وقد تكون لديهم شكوك غير سارة تؤدى بهم إلى تفاديهم للموضوع ، بدلا من مناقشته فى العلن. وقد ظهر على الرغم من ذلك فى بعض الاستفتاءات - حين شعر المحتضر بحرية الكلام - أن نسبة كبيرة جدا كانت تعترف بالاحتمال فى نهاية حياتهم قريبا أو التأكد من نهايتها. وتظهر إشارات كافية عاجلاً أو آجلاً فى أثناء مسار المرض الختامى حتى يشك المريض فى أن مرضه لا علاج له. ويستطيع أن يتجاهل الدليل، أو يعتبره على ضوء التفاؤل ، لكنه موجود فى العادة. وقد يأتى التحذير فى صورة أعراض منذرة، من قبيل الأورام المنتشرة ، أو انقطاع النفس الذى يشتد حتى كأنه فيما يبدو يحمله إلى حافة الموت ، وقد يكون طريقة علاجه، مثل العلاج الإشعاعى الذى لا ينجح دائما فى علاج السرطانات ، وقد يكون التدهور المستمر فى الصحة بحيث تضاف أعراض جديدة خطيرة إلى تلك التى فشل العلاج السابق فى التخفيف منها ، وقد يكون موقف أصدقائه وأقربائه وطبيبه، الذى يكشف أن مرضه غير قابل للعلاج، أو قد يكون فى بعض الأحيان تقريرا متعمدا من الطبيب لتأكيد الطبيعة القاتلة للمرض ، وإن كان الأغلب أن يُفهم هذا من ملاحظات بالمصادفة ، لا توجه دائما إلى المريض. ويتنامى الدليل عادة بحيث يستطيع الإنسان المحتضر أن يعرف أن الشفاء قد لا يأتى أو لا يمكن أن يأتى. كيف يستجيب للدليل على حالته القاتلة؟

من الطرق الشائعة جدا للتكيف - وإن كانت تبدو غير منطقية - أن يتصرف المريض كأن الموقف غير موجود . ومن الطبيعى تماما ألا تصل إلى الوعى الأفكار المؤلمة أو الذكريات التى تبعث على الضيق. إن فكرة موت المريض شخصيا يَسْهُل أن تزيد شعوره بالضيق فوق طاقته ، وعلى ذلك يكبت شعوره بالاحتضار. وتتعرض مثل هذه الأفكار للكبت المتعمد بحيث يؤمن المصاب بمرض الموت ويتصرف بعض الشىء كأن حياته سوف تستمر مع قليل من التغيير حالما ينقضى المرض.

وإذ يخدع المريض نفسه بطريقة شعورية أو لا شعورية ، فإن الطبيب يتواطأ عادة ، ويشجع التظاهر غالبا بصورة إيجابية. وهناك أسباب عديدة طيبة خيِّرة تدعوه إلى

هذا ، وإنما يهوّن من شأنها التبريرات النابعة من حاجة الطبيب نفسه إلى تفادى الضيق من موت مريضه. ويمكن أن يتعرض الطبيب - باعتباره إنسانًا- للأذى عند اضطراره إلى التسليم باقتراب مريضة من الموت - وربما قلّ وعيه بالأذى كلما طالت خبرته الطبية مقارنة بما شعر به أولا فى مستقبله عندما مات مرضاه. وإذا أصبح الموقف محتملا ، فيمكن على الرغم من ذلك أن يظل مزعجا. ويجب عليه أن يعترف لصاحب الشأن وهو الأوْلى بالاهتمام - بأنه الآن عاجز عن أداء ما تشتد الرغبة فيه ، وهو إنقاذ حياة مريضه . إن قدرة الطبيب على الشفاء والتخفيف تدعمه عادة فى عمله، وفى تقديره لذاته نفسها. ويمكن أن يشعر بالتهديد جدا عند اضطراره إلى الاعتراف بالفشل للإنسان الذى يعتمد عليه. وقد يفزع من اضطراره إلى الاعتراف صراحة لمريضه الذى يعرفه حق المعرفة - بأنه لن يعيش.

عندما يتفق المريض والطبيب كلاهما على مؤامرة ضمنية بوقوع الشفاء، فغالبا ما يخدم الأمر المصالح المشتركة بينهما . إذ يقدم الطبيب أدويته على أنها علاجات، ويطمئن المريض على تقدمه. ويواجه المريض مرضه بالشجاعة ورباطة الجأش فيما يبدو. ويتفادى بطريقة لا شعورية أو فيما تحت الوعى ما يمكن أن يجلبه الاحتضار من الضغط العاطفى. وليس به حاجة إلى الخوف من الأهوال التى ترتبط غالبا بالاحتضار والموت. وليس عليه أن يضطر إلى التهيؤ الحزين لطرق الحياة والذين يحبهم. فهو يركز انتباهه على علاج نظرى ، معتمدا على الشفاء الطبيعى والمهارات الطبية التى كانت ناجحة فى الأمراض السابقة.

أن خداع المريض لنفسه بالإضافة إلى خداع الطبيب لنفسه يمكن أن يستمر بنجاح بالغ فترة طويلة ، كما أن التظاهر بأن المريض لن يموت بالمرض يسهل على الطبيب أن يستبقى واجهته المهنية المعهودة بطرق متعددة. وليس فى حاجة إلى التساؤل العميق عن الآداب الطبية فى خداعه ، إذا كان هذا الخداع هو الذى يريده مريضه ، ويجده مريحا. ويمكن أن يدعم الإنكار عند مريضه ، ويساعد على منع

الشكوك الباعثة على الضيق. وتبقى سلطة الطبيب وكرامته فى مكانها، ويعتمد المريض عليه. ولكن السلطة التى تحتاج إلى الدعم عند افتراض القوى العلاجية المستحيلة تكون بطبيعتها ناقصة على كل حال. ولا يحتاج الطبيب بالتأكيد إلى ادعاء القدرة التامة حتى يحتفظ بثقة مريضه. وربما كان ادعاء الطبيب بالقوى الشافية التى لا يملكها مدعاة للوم ، ولكنه فى العادة أقل إيذاء من الانسحاب من الغش إلى السخرية وقلة الاهتمام الظاهرة ، أو التفادى العملى للمرضى المحتضرين.

وعلى الرغم من أن الكثيرين من الأطباء أصبحوا ذوى مهارة ، وتعودوا على دورهم فى التظاهر بدعوى الشفاء فى النهاية فإن شعورهم بالحرج قد يتنامى جيدا حينما يتعثر الخداع. يعرف الطبيب – فضلا عن أمور أخرى – أن التظاهر بحسن النية لا بد من فشله ، وأن المريض سيموت ، وإن ظل يشجعه على الإيمان بغير ذلك ، هناك – فضلا عن ذلك – ضياع الصدق بين المريض والطبيب عندما يغيب التوافق. وكثير من الأطباء كتوم مع مرضاه يقتصد فيما يبوح به من المعلومات، لكن الذى يقوله لمرضاه حقا ينبغى أن يصدر دائما عن نية حسنة. من أجل ذلك، يتعرض الطبيب لإحساس مُلِحٍّ بالثقة الفاشلة على كل حال، مهما كانت نيته حسنة عند إسهامه فى الخداع. ولا يكون فى موقف طيب لتقديم الفهم الذى يكون مريضه فى حاجة ماسة إليه حين يصبح قلقا أو مكتئبا. وقد يؤدى حرج الطبيب فى الموقف إلى اجتنابه لمريضه، أو التخفيف من فترة زياراته، أو على الأقل إلى تفادى ذكر أى موضوع يؤدى إلى خيار بين الصدق الباعث على القلق وبين الأكاذيب. هذا الموقف أدعى أن يُوجِّه الطبيب إلى تناول شئون مريضه، مثل ما يتناول الإنسان البالغ شئون "الطفل" الذى يظن به نقص القدرة على الفهم. وإذا كان بعض المرضى من الناس يريدون من الطبيب أن يمسك بزمام الأمور كلها ، فإن آخرين قد يجدون مثل هذا التصرف زيادة فى شعورهم بالدمار، الذى يبدءون فى تجربته باعتبارهم من المحتضرين. وقد يحتجون بأنهم ليسوا أطفالا ، ولا هم عجائز ، فهم يريدون أن يكون لهم رأى فى الأمور التى تهمهم.

ما الذى يجرى ؟

هذه إحدى السبل التى يتعرض فيها التواطؤ بين المريض والطبيب للتوتر، وقد ينهار كليا. والأحرى بالتظاهر أن يتعرض للمزيد من الاختبار عندما تتدهور صحة المريض المحتضر، لأن آمال المريض وتظاهره اليائس قد لا تتوازى عندئذ مع التفاؤل الكاذب الذى يزيد فيه التعهد عند الطبيب. إن المريض الذى يعتقد أو يحتاج إلى اعتقاده بشفائه مستقبلا سوف يتوقع أن يجد انتباها كاملا لأية أعراض جديدة. أما الطبيب الذى يدرك أن المزيد من الأعراض جزء من عملية المرض المحتومة ، فقد يبدو أمام المريض وكأنه يتناول التطورات الجديدة بطريقة سطحية، ويتجاهل الأعراض، ومن ثم يتجاهل المريض فيما يبدو. هذه الاستجابة قد تؤدى بالإنسان المحتضر إلى البحث المحموم عن مزيد من المساعدة ، وهى قد تنتهى بنصيحة معقولة ، ولكنها تستدعى علاجات عديمة الجدوى مرتفعة الثمن ، كما تنتهى بالإحباط أخيرا.

أما إذا لعب الطبيب دوره بقوة بالغة فى الجانب المقابل باعتباره معالجا محكوما عليه بالفشل مقدّما ، وإذا فقد الاستبصار بأنه يلعب دورا، أو إذا عجز بنفسه أن يتقبل الدليل الواضح على عدم شفاء مريضه، فقد يضطر المريض فترة من الزمن إلى احتمال أبحاث وعلاجات تبعث على الضيق، وربما استبقت أملا يتذبذب، ولكنها لن تقدم منفعة محسوسة.

إن الإنسان المحتضر لا يسهل عليه الإيمان بالشفاء عندما يكون على وعى بالتدهور. وتميل واجهة الأمل غير المعقول إلى التصدع، وقد يلجأ إلى محاولات عديدة للترقيع ، غير أن التظاهر سوف ينهار أحيانا ، أو يتخلى المريض عنه. وربما ظهرت التصدعات فى صورة فترات من الخوف والتعاسة ، وهى تبدو للمريض المحتضر بغير سبب على نحو غريب، لأنه ينكر أن مرضه قاتل. وغالبا ما يجد أسباباً خاطئة لشعوره بالضغط العاطفى ؛ إذا ظل عاجزا عن الاعتراف بأصله الذى يرجع إلى احتضاره حقا. وقد يصبح فى هذا الموقف بالغ الاهتمام ببعض الأعراض البدنية ، أو بعض

أسباب القلق البسيطة نسبيا. ويبدو أنه يتململ من التوافه، أو يبالغ فى متاعبه. وربما دعا هذا أصدقاءه أو أقرباءه أو ممرضاته إلي الضيق بتحمل شكواه ، ولكن من الأسلم له أن يستبدل مشكلات تقل فى التدمير نسبيا بأسباب قلقه وهمومه المتسلطة ، بدلا من الضيق باقتراب موته.

وإذ يشعر الإنسان المريض بالأمل يذوى فى البداية ، فقد يحاول تقويته بتوجيه أسئلة إلى طبيبه بطريقة ترجح حصوله على إجابات مطمئنة. ومن العسير جدا على طبيب متعاطف أن يقدم شيئا سوى الإجابات المشجعة – وإن كانت غير صادقة – على أسئلة من قبيل: "لست مصابا بالسرطان، هل أنا مصاب به يا دكتور؟" أو "هل سوف تجعل صحتى تتحسن يا دكتور؟". وكثيرون من الأطباء مدربون على الصراحة الطيبة مع المريض ، ومع ذلك يجدون أنفسهم مدفوعين إلى آراء متفائلة غير صادقة ، أو علاجات ما كان فى نياتهم أبدا تقديمها.

على الرغم من أن مرضى كثيرين يجدون العزاء مع أطبائهم فى الادعاء البرىء بتوقع الشفاء ، فإن آخرين لا يريدون الاختباء دائما خلف الآمال الكاذبة ويريد بعض الناس معرفة الصدق الأساسى عن مصيرهم حالما يتم التعرف على أمراضهم ، مهما بدت النتائج كئيبة. وتدل معظم الاستفتاءات الطبية على أن الأطباء لا يوضحون عادة للمريض فى وقت مبكر ألاّ فرصة فى شفائه من مرضه القاتل. وغالبا ما يقال العكس للمريض. وهناك بعض الأفراد من الأطباء يكونون أصرح إلى حد كبير ، وهناك بعض المراكز الطبية وهى أشيع فى الولايات المتحدة منها فى بريطانيا حيث تدعو الممارسة إلى الصراحة حول أحوال المرضى. إن الهدف من العادة المتكررة لدى الأطباء المهيئين للصراحة النسبية هى مسايرة مرضاهم الذين يتزايد إدراكهم الواقعى بغياب الشفاء. وعندئذ تتأكد تماما شكوك المريض المحتضر بواسطة الآخرين ، عندما يدخل المرض مراحلة الأخيرة.

إن أغلب هؤلاء المرضى المهيئين تماما لمعرفة القليل من الزمن الباقى فى حياتهم معرضون – على الرغم من استعدادهم – للاستماع فقط إلى كلمات ليس فيها ذرة من الصدق. ولو أن مثل هذا المريض سأل حينئذ أسئلة مباشرة عن مرضه وتقدمة المرض prognosis فربما زاد الاهتزاز فى ثقته نتيجة الإجابات غير المباشرة أكثر من الصدق الكئيب. لعلة يبدأ عندئذ فى اختبار تفاؤل طبيبه ، أو يتساءل عما وراء كتمانه المهنى. وإذا كان لا يرضى بالإجابات الخفيفة فقد يعيد أسئلته بطريقة ملتوية وربما سأل طبيبه عما إذا كان فى مقدوره أن يبدأ فى بعض الخطط المستقبلية – وقد يقدم أسئلته إلى كثيرين آخرين ، أو الأقارب والممرضات والعمال ، وزملائه المرضى ، أو أى إنسان قد يعطيه إجابة كاشفة أمينة ، يمكن أن تشع نورها البارد من خلال سحب الوعود بغير برهان مادى، ومن خلال دخان التفاؤل.

أسباب الكتمان :

ما هو التبرير هناك الذى يمنع اعتبار أسئلة المرضى بمرض الموت إشارة بسيطة من أجل إخبارهم بالمرض وما هو المنتظر؟ هناك بعض الأسباب الجيدة للحذر . إن الكثيرين من المرضى يرغبون فى معرفة الأخبار الطيبة ، أو يقدرون على شىء من الإحباط ، ولكنهم لم يتهيئوا بَعدُ لمواجهة مرض لا أمل فى شفائه. وقد يبدأ الطبيب على مساق الأمانة ، الذى يمكن أن يصبح منزلقا إلى مزيد من ألوان الصدق المؤلمة ، عندما تؤدى الأسئلة المتزايدة من المريض المتعب إلى وابل من أخبار تدعو إلى الضيق فى النهاية. أما الطبيب الذى يشعر بإفلات الزمام فى مثل هذه المواقف ، ويرى عواطف الأذى الناجمة عند مرضاه ، فقد يأسف حقا على ما يعتبره فساد حكمه المهنى شخصيا. إن العادة الطبية الواهنة تزيد من دعم الطبيب حين يتحدث من أجل الاطمئنان الحذر ، فلا يكشف سوى ما يكفى للتخفيف من البلبلة، والتشجيع على التعاون فى العلاج.

هناك حكايات تبعث على الحذر تحكى عن أفراد استجابوا بصورة كارثية عندما وجدوا أنهم لن يبرءوا أبدا. وليس من النادر أن يكون هذا الضيق مفرطا على كل حال نظراً لأسلوب سيئ الطالع وهو الذى حصلوا به على المعرفة. والأدعى إلى إثارة الضيق كشف بالمصادفة لمرض قاتل كان مخفيا عنه سابقا، أو إخراج مفاجئ من المستشفى بعد إعلان لا تعاطف فيه عن مرض لا شفاء منه. ويشجع على الكتمان أيضا أن بعض المرضى يلحّون على إخبارهم بالخلل عندهم، وهم عند إخبارهم بالتشخيص وتقدمة المرض لا يحتملون الأمر ، بل يذهبون إلى طبيب آخر يزودهم بأنصاف الحقائق ووعود لا احتمال فى إنجازها. وبعض المرضى الآخرين حين يدركون أنهم فى سبيل الاحتضار يعجزون عن الاحتمال، ثم لا يقدرون على تنحية الأمر من عقولهم ، وعلى ذلك لا تزيد حياتهم الباقية على العذاب إلا قليلا. إن مثل هذه الأمثلة تقوى كراهة الناس فى إخبار المرضى بانعدام شفائهم ، بحيث إذا كانت هناك أية دلالة على سؤال المريض سعيا وراء البحث عن الاطمئنان، فإن الإجابة تكون دائما مشجعة. فى العادة تكون الإجابة عن سؤال مثل : "ليس المرض سرطانا، هل هو كذلك يا دكتور؟ "؛ هى : "لا". والسؤال : "هل سأكون بخير؟" تكون إجابته: "نعم". وعلى ذلك يستخدم المرضى والأطباء الكلمات كأنها ستار يخفى حقيقة الموت القريب. وقد يُطمئن الطبيب المريض المحتضر بأنه سوف يتحسن ، لأنه يعتقد أن التضحية بالأمانة أفضل من ناحية الخير عند تقديم كذبة متفائلة. وغالبا ما يطلب الأقارب من الطبيب – فضلا عن ذلك – ألا يُعرِّف المريض بأنه يحتضر.

إذا ظهر أن الأفضل تفادى الصدق المؤذى مع بعض المرضى بمرض الموت، فيمكن إجراء ذلك بطريقة تشجع الأفكار الواعية لدى المرضى بحيث لا تركز على النتيجة. وغالبا ما يتم ذلك بالحديث المتفائل عن مقاصد العلاج أكثر من التوقعات الكئيبة. وإذا قدم المريض بعض الشكوك والأسئلة، فيغلب أن تقتصر الإجابات على الأمور الحميدة التى أثيرت. ويحتمى الطبيب أحيانا خلف مكانته المهنية ، ويبرر بعض

التبرير أن المريض لا يمكن حقا أن يُقدِّر التعقيدات الطبية فى الموقف ، ويجب أن يقنع عندما يعرف أن ما يُعمل هو الأفضل. وقد يتفادى أية مناقشة صادقة بسبب العجلة المهنية. وقد يجعل تعليقاته الخاصة على الأمور التى تتناول مسائل محدودة فى الماضى ، أو الجوانب التى يمكن السيطرة عليها فى متاعب المستقبل. وإذا جاء ذكر المستقبل فى صورة تزيد على التعبيرات العامة، فيمكن للطبيب أن يضعه فى صورة أدعى إلى الاطمئنان قليلا ، حتى لو اكتفى برفع أعلام صغيرة تشير إلى البقاء : "سأراك فى الأسبوع المقبل". وتتجمع الأمور كلها فى صورة واجهة من التظاهر بالأمل فى العلاج وهو ما يسهل على المريض أن يتصور التحسن فى صحته مستقبلا ، ويجعل من العسير أن ينفجر بصورة خشنة، وهو يطلب إخباره بما يفكر فيه الطبيب حقا.

وإذا كان المريض في المستشفى ، فربما تواطأت الهيئة الطبية جميعا على التمسك بالتفاؤل. وقد يتظاهرون بالجهل أمام الأسئلة العسيرة، أو يحيلون الأمر إلى الإخصائى الاستشارى. وقد يقدمون تفسيرات خاطئة معقولة لشرح الأعراض الجديدة، أو عدم الاستجابة للعلاج، بل يقدمون أسبابا مُضلِّلة لنقل المريض إلى المستشفى للعلاج الختامى. ويمكن استبقاء التظاهر بالعلاج الشافى بهذه الوسائل. وينجح الأمر فى أحسن الأحوال فى إيقاف الشكوك الناشئة، وهى الشكوك المتعلقة بالموت، وغالبا ما تكون بالغة الألم عند التكيف معها ، بحيث ينبغى التغلب عليها. وإذ يجتنب المريض المحتضر الصدق غير المستساغ، ففى مقدوره أن يتشبث بالآمال، ويجد الراحة فى الوعود بالتحسن ، ويشعر بالفرص التى لا تزال متاحة للنجاح ، والأوقات للتمتع. وعند الكثيرين من الذين يرعون المحتضرين مهارة فى استبقاء الآمال المريحة لمرضاهم ، ودعمهم فى كفاحهم ضد المرض، وهو صراع لا يبادلة بعض المرضى إلا بالهزيمة فقط ، حيث إنهم يعتبرون الموت عدوا دائما، وليس صديقا أبداً.

هل هناك أسباب شخصية عند الأطباء فى تهيئتهم إلى حد كبير للإسهام فى دعوى الشفاء ؟ إن الاحتمال بعيد فى أن يرجع موقفهم فقط إلى رغبتهم فى التخلص

من عمل كريه ؟ فإنهم بعد كل شيء يمارسون عملهم في إخبار الأقارب المقربين بالموقف الحقيقي ، وهذا بعيد عن العمل اليسير. ويبدو حقا - فضلا عن الرغبة المُبرَّرة في تجنيب المريض شعورا بالضيق - أن لدى كثير من الأطباء تحيزا محتملا دفينا يؤدي بهم إلى تفضيل بث الطمأنينة في المريض المحتضر. إن تأثير المشاعر الشخصية أدعى أن يكون محل شك عندما يعبر الأطباء عن عدم الاستعداد التام لتغيير سياسة الكتمان المهني ، أو عندما يقولون إنهم يفضلون المعرفة إذا كانوا هم المحتضرين ، لكنهم لا يقولون الحق لمرضاهم ، حتى لو كان أولئك من أصحاب المؤهلات الطبية. ما هي العواقب الشخصية التي يمكن أن تجعل الطبيب كارها لإخبار مريضه بأنه لن يبرأ؟

يتقمص الطبيب في الغالب شعور مرضاه إلى حد ما ، ويشعر كيف تسبب الكلمات الصريحة عن الاحتضار أحساسهم بالمعاناة. إن إخبار إنسان بصريح العبارة بأنه سيموت قريبا أدعى إلى تزويد الطبيب بشعور إضافي بالمسئولية عن نهاية حياة مريضه؛ وقد يكون هذا غير منطقي ولكنه مفهوم؛ من حيث إن كلماته وفشله قد يكونان علامة على تغير الإنسان الذي يتوقع مزيدا من الحياة والاستمتاع إلى إنسان آخر يواجه اقتراب الموت آسفا. كما أن الاعتراف صراحة بالصدق الذي لا يلقى ترحيبا قد يعني استبعاد التفاؤل المهني، الذي يستخدمه الطبيب عادة لتشجيع مرضاه ودعم نفسه خلال التغيرات في المهنة الطبية. وكثيرا ما يشعر بالحاجة إلى تزويد مرضاه المحتضرين بالأمل ، وبخاصة إذا كان عليه أن يدعمهم في أثناء مرض ختامي طويل متقلب ، وسوف يتعرض للضياع بغير الالتجاء إلى التفاؤل. إن البديل - فضلا عن ذلك - وهو الاعتراف للمريض بأن موته قريب الاحتمال يستدعي ما يزيد على الواجب الفوري المؤلم. وإذا كان الطبيب صاحب ضمير فهو يعرف أن معنى ذلك أن يكون مستعدا عندئذ لإنفاق قدر كبير من الوقت مع مريضه، إذ يساعده على هضم الوعي المتزايد بالاحتضار وعواقبه الكثيرة. وكثيرون من الأطباء يشعرون بأنهم عاجزون عن أداء هذا الأمر.

إن المريض والطبيب كليهما يمكن أن يكسبا الراحة من خلال اجتناب الصدق الذى لا يسرّ، كما أن استبعاد التفاؤل فى سبيل الحقيقة الجامدة قد يجد الاثنين على غير استعداد جيد. إن سوء التفاهم والأخطاء والتعاسة أحرى أن تتسلل فى هذا الصمت على الرغم من ذلك. وغالبا ما يظل الإنسان المحتضر فى شعوره بالضيق على الرغم من محاولات الطبيب في بث الطمأنينة. ولعله يستمر فى إحساسه بالبلبلة ، وقد يضاف إلى قلقه على مرضه شعور بأنه مخدوع من قبل أولئك الذين يعتمد عليهم فى رعايته الطبية. لقد تمت الاستهانة ببعض مخاوفه، وربما شعر بالتخلى عنه فى الوقت الذى يتشوق فيه إلى الفهم. إن الشك فى أن حالته لا شفاء منها ، والخوف من جواز احتماله للألم وفقدان العون قد يتزايد، ومع ذلك فلا يظهر أحد يتحدث حديثا جادا عن الأمر ، حتى أولئك الذين وضع فيهم ثقته طوعا أو كرها.

الخوف من المعاناة:

من التقاليد المتفق عليها إلى حد ما ألا يتوقع المرضى أن يسمعوا من أطبائهم كلاما عن اقتراب موتهم. هل تكون جرائر هذه الكذبة البيضاء هينة جدا؟ إذا اعتقد المريض أنه سيموت ، لكنه يسمع كلمات حميدة – وإن كانت غير مقنعة – من الآخرين بأنه سوف يشفى ، فما هى الثقة التى يمكن أن يضعها فى الوعود بأنه لن يشعر بالمعاناة البدنية ؟ لقد تناولنا فى هذا الفصل كيف ينظر الإنسان المحتضر وطبيبه إلى مفهوم الموت – لكن الكثيرين المصابين بأمراض قاتلة لديهم همّ أكبر عن طريقة موتهم . وقد استبعدت المناقشة الحالية – بصورة متعمدة وإن كانت مصطنعة – جوانب كثيرة من أعراض المرض الذى لا شفاء منه، ورعاية المرضى المحتضرين ، لكن أفكار المصابين بمرض الموت تركز فى الغالب على التوقع المخيف للألم ، والأورام الزاحفة أو المشوهة، وعلى التشويهات ، أو المرض بلا عون ، والإهمال الممكن. وهم يتحيرون فيما إذا كانت الكلمات المطمئنة بأنهم لن يعانوا ، وأن رعايتهم فى المستقبل ستكون مناسبة تماما، لا تعنى أكثر من الحديث الكاذب عن الشفاء.

يشعر كثير من الأطباء بالعجز عن تخطى هذا المأزق ، أو لا يرون على الأقل بديلا ، سوى الاستمرار فى التأكيد للمريض بأنه سيكون بخير، وألاّ داعى لقلقه. سيشعر الطبيب بالحرج فى الوقت نفسه، لأن خطته فاشلة. وهو لا يشعر بالرضا عن فشله فى تقديم التهدئة ، ولا عن خداع نفسه الذى يبدو الآن أشبه بالكذبة الفاشلة. وقد يشعر – خطأ أو صوابا– أن مريضه ينقد جهوده ، وأن هذا سوف يزيد فى إغرائه بتفادى الزيارات كلما استطاع . ويمكن أن يتنامى حاجز الصمت والحرج دون أن تؤثر فيه المشاركات القائمة بينهما.

قبول الموت المنتظر:

هل يستطيع النادرون من الناس وحدهم الاعتراف صراحة بالصدق عند اقتراب الموت ، لا توجد هناك بالتأكيد حاجة مطلقة لمسايرة المؤامرة فى الإنكار، أو قيام المريض بتصنع الخداع بينهما. وقد وجد الكثيرون مزيدا من رباطة الجأش فى الاعتراف الصريح بأن المرض قاتل. ولعل الأفضل ألا يكون الإنسان المحتضر والطبيب قد اعتمدا اعتمادا بالغا على الإنكار، بحيث يمكن أن ينمو الوعى والتقبل المتبادل فى ثبات. ويمكن أن يجىء الإدراك بلطف شديد ، ربما من طريق تبادل اللمحات فحسب، أو بعض النبرات الخاصة، وهى التى تخبرهم بأن كلا منهما يعرف ما يعرفه الآخر. ويمكن أن يظل الأمر خافيا، بل لعله لا يتدخل فى التظاهر الخارجى بالشفاء ، وإنما يدعم هذا بالفهم الضمنى. أما الاعتراف الصريح فقد يظهر بالوسائل الواضحة حين يقابل الطبيب أسئلة مريضه بالصدق الحذر. ويفعل كثير من الأطباء هذا عند شعورهم بقدرة المريض على قبول الصدق. ويحتاج الأمر أحيانا إلى إنسان ثالث ، مثل أحد رجال الدين، حتى يفك شبكة الإنكار التى نسجها المريض والطبيب. ويشارك المريض المحتضر وعيه مع واحد من الناس أحيانا، ويساعده هذا ، كما يساعده على قدم المساواة موقف الآخرين الذين يتظاهرون على الدوام بأن كل شىء سيكون بخير، وإن كان الأمر بطريقة مختلفة.

عندما يعلم الناس أو يدركون لأول مرة أن حياتهم سوف تنتهى عما قريب، فإنهم يشعرون بشيء من الضيق المبدئي. ويستدعي الأمر قدراً مدهشا من رباطة الجأش حتى يظل الإنسان دون تأثر، سوى أولئك الذين يمحو الحذر العقلى كل استجابة لديهم. إن الموقف العام تجاه الموت الشخصى كثيرا ما يترك الناس مهيئين بصورة ضعيفة للموت ، وغالبا ما يؤدى إلى استبعاد كل تفكير فيه. وعلى الرغم من التسليم بحتمية الموت ، وحتى إذا كان العمر والعجز والوحدة قد ضاءل من الآمال فى السعادة، فما زال هناك إحساس بالخسارة والحزن عندما يكون من الواضح أن الحياة ستنقضى حقا فى القريب العاجل. أما الناس الذين تعلقوا تعلقا شديداً بإيمانهم المريح أن موتهم لا بد أن يكون بعيدا، أو أولئك الذين تحققوا من الموت بصورة غير متوقعة جدا أو مفاجئة أو قاسية ، فربما جاء هذا الوعي صدمة عظيمة. وإذا زاد الأمر عن طاقة الاحتمال ، فغالبا ما يلجأ العقل إلى الإنكار مرة أخرى. وقد لا يتذكر المريض النوبة، أو يستبعدها كأنها غلطة، أو يحتج بأن شيئا سوف يظهر. بل إن أشجع المرضى وأشدهم تقبلا لا يريدون إنفاق أيامهم الباقية جميعا فى التفكير فى هذه النهاية ، وهم يتلاعبون بخطط المستقبل، ويتظاهرون بالحضور فى مناسبات مستقبلية ، وهى لعبة تخفف شيئا من خشونة الموقف.

يشعر كثيرون من الناس بحزن بالغ عندما يدركون أن الحياة ستزول فى القريب العاجل، ولن تبقى حياة للتمتع ، كما سينتهى الوجود الشخصى. ربما كان هناك شعور بالأذى العنيف للبعد عن الأحياء الذين سوف يشعرون بالضيق لموت الإنسان نفسه. أما الناس المحتضرون الذين سيتركون من خلفهم أطفالا صغارا فهم يكادون يعجزون عن احتمال الموقف تقريبا. ويمكن أن يكون هناك إحباط أعمق يسهم فى الاكتئاب. ويرغب كثيرون في حيوات أفضل ، وأن يصيبوا نجاحا أكبر، ويكونوا أناسا ألطف ، وهم يأملون دائما أن هذا قد يحدث فى المستقبل. ويعنى الموت الذى يشرف عليهم أن واجبهم الآن أن يحكموا على أنفسهم دون مجاملة، ويمكن أن يلوموا أنفسهم ويشعروا بالاكتئاب.

وإذا كان كثيرون يشعرون بالأسف حين يدركون احتضارهم ، فليس من غير المعهود أن يحس الناس بقليل من الضيق عند إدراكهم باقتراب نهاية حياتهم. والأكثر شيوعا أن يمر الناس بيوم أو بيومين من الحزن أو القلق، ثم يتكيفون عندئذ مع المستقبل. والواقع أنهم على الأغلب يجدون التكيف أيسر حالما تنجلى البلبلة. ويصبح الكثيرون متقبلين تماما. ويحتاج آخرون إلى الاعتماد على الشجاعة، ولكنهم يتمكنون من ذلك حالما يعرفون ما الذى يجب أن يواجهوه، ولا ينبغى عليهم أن يستبعدوا الأمل تماما. وإذا كان الحديث الصريح موجودا من قبل، فيمكن أن يتعلموا ما الذى يحتمل أن يصيبهم ، ويمكن أن يسألوا الآن عن الاحتمال فى شعورهم بالألم الشديد ، وعجزهم فى الفراش فترة طويلة ، وعن الذى يرعاهم عند فقد العون ... وهكذا. ولا تدعو الحاجة عند هذه المقلقات أن تظل مخاوف شخصية لا يشارك فيها أحد ، حيث لا يوجد إنسان يتحدث بتعبيرات واقعية عن مستقبلهم. وفى استطاعتهم أن يصوغوا أسئلة أصرح، وأن يزيد اعتمادهم على الإجابات المقدمة فى موقف تزداد فيه الأمانة.

وإذا شعر الطبيب بنفسه على توافق مع المريض الذى يتكيف مع تقدم مرضه، فسوف يجد أن رعاية المحتضر يمكن أن تكون تجربة مثمرة أكثر منها اعترافا بالفشل. وفى مقدوره أن يستخدم معرفته ومهارته الطبية فى منع المتاعب البدنية، وبذلك يخفف عن مريضه سببا شائعا للخوف. سوف يلاحظ الطبيب أيضا تعليقات الإنسان المحتضر ويستمع فى تعاطف ، ويتعلم مدى تقدم مريضه نحو تقبل النهاية. وقد لا يحتاج إلى أكثر من الاستماع ، أو لعله يرى أن المطلوب زيادة قليلة فى المساعدة. إن الفهم والحدس يدلان على أوان الحاجة إلى التشجيع والطمأنينة للتغلب على المخاوف التى لا أساس لها ، والتغييرات فى العلاج، وتقديم المساعدة إلى الأقارب ، أو ما لا يزيد أو ينقص عن الصحبة الإنسانية.

إن الناس المحتضرين غالبا ما يجدون من الإنجازات المُرضية تسوية الأمور العملية المختلفة، وهى التى تتعلق بالحياة العائلية، والممتلكات ومسئولية العمل.

ويمكن أن يشعروا بالاكتمال ، ويجدوا السرور فى التأكد من أن الذين يعولونهم سيعرفون الجميل لتخطيطهم المسبق. وربما استطاع أولئك الذين يدركون أن وجودهم على شفا الأفول أن يكسبوا من الحياة فريدا قليلا بالتعجيل من خططهم، بل الإقدام على زواج مقترح ، وبذلك يتمتعون بالمسرّات المشتركة، وإن كانت حلوة مرة.

ليس من النادر بين الناس المحتضرين أن يحصلوا على مزيد من السرور من أيامهم الباقية بصورة تفوق ما يمكن أن يتصوره الآخرون. إن الزوجين اللذين يتزوجان على الرغم من معرفة أحدهما أن الآخر مقبل على الموت ، قد يشعران بالحزن الشديد عندما يقترب الموت، كما يحزن من أجلهما الآخرون ، لكنهما واثقان تماما بأنهما كانا على صواب فى استغلال الحياة التى يمكن التمتع بها. وهما يشعران بحق أن الحاجة لا تدعو إلى رفض الحياة، لأنهما على طريق الموت. ولا يريد آخرون عند الاحتضار أن ينجزوا أعمالا ، ولكنهم يقدرون على مراجعة حياتهم بسرور تام ، ويشعرون بالرضا على وجه العموم على إنجازاتها وإشباعاتها. ويرغب آخرون عند معرفتهم بالموقف فى تهيئة أنفسهم من الناحية الروحية فى سبيل وجودهم الخالد المتوقع.

إن نسبة عظيمة من الناس ، وبخاصة من العجائز ، تصل إلى استعداد تام للموت قبل أن يفقدوا الوعى فى النهاية. ويبلغ البعض هذا من دون مساعدة ، وبعضهم يدعمهم إيمانهم الدينى ، ويساعد بعضهم الفهم المتفتح عند أولئك الذين يقومون برعايتهم ، ولعل رجل الدين هو الإنسان المناسب لقيادة الطريق إلى التقبّل. وإذا تمكّن الطبيب من الدخول فى هذه العلاقة المفتوحة ، فلن يقتصر الأمر على مجرد إزالة الخداع والحدود الصناعية المفروضة على حديثهما بتفادى أهم الملامح فى الموقف ، وإنما يُدعّم الروحَ المعنوية عند المحتضر علمُه بأن رعايته سوف تكون بروح التفهّم . وربما احتاج الطبيب أن يبذل شيئًا قليلاً من نفسه لمريضه، وقد يتعرض للحزن . وقد يكسب بلعب دوره الذى تدعو الحاجة إليه فى تقديم المساعدة ، بينما يصل مريضه إلى تقبل الاحتضار فى سلام ، وهناك أوقات يكون فيها مستوى التقبل والرضاء الذى يبلغه الإنسان المحتضر عونا لأولئك الذين من حوله.

الفصل الرابع

الموت والأطفال

سيمون يودكين Simon Yudkin

من المفترض الآن أن نفهم أطفالنا، ونقبل نوباتهم من الغضب، والتعبيرات العنيفة عما يحبون ويكرهون. وعلينا أن نأخذ اهتمامهم بالظواهر البيولوجية مأخذ التسليم، ونجيب على أسئلتهم عن هذه الأمور كأنهم يسألون عن الطقس. وإذا كان من الحق أننا مستعدون بل متحمسون لتفسير كيفية نمو الأطفال، والسماح لأطفالنا بجسّ الطفل في بطن "مامى" وحتى شرح اجتماع البذرتين معا، إلا أن الموت ليس على قائمة الموضوعات المقررة. ولم يكن الأمر كذلك دائمًا، إذ إن التغيير حديث تمامًا.

منذ عهد قريب تماما، كان موت الكبار - بل موت الأصدقاء والإخوة والأخوات - تجربة تدخل فى حياة أغلب الأطفال، حتى إذا كانوا صغارا تماما. كأن موت الوليد حديثًا من أخطار الحمل المقبولة، وكانت حياة الطفل بعد بضع سنين من بواكير الحياة تعتبر شيئا شبيها بالظاهرة، وذلك حتى قرنين فيما مضى. واستطاع روسو Rousseau عند كتابته عن تربية الأطفال فى إميل Emile (1762) أن يقول: " نادرا ما يعيش نصف الأطفال المواليد جميعا حتى يبلغوا المراهقة، ومن الراجح جدا ألا يعيش تلميذك حتى يصبح رجلاً"[1]. ويصف المؤرخ إدوارد جيبون Edward Gibbon كيف ظل والده يسمى

(1) Rousseau, J.J. (1762) Emile, Everyman Library, P.42.

أبناء متتابعين باسم إدوارد حتى يمكن أن يعيش طفل يستبقى هذا الاسم فى العائلة(١).

إن معدل الوفيات بين المواليد وصغار الأطفال يعنى اضطرار العادات والتقاليد الثقافية إلى التكيف مع هذه الظاهرة. وقد تكون كلمة "اضطرار" تعبيرا شديد القوة. كان الموت كثير التردد حقا، ولكنه كان مثل عواصف الشتاء، فى حتميته والعجز عن فهمه. سمحت التقاليد بشيء من الأسى، لكنها هيأت تعويد كل واحد على الخسارة المحتومة، ولا بد أنها كانت ناجحة إلى حد متوسط على الأقل. وكان موت وليد أو طفل مقبولا مع شيء من رباطة الجأش فى العصور الوسطى. ويذكر آريه Ariés مثلا كيف أن أحد الجيران هدّأ من مخاوف سيدة كانت قد وضعت وليدها السادس الذى لا يعلم شيئا بقوله: " سوف تفقدين نصف مواليداك أو تفقدينهم جميعا قبل أن يكبروا حتى يزعجوك"(٢) .

واستطاع مونتانى Montaigne أن يكتب: " لقد فقدت طفلين أو ثلاثة أطفال فى باكورة عمرهم، لا بغير أسف، بل بغير أسى كبير"(٣). لعل مثل هذه المواقف كانت شائعة جدا.

وإذا كان الآباء فى أى عصر من التاريخ يشعرون بالأسى الذى لا يُجدى فيه عزاء، فإن عمق الأسى لا بد أن تكون له بعض العلاقة مع عمر الطفل وفرصته فى الموت، ومدى العلاقة الوثيقة بين الطفل ووالديه. ولا بد أن هذه العوامل متشابكة ويحتاج الأمر إلى زمن حتى يقيم الآباء ارتباطات مع أطفالهم، وينشئوا ذكريات وآمالا، وروابط من الحيوات المتشابكة. بل إن معظم الآباء اليوم يظهرون الحزن – بدلا من الأسى –

(1) Gibbon, E. quoted by Illingworth, R.S. and Illingworth, C.M., Lessons from childhood, Livingstone, 1966.

(2) Aries, p., Centuries of Childhood, Jonathan cap, 1962, p.38.

(3) Montaigne, M.de, quoted by Aries, loc cit, p.39.

على الوليد الذى يموت فى أثناء الولادة، أو بعد يوم أو يومين من ولادته. وعندما كان من المعهود أن يموت خمسة أو ستة أطفال من عشرة، فلا بد أن الآباء أنشئوا روابط أقل قوة، وتمتعوا بآمال أقل انطلاقا، أكثر من الآن فى هذه البلاد، حين يعيش كل طفل وليد حتى الحياة البالغة. ومع ذلك، ما زلتُ أذكر، حتى عهد قريب فى الثلاثينيات من القرن العشرين أمهات لعائلات كبيرة يتحدثن فى شىء من التصبر عن " دفن اثنين أو ثلاثة أطفال". ولا بد أن التعود على موت الرضع والأطفال قد ربى التسليم بالواقع، مترجمًا فى صور مختلفة لعلها من قبيل: "إرادة الله"، و"التسليم لإرادة الله"، أو اعتبار الأمر ببساطة كأنه ظاهرة طبيعية كالحياة نفسها، وكان يشيع مثلها تقريبا فى العصور الأولى. ولما أقبل القرن الثامن عشر، كان الحزن والأسى لفقدان طفل قد أصبح سلوكًا مقبولا بين أولئك الذين نعرف شيئا عن حياتهم الخاصة. واستطاع جوزيف أديسون Joseph Addison أن يكتب: " .... عندما أصادف أسى الآباء منقوشًا على شاهد قبر، يذوب قلبى فى تعاطف....."[1] وكانت مارى فيرنى Mary Verney فى أوائل ١٦٤٧، فقد فقدت طفلها الصغير رالف Ralph وابنتها بيج Peg فى نفس الوقت تقريبًا، فكتبت إلى زوجها وهى تؤكد أن" ثقتى فى ربى، لأنه وهبهما لى، وأخذهما منى"، لكنها استمرت قائلة: " آمل وأومن بأنه فى بِرِّه سيخلصنى من كل متاعبى، ويمن على عقلى بشىء من الهدوء، وأن يجذبنى إليه، ذلك بأننى لن أستطيع الاطئمنان إلى أى شىء فى هذا العالم، حتى أكون معه"[2].

إن الحقيقة السكانية، وهى حياة الأطفال الأكيدة تقريبا للمواليد فى بلادنا اليوم، قد أمكنت من نشأة الروابط القوية الوثيقة بين الآباء والأطفال، وهى التى تؤكد على أهميتها النفسية. لكن فصم مثل هذه العلاقات المتشابكة يُخلِّف جراحا دامية حساسة،

---

(1) Addison, J., "Thoughts in Westminister Abbey", Essays of Addison (J.R. Green, Editor), Mc Millan, 1965, P.377.

(2) Verney, M., quoted by king Hall, M. The story of the Nursery, Routledge & Kegan Paul, 1958, P81.

قد تكون عصيّة على الاحتمال إذا كان موت الأطفال اليوم شائعا كما كان من قرنين فيما مضى. إن موت أحد الأطفال اليوم يعتبر أمرا فاحشا، وهو عبء ، لا ينبغى أن يتوقع الآباء احتماله، فهم يعانون منه طوال سنوات، بينما ينسحب الأقارب والأصدقاء فى مؤامرة دفاعية من الصمت، بعد انقضاء تعاطفهم الفورى.

فى الأزمنة السابقة، لم يكن الأطفال مستبعدين أيضا من مشكلات الحياة والموت. كان الأطفال، منذ عصر مبكر، جزءا من مجتمع الكبار، حيث كان العنف والمرض والموت شائعا بين جميع الأعمار. وكان الأطفال يشاركون نتيجة لانعدام الوعى التام فى عالم الكبار. وربما رأى الأطفال، أو حملهم أهلوهم لرؤية شنق أحد المجرمين، ولم تكن معارك العنف والسُكْر التى تنتهى بالقتل غير شائعة. أما فى أحياء المدن الأدنى فى مستوى الصحة، والتى كانت تعجّ بالأطفال على كل حال، فربما صادف الطفل رضيعا مهجورا، وقد يكون لا يزال حيا، فى حفرة أو فوق كومة من النفايات. كان إخفاء مثل هذه الأحداث عن الأطفال غير ممكن فى الشوارع الخلفية المزدحمة، وحتى فى قصور الريف كان الموت أشيع جدا من القدرة على تجاهله أو إهماله. كان الاحتمال كبيرا فى موت بعض إخوة الطفل أو أخواته على الأقل وهم صغار. وربما كان الطفل نفسه على عتبة الموت فى كل مرض.

الموت فى أدب الأطفال :

إن الأدب الذى يمثل التجربة اليومية ويفسرها، قد اشتمل كذلك على الموت باعتباره جزءا من تلك التجربة. إن موت طفل يسبب المرض أو العنف، ومشاركة الأطفال الآخرين فى الحدث كان جزءا متكاملا مع الأدب، وقدم عنصرا دراميا ذا مصداقية مهمة فى حبكة الرواية. أما فى أدب اليوم، فإن الحروب والأوبئة والمصائب الكبرى الأخرى هى وحدها التى تهيئ مناسبة معقولة، قد يموت فيها الطفل.

ظل الموت بين الأطفال شائعًا، وظل أدب الأطفال وعاداتهم فى تصوير هذه الحقيقة، حتى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، عندما بدأ الأطفال يحصلون على عالمهم الخاص بألعابهم، وأسلوبهم الخاص بملابسهم وأدبهم أنفسهم . مات الأطفال فى الكتب والأشعار فى صورة بطيئة مؤلمة من المرض، وصورة عنيفة بالغرق فى الآبار أو البحر، أو الاحتباس فى البيوت المحترقة، أو السقوط من فوق أسطح البيوت، أو السقوط تحت الأحصنة.

كان الموقف تجاه الأطفال فى هذه الأزمنة مركبا من أمزجة عديدة، مثل التسلط والعاطفية، وحتى بداية التقدير الحقيقى للمصالح الخاصة بالأطفال. وقدم الموت لكل من هذه الأمزجة أمثلة وتوضيحات. كان المزاج التسلطى مباشرا متوقعا. وقف الموت نذيرا. ربما نشأ من العصيان، أو تجاهل التحذيرات، أو الإهمال، أو من إحدى الخطايا الألف اليومية، التى كان الطفل فى العصر الفيكتورى يتعلم اجتنابها. كانت سهولة التخلص من الأطفال فى قصص الصغار أمرا مدهشا حقا. كان كل نشاط فى الحياة اليومية تقريبا قد ينتهى بالموت أو الإصابة العنيفة (كانت كلتا الكلمتين تستعمل بصورة متبادلة) فى قصص من أمثال: رياضات خطيرة **Dangerous Sports**، قصة مقدمة إلى الأطفال تحذيرا لهم من الشقاوة **A Tale Addressed To Children warning Them against wanton**، أو التعرض المؤذى للمواقف التى ينشأ عنها فى الغالب إصابات مزعجة **A Mischievous Exposure To Situations From Which Alarming Injuries so often Proceed**، وقد نشرت فى عام ١٨٠٨[1] .

وقد يؤدى إهمال الطفل أحيانا إلى موت أخ أو أخت ضحية فى سبيل تعليم الطفل المهمل درسا.

(1) Quoted by Avery, G., Nineteenth-Century Children, Hodder and Stoughton, 1965, P.213.

ثم أصبحت التحذيرات أقل شيوعا فى الجزء الأخير من القرن التاسع عشر، وأصبحت براءة الطفولة موضوعا شائعا فى أدب الكبار والأطفال. وأصبحت وفيات الأطفال، وكانت لا تزال عديدة، مناسبة لمشاعر عاطفية تكاد تبعث على الغثيان. وتعتبر وفاة وليم كارليل William Carlyle فى إيست لين East Lynne من أحسن الأمثلة على هذا المذهب.

"تأمل بصوت عالٍ فقال: " أتعجب كيف تكون الأمور. ستكون هناك المدينة الجميلة مع أبوابها اللؤلؤية، وأحجارها الثمينة اللامعة، وشوارعها الذهبية.. هل سيأتى المسيح إلىّ، يا مدام فين Vane (أمه) ؟.... سيكون من دواعى السرور أن أكون هناك، لا أشعر بالتعب أو المرض مرة أخرى أبدا". همس وليم وهو يرفع يده الضعيفة، ويربت بها على خد أبيه: " لا تبك يا أبى، لست خائفا من الموت، فإن المسيح قادم إلىّ(١)".

إن التأثير المتغلغل للدين قد أظهر نفسه فى كلا المزاجين التسلطى والعاطفى تجاه الأطفال – قدّم الدين تهدئة قليلة للطفل الفيكتورى الذى كان يتلقى التعليم الدائم بأن طاعة الوالدين تبلغ فى الأهمية طاعة الله، أو هى مثلها. وكانت التحذيرات من الموت تؤكدها أوصاف المركبات القادمة فى الجحيم حيث يذهب كل الخاطئين.

إن الله يفرح بأولئك الذين يقولون

كلمة الصدق، ولكن كل كاذب

لا بد أن يأخذ نصيبه فى البحيرة

التى تشتعل بالكبريت والنيران(٢)

---

(1) Mrs. Henry wood, quoted by coveney, P., The Image of Childhood Penguin Books, 1967, P.183.

(2) Quoted by King-Hall, loc, cit., p.158.

هذا الشعر الذى يزين أحد المفارش كان معهودا إلى حد كبير. وقدم إسحاق واتس Isaac watts هذا المستقبل للطفل المخالف:(١)

سوف تقتلع الغربان عينيك

وكذلك تنهشهما النسور(٢)

ربما كان هناك مزيد من التهدئة للطفل المريض، وكذلك للآباء من غير شك فى وصف الجنة بأنها ملاذ للسلام، تخلو من الألم والأسف، وهى تدعو إلى الابتهاج فى الرعاية المُحبة للمسيح. ولكن المصداقية، وحتى التهدئة لا بد أنها بالغت حتى غاية حدودها أحيانا. ها هنا فقرة تصف موت صبىّ من تشنجات مرض الكلب بعد عقرة من كلب عقور:

" كانت صراعات الجسم من المشاهد المرعبة عند رؤيتها، وكان يبدو أن الروح مع ذلك فى سلام تام، وكأنما أعين الجسم على احتمال عذاباته الغامرة بالرحمات الغامرة من المسيح الكامن فيه .

"تعجبت مرة أخرى قائلاً: يا إلياس، يا إلهى!. وطمأنه أبوه: سرعان ما ستكون سعيدا مستريحا، يا جونى Johnny ! فأجاب "أى نعم، سأكون سعيدا جدا"(٣).

لكن التهديد الدائم بالموت هو الذى يدهش القارئ الحديث فى قصص الكبار والأطفال فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. هل يمكن أن نتصور اليوم أى واحد يؤلف هذه الأنشودة: أغنية لعقول الأطفال Hymnn for Infant Minds

---

(1) Quoted by King-Hall, loc, cit., p.158.

(2) Watts Isaac, Divine and Moral Songs for children, King-Hall loc.cit., p. 157.

(3) De varies, L., Little Wide - Awake, Arther barker, !967, P.35.

الطفل

أخبريني، يا ماما، هل يجب أن أموت

يوما كما مات وليد صغير؛

وأبدو باهتًا جدا وأرقد

فى الحفرة إلى جواره؟

ماما

من الحق يا حبيبى أنك لا بد أن تموت؛

إن الله الذى خلقك يقول لا بد

أن تموت وكل واحد منا سيموت،

مثل الوليد الحبيب فى التراب.

هذه الأيدى والأقدام والرءوس المشغولة،

سوف تبلى وتتهشم تمام

وإذا كان جسمك سيموت،

فإن هناك شيئا لا يمكن أن يتحلل[1].

من العسير أن نتأكد من كيفية تأثير هذه الحكايات والتحذيرات على أغلب قرائها. وربما كان عدد من تحذيرات الغرق والحريق والأطراف المكسورة والموت أيضا من الحقائق؛ بحيث أكدته تجربة الطفل الشخصية، وقد أشارت بعض القصص إلى

(1) Ibid., p.95.

الأخلاق التى لا يستطيع أى طفل أن يهرب منها. ولعل حكايات السعادة والبهجة فى الجنة كانت تبدو حقيقية تماما عند الكثير من الأطفال. ومن الراجح بصفة عامة على كل حال، أن قدرا كبيرا مما كان يُغَنى أو يُقرأ فى هذه الحكايات والأشعار كان قليل المعنى على نحو أشعار الأطفال فى العصر الحديث.

نحن نجهل تأثير الكثير من الأدب الذى قرأه أو تعلمه الأطفال بل إننا نعرف ما هو أقل عن كيفية شعور الأطفال وتأثرهم عند موت أخ أو أخت أو صديق أو أحد الوالدين أو أى قريب وثيق آخر، وإن كان الأدب يوحى: باستغلال الموت فرصة لإصدار التحذيرات المناسبة، أو تأكيد الإيمان بالحياة الطيبة التى تنتظر ذوى القلوب الطاهرة عند موتهم.

فهم الطفل للموت:

نعرف اليوم مزيدا قليلا عن تطور عقول الأطفال وأفكارهم، ولكننا ما زلنا نعرف قليلا جدا عن كيفية تفكيرهم فى الموت. ولا يزال موقفنا اليوم أن نحاول حظر الموضوع كليا. ومما يعكس الخطر بصفة جزئية الإلغاء الحقيقى تقريبا للموت فى الطفولة فى بلاد مثل بلادنا. إن قليلين من الأطفال يموتون اليوم. ويفقد قليلون اليوم أخا أو أختا، ويفقد القليلون نسبيا أبا أو أما، وهم لا يزالون أطفالا. كيف يفكر الأطفال فى الموت؟ موت الآخرين، أو الموت الممكن لهم؟ هناك قليل جدا من الدراسة الحقيقية. ولا يولد الأطفال فاهمين للنمو والتطور، والحياة والموت، والعلاقات مع الناس الآخرين. وتأتى هذه المفاهيم بالتدريج من التجربة، أو مما نتعلمه. إن حقيقة الموت البيولوجية، وفصمه النهائى للعلاقة عسير على فهم الكبار بصورة كافية.

إن الأطفال الصغار جدا لا يعرفون شيئا من هذا كله. وحالما يصبح الوليد واعياً بوجود الناس الآخرين باعتبارهم أفرادا متميزين عن نفسه، ومتميزين عن الأشخاص الذين يقدمون إليه التغذية والتهدئة، فإنه يبدأ فى إدراك الخسارة، والإحساس بالغياب.

إن فكرته عن الزمن صغيرة، وهو يعجز عن التمييز بين الانفصال على مدى قصير أو مدى طويل. لكنه يتعلم بسرعة حقائق الاختفاء والظهور من جديد.

إن لعبة تغطية الوجه وكشفه "Peek-a-boo" – ويبدو أنها عالمية تقريبا عند صغار الأطفال – قد تكون إحدى الطرق التى يساعد بها الآباء الأطفال على تعلم الفارق. إن التوقع المخيف والشعور المتفجر بالتخفيف لدى الطفل الذى يلعب هذه اللعبة يبين كيف يكون القلق حقا عند الخسارة المحتملة. لكن الأطفال يتعلمون بسرعة كبيرة – فيما يبدو – أن يفرقوا بين الانفصال على مدى طويل أو مدى قصير. وغالبا ما يتعلم الطفل عند نهاية السنة الأولى أو نحوها أن يتحمل الانفصال على مدى قصير برباطة جأش. وتساعده تجربته وتقديره التدريجى لتتابع الزمن. ويبدو أن الطفل يعاني على الأقل بعض ملامح الحزن والأسى التى يبديها الكبار فى هذا العمر أيضا، عندما يواجه الانفصال على مدى طويل عن إنسان يرتبط به، وذلك بالطبع من دون العمق الذى تجلبه الذكريات والتوقعات[1].

عندما يبلغ الطفل نحو عامين أو ثلاثة يتشابك الخيال مع التجربة، ويتخذ الموت أبعادا جديدة من الفضول والقلق والخوف. وتكون تجربة الطفل الأولى للموت فى بلاد مثل بلادنا على علاقة بحيواناته على الأرجح. وتأتى تجربة الطفل – بالإضافة إلى ذلك – فى نطاق المشاعر والاستجابات عند الكبار من حوله تجاه الموضوع نفسه. فالطفل الذى يرى طائرا أو أرنبا أو حيوانا أليفا ميتا يهتم بالفارق بين "الحى والميت". وسرعان ما يتعلم أن الأشياء "الميتة" ذات خصائص مختلفة عن الأشياء "الحيّة". وغالبا ما يكون تأثيره العاطفى ضعيفا جدا، وربما تقبل والده هذا؛ حيث إن تأثرهم العاطفى نفسه ضعيف أيضا. وقد يشعر الآباء بالصدمة أحيانا على كل حال نتيجة لأسئلة الطفل حتى عن موت حيوان أليف.

---

(1) Bowlby, J., Grief and Mourning in infancy and Early childhood, Psycho analysis study of the child, vol.xv, P.9, 1960.

أما مــوت أحــد الأجــداد، أو موت أحد الوالدين، أو قريب محبوب آخر نادرا، أو موت واحد من جيله نفسه فى حالة أندر، فهو أمر مختلف تماما. وإذا كان الآباء يأملون أن تجربته لموت الحيوانات الأليفة قد يساعد الطفل على فهم الشخص الحقيقى، فالاحتمال بعيد فى تحقيق ذلك. وإذا مات قريب أو صديق للعائلة، فالاحتمال بعيد جدا فى أن يرى الطفل الجثة، والأرجح تماما ألا يقال له إن الشخص ميت، وإنما يقال فحسب إنه "ذهب فى رحلة"، أو "سافر بعيداً"، ويمكن أن يقال إنه "صعد إلى الجنة". لكن الطفل يمكن أن يرى بالطبع أن شيئا خاصا قد حدث، نظرا للاضطراب العاطفى فى عائلته، والهمس السرى، وتفادى الكلام المباشر. وحتى إذا قيل له إن الشخص قد مات، فإن شعورنا بالحرج والاهتمام عند حديثه عن موت أحد لا يعرفه معرفة جيدة على نحو ما يتحدث به بطريقة منعزلة غريبة عن موت حيوانه الأليف، لا بد أن تؤدى إلى شعوره شعورا شديدا بالبلبلة والاضطراب.

لكن الطفل بين الثالثة والسابعة من عمره لا يتعلم الحقائق ويجرب المواقف الاجتماعية نحو الموت فحسب، وإنما يعيش تخيلات كثيرة أيضا. ويختلط الخيال بالحقائق، وبالمواقف عند الكبار، ويضيف الرعب إلى الخيال. يعرف الطفل ما يكون عندما يحبس نَفَسه، ويعرف كيف يكون الحال عندما يكون وحيدا. ويمكن أن يتصور كيف يشبه الأمر عند الوجود فى صندوق تحت الأرض. وقد يعنى الموت أن يصحو الإنسان، ويجد نفسه فى صندوق تحت الأرض، عاجزا عن التنفس، عندما تكافح وأنت تحبس نَفَسك. وقد يعنى أن تظل وحيداً إلى الأبد.

قد يكون الموت عند الأطفال على مستوى شخصى. إذ يعنى الموت ما يُفعل بك بواسطة الآخرين، أو الله جزاء على ســوء عمــلك أو شرك، أو بواسطة عدو يحاربك أو يكرهك، وقد يموت موتا عنيفا مثل الموت على شاشة التليفزيون أو السينما. ويبدو أن الأطفال يلعبون فى كل مكان ألعابا يقتل فيها بعضهم بعضا، أو يموتون بصورة

عنيفة "طاخ! طاخ! أنت ميت!" يصحب هذا شعور أكيد بأن الذى أطلق عليه الرصاص حى غير ميت، ويبدو أنها مهمة فى معالجة الخوف.

تأثير مواقف الكبار:

عندما نتناول التخيلات فى عالم الطفل وفهمه الضعيف نسبيا للتعقيدات فى أنماط ثقافتنا الخاصة عن الموضوعات المقبولة والممنوعة، فربما نبدأ فى تقدير كيفية إسهام سلوكنا الخاص فى المخاوف والتخيلات. وقد نرجع الآن إلى الطريقة التى واجه بها الأطفال الموت بصورة متكررة وهم مهددون دائما بالموت ونار جهنم فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، لكن حرصنا على السرّية فيه ألوان من الفشل أيضا، فربما ترك أطفالنا بغير دفاع أمام تخيلاتهم الخاصة. لعل الفيكتوريين أرعبوا الأطفال بأوصافهم الواقعية للاحتضار والموت، وتفصيلاتهم عن الله والجنة والنار. ونحن نسمح لهم بالرعب من مجتمعنا، والسرّية لدينا، وتعاستنا الخاصة وغالبا ما تكون مستخفية. تناول الفيكتوريون رحيل الأطفال من هذه الدنيا، ومنعوا موضوع نشأتهم من المناقشة المهذبة. وقد عكسنا العملية. لكننا لم نمنع تخيلات أطفالنا عن الموت، كما أن محاولاتنا الفجة لحمايتهم من الواقع تسمح – فى بساطة – بزيادة تخيلاتهم.

الحزن والأسى Grief and Mourning:

يستطيع الأطفال أن يشعروا بالحزن والأسى، لموت أحد أحبائهم، وسيفعلون ذلك – إذا سنحت الفرصة – من غير شعور بالخجل. قد يكون حزنهم الفورى قصير المدى، وقد يزيد غضبتهم العاطفة العميقة غير المعهودة بصورة واضحة أكثر من خسارتهم الحقيقية، لكن الطفل بعد فوات الأمر العاجل – قد يبدأ فى افتقاد حقيقة الإنسان الذى عرفه وأحبه، وربما افتقد زياراته، أو لعبه أو جوانب أخرى من علاقته، وربما شعر عندئذ بالحزن والأسى فترة طويلة. ولعله يشعر بالذنب للأفكار السيئة التى جالت

،بخاطره أحيانا عن الميت، أو يثير موت أحد الكبار بواعث قلقه على إمكان موت أبويه بصفة خاصة. وقد يفهم أبواه - لو كانا ذَوَىْ حساسية - ما يجرى، ويتيحان الفرصة له حتى يظهر حزنه. والأغلب أن يدرك الطفل أن الموضوع ليس محل ترحيب، فيحتفظ به لنفسه وربما أشار إلى همه هدوءه فقط، أو حدة مزاجه بغير سبب أحيانا، أو ربما قلقه وأرقه ليلا، لا على الإنسان المفقود فقط وإنما على عجزه عن الكلام عما يشعر به شعورا عميقا جدا.

عند أمثال هؤلاء إذن، يكون الحزن على الموت وكذلك تكون التخيلات - سواء عن الله، أو الشيطان، أو العقاب أو الشعور بالذنب - تخيلات حقيقية بصورة كافية، وهى مخيفة فى العادة. لكن تخيلاتهم تجعل فهمهم مختلفا عن فهمنا، ونحن فى حاجة إلى الحساسية تجاه البساطة فى تفكيرهم، والتنوع الممكن فى تخيلاتهم، إذا كان لنا أن نتحدث إليهم عن الموت.

يتقدم الطفل الأكبر بالتدريج فى تطوير فهمه للموت بصورة تزداد فى الواقعية. وقد تتراجع بعض التخيلات، ويتخذ الحزن والأسى على موت أحد الأحباء صورة أقرب إلى الصورة عند الكبار. وتصبح مواقفه الآن شبيهة بتلك الموجودة عند بقية عائلته وثقافته الخاصة.

موقف الطفل من موته الشخصى :

إذا كان الأطفال فى سن الثانية إلى الثالثة على وعى بالموت وخوف منه، فإن الخوف من موت أنفسهم يبدو نادرا، وهو عند وجوده يكون خوفا من الموت بحادث أو أسباب عنيفة أخرى، ولعله مجرد جانب من تخيل الموت باعتباره عقابا. إن الأطفال المرضى، حتى ولو كانوا مرضى بصورة حادة، يندر أن يتصوروا أنهم سيموتون، فضلا عن التفكير فيه مطلقا. هذا السلوك يشير بالطبع إلى بريطانيا، حيث يشفى حقا جميع الأطفال المرضى تقريبا. وقد لا يصدق على بلاد فى آسيا أو أفريقيا؛ حيث

يموت الأطفال المرضى فى الغالب. ولم يصدق الأمر على بريطانيا بالتأكيد فى العصور السابقة، حين أدرك الأطفال موت الآخرين، وأنهم قد يموتون كذلك.

"كيف يمكن أن نقول إننا سوف نعيش حتى نكبر؟ يموت أطفال كثيرون، وهم أصغر كثيرا منا؛ وإذا لم نفكر فى التهيؤ للموت، ما الذى سوف يجرى علينا؟"

كذلك يتحدث طفل في تاريخ مارجريت وايت بقلم السيدة كاميرون، Mrs.Cameron's History of Margaret Whyte The life and Death of a Good Child" أو حياة وموت طفل طيب(١).

بل إن الأطفال الحقيقيين غالبا ما أدركوا – فيما يبدو – أنهم يحتضرون، وتقبلوا هذه الحقيقية. إن قصة ريتشارد وهو الابن الصغير لجون إيفيلين John Evelyn الذى سأل عما إذا كان "يغضب الله باستخدام اسمه المقدس كثيرا جدا وهو يدعو بالتيسير"(٢)، حين كان يموت فى الخامسة من عمره، لا بد أنها تتمشى مع أولئك الأطفال الآخرين، ولعل قصتهم لم تكن على هذا النحو من التقوى.

هناك حتى الآن فى بريطانيا بعض الاستثناءات. إذ يخاف بعض الأطفال من موتهم مستقبلا ومعاناتهم كثيرا. لا يحدث هذا قليلا حول سن المراهقة، عندما يكون لدى الأطفال صور من القلق المرضى على صحتهم فى الغالب، وأكثرها بغير سبب معقول. إن بعض الخفقان أو الألم أو الورم البسيط قد يعتبر علامات على كارثة قريبة، تكون حقيقية فى الإحساس بها حتى لا يجرؤ المرء بالإعلان همسا عن الخوف. وقد يكون أطفال آخرون مرضى مثلا بمرض فى الكلية أو القلب أو الرئة، وهم يعرفون بصورة غامضة أنها أعضاء لازمة للحياة، لكنهم يعرفون مجرد المعلومات العادية الشائعة. غالبا ما يمكن طمأنة هؤلاء الأطفال بسهولة جدا، لو أتيح أن يتحدثوا عن مخاوفهم

(1) Quoted by Avery, G., loc.cit., P.214.

(2) Quoted by King -Hall, loc.cit., P.103.

وتلقوا التشجيع؛ وإلا احتفظوا بها لأنفسهم، وأظهروا فقط نفورا غاضبا، أو حزنا أو اكتئابا؛ إشارة إلى شىء فى الأعماق يبعث على قلقهم.

حتى الأطفال المرضى جدا لا يبدو أنهم على كل حال يفكرون فى احتمال موتهم بصفة عامة. ويصدق هذا حتى إذا أصيبوا بمرض قاتل فى النهاية. ومن دواعى الرحمة، أن أغلب الأطفال الذين يموتون بسبب المرض فى هذه البلاد من الرّضّع، وهم أصغر كثيرا من إدراك ما يحدث لهم. ويبرّح المرض بالآخرين حتى لا يكونوا فى وعيهم السليم. لكن هناك بضعة من الأطفال – حتى فى هذه البلاد – مصابين بمرض قاتل، وقد يكونون فى عمر يجعلهم يفهموم ما يجرى. بل إن هؤلاء لا يبدو أنهم فى الغالب مدركون؛ وإن كانوا يتحيرون من جرّاء سلوك آبائهم، أو الآخرين العارفين باحتضارهم، أو التلبية غير المعهودة لكل رغبة، أو الدموع التى لا تفسير لها ومظاهر الحب والعاطفة المفرطة.

بعض الأطفال المصابين بمرض قاتل ربما يفهمون حقا أنهم يحتضرون أو يفكرون فى الأمر على الأقل، لكنهم على الأغلب لا يسمح لهم حتى بذكر مخاوفهم، ويحتفظ كل واحد حولهم بالصمت؛ وهم يُطمئنون أنفسهم على اعتبار أن الأطفال لا يمكن أن يدركوا احتمال موتهم(١).

لا شىء اليوم يبدو أصعب من الحديث عن الموت مع الأطفال، وبخاصة عن احتمال خوفهم أنفسهم من الموت. لكن أغلب الأطفال الخائفين من الموت لا يحتضرون. وينبغى – فضلا عن ذلك – أن نتذكر أن خوف الموت عند الأطفال – سواء كان مبررا أو لا – غالبا ما يكون خوفا من شىء يختلف تماما عن مخاوف الكبار. فقد يكون خوفا من

(1) I have written more extensively elsewhere about the fear of death of children in hospital where the death of a child, though still rare excites deep emotions amongst doctors, nurses and other children. Yudkin, S., "Children and death," Lancet., Vol.1., 1967, P.37.

الوحدة، أو الألم، أو تخيلات لا اسم لها. يخاف الأطفال من الموت – عند الإصابة بمرض لا يؤدى إليه – خوفا يزيد فى الغالب على خوفهم من الموت وهم فى مرض الموت، وإذا أدركنا ذلك فإننا سوف نقدر ببساطة على مساعدة هائلة حين نسمح لهم بالحديث عن مخاوفهم، وطمأنتهم. بل إن القليل جدا من أولئك الذين يحتضرون يمكن أن يتلقوا التهدئة من شعورهم بالقرب والحماية من الخوف. لكننا نفشل فى هذا بصورة حزينة، كما أفشلنا أنفسنا بصورة حزينة جدا فى مواجهة حقيقة الموت.

مهما كان من صعوبة الحديث، مع الطفل عن الخوف من موته شخصيا، فإن للأطفال حقا فى الصدق عند موت الكبار على الأقل، وأن يفهموا أن الموت كالحياة يحدث حقا، وأن موت أحد الأحياء حدث يستحق الحزن الأسى والحداد من الآباء والأطفال أنفسهم.

القسم الثانى
مواقف تجاه الموت

الفصـــل الأول

مـواقـف تقـليـديـة تجـاه المـوت

أرنولد توينبى Arnold Toynbee

هل هناك أية مـواقف تجاه الموت تكون فطرية فى الطبيعـة البشرية ؟ هـناك على هذا الكوكب بعض الأنواع من الكائنات الحية الاجتماعية غير البشرية - مثل الحشرات الاجتماعية - ويبدو أن أساليبها فى السلوك، والمواقف الضمنية فى سلوكها مخلوقة فى طبائعها، وهى تنتقل بطريقة نمطية بالتناسل الطبيعى من جيل إلى جيل. قد يكون هناك في الطبيعة البشرية، والأرجح أن تكون هناك غرائز مخلوقة من هذا النوع. ومن الخطر فى الوقت نفسه أن نتصور أية وسائل للسلوك، أو أية مواقف تكون غريزية فى كائن كالإنسان، فهو مزوّد بالضمير، والإرادة، والقدرة على انتقاء الخيارات واتخاذ القرارات، والقوة التالية لتكوين العادات، وكسرها. وقد نجد فى التاريخ الإنسانى مواقف ووسائل فى السلوك ترجع إلى أول العصور المسجلة لدينا؛ وهى لا تزال باقية حتى اليوم، لكنّ هذا لا يضمن لنا أنها سوف تبقى خلال ألفى مليون سنة فى المستقبل أو نحو ذلك، وهو ما نفتقد استمرار مناسبة هذا الكوكب للحياة عليه. كذلك فإن تلك المواقف القديمة قدم التاريخ، والتى بقيت حتى الآن، والتى قد تكون فطرية فينا حسب المفهوم، تستحق الاعتبار قبل الانتقال إلى مواقف أخرى جاءت وذهبت؛ مهما كانت أهمية بعض هذه المواقف الأخرى - وهى عابرة نسبيا - فى الدور الذى لعبته فى الحياة الإنسانية فى الأزمنة والأماكن التى شاعت فيها.

الشعور بالكرامة الإنسانية:

إن أقدم دليل على مواقف أسلافنا من البشر تجاه الموت يوجد فى أساليبهم للتخلص من أجساد الموتى من الناس. ويبدو أن الدليل من علم الآثار يدل على ممارسة التقاليد الجنائزية منذ عهد إنسان نياندرتال Neanderthal؛ وهو الآن نوع منقرض من البشر يختلف عن الإنسان العاقل Homo Sapiens – الذى ينتمى إليه ما نسميه بالسلالات البشرية اليوم – وإن لم يكن أقدم منه عمرا على قدر ما نعلم. إن الطقوس الجنائزية ممارسات للاحتفال يُقصد بها التعبير عن تكريم الشخص المتوفى، والتعبير عن الحزن جرّاء فقدان هذا العضو الميت الآن فى المجتمع، والتعبير عن المهابة والاهتمام فى حضرة الموت نفسه، حين يتعلق بالكائن البشرى.

إن أقدم الآثار المقدسة وأكثرها وأعظمها عند أسلافنا تتعلق بالجنائز. فقد كانت أجساد الموتى من الكائنات البشرية فى أزمنة وأماكن مختلفة محل تكريم بطرق مدهشة مختلفة، حيث كانت تُدفن فى مدافن أو مقابر أو تحت قباب أو فى أهرام، وكانت تُحرق فوق المحرقة، ويُحفظ الرماد فى قوارير ، أو يلقى حيث تذروه الرياح. كانت تتعرض للطعام من الطيور الجارحة، أو نهش الحيوانات المفترسة، لا لأنهم غير جديرين بالتكريم، بل لأن الأرض والنار والماء كانت محل المزيد من التكريم، وكان المظنون أن هذه العناصر تتعرض للتدنيس والتحقير عند ملامسة جثة بشرية. ومهما اختلفت التقاليد الجنائزية، فقد كان لها جميعًا أهمية عامة. وكانت تعنى أن الكائن البشرى له كرامة باعتبار إنسانيته، وأن كرامته تبقى بعد موته، ولا ينبغى بناء على ذلك أن يعالج جسده الميت كأنه نفاية تُلقى بعيدا ببساطة أو كأنه جثة كائن غير بشرى ميت، أو أحذية أو ملابس بالية عند كائن بشرى.

فى مجتمعنا اليوم، هذا الموقف من التكريم تجاه الموتى، وهذا الشعور بالواجب فى تقديم "الدفن الكريم" ما زال حيا واجبا كما كان دائما، حتى بين الناس الذين يؤمنون اليوم بعقولهم أن فكرة الكرامة البشرية فكرة وهمية، وأن الكائن البشرى من ناحية القيمة يتساوى مع أى كائن حى غير بشرى، بل مع أية ظاهرة طبيعية أخرى، حية أو جامدة. وما زال الناس الذين يؤمنون بهذا يقدمون التشريف من الناحية العملية للموتى، حتى إذا كان سلوكهم هذا يتعارض مع عقائدهم، وحتى مع مبادئهم.

إن التأكيد على الموقف الإنسانى العالمى فى تكريم الموتى قد يبدو عند النظرة الأولى معرضا للنقض بالإهانات المقصودة الموجهة إلى جثث القتلى من الأعداء. وكان من المسموح به جزّ الرقاب وصور أخرى من التشويه. وكانت جمجمة العدو والمقتول تُعدَّل حتى تُستعمل كأسا للشراب. وكانت أجساد الموتى من الكائنات البشرية تُستخدم طعاما لكائنات بشرية أخرى، مثل ما تستخدم النمور وأسماك القرش التى تفترس الإنسان. كيف يمكن أن تتفق هذه الممارسات مع الشعور الحقيقى بالتكريم للميت، والممارسة العملية للتخلص من موتى الإنسان بطقوس التكريم الجنائزية.

إن السبب الرئيس فى هذه المعاملة اللاَّإنسانية للموتى الغرباء هو عادة إنسانية قديمة – قدم التاريخ – للعقلية القَبلية. إذ تميل الكائنات البشرية حتى الآن إلى اعتبار أعضاء مجتمعهم الخاص ومعاملتهم على أنهم كاملو الإنسانية، والشعور بأن أغلب الجنس البشرى من الغرباء أقل إنسانية على نحو ما، وهم بناء على ذلك لا يستأهلون تماما أن يتمتعوا بالحقوق والإنسانية الكاملة.

إن تشويه الأعداء الموتى وأكل لحوم البشر أصبح على كل حال مستهجنا عند أغلبية متزايدة من الجنس البشرى، وحتى فى المجتمعات التى مارست أكل لحوم البشر، لم يكن الباعث دائما مجرد المنفعة لإشباع الجوع البدنى عند الإنسان. وكان الباعث على أكل لحوم البشر فى بعض الأحيان هو الإيمان بأن أكل الجسد الميت للكائن البشرى يمكن أن يُضفى على المرء جميع أنواع القوة التى كانت تملكها الضحية

فى أثناء حياتها. ومن الحق أنه كانت هناك الخرافة بعينها حول أكل الأجسام الميتة للحيوانات القومية.

إن القرابين البشرية – إلى جانب أكل لحوم البشر وتشويه الموتى – من الممارسات التى أصحبت تثير الاشمئزاز وتخضع للحظر الصارم. هذه الممارسة الفظيعة لم تكن على كل حال إنكارا ساخرا للكرامة البشرية، وإنما كانت شذوذا مؤكدا يحسه الإنسان فى أعماق قلبه. وإذا اعتقد الإنسان فى كفاءة التضحية وواجبها فى صورة إزهاق حياة كائن حى باعتبارها أسلوبا فى تمجيد الإله واسترضائه فكلما ارتفعت قيمة الضحية أصبح العطاء إذن أدعى إلى القبول.

إن أعلى أنواع الضحية قيمة هو الضحية البشرية، حيث كان الإنسان يعتبر أرقى أنواع الكائنات الحية. وأدعى أنواع الضحايا البشرية إلى القبول سيكون طفل الإنسان نفسه، وأكبر أبناء الإنسان فوق كل شىء، حيث إن ما يعانيه من ألم وأسى فى تقديمه عامدا إلى الموت سيكون مقياسا لما يشعر به من تقوى الله الذى يقدم إليه القربان. وقد شاعت ممارسة تقديم القربان البشرى على هذا الأساس على نطاق واسع فى الماضى وكانت ممارسته لا تزال شائعة فى عهد بوسانيوس **Pasusanius**(١) فى مذبح زيوس لايكايوس **Zeus Lykaius** فى أركاديا، وكان شائعا فى أمريكا الوسطى قبل العهد الكولولمبى **Pre-Columban**، وكذلك فى كنعان والمستعمرات الكنعانية فى شمال غرب أفريقيا خلال الأعوام الألف الأخيرة قبل الميلاد.

إن الأمثلة الكلاسيكية المسجلة فى العهد القديم، هى تضحية يَفْتاح بابنته لربّه يهواه تحقيقا للنذر(٢)، وتضحية الملك ميشع بابنه ووريثه لربّه **Chemosh** على أسوار مدينة كير – هَراسيت **Kir -Haraseth**(٣).

(1) Pausanius, Book V111, Chap.38 P.7.
(2) Judgesxi, 30-40.
(3)2 Kings,iii, 27.

ومن المسجّل أيضا، أن كلاً من الملك أهاز Ahaz والملك ماناسيه Manasseh فى يهوذا "قدم ابنه إلى النار"[١]. إن قصة أمر يهواه لإبراهيم أن يضحى بولده الوحيد إسحق، والتخلى عن أمره حين كانت التضحية على شفا التنفيذ[٢]، تعكس تخفيف هذه الطقوس المرعبة. وتم استبدال الحيوان بالضحية البشرية، ويشهد الدليل من علم الآثار فى قرطاجة على استخدام البديل من الضحية الحيوانية عوضا عن الضحية البشرية.

لقد تم إلغاء هذه الممارسة للتضحية البشرية بصورة عالمية تقريبا فيما عدا حالة الحرب، إذ يُحكَم على ملايين من الشباب بالقتل، أو قيامهم بقتل غيرهم فى حياتنا، باعتبارهم ضحايا بشرية للقوة البشرية الجماعية المتألهة فى أمة متغطرسة[٣]. من المهم أن يُضَحَّى بشاب فى معركة، ثم يكرّمه مجتمعه، وقد كان فى حالات كثيرة ضحية فخورة مستعدة.

إن الضحايا البشرية التى تمت التضحية بها على مذابح الأزيتك، أو "دُفعوا إلى النار" بواسطة ملوك كنعان ربما كانوا فى بعض الحالات جماعات موافقة. من الواضح على كل حال، أن الضحية البشرية – وإن كانت فظيعة بما هى عليه – إنما هى تأكيد ضال للكرامة البشرية، وليست إنكارا لها بغير تقوى أو شعور.

شعور الإنسان بأن كرامته لا تتوافق مع تعرضه للموت:

فى أغلب المجتمعات البشرية، تمتع الكائن البشرى على كل حال، وكذلك الفرد فى القبيلة، فى عقول الناس بكرامة لم تُعطَ لأية كائنات حية غير بشرية. كان هذا التمييز حادا بصفة خاصة فى المجتمعات التى تدين بديانة أو أخرى من ديانات العائلة اليهودية (اليهودية والمسيحية والإسلام)(*) ونجد فى الجانب المقابل فى مصر القديمة

---

(1) 2 Kings, xvi, 3 and xxi, 6.

(2) gen., xxii, 1-18.

(٣) هناك مزيد من المناقشة فى الفصل السابع "الموت فى الحرب"

(*) كان الأصح أن يقول المؤلف: العائلة الإبراهيمية، نسبة إلى إبراهيم عليه السلام، والله يقول فى كتابه العزيز " ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين". المترجم

أن بعض الأنواع من الحيوانات كانت معبودة كالأرباب وكانت عند الموت تُكَرَّم بطقوس جنائزية بشرية، وهى طقوس كان لها فى بعض الحالات عظمة ملكية. كما أن نسبة من الجنس البشرى - وهى نسبة كبرى - من الذين يدينون بديانات أو فلسفات ذات أصول هندية فى عالم اليوم لا يضعون خطا فاصلا واضحا بين الكائنات البشرية وبين الكائنات الأخرى الشاعرة. ويتصور المؤمنون بالتناسخ أنهم قد تجسّدوا من جديد فى صورة لا بشرية فى الماضى، وقد يولدون من جديد فى صورة لا بشرية بعد موتهم التالى. وقد دفع هذا الاعتقاد الهندوس والبوذيين حتى يكونوا نباتيين. وسوف يحس كل مسافر من أهل الغرب فى الهند بالصدمة؛ لا من اطمئنان الأبقار الأليفة فحسب، وإنما من انعدام الخوف عند القرود والحدّايات والصقور والنسور. وتسعى هذه الكائنات المفترسة بجسارة على مقربة من الكائنات البشرية، وربما أخذت حريتها مع الناس لأنها تعلمت بالتجربة فى شبه القارة أن زملاءها من الكائنات البشرية لن تتحرش بها على الأرجح. ويبذل أتباع الديانة الجينية Jain جهدا كبيرا فى تفادى قتل الحشرات، ولو كان ذلك عفوا.

كان من الأشيع بصفة عامة على كل حال أن يميّز الناس إلى حد ما بين أنفسهم والكائنات الحية غير البشرية، وهو تمييز حاد عند أتباع الديانات اليهودية، وهذا التمييز دفين فى اللغة. وفى اللغة اليونانية الحديثة مثلا، تكون الكلمة العامة الدارجة التى تدل على الحصان أو البغل أو الحمار هى "ألوجون Alogon"؛ وهى تعنى الكائن الذى تنقصه ملكة العقل الإنسانى. ومن الأمور الأهم كذلك فى اليونان القديمة وبعض اللغات الإيرانية أيضا هى " الفانون Mortals".

إن استخدام كلمة "الفانين" كعنوان متميز للكائنات البشرية يتحدث أسفاراً. إن كل الكائنات الحية فوق مستوى الأميبا فانية، وكان وجود الأميبا مجهولا عند الإغريق والإيرانيين عندما تعودوا على استعمال كلمة " الفانى" مرادفًا " للإنسان". إن الصفة

المميزة للإنسان بجلاء كما أحسوها لم تكن موت الإنسان؛ وإنما كانت فى حد ذاتها عدم التوافق في حالة الإنسان بين موته؛ وهو ما يشارك فيه مع كل أنواع الحياة الأخرى على هذا الكوكب، التى تتكاثر فى نوعها بالتزاوج الجنسى، وبين سمات أخرى معينة للطبيعة البشرية، يتميز بها الإنسان بحق. يملك الإنسان وحده وعياً بذاته، وحرية الاختيار، ويسرح بتفكيره عبر الدهور التى لا تتناسب مع عمر الإنسان، وعبر المجرات التى يصعب عليه الأمل فى ملامستها بجسده أبدا، حتى لو طوّر العلم والتكنية التى مكنته ؛ لا من رؤية هذه الجسام السماوية التى يعسر تصور بعدها فحسب، وإنما من تحُليل عناصرها الكيماوية أيضا. منذ أن أدرك الإنسان نفسه أولا وأدرك الكون الذى وجد نفسه فيها، فقد لاح له أن من غير التوافق لكائن فى مثل مكانته العقلية، ومكانته الأخلاقية أيضا، وإن عرف أنه من الخاطئين، أن يتعرض للموت. ذلك بأن الموت يُحيل الكائن البشرى الحىّ إلى جثة متعفنة، تتحلل بسرعة إلى مادة غير عضوية خرجت منها الجزئيات العضوية التى تألف منها الجسم الحى. إن الموت أمر محتوم لا يرحم بالنسبة لجميع الكائنات الحية التى تتزاوج على قدم المساواة، لكنه بالنسبة للإنسان أمر مُذلّ لا توافق فيه كذلك. هذان الجانبان من الموت فى سلطان الموت على الكائنات البشرية يظهران بصورة لاذعة فى المزمور التاسع والأربعين:(1)

"لكن الإنسان لا يستطيع شراء بقائه، ولا أن يدفع لربه ثمن فدائه .... فهل له مع ذلك بقاء، أو لا يرى الهوة أبدا؟...

قبورهم هى إلى الأبد دورهم، وعلى مر الدهور مساكنهم، وإن وسموا بأسمائهم أراضيهم!

الإنسان إذا بُسط له الرزق لا يفقه، كأنه حيوان الجزارة (*).

حسنا، لا؛ إنه ليس مثل هؤلاء تماما. ومن الحق أن الإنسان مثلها محكوم عليه بالموت، لكن من الحق أيضا أن الإنسان ليس مثلهم فى معرفته السابقة بموته

---

(1) Psalm 49, verses 7, 9, 11, 12.

(*) هذه الترجمة بأسلوب محمد الصادق حسين بالاشتراك مع الأب س. دى بوركى الدومنكى. سفر المزامير . د ار المعارف. القاهرة. المترجم

القادم حين لا يزال حيا، وإذ يملك هذه المعرفة فعنده فرصة - إن شاء أن يقتنصها - فى تأمل غرابة مصيره، والتعارض الظاهرى بين السمات المختلفة للطبيعة البشرية، التى تتعايش من دون تصالح فى كل كائن بشرى. هذا التعارض حقيقة فى الطبيعة البشرية، لكنّ لدى الإنسان فرصة فى التكيف معه على الأقل، حيث إنه مزوّد بالقدرة على التفكير فيه مقدما، وإذ يفكر فيه فهو حين يواجهه ويتناوله بطريقة ما جدير بكرامته الإنسانية.

"الإنسان إذا بُسط له فى الرزق لا يفقه، كأنه حيوان الجزارة"[1].

وإذا تعثر الإنسان حقا فى موت الحيوانات وهو أعمى البصيرة، فإنه فى الحقيقية يحط من قدر نفسه إلى مستوى أدنى من مستوياتها الروحية، حيث إنه يملك حقا قدرة على مواجهة الموت ومقابلته بعينيه مفتوحتين، وهو فى هذه الحالة قد رفض الاستفادة من ملكاته الإنسانية المتميزة. فى الجانب المقابل، إذا مات، وهو يفهم حالته البشرية، فقد بيّن أنه ليس كالوحوش النافقة، حتى لو كان فانيا كذلك مثلها.

التواضع المطلوب من الإنسان لانعدام التوافق فى حالته:

لا يبدو حتى الآن حدّ لقدرة الإنسان على الفهم بالمعنى العقلى ولا حد كذلك لقدرته على تحويل فهمه إلى تطبيق عملى بتطبيق العلم على التكنية. إن المنحنى المتصاعد للتقدم التكنى عند الإنسان قد تصاعد عاليا فى تزايد هندسى منذ بداية التطبيق المتعمد للعلم على التكنية فى العالم الغربى منذ ثلاثمائة عام تقريبا. ولدينا اليوم قوة مادية تبلغ درجة من القوة لم يكن يتصورها فى قدرة الإنسان حتى أسلافنا القريبون. لكن هناك شيئًا واحدا هزم الإنسان فى عالمه، وهو الموت، كما لاحظ سوفوكليس Sophocles منذ أربعة وعشرين قرنا[2]. من الحق أن تقدم العلوم الطبية

(1) Psalm 49, Ver 20

(1) Sophocles, Antigone, Lines 361-2

منذ أيام سوفوكليس[1] قد أطال متوسط العمر المتوقع للحياة بصورة محسوسة عند الكائنات البشرية التى تشرف على خدمة طبية من الدرجة الأولى؛ وقد انخفضت وفيات الأطفال إلى حد هائل على كل حال، حتى فى المجتمعات المتخلفة نسبيا (وإن كانت الإصابات المدنية فى الحرب، عندما نختار شن الحرب، قد زادت الآن زيادة هائلة). وما زلنا نموت مع ذلك على كل حال، كما أن عجزنا عن تحرير أنفسنا من تعرضنا المتزايد لمواجهة الموت عاجلا أو آجلا ليس هو العلامة الوحيدة على فشل الإنسان، كما اقترح سوفوكليس ذلك. وليس لدى سوفوكليس الكلمة الأخيرة فى هذا الشأن. وقد أدهش سوفوكليس عبقرية الإنسان العقلية وقدرته العملية على تطبيق هذه القدرة على التكنية. وترك سوفوكليس للقديس بولس أن يضع فى المقدمة ضعف الإنسان وعجزه الروحى.

" إن الموت ثمن الخطيئة" (عند قلب الفاعل وصفته فى جملة القديس بول الأنيقة)؛ وقد سلّط الأضواءَ الغامرة على الإنسان الخطَّاء التزايدُ الهائل الحديث فى قوة الإنسان المادية. وليست نتائج أعمالنا أفضل أو أسوأ شرا مما كانت عليه حين كنا مسلحين بالأدوات المستعملة من حجر الصوّان، بدلا من تسلُّحنا الآن بالرءوس النووية التى تحملها الصواريخ الموجهة بدقة من أى مكان على سطح هذا الكوكب إلى أى مكان آخر عليه. لكن عواقب أفعالنا - الطيبة أو الشريرة على السواء - أقوى ماديا بصورة لا تقارن بما كانت عليه من قبل أبدا ، نتيجة لهذا العمل المجيد من جانبنا فى زيادة قدرتنا المادية على تطبيق العلم على التكنية؛ والتكنية قوة محايدة من الناحية الأخلاقية، ويمكن استخدامها حسب الإرادة من أجل الخير أو الشر.

لا يموت الناس بالأساليب الطبيعية فقط؛ مثل الإصابات بكائنات حيّة غير بشرية (وهو سبب نادر للموت اليوم، وإن كان أقل ندرة عندما يكون العنصر المهاجم غير البشرى ميكروبا أو فيروسا، بدلا من كونه نمرا أو سمك القرش). ولسنا نموت بسبب الأمراض التى يعجز أطباؤنا عن شفائها فقط، وهى أمراض يسهل أن تقتلنا فى عمر الشيخوخة، عندما تنخفض قدرة الكائن على تجديد نفسه، وتترك الكائن أكثر تعرضا

(1) Sophocles, Antigone, Lines 361-2 - الترجمة من المصدر السابق. المترجم

للمرض مما كان في عنفوان حياته. ونحن يقتل بعضنا بعضا عامدين، ونقتل أنفسنا على نحو أقل.

إن قتل بعض الناس بعضا بالمغامرة الخاصة؛ التي نسميها الاغتيال قد ظل محل عقاب في جميع المجتمعات؛ وكان ذلك في المجتمعات الفوضوية نسبيا بواسطة عداوات الثأر للدم، التي يمكن أن تنتهي إما بإزهاق حياة مقابل حياة، أو دفع دية الدم إلى أقارب القتيل. إن القتل المتعمد - الذي يكون ضريبة للخطيئة على كل حال - لعب دورا بسيطا؛ مقارنة بالدور العام. إن عدد الناس الذين قتلوا بصفة خاصة ظل قليلا جدا بالقياس إلى عدد أولئك الذين قتلوا في الحروب، والحرب مؤسسة تحكمها القواعد والمعاهدات.

إن مؤسسة الحرب ما كان لها أن تصبح هما زائلا حتى يؤدي تطبيق ذكاء الإنسان على إنتاج الغذاء إلى إعفائه من اضطراره إلى إنفاق وقت عمله كله في البحث عن الطعام وأكله؛ مثل ما هو مفروض على الضأن أو البقرة أو الأرنب.

كانت الحالة الثانية المساعدة على ارتكاب خطيئة الذهاب إلى الحرب هي اكتساب القدرة الكافية على التنظيم والإدارة والتأثير لتدريب أعداد من الرجال للعمل معا على أهبة رجل واحد من أجل قتل أناس آخرين بصورة منظمة، وأن يُدرّبوهم حتى يحاولوا القتل، ويخاطروا بقتل أنفسهم، دون أن يُجفلوا من هذه المحنة المزدوجة. ولم يتيسر الحصول على هاتين الحالتين قبل ميلاد الحضارة، وأقدم حضارة معروفة لنا هي الحضارة السومرية - التي نشأت فيما يعرف الآن بالعراق - نشأت فيما لا يزيد على خمسة الآف عام تقريبا. وقد أنفق الإنسان منذ ذلك الحين في أن تستغرق الحرب أكبر جانب من الوقت والطاقة والذكاء والموارد المادية مما تبقى بعد إشباع الحد الأدنى من الحاجات من أجل طعامه وملابسه ومأواه.

إن الحرب واحدة فقط من الأعراض والعواقب لفشل الإنسان أخلاقيا، ويؤدى فشله الأخلاقى إلى وقوفه وجها لوجه أمام تناقض آخر فى حالته. وإلى جانب التناقض بين شعور الإنسان بكرامته وبين الحقيقة الصلبة فى موته، هناك تناقض بين موهبة ذكائه فى السيطرة على الطبيعة غير البشرية بواسطة علمه وتكنيته، وبين قصوره الأخلاقى فى التعامل مع إخوانه من البشر، ومع نفسه، ومع الوجود الروحى، الذى يسمو على الإنسان نفسه، والذى يوجد وراء ظواهر الكون، على أية صور يمثلها هذا الوجود الروحى فى لغات الأديان المختلفة.

إن فشل الإنسان الأخلاقى يعطيه شعورا بانعدام جدواه فى التوازن مع إحساسه بالكرامة، لو أنه استخدم فعلا موهبة الفهم التى مُنِحتْ له. أما إذا غلب عليه على الرغم من ذلك الادعاء والكبرياء على التواضع والخشية فقد عرّض نفسه للكارثة. إن الكبرياء تسبق السقوط كما يقول المثل. والكبرياء حسب اللاهوت المسيحى هى أشد الكبائر السبع القاتلة شرا، لأن الكبرياء تمنع الإنسان من الاعتراف بأية خطيئة أخرى من خطاياه فهى كذلك تمنعه من التوبة والتغيير.

عندما يدرك الإنسان الحقيقة ؛ وهى أنه وزملاءه من البشر فاشلون من الناحية الأخلاقية، فإنهم لا يُسلِّمون فقط بأنهم حين يجلبون الموت على أنفسهم وعلى بعضهم بعضا، لا ينبغى أن يلوموا سوى أنفسهم. وقد يعترف أيضا بأن الموت نفسه قد لا يكون سخطا، بل هو نعمة إلهية إلى وحش تكون طبيعته هى طبيعة الإنسان، حتى إذا لم تكن الخطيئة هى سبب الموت. وإذا كانت خطيئة الإنسان دائمة فإن الموت يخفف على الأقل من مسئولية النوع البشرى أو الطبيعة، أو الله عن الحماقة والغباء فى أية عيّنة من نوعنا البشرى. لقد كان موت هتلر مثلا فضلا إلهيا.

إننا حين نعترف بفشلنا الأخلاقى؛ أى نعترف بعنصر فى الطبيعة البشرية يسميه اللاهوت المسيحى "الخطيئة الأصلية"، فنحن نعترف ضمنيا بأن الإنسان لا يمكن أن يكون أعلى كائن روحى فى الكون أو وراءه - إننا نعترف بهذا، وإن لم تكن لدينا تجربة

شخصية فى اللقاء المباشر، أو حتى الاتحاد مع هذه القوة الروحية العيا، التى يؤمن المتصوفة بتجربتها فى كثير من العقائد الدينية المختلفة. الإنسان أعلى صورة من الكائن الروحىّ إن مجرد التعبير عن هذا الافتراض هو اختزال له بالإضافة إلى السخافة لدى أى إنسان يملك أثارة من فهم لطبيعتنا البشرية.

هذه الاستجابة السلبية تتضمن عقيدة إيجابية. لكننا حين نحاول التعبير عن هذه العقيدة، فنحن نحاول تحديد ما لا يوصف، وليس من المدهش فى ثقافات مختلفة، وديانات مختلفة، أن يتم فهم حقيقة متماثلة فى صور واسعة الاختلاف. فقد صُوِّرت على أنها وجود لا شخصى يسمو فوق الشخصى: الروح القدس فى الزرادشتية واليهودية والمسيحية، والبراهما فى الهندوسية، والنرفانا فى البوذية، وقد وُصفت كذلك بأنها الوجود الشخصى حيث يكون الشخص الإلهى فى صورة الشخص الإنسانى، وحيث يكون تصور عدد الأشخاص على هيئة الفرد أو الجمع.

هذا التجسيم لمفهوم الحقيقة الإلهية – يمثله الله القوى ليس كمثله شىء فى اليهودية والإسلام، والله المتفرد – وإن لم يسلم من التحدى – فى الزرادشتية، والثالوث الإلهى فى المسيحية (وهو ثالوث يتمثل فى تجسيم فردين أو ثلاثة)، أو إله أعلى يجلس على عرش البانيثون (مثل إنليل Enlil عند السومريين، ومردوك عند البابليين، وآشور عند الآشوريين، وآمون رع فى طيبة عند المصريين، وبراهما عند الهنود، وزيوس عند الإغريق، وأودين عند السكندناف)؛ أو بواحد أو آخر من أعضاء ثانويين لا عداد لهم فى الآلهة الكثيرة (إندرا، وفيشنو، وشيفا، وأبولّو، وأثينا، وثور، وفريا Frya وهلم جرا).

عندما تُفهم الحقيقة النهائية على أنها غير شخصية؛ بمعنى أنها أسمى من شخصيته ، فلا مجال للسؤال عما إذا كانت تتعرض أو لا تتعرض للموت. إن الموت فى تجربتنا له ظاهرة مميِّزة وقاصرة على تلك الأنواع من الكائنات الحية التى تسكن على هذا الكوكب، والتى تتكاثر فى نوعها بعملية التزواج الجنسى. والإنسان واحد من هذه الكائنات، وهو بهذه المثابة معرض للموت، وإن كان فى بعض الجوانب الأخرى لا يشبه

أيا من زميلاته الكائنات الفانية الأخرى. وعندما يفُهم الوجود الروحى النهائى فيما وراء الكون بناء على ذلك على هيئة مُجسَّمة، ينشأ السؤال فعلا عما إذا كانت الآلهة، أو الإله يتعرض للموت مثل النموذج الإلهى الشخصى؛ وهو الإنسان نفسه.

كانت إحدى الإجابات المعهودة للإنسان أن الطريقة - التى هى فى الوقع أكثر الطرق تميّزا - والتى تجعل الإله فوق مستوى البشر هى أن الإله خالد.

إن الإنسان عندما يعزو الخلود إلى الآلهة إنما يعبّر بأحد التعبيرات عن شعوره بالتناقض وانعدام الكرامة فى موته. كما أن الإعفاء من الموت فى نظر الإنسان هو المؤهل الأول لاعتباره عند الإنسان فوق مستوى البشر. وهو كذلك تعبير عن الأمل، صريحا أو ضمنيا، فى أن شيئا خالدا كالكائن الحىّ - إذا وُجد حقا- فربما أمكن تحقيق الخلود بواسطة الإنسان أيضا؛ إما بواسطة أو بغير واسطة الإله الخالد، أو مساعدة الآلهة. إن الإيمان بأن الإله لا يتعرض للموت يهدد فى الوقت نفسه بفتح برزخ روحى لا يمكن عبوره بين الإله وعباده من البشر. وإذا كان الله لم يشارك فى تجربة الإنسان، أو كان بحكم مكانته معفى من مشاركة الإنسان أشق محنة يتعرض لها، فكيف يمكن أن يدخل الإله فى شعور الإنسان فى مواجهة الموت، وكيف يمكن أن يكون عندئذ عونا حاضرا جدا للإنسان فى تحمل أدعى متاعب الإنسان جميعا إلى الأسى؟ إن الإله الذى يشتاق الإنسان إلى الإيمان به، والذى يشتاق إلى الصلة الشخصية به، والذى يجهد فى الشعور بالتوفر البالغ على تقواه هو الإله الخالد، والذى يشارك عباده التجربة الإنسانية فى الموت على النقيض من ذلك(*).

إن أدعى الآلهة جميعا إلى حماس الإعجاب - من بين تلك الآلهة التى عبدها البشر - هى تلك التى كان المعُتَقَد أنها ماتت ثم عادت إلى الحياة من جديد، إما بصورة متكررة، أو مرة واحد فقط، من قبيل تاموز Tammuz، وأوزيريس، وأدونيس،

(*) هذه النظرة مسيحية كما يبدو فى الإيمان بالصلب. المترجم

وأتيس Attis، وبيرسوفون Persophone وبالدر Balder والمسيح. إن الإعجاب بإلاله الذى مات ثم أكد خلوده بالعودة إلى الحياة مرة أخرى يبلغ غايته عندما نعتقد أنه عانى من الموت متعمدا مختارا. إن المكان الأول فى ثالوث الألوهية المسيحية يعزى بصورة رسمية إلى الإله الأب، وهو فى التثليث الشخص(*) الذى يمثل يهواه وهو الله فى اليهودية، وهو الله الإله المتفرد فى الإسلام، وليس له مسمى شخصى، لأنه الله نفسه دون آلهة أخرى تشاركه، ويحتاج إلى تمييزه عنها. إن الأعضاء الثلاثة فى الثالوث المسيحى بصفة رسمية هم جوانب متساوية من الألوهية، التى تماثل الله المتفرد الواحد بغير شبيه فى اليهودية والإسلام. والواقع فى الأفكار والمشاعر لدى أتقياء المسيحيين الأرثوذكس أن الإله الابن يُغطى على الإله الأب والإله الروح القدس، ويتلقى أعظم نصيب من التقوى والشكر المسيحى؛ ذلك بأن الإله الابن يُعتقد بأنه متفرد بين الأعضاء الثلاثة فى الثالوث عند معاناته للموت باختياره فى سبيل الإنسان وخلاص الإنسان. إن الشعور المسيحى نحو المسيح يظهر غاية اهتمام الإنسان بالمشكلة والمحنة التى يواجه فيها الإنسان مشكلة الموت.

إن مفهوم الإله الخالد - الذى يكون مع ذلك معرضا للموت - مفهوم بالغ التناقض عند إعلانه فى هذه التعبيرات المجردة ؛ بحيث يبعد الاحتمال فى فهم أى أناس على الإطلاق، إذا لم يألفوه فى ظاهرة تتكرر سنويا فى بعض الأمثلة من المملكة النباتية. فهناك بعض النباتات والأشجار التى تكون "حولية"، أى أنها فيما يبدو تموت فى الخريف، وتظل ميتة فى أثناء الشتاء، لكنها تعود إلى الحياة مرة أخرى فى الربيع، وتزهر فى الصيف، وهى تعيد هذه الدورة من الموت والنهوض مرة أخرى عاما بعد عام. كان من العسير أن تعتبر هذه الظاهرة مفتاحًا لطبيعة الإله وتجربته فى مجتمع بشرى راقٍ من الناحية العلمية، حيث تسمى المملكة النباتية بالزهريات Flora، وتعتبر

(*) هذه الفكرة مسيحية بالطبع فى كلام المؤلف. المترجم

من رتبة أدنى فى الحياة من المملكة الحيوانية Fruna؛ وهى رتبة تحتوى على الإنسان نفسه - وحدثت المشابهة فى المجتمعات التى اعتبرت المملكة الحيوانية والنباتية، والطبيعة غير الحية Inanimate nature كأنها مزودة بحياة من القوة الإلهية.

فى الجانب المقابل، نجد فى المجتمع ذى التفكير العلمى أن تحرُّر المراتب الأدنى من الكائنات الحية من ظاهرة الموت، التى يتعرض لها الإنسان، كان يُعتبر واحدا من متناقضات الطبيعة، وأثار مشاعر الكآبة والنفور والمرارة والسخرية، أو مزيجا من كل هذه المشاعر أو بعضها. وقد عبر شاعر إغريقى(1) فى ستة سطور لا تُبارى عن التناقض الحاد بين مصير النباتات الضعيفة الرقيقة التى تموت لتعيش من جديد، وتزهر فى سنة أخرى، وبين مصيرنا نحن البشر" العظماء جدا، والأقوياء جدا، والأذكياء جدا" الذين: "حالما نموت، فنحن نهبط غير سامعين فى الأرض الفارغة، وننام نوما طويلا حقا، نوما بالغ الطول بحيث لا يعرف نهاية ولا يقظة".

هذا الموت الختامى الدائم شعر به الإغريق كأنه حزن كبير للبشر، وصدمهم باعتباره قذفا بالفضيحة عندما يُعزى إلى إله. ومن الأسباب التى جعلت أهل كريت مشهورين بأنهم كذابون هو أنهم عرضوا على جبل لوكتاس Louktas قبرا نسبوه إلى قبر الإله العظيم زيوس.

كان البيولوجيون على عهد الشاعرالإغريقى العظيم موشوس Moschus جاهلين بوجود الأميبا؛ وهى من أدنى الأمثلة فى المملكة الحيوانية، لكنها - والفضل يعود إلى كونها صورة بدائية جدا من الحياة معفاة كذلك من محنة الموت، والمفروض أنها سوف تحفظ خلودها البسيط، ما دام سطح هذا الكوكب قابلا للسكنى من أية صورة للحياة.

إن خلود الأميبا التى لا تموت لأنها تحفظ نفسها، لا بالتزاوج الجنسى بل بالانشطار الدورى، تمثل فى نظر الإنسان تناقضا أدعى إلى السخرية المريرة من

(1) Perhaps Moschus, in the Epitaphios Bionos, lines 98-104.

تعرض الإنسان للموت، أكثر مما يمثله ذبول الحياة وتجددها فى بعض أنواع النباتات والأشجار. إن خلود الأميبا من بين جميع الأشياء التى عرفها الإنسان حتى اليوم ينبغى أن يشعر الإنسان الفانى بالتواضع.

طرق متعددة بحث عنها الناس حتى يتصالحوا مع حقيقة الموت:

١- طريق اللذة:

أوضح طريق لمصالحة الإنسان نفسه مع الموت أن يتأكد من التمتع بالحياة قبل أن يختطفه الموت منها. إن الكلمات اللافتة مثل: اغتنم يومك "Carpediem"(١)، ودعونا نأكل ونشرب لأننا سنموت غدا(٢) تعبيرات شهيرة. وقد حفظ هيرودوت(٣) حكاية شعبية مصرية، أصدرت فيها الآلهة حكما بالموت على الفرعون مايسيرينوس Mycerinus بعد أن يتمتع بالحياة ستة أعوام أخرى فقط، ونجح فى مضاعفة الفترة التعسفية التى مُنحت له بإحالة الليل إلى نهار. هذا الحل لمشكلة الموت من طريق اللذة حل موهوم بالطبع. فلا يمكن أن يظل الإنسان صاحيا بالطبع يُمتع نفسه طوال أربع وعشرين ساعة يوما بعد يوم على مدى ست سنوات. ولا هو قادر على التأكد من إمتاع نفسه حتى فى أقصر الفترات. ولو أسعفه الحظ إلى هذا المدى حقا، فإن معرفته السابقة بأنه سيموت يوما تظل تتسلل خلف عقله. وكان من عادات المصريين أن يُخرجوا من الخزانة فى بساطة هيكلا يمثل نموذجا خشبيا مصغرا لمومياء فى حفلاتهم تذكرة للمحتفلين بحقيقة الموت الكئيبة، التى كانوا يحاولون إبعادها عن عقولهم فى تلك اللحظة وقد روى "هيرودوت القصة"(٤).

(1) Horace, odes, Book I, Odexi, line8. Cp Book I, Ode iv, passim .

(2) Isaiah, xxii, 13. Cp. Eccles, iii, 22.

(3) Herodotus, Book II, Chap.133.

(4) In Book II, Chap.78.

إن الطعام والشراب والمرح مثل الحرب والثورة أنشطة عابرة بطبيعتها. وهي في الحقيقة تسمية أخرى "لزرع الشوفان البرى الخاص بالإنسان"؛ هذا الهرب التقليدى لا يوجد إلا في الحكايات الخيالية حين يعقبه "الزواج والحياة السعيدة فيما بعد".

أما في الحياة الحقيقية الرتيبة، فإن الهرب يعقبه ألوان من القلق والإجهاد والأمراض المتعلقة بحياة الكبار، وهي شرور موروثة في طبيعتنا البشرية. وهي إذا كانت عنيفة طويلة الأمد قد تجعل الإنسان يتطلع إلى الموت، باعتباره الخلاص الخير الذى يمكن أن يعتمد الإنسان عليه بالتأكيد.

٢- التشاؤم:

أوضح بديل من العزاء الموهوم في مذهب اللذة أن يَخلُص الإنسان إلى أن الحياة بالغة البؤس بحيث يكون الموت أقل شرًا. في القرن الخامس قبل الميلاد، حين كان الإغريق في قمة إنجازاتهم في جميع الميادين، أعلن الشاعر الإغريقى سوفوكليس(١): " أفضل الأمور ألا يولد الإنسان أبدا، ويلى ذلك فضلا - إلى أبعد حد - أن الإنسان إذا ظهر في هذه الدنيا فعليه أن يعود من حيث جاء مرة أخرى بأسرع ما يمكنه". وقد عزا المؤرخ الإغريقى هيرودوت الرأى نفسه إلى الحكيم الإغريقى سولون في القرن السادس قبل الميلاد(٢). وتبعا لحكاية هيرودوت عن حوار سولون مع الملك كريسوس Croesus، فقد كان الناس الذين وصفهم كريسوس بأنهم أسعد الناس فيما عرف، إلا واحدا؛ ولم يكن كريسوس كما تمنى لنفسه، ولكنهما كانا أخوين ماتا في نومهما في ريعان قوتهما وإنجازاتهما وشهرتهما، حين تضرعت أمهما إلى الربّة هيرا أن تمنحها أعظم ما يمكن أن يأمل فيه إنسان. كان التعليق الذى نسبه هيرودوت إلى كلام سولومون: هو أن الأخوين: " لقيا أفضل نهاية ممكنة يمكن أن تنالها حياة إنسانية،

(1) In Oedipus Coloneus, lines 1224-6.
(2) Herodotus, Book I, Chap.31.

وأن الإله حرمه الفرصة من إظهارها؛ وهى أن الأفضل للإنسان أن يكون ميتا بدلاً من أن يكون حيا".

"إن أولئك الذين تحبهم الآلهة يموتون صغارا"(١).

فى مجتمعات عديدة يغلب عليها التفكير العسكرى، كان هناك شباب يتطلعون باعتزاز ونشوة نحو الموت قبل الأوان فى المعركة، ومن المهم أن بعض الإغريق حين بدءوا فى القرنين السابع والسادس قبل الميلاد فى تحويل ممتلكاتهم من مجتمعهم إلى حياتهم الفردية الخاصة، عبّر شعراء الرثاء الغنائيون عن هذه الثورة، وألحُّوا بصورة واضحة على قصر الحياة فى ربيع الحياة البشرية للفرد وعلى الإعياء فى عواقب الشيخوخة الطويلة، مع أعبائها من اعتلال الصحة والوهن(٢) المتزايد. وقد ظل الإغريق على إعجابهم بملامح هوميروس على كل حال فى هذا العصر وجميع العصور التالية.

وربما كُتبت أو اتخذت صورتها الأخيرة فى القرن الثامن قبل الميلاد، وكان آخيل بطل الإلياذة غير مستريح على الإطلاق إلى معرفته المسبقة بالحكم عليه بالموت وهو شاب، وما كانت أمه الربّة ثيتس Thetis راضية عن مستقبل ابنها فى الموت شابا فى ساحة الشرف؛ كما فعلت بعض الأمهات فى إسبرطة فى أزمنة لاحقة. وإذا كان آخيل ما زال شابا عند حصار طروادة، فقد كان لديه من قبل زمن لكسب مجد لا يُجارى بقوته الباهرة. لكن الشهرة التى حققها آخيل من قبل فى حياة قصيرة لا تعزيه عن موته الوشيك، كما أن تجربته بعد الموت بين أشباح الموتى تبرر نفوره بعد ذلك وهو حىّ من فقدان حياته قبل الأوان.

فى الكتاب الحادى عشر من الأوديسا يتمثل شبحه قائلاً لأوديسيوس إن نصيب العامل الزراعى الذى يخدم فقيرا فى أرض الأحياء أفضل من أن يكون ملكا على

(1) Byron, Don Juan, IV, xii.

(2) E.G. Mimnermus, nanno, Elegies I and II

جميع الموتى[1]. ثم يسرع بعيدا بعد هذه الملاحظة المريرة وهو ساخط بغير استسلام، وإن كان فرحا فى الوقت نفسه بالأخبار التى تلقاها من أوديسيوس عن القوة الحربية لولده[2].

إن السخط على مستقبل الموت المبكر الذى يُعزى إلى آخيل فى الإلياذة قد ينطبق على موقف الشاب الإغريقى العادى من الحياة الواقعية، وحتى الشاب الذى اتفق له الميلاد فى إسبرطة، وتكيف على التربية فى عهد ليكورغ Lycug. وإذا اتخذت أمه موقف الأم الإسبرطية المعروف، فقد تكون استجابته الخاصة ملتوية. وفى إسبرطة وولايات المدن الإغريقية الأخرى هناك دليل موفور على أن الإغريق – حتى أولئك الذين قالوا بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم عن التشاؤم، تمتعوا بالحياة متعة عظيمة، ولم يكونوا متحمسين لاستبدال الموت بها، ولم يسمحوا بالتخلى عن متعتهم نتيجة التأمل فى موت ليسوا على عجلة من أمره.

تمتع الإغريق بقضاء اليوم فى صحبة بعضهم بعضا، يناقشون أى شيء وكل شيء، كما تمتعوا بالجمال. وكانت لديهم عبقرية فى الجمع بين هذين المصدرين من المتعة فى الغناء والرقص الجماعى، والتمثيليات المسرحية والمواكب الدينية، والاجتماعات السياسية الخطابية.

كان التشاؤم الهندى جذريا عند المقارنة بتشاؤم الإغريق ، وكان صادقا أيضا؛ كما يبدو فى النظرة العقلية الواحدة والصرامة فى تنفيذه. وتعتبر الهندوسية الكون الذى يحيا فيه الإنسان وهما، وكذلك اعتبر بوذا أن روح الإنسان وهم، وكأنه توقع بعض مدارس علماء النفس الغربيين المحدثين قبل نحو أربعة وعشرين قرنا. ورأى فى النفس البشرية مجرد سلسلة متقلبة من الحالات النفسية لا استمرار لها، والتى تجمع

(1) Odyssey, Bookxl, lines 489-491.
(2) Ibid., lines 538-540 .

بينها الرغبة فقط، ويمكن أن تزول إذا زالت الرغبة فى وقت ما. إن القضاء على الرغبة - فى نظر بوذا - هو الهدف الصحيح للتجربة الإنسانية، لأن تحقيق هذا يجلب معه زوال الشقاء، وعند بوذا أن الشقاء والحياة مترادفان. إن الميلاد من جديد - لا الموت - هو قمة المحنة عند الإنسان. وقد سلّم بوذا بأن تأثير الرغبة - التى تستثار فى صورة الكارما- هى أن تعيد الميلاد فى سلسلة لا تنتهى حتى ينجح الذى يعانى فى إحدى الحيوات من هذه السلسلة فى أداء التمرينات الروحية الشاقة التى وصفها بوذا، ويقدر على إنهاء السلسة عند بلوغ حالة الفناء (النّرفانا) حيث تنتهى كل رغبة، وتتوقف إعادة الميلاد حيث إن الكارما لم تعد قادرة على بعثها بقوتها الدافعة؛ فقد استنفدت الكارما هدفها. أما الكارما فهى الآثار الروحية المتراكمة للعمل الذى تم فى حيوات متعاقبة حتى الحاضر. فى هذا الصراع الروحى لتحقيق النرفانا يكون الموت (أى موت الحياة الراهنة فى السلسة) حدثا لا أهمية له. ويمكن أن تتحقق النرفانا عند الموت، ولكنها قد تتحقق أيضا حين يكون الذى عانى سابقا لا يزال يعيش الآن ما سوف يكون آخر حيواته المتتابعة.

إن الانتحار أحد المؤشرات على التشاؤم. وفى المجتمعات التى تكون فيها قيمة الحياة على مستوى خفيض جدا بحيث يصبح الموت أهون الشرين، يعتبر الانتحار واحدا من الحقوق الإنسانية الأساسية، كما يُعدّ ارتكابه محترما، وفى بعض الحالات جديرا بالتقدير، بل مفروضا من الناحية الأخلاقية.

لم تلصق بالانتحار فى عالم اليونان والرومان أية وصمة، وإن كان ارتكابه ليس شائعا جدا مثل شيوعه فى بلاد آسيا الجنوبية والشرقية ؛ حيث كانت الديانات والفلسفات الشائعة ترجع إلى أصل هندى أو صينى.

كانت هناك حالات من رجال الدولة الإغريق الذين انتحروا فى مأزق سياسى. ومن الأمثلة ديموستينيس **Demosthenes** والملك كليومينيس **Cleomenes** الثالث من إسبرطة. كان من المسموح للنبلاء الرومان فى بعض الحالات بناء على نظام الرومان

الأوائل أن ينتحروا بدلا من الإعدام. وقد روى لوكريتيوس عن الفليسوف الإغريقى ديمقرتيوس Democretus أنه عرض نفسه للموت باختياره (ربما بالصيام) عندما لاحظ هبوط قواه العقلية[1]. لكن المشاهدين الإغريق أحسوا بالدهشة والإعجاب عندما أحرق بيريجرينوس بروتيوس Peregrinus proteus نفسه حتى الموت وهو فى زهو فى أوليمبيا Olympia[2] (ولعل إخصائيا فى علم النفس فى العالم الغربى الحديث يتهمه بالاستعراض، كما فعل لوسيان).

ويمكن أن يكون بيريجرينوس قد تأثر بسابقة هندية كان يعرفها.

وحسب ما روى الجغرافى أرتميدورس Artemidorus من إفسوس Ephesus أن هنديا صَاحَب سفارة الهند إلى الإمبراطور أغسطس، وأحرق نفسه حتى الموت فى أثينا. يذكر سترابو Strabo[3] عن أرتميدورس أنه قال: " يفعل بعض الهنود هذا لأنهم يجدون الحياة عبئا، بينما يفعله الآخرون، ومنهم هذا المثل، لأنهم يجدون الحياة طيبة جدا. والفكرة أنه إذا سارت الأمور جميعا حسب ما يحب الإنسان، فقد حان أوان الخروج من الحياة؛ خوفا من أن يؤدى تلبث الإنسان إلى أن يغلبه على أمره شىء لا يحبه".

تبعا لرواية أريتمودورس، فإن هذا الهندى بعينه "قفز على الكومة ضاحكا، لا شىء عليه سوى سترة على أسفل ظهره وبطنه، وأغرق جسمه فى الزيت جيداً، وعلى قبره هذا النقش: "زارمانوشيجاس Zarmanochegas هندى منْ برجوزا Bargosa (بروتش Broach) وهو الذى خلّد نفسه باتباع عادة هندية تقليدية".

إن أشيع صورة للانتحار فى المجتمع الهندى كانت السّاتى Sati. وكان من الأعمال الجديرة بالتقدير أن تحرق الأرمل نفسها حتى الموت بعد موت زوجها - وإذا

(1) Lucretius, De Rerum Natura, Book III,Lines 139-141
(2) Lucian, De Morte Peregrini.
(3) Geographic, Book XV, chap.1, 73 (C.7 20).

كان الساتي اختياريا من الناحية الاسمية، إلاّ أنه كان يتم – فيما يبدو – غالبا تحت الضغط. ولم يكن للأرمل واجب مقابل، لكن الرجال الأتقياء درجوا على إلقاء أنفسهم تحت عجلات مركبات/ جوجرنوت Juggernaut كي تهرسهم حتى الموت. وقد انتحر الرهبان والراهبات في فيتنام في العصر الحاضر بإحراق أنفسهم حتى الموت تعبيرا عن الاحتجاج السياسي. كان المراقب تحت النظام الإمبراطوري في الصين عندما يشعر بواجبه الرسمي بعد نقد سلوك الإمبراطور، يقدم تذكارا فيرتكب الانتحار، وبذلك يجمع بين الإخلاص والولاء مما يزيد الضغط على الإمبراطور، بينما يعفي المراقب نفسه من الإحراج – وكان الانتحار في اليابان من علامات الشرف، لا بوصفه احتجاجا سياسيا، بل علامة على احترام إمبراطور ميت، أو تكفيرا عن فشل في أداء الواجب، أو الخروج على بعض قواعد السلوك، وهو في نظر الإنسان الغربي ليس أساسا مناسبا تماما لارتكاب مثل هذه التعويضات المتطرفة التي يتعذر الرجوع فيها، حتى لو كان المراقب الغربي لا اعتراض لديه على الانتحار من ناحية المبدأ.

هناك حالات من الانتحار الجماعي بين اليهود والفينيقيين والليسيين Lycians، بدلا من السماح لأنفسهم بالأسر عند عدو منتصر. في الجانب المقابل، شعر المسيحيون – الذي تنتمي ديانتهم إلى أصل يهودي – بالنفور الدائم من ارتكاب الانتحار، واعتبروا الانتحار قتلا للنفس يحرم المنتحر نفسه بجرمه من الدفن في الثرى المكرّم. إن النظرة المسيحية إلى هذا العالم باعتباره واديا من الدموع هي النظرة بعينها إلى حد كبير مثل النظرة البوذية، لكن المسيحيين – على خلاف البوذيين – لا يعتبرون أن من حق الإنسان أن يقرر بنفسه وضع نهاية لحياته. عند المسيحي أن هذا ليس من حق الإنسان، إنما هو حق الله، وليس من التقوى أن نتوقع عمل الله بإرادتنا. وإذا كان هذا من الخرافات المسيحية، فهو من الخرافات في نظر الإغريق والرومان والهنود والبوذيين والصينيين الكونفوشيين واليابانيين. وكثيرون من

المسيحيين السابقين في عالم اليوم الذين تخلّوا عن كل ما تبقى من التقاليد المسيحية تقريبا، ما زالوا يستبقون الشعور المسيحى بأن الانتحار يصدم الإنسان.

فى مجتمع الأستراليين الأصليين الذين يعيشون على جمع الطعام والهجرة بحثا عن الطعام فى دورة سنوية، يخرج العجائز باختيارهم، ويتخلّفون حتى يموتوا، كى يخففوا عن المجتمع عبء الاستمرار فى حمل مؤنتهم. إن متوسط العمر المتوقع اليوم فى العالم الغربى قد تزايد، من دون أية زيادة مصاحبة من التمتع أو التخفيف من الضغط، بينما أدى تفكك الروابط العائلية إلى ترك الكثير من العجائز فى البيئة الباردة من الناحية الاجتماعية والروحية. ولو كانوا من الأستراليين الأصليين، لتركوا أنفسهم للموت، ولو كانوا فلاحين صينيين لكان لهم مكان فى البيت؛ مع أبنائهم وأحفادهم ما داموا أحياء. وإذا كانوا مسيحيين أو مسيحيين سابقا، وهم يشعرون على ذلك بالنفور المسيحى التقليدى من ارتكاب الانتحار، فإن كثيرين من العجائز فى العالم الغربى اليوم يتلبثون وحيدين تعساء، حتى تعجز براعة الطب عن الإبقاء على حياتهم البدنية.

إن النفور المسيحى من الانتحار ينطبق بحق على إعفاء الناس الضعفاء المتألمين الذين لا أمل فى شفائهم من القتل الرحيم، الذى يقدمه المسيحيون الإنسانيون بالطبع إلى الحيوانات عندما تكون فى المأزق نفسه. إن ضمير الجمهور المسيحى الألمانى لم يمنع هتلر من قتل ملايين اليهود، ومع ذلك فإن الضمير الألمانى المسيحى الذى أثبت عجزه عن منع هتلر من ارتكاب جريمة إبادة الجنس، جعل من المستحيل على هتلر أن ينفذ خطته فى قتل العجائز وضعفاء العقول حتى يخفف عن الألمان الأكفاء جسميا وعقليا عبء رعاية غير الأكفاء، عندما كان هتلر يحرك طاقات الألمان من أجل شن الحرب العالمية الثانية.

٣- محاولات الالتفاف حول الموت بالإجراءات المادية المضادة :

من أشيع الفروض البدائية المتعلقة بالموت أن حياة الميت يمكن إطالتها بعد الموت بتزويد الجثة بالطعام والشاب والأدوات والخدمات التى كانت تحت

إمرة الإنسان الذى كان حيا فى هذه الجثة ذات مرة. لقد كان دفن الأشياء النافعة للأحياء مع الموتى عادة شائعة فى العالم. واستطاع علماء الآثار إعادة بناء الثقافة من محتويات المقابر فى أماكن حيث لا يوجد أثر أو يوجد قليل من الأدوات المستخدمة عند الأحياء. وقد ظلت المقابرالقديمة محفوظة بأعداد تفوق إلى حد كبير المساكن القديمة التى كان يسكنها الأحياء. وكان هناك إلى جانب ما استُخرج من الأدوات والأسلحة وحاجات الزينة والملابس، بقايا الحيوانات الأليفة المذبوحة، وبقايا الخدم من البشر، وكان المتوقع من الميت صاحب القبر أن يظل قادرا على التصرف فيها.

هذا الأسلوب الساذج فى الالتفاف حول الموت بلغ غاية مداه فى مصر القديمة. وإذا أمكن تكبير القبر الذى يمثل بيت فرعون ميت إلى مقاييس هرم هائل، وإذا كان الأثاث المحفوظ فى القبر فى مثل الترف كما ونوعا كالذى كان مدفونا مع توت عنخ آمون، وإذا كان القبر ملحقا به أراض يدفع ريعها إلى الأبد تكاليف المؤن وطقوس الكهنة، فإن المظنون أن فى الإمكان مقاومة الموت والتغلب عليه بتطبيق هذه الإجراءات المادية الهائلة، وبالقوة المادية المجردة فى الحقيقة.

بل أكثر من هذا بدائية أن يكون افتراض حفظ الجسد الميت بإيقاف تحلله الطبيعى مماثلا لحفظ الحياة فيه. لم يكن التحنيط قاصرا على مزاولته فى مصر بل كان كذلك فى بيرو. وقد ساعد الجفاف فى مناخ ساحل بيرو ومصر العليا على عمل التحنيط، لكن هذا الفن الجميل كان عاجزا عن حفظ الحياة فى الجثمان على منوال حفظها فى عادة أتباع زرادشت الذين عرضوا الجثامين للتعفن حتى تلتهمها آكلات الميتة من الطيور والوحوش.

من الأساليب الأخرى فى الالتفاف على الموت بالإجراءات المادية المضادة، البحث عن شجرة الحياة أو إكسير الخلود. لكن انعدام الجدوى فى هذا البحث كان معروفا فى الأساطير وعندما أكل آدم وحواء من الثمرة فى شجرة المعرفة، تم طردهما من جنة عدن بواسطة الملاك الذى يحمل السيف المتلألئ، قبل أن يتوفر لديهما وقت حتى

يحيروا يهواه بالأكل من ثمرة شجرة الحياة كذلك. وإذا ترجمنا هذه الأسطورة إلى تعبيراتنا الملة اليوم، فإنها تعنى أن اكتساب الإنسان للعلم والتكنية لم يمكنه من اكتساب الخلود أيضا. كانت نتيجة بحث البطل السومرى جلجامش عن الخلود مدعاة للسخرية كذلك. كان جلجامش بعد القيام بسلسلة من الأعمال البطولية كأنه هرقل فى آخر مراحل رحلته إلى بلده، وفى يده غصن من شجرة الحياة، عندما سقط منه بالصدفة فى الماء، حيث التقطته حيّة على الفور. وعلى ذلك وصل جلجامن إلى بلده وهو لا يزال معرضا للموت. وذهبت جهوده كلها عبثا بعد كل شيء.

إن الفشل فى محاولة الالتفاف حول الموت باتخاذ إجراءات مادية مضادة تبين بصورة درامية فى مصر القديمة عند سقوط المملكة القديمة. وقد صاحب سقوط هذا النظام ثورة اجتماعية تعرضت فيها مقابر الفراعنة وأتباعهم للعبث، وتم فى وقاحة نهب الثروة الجنائزية التى تجمعت على مدى ثلاثة أرباع ألف سنة. وكان من دواعى السخرية لهذه النهاية المخزية لمثل هذا الإجراء الحريص المعقد فى الالتفاف حول الموت أنه أصبح من الأعمال الأدبية المصرية المكتوبة فى عصر المملكة الوسطى. لكن هذا الإدراك لفشل العادة لم يمنع الأجيال التالية من الإصرار عليها، وكان المنتفعون الأساسيون لمخلفات الفراعين والنبلاء المصريين الثمينة ليسوا هم الموتى أنفسهم؛ وإنما لصوص المقابر الأحياء وأصبحت سرقة المقابر فنا جميلا مثل فن التحنيط. واخترق اللصوص أقوى الدفاعات المخترعة وأشدها مكرا، وخدعوا عيون الرقابة فى السلطات العامة. وتغلبوا على سذاجة الشعب المصرى المنيعة. ومن المعقول مع ذلك أن اللصوص أنفسهم لم يكونوا فى حصانة تامة من الخرافات الشائعة.

٤- محاولات التغلب على الموت باكتساب الشهرة :

إذا كان الجسد الميت لا يمكن الإبقاء على حياته بالوسائل المادية، فإن ذكرى الموتى، كما كانوا أحياء حقا، يمكن حملها إلى أجيال تالية. إن الوسائل الرئيسة

للتذكار في مجتمع أمي هي تذكر الأنساب وقول الشعر وإنشاده شفويا. وعندما يصبح المجتمع قارئا، يمكن أن يقل الشعر إلى مستوى الكتابة، ويمكن الإضافة إليه بالكتابة المنقوشة على الحجر، أو المطبوعة عل ألواح الطين، أو الكتابة على البردى أو الرق أو الورق أو سعف النخل أو شرائح البامبو من أجل تسجيل وضع الأساس للمعابد، وحوليات أنظمة الحكم. هذه التسجيلات الرسمية بدورها يمكن أن ترتفع إلى مستوى السير الذاتية والأعمال الأدبية التاريخية التي يمكن أن تأخذ مكانها جنبا إلى جنب مع الشعر.

هذه المحاولة للتغلب على الموت بالتسجيل التذكارى أعقد من محاولة التغلب عليه بواسطة الأساليب المادية، لكن نتيجة هذه المحاولة أدعى إلى السخرية أيضا لأسبابها الخاصة. فإن القائم بالتسجيل مثلا يبلغ من الشهرة فى النهاية فوق ما بلغه العاملون من الرجال، الذين حفظت شهرتَهم قلمُ الكاتب. وأغلب ما نعرفه عن رجل الدولة الأثينى بيركليس Pericles والجندى الإسبراطى براسيداس brasidas يرجع اليوم فى الواقع إلى قائد بحرى صغير هو ثوسيديديس Thucydides، أتيح له فراغ حتى يصبح مؤرخا رئيسا، ويرجع الفضل إلى حصوله على الراتب وإبعاده، بصورة لعلها ظالمة، لفشله فى منع براسيداس من أسر أمفيبولس Amphipolis. عندما كتب هوراس "non Omnis moriar"[1] فقد قلّل من طول الزمن بعد موته، حين حفظ شعره ذكرى الشاعر نفسه. وحسب أن شعره سوف يستمر الناس فى قراءته ما دامت طقوس الديانة الرسمية الرومانية قائمة. ثم تم كبت هذه الطقوس بواسطة الإمبراطور الرومانى المتشدد ثيودوسيوس Theodosius الأول فى العقد الأخير من القرن الرابع من العهد المسيحى؛ بعد أربعة قرون فقط من موت هوراس. ومع ذلك، ظل شعر هوراس مقروءا فى القرن العشرين عند القراء الذين ليست لغتهم الأصلية هى اللاتينية، وفى العقود الأولى من القرن التاسع عشر، كانت بعض المقتطفات من شعره لا تزال مذكورة فى أحاديث أعضاء البرلمان بالإنجليزية فى وستمنستر Westminister.

(1) Horace, Odes, Book III, Ode XXX, Line 6.

لقد أشار هوراس نفسه على كل حال إلى زعزعة هذه الطريقة فى الهرب من الموت بالتسجيل التذكارى، وإن كانت هذه الطريقة أرقى وأسمى من التهرب من الموت بالوسائل المادية.

Vixere fortes ante Agamemnona

Multi; Sedomnes illacrimabiles

(١) **Urgéntur ignotique longa**

Nocte, carent quita vate sacro

إن الآثار الباقية من السابقين على آجاممنون الذين لم ينالوا الاحتفاء بهم فى ملحمة هوميروس، قد اكتشفهم الآن علماء الآثار المحدثون. وأثبتوا أنهم ملوك أقوى من آجاممنون نفسه، وسواء عيّنوا أم لم يُعينّوا شعراء للبلاط، لم تخرج أعمالهم إلى النور حتى اليوم، فقد استخرجنا الآن بعض سجلاتهم – وهى ليست من أوهام المنشدين الرومانسية – ولكنها سجلات رسمية مملّة تقابل ما تسميه الحكومات اليوم " الاستمارات".

يبلغ عمر هذه السجلات الرسمية فى مِسِّينا Mycenae قبل عصر آجاممنون أربعة أو خمسة قرون سابقة على الإلياذة والأوديسا، ولدينا بقايا من الخط السومرى المسمارى يرجع تاريخه إلى ما قبل نهاية الألف الرابعة قبل الميلاد، لكن تاريخ الجنس البشرى فى أثناء الآلاف الخمسة من القراءة والكتابة يتضاءل أمام الليل المظلم فى مليون سنة سابقة عليها، كان أسلافنا خلالها من البشر، ولم يتركوا مع ذلك أى تذكار

(1) Horace, Odes, Book IV, Ode ix, lines 25-28. "There were mighty men before Agamemnon - there were any number of them: yet, one and all, these are buried in a long, long night, unknown and unmournable - and this is just because they had no inspired bard (to comma morate them, as Agamemnon has been commemorated by Homer).

باقٍ سوى أدواتهم ورسومهم فى الكهوف، وحتى هذه الرسوم من العصر البليوسى الأخير Palaeolothic لا يزيد تقدير عمرها على نحو ثلاثين ألف سنة. إن ألف عام سابقة من النسيان عندنا فترة طويلة من الزمن، بالقياس إلى ما تلاها من ثلاثين ألف عام من التسجيل بالصور، وخمسة آلاف عام من القراءة والكتابة. لكن سنوات المليون الأولى فى تاريخ الجنس البشرى قصيرة بالنسبة لفترة ألفى مليون سنة نفترض توقع الحياة فيها على سطح هذا الكوكب. ومن العسير أن نتصور أى أعمال موجودة للإنسان، سواء كانت آثارا أو أعمالا أدبية كانت سوف تبقى حتى اليوم عندما يصبح هذا الكوكب غير قابل للسكنى فيه. هل ستكون أية لغة من اللغات الحالية الآن لا تزال عندئذ مفهومه ؟ وهل تظل الأعمال المكتوبة بهذه اللغات باقية ؟ ألا تصبح الأهرام والمقابر القديمة التى لا تزال باقية وجوانب السكك الحديدية بالية مسطحة أكثر من أقدم الصخور التى ما زالت ناتئة على سطح الأرض؟

٥- تحرير الذات من التركيز فيها باستثمار ثروة الإنسان فى مستقبل أجيال إخوان الإنسان من البشر:

من الوسائل الأخرى التى بحث البشر عنها لمصالحة أنفسهم مع حقيقة الموت وسائل كانت موجودة دائمة على نحو يجعل الإنسان يجازف باعتبارها فطرية فى الطبيعة البشرية. لقد تصالح أغلب البشر إلى حد ما مع تعرضهم للموت كأفراد بواسطة استثمار ثرواتهم فى نسلهم، بينما امتد اهتمام بعض الناس إلى احتضان جميع الممثلين لأجيال المستقبل، وعلى الرغم من أنهم ليسوا من أصلابهم فإنهم من أعقابهم وربما كانوا ورثتهم الروحيين؛ وذلك منذ أقدم سجلاتنا التاريخية الباقية وحتى اليوم الحاضر.

فى أنساب الإصحاح الحادى عشر من سفر التكوين، كانت القمة فى حياة سام وكل واحد من نسله المتعاقبين هى عمره عند مولد طفله الأول. أما بقية حياته منذ ذلك اليوم المرموق حتى موته فهى تعتبر ضمنيا من قبيل الهبوط.

وفي وعود يهواه المتعاقبة لإبراهيم، لم يعِدْ الله أبدا عبده البشرى خلودا شخصيا. وإنما الذى وعده هو الذرية "فأجعلك أمة عظيمة"[١]. "وأجعل نسلك كتراب الأرض حتى إذا استطاع أحد أن يعدّ تراب الأرض فنسلُك أيضا يُعد"[٢]. " ثم أخرجه إلى خارج وقال انظر إلى السماء وعُدَّ النجوم إن استطعت أن تَعُدَّها. وقال له هكذا يكون نسلك"[٣]. " أما أنا فهوذا عبدى معك وتكون أبا لجمهور من الأمم"[٤].

"وإبراهيم يكون أمة كبيرة وقوية ويتبارك به جميع أمم الأرض"[٥].

"أباركك مباركة وأكثر نسلك تكثيرا كنجوم السماء وكالرمل الذى على شاطئ البحر"[٦].

أما أن يكون هذا الوعد لإبراهيم بأن يصبح جد العبرانيين أو لا يكون سبيلا إلى صالح إبراهيم مع تعرضه شخصيا للموت، فالظاهر أن وعود يهواه لإبراهيم قد اعتبرها كتّاب ومحرّرو سفر التكوين أعلى قيمة وأدعى إلى مزيد من الرضاء أكثر من أي وعد بالخلود الشخصي إن كان. إذا كتاب هذه الفقرات من الإسرائيليين قد آمنوا بأن أشباح الموتى يستبقون وجودا بالأشباح فى الجحيم، فإنهم شاركوا مشاعر مؤلف الكتاب الحادى عشر من الأوديسا، وكان – كما وصفنا سابقا[٧] – يصف شبح آخيل مبتهجا فى الجحيم للأنباء عن قوة ابنه على الأرض، وإن لم يكن آخيل نفسه راضيا عن حالته الشخصية بعد الموت[٨].

---

(1) Gen., xii, 2.
(2) Gen., xiii, 16.
(3) Gen., xv, 5.
(4) Gen., xvii, 4.
(5) Gen., xviii, 18.
(6) Gen., xxii, 17.
(7) See PP. 70-71.
(8) Odyssey, Book x1. lines 538-540.

من المهم أن الإيمان بعودة الحياة إلى الموتى لم يرسخ فى المجتمع اليهودى حتى القرن الثانى بعد الميلاد. ويبدو أن هذا الإيمان جاء إلى اليهود من خلال تعرفهم على ديانة أجنبية هى الزرادشتية، كان الإيمان بعدالة يهواه من الاعتبارات التى دعت بعض اليهود إلى الإيمان ببعث بعض الأفراد فى النهاية منذ القرن الثانى للميلاد وما تلاه. وأحسوا أن هذا أحرى أن يدفع يهواه إلى مكافأة أولئك اليهود الذين عانوا من الشهادة فى مقاومة الإمبراطور الأنطاكى الرابع أنتيوكاس Antiochus الذى كان يضغط على المجتمع اليهودى الفلسطينى حتى يتبع طريقة الحياة الإغريقية. ولن يلقى هؤلاء الشهداء جزاءهم المناسب، إذا لم يُبعثوا فى النهاية من الموتى حتى يصبحوا أحياء مشاركين فى مملكة المسيح عند تأسيسها أخيرا. أما الإيمان بأن جميع الموتى – لا الشهداء اليهود وحدهم – سوف يكون مصيرهم البعث مرة أخرى، فيبدو أنه جاء فيما بعد فى تطور اليهودية.

من المهم أيضا أن إضافة هذه المادة إلى جسم العقيدة اليهودية لم يتقبلها اليهود كلهم على الفور. تقبلها الفريسيون وحدهم أولاً. ورفضها الصدوقيون على أساس انعدام المبرر لها فى شريعة موسى المكتوبة، وأن الشريعة المكتوبة هى وحدها الصحيحة. كان الفريسيون معارضين فى الأصل، وكان الصدوقيون يمثلون"المؤسسة". وكان الصدوقيون يسيطرون على الهيكل فى القدس، وكانوا يتولون الوظائف الرئيسة على الأقل فى"الكهنوت الرسمى". واستبقى الصدوقيون مكانتهم الغالبة فى المجتمع اليهودى الفلسطينى، وأصروا على رفضهم للإيمان ببعث الموتى حتى هدم الهيكل فى عام ٧٠ بعد الميلاد. وأصبح إيمان الفريسيين المثير للخلاف منذ هذا التاريخ فقط جزءا من الإيمان الأرثوذكسى لليهود بصفة عامة. هذا الإيمان العام ببعث الموتى بين اليهود لم يضعف الرغبة فى البقاء الدائم لليهود باعتبارهم مجتمعا يستبقى نفسه من جيل إلى جيل من الفانين من الرجال والنساء، الذين يمثلون الأفراد المتعاقبين الزائلين.

لم يكن السابقون على الفريسيين من الإسرائيلين واليهود عجبا فى مصالحة أنفسهم مع الموت مستقبلا بالاطمئنان إلى بقاء جنسهم فى أعقابهم. أما المستقبل الذى سبب مزيدا من القلق والضغط أكثر من الموت، فقد كان مستقبل الموت دون أية أعقاب من الأحياء.

شعر إبراهيم بأن إعلان يهواه إياه بأنه " أجر كثير جدا له"، حسب ما جاء فى سفر التكوين(١)، كان بغير معنى؛ ما دام يهواه قد ابتلى إبراهيم بالعناء من عدم الذرية، وكانت هذه الرغبة العارمة فى الحصول على الأعقاب رغبة شائعة وهى التى تُعزى إلى إبراهيم فى هذه الفترة، وكانت قوية بصفة خاصة فى مجتمعات مثل المجتمعات الهندية والصينية. وكان من المعلوم أن من المهم للإنسان واجب الذكرى والتكريم، ينهض به ابن يعقبه من الأحياء وينتمى إلى نحلة، ومن بعده ذرية ابنه بدورها.

إن هذا دليل على الاهتمام بما سوف يجرى بعد موت الإنسان؛ حيثما كانت ممارسة نحلة الأسلاف، لكن هذا الاهتمام قد لا يكون اهتماما بتعاقب الجنس فقط، فقد يكون مُركّزا على الذات إلى حد ما، إن أحد الأسلاف الذى طلب التكريم من النحلة قد طلب التكريم لنفسه كالذى هو مفروض، حسب الإيمان بما سيكون لهذا من بعض القيمة بعد موته.. كما إن الواحد من الأعقاب الذى يمارس النِّحلة، قد لا يدفعه إلى حمل العبء مجرد حب الوالد، أو الشعور بالتقوى تجاه أحد الأسلاف فى ماض بعيد، وإنما الإيمان أيضا بأن الأسلاف الموتى يمكنهم نفع أعقابهم أو إيذاؤهم، ولذلك يكون من النصح لأعقابهم أن يقوموا بترضيتهم بالاستمرار فى ممارسة النِّحلة. إن اشتياق إبراهيم ليكون له ولد ليس يعنى أنه لا ينظر إلى نفسه كذلك. وهو يبين ليهواه أنه إذا مات بغير ولد، فإن وريثه الذى سوف يرث بيته لن يكون من ذريته، ولكنه "واحد مولود فى بيتى"، أى ولد من أحد عبيد إبراهيم(٢).

---

(1) Gen., xv,2-3.

(2) Ibid.

هذا الجانب الشخصى من الرغبة فى أحد الأعقاب الشرعيين أدعى إلى بروزه فى الحالات التى لا تقتصر على مجرد الممتلكات الخاصة مثل ما عند إبراهيم من الأسراب والقطعان، وإنما هو وراثة التاج فى مملكة. ويكون الاهتمام الشخصى فى هذه الحالة بالرغبة فى وريث مُصاحبا بالاهتمام بالمصلحة العامة دون ريب. وإذا لم يكن قريب للسلطة الحاكمة هناك حتى يرثها، فقد يؤدى موت الحاكم إلى خلاف على وراثة الحكم ربما أدى إلى اضطراب. أما إذا كان الحاكم قد فرض على رعاياه إصلاحات جذرية مثيرة للخلاف، وإذا أدرك أن قدرته وإرادته الشخصية كانت الأدوات الرئيسة فى تنفيذ إصلاحاته والإبقاء عليها، فإن رغبته فى استمرار عمله فى حياته بعد انتهائها قد تكون أقوى من رغبته فى أن يكون من يأتى بعده واحدا من أعقابه.

إن معاملة بطرس الكبير لابنه ووريثه أليكسى Alexei حالة كلاسيكية فقد جلده بطرس حتى الموت بعد حرمانه من الإرث. وكان من دوافع بطرس إلى ارتكاب هذا العمل القظيع غير المعهود معارضة شخصية متبادلة، لكن بطرس كان مدفوعا أيضا بالاهتمام بالمصلحة العامة للدولة الروسية والشعب الروسى، وقد برّرت الحقائق هذا الاهتمام عند بطرس. لم يكن أليكسى بطبيعته رجل عمل؛ كما كره الاشتراك فى الشئون العامة وكان فيها عاجزًا، وكان تحت تأثير الناس الذين عارضوا إصلاحات بطرس، وربما ضغطوا على أليكسى حتى يرجع عنها لو عاش بعد بطرس وأعقبه. ويتفق الأعقاب مع بطرس على أن هذا كارثة على روسيا إذا حدث.

إن الخطوة المتطرفة التى اتخذها بطرس للتأكد من عدم الرجوع عن الإصلاحات التى نفذها فى روسيا بعد موته تُظهر حقا صعوبة الشعور بالاهتمام بمصلحة الأعقاب فى المستقبل دون محاولة الاهتمام بالتنفيذ باتخاذ الخطوات للتأثير، أو حتى تقرير ما سيحدث بعد موت الإنسان فى حدود ما يدخل فى طاقته الشخصية. وإذا اهتم الإنسان بالأعقاب فسيكون لديه أفكاره الخاصة عما يفيد أو يهدم مصلحة الأعقاب، وسيدفعه ذلك إلى محاولة ضمان رفاهية هذه الأجيال فى المستقبل؛ كما يراها الإنسان، وتفادى الأذى فى معارضتها كذلك، كما يراها الإنسان أيضا.

إن رؤساء الدول الذين يظلون طوال حياتهم فى وظائفهم ليسوا وحدهم بالطبع من الذين يدفعهم الاهتمام بالأعقاب إلى محاولة تمديد قوتهم أكثر من حياتهم الشخصية؛ بترتيب ما سيحدث بعد موتهم، فى أثناء حياتهم. وينشأ هذا الاحتمال كذلك عندما يكتب أى مواطن خاص أو مواطنة وصيته أو وصيتها، وبخاصة إذا كان الموصى لا يترك وصايا لأقاربه وأصدقائه فقط، وإنما للمؤسسات الدينية أو التعليمية أو الخيرية أيضا. إن استخدام الميت لهذه القدرة بعد موته أثبت أنه عبء ثقيل جدا على الأعقاب، بحيث صدرت تشريعات فى بعض البلاد تحدّد حرية الموصى فى التصرف بممتلكاته كلها حسب اختياره.

لم ينجح الأفراد الموصون من خواص المواطنين، أو الحكام على مدى أعمارهم نجاحا كبيرا فى التحكم فى حياة الأعقاب، مثل نجاح المؤسسين للفلسفات والديانات العليا التاريخية. إن الآف الملايين من البشر الأحياء فى هذه اللحظة يميلون إلى التصرف فى أمور كثيرة ؛ عظيمة أو صغيرة تبعا للوصايا والمبادئ عند ماركس ومحمد عليه السلام، والقديس بطرس والمسيح عليه السلام وبوذا وكونفوشيوس والمنقّحين لأسفار موسى الخمسة. لقد كانت قوة هذه السطات الروحية بعد الموت وما زالت عظيمة إلى حد لا يُبارى. لكن ممارسة هذه القوة الروحية بعد الموت لها مع ذلك جانبها من المناقضة.

لقد وضع هؤلاء الزعماء الدينيون بعض الوصايا والمبادئ الأصلية، ونفذوها من وحى اللحظة للتصرف فى بعض المواقف العاجلة، وإن كانت محلية مؤقتة. والحالات المتعلقة بذلك مثل رسائل القديس بطرس، وسور من القرآن ذكرها النبى محمد حين كان رئيس حكومة المدينة. وربما شعر النبى محمد وبطرس بالحيرة لو شاهدا بعين المستقبل كيف تناول الملايين من الأتقياء التابعين بعد موتهما طوال مئات من السنين حتى أبسط كلامهما العارض بصورة حرفية حماسية(*). وهناك وصايا ومبادئ

(*) يؤمن المسلمون بأن القرآن الكريم وحى من الله إلى النبى محمد عليه السلام، وليس من تأليف النبى، كما يعرف الفقهاء الآيات الناسخة والمنسوخة. وهناك بالطبع بعض المتنطعين والمتشددين فى كل دين. المترجم

وأحاديث أخرى نُسبت كذبا إلى زعيم دينى أعطاها اسمه سلطتها، وربما صدم بعض هذه الأحاديث مؤلفيها المزعومين. ماذا كان شعور المسيح مثلا لو استطاع أن يرى مقدما أن أتباعه بعد موته سوف يعبدونه مع يهواه والروح القدس كواحد من الثالوث المقدس؟ كان المسيح يهوديا أرثوذكسيا حسب الدليل من الأناجيل نفسها. ورُوى عنه أنه قال لأحد السائلين: " لماذا تدعونى صالحا. ليس أحد صالحا إلا واحد وهو الله"(١) هذا الحديث أحرى به ألاّ يكون أصيلا فقط، وإنما هو أصيل بصورة شهيرة فى وقت كتابة الإنجيل حسب قول القديس مرقص. ولو لم يكن كذلك لتم استبعاده بالتأكيد لأن من التعارض – حسب كلام المسيح نفسه – قضية أتباعه المسيحيين بعد موته بأنه كان هو نفسه إلها.

إن قتل بطرس لابنه أليكسى تظهره كذلك حالة متطرفة؛ وهى أن الأجيال القادمة التى يُورّثها الإنسان الحى ثروته قد تحتوى حقا على دائرة أوسع كثيرا من ذريته من صُلبه. لم يكن الخيار الذى واجه بطرس خيارا فريدا فى ذاته. إن الحاكم الذى يشغل وظيفة تُورث ؛ سواء كان رأس الدولة أو المدير الرئيس لأعمال عائلية، قد يشعر باضطراره إلى حرمان ابنه أو قريب أبعد من ابنه من الميراث؛ لأنه يحكم عليه بعجزه عن تحمل واجبات الوظيفة، ولأن ضميره يخبره بأن مصالح المملكة أو العمل؛ أى مصالح الناس الذين ليسوا أقاربه ولكنه مسئول عن مصالحهم ينبغى أن تكون لها الأولوية على واجباته نحو أقاربه وأنسبائه. إن حرمان الوريث بحكم قرابته لا تستدعى فى الأحوال الطبيعية أن يقتل المورث وريثه القريب. إن أباطرة الرومان نيرفا **Nerva**، وتراجان **Trajan**، وهادريان **Hadrian**، وأنطونينوس بيوس **Antoninus Pius** سلّم كل منهم مقاليد الحكم لخليفته الذى كان ابنه بالتبنى الشرعى، وبهذا العمل كانت مصالح الإمبراطورية وسكانها فى المستقبل هى غاية اهتمامهم، لكن واحدا منهم لم يقتل أى

(1) Mark, x, 18.

وريث له محروم مثل ما قتل بطرس أليكسى. أما ماركوس أوريليوس Marcus Aurelius فقد أساء إلى الإمبراطورية عندما انحرف عن الممارسة المستمرة لأربعة من السابقين عليه مباشرة – بتسليم مقاليد الحكم إلى ابنه الحقيقى كومودوس Commodos – ذلك لأن كومودوس لم يكن عاجزا فى الشئون العامة غير مهتم بها فقط، كما كان أليكسى. إذ كان كومودوس – على خلاف أليكسى – شخصية شريرة.

كان اهتمام بطرس الكبير بمصالح الأجيال فى المستقبل يحتضن أمة كانت كبيرة من قبل، لكنها كانت فى الوقت نفسه واحدة من بين عدد من الأمم تعادى بعضها. وكان اهتمام الأربعة السابقين على ماركوس أوريليوس يحتضن جميع السكان فى إمبراطورية؛ كانت دولة عالمية فى أنظار حكامها ورعاياهم؛ بمعنى أن الإمبراطورية الرومانية كانت تحتوى على كثير من العالم المتحضر فى داخل حدودها على قدر ما يعرف سكانها. وأيّما إنسان يهتم اليوم بمصالح الأجيال المقبلة، يجب ألاّ يقتصر على توسيع اهتمامه من عائلته إلى أمته، وإنما عليه أن يوسّع اهتمامه بأمته حتى يشمل الجنس البشرى كله. ذلك بأن إلغاء المسافات فى عصرنا اليوم بالتقدم فى التكنية، قد ربط الأقدار بين جميع قطاعات الجنس البشرى فى سبيل الخير أو الشر، بينما عرّض اختراع السلاح الذرى الجنس البشرى لخطر الإبادة مرة أخرى للمرة الأولى؛ حيث استطاع الإنسان منذ أواخر العصر الباليوسى Palaeboliithic أن تكون له اليد العليا حقا على كل الكائنات الحية على سطح هذا الكوكب ما عدا البكتيريا. ولا شك أن اللورد راسل Russell كان يفكر على هذا النطاق العالمى؛ إذا قال، وقد رُوِى عنه أنه قال إن الإنسان حين يبلغ الشيخوخة فمن المهم أن يهتم إلى حد هائل بما سيحدث بعد موت الإنسان.

إن هذا يعنى فى الحالة الراهنة من القوة الحربية والتوتر السياسى والمعرفة العلمية أن يضع الإنسان ثرواته فى سبعين مليونا من أجيال الجنس البشرى فى المستقبل، يجيئون ويذهبون بعد زوال الجيل الحاضر قبل ألا يَصلُح سطح هذا الكوكب

لسكنى الكائنات الحية. هل يستطيع أى إنسان أن يتصالح مع حقيقة الموت بوضع ثرواته فى أجيال الجنس البشرى كله فى المستقبل فى هذه الأعداد الهائلة التى لا يكاد يتخيلها الإنسان ؟

هل يمكن أن يكون نقل اهتمام الإنسان بنفسه الصغيرة إلى هذه الذرية الهائلة حتى هذا المدى إلى إضفاء المعنى والقيمة والمتعة على الحياة، وتجريد الموت من وخزه ؟

لعل من الجرأة فيما يبدو أن نقول إن الذرية على هذا النطاق ليست من العظمة الكافية بحيث تُخرج الإنسان من اهتمامه بنفسه تماما، ويصالح نفسه كليا مع معرفته المسبقة بأنه سيموت شخصيا. أما أن يُغرق الإنسان تركيزه على نفسه فى الاهتمام بجميع أجيال المستقبل لإخوانه من البشر فقد يكون داعيا إلى الرضا التام لو عرف الإنسان فقط أن الجنس البشرى هو الأول والآخر فى الكون. ولسنا نعرف هذا؛ وليس لدينا وسائل حتى نكتشف ما إذا كان حقا أم لا، ويبدو أن الحق فيه بعيد الاحتمال، إذا اعتبرنا أن كوكبنا نحن، والمنظومة الشمسية والمجرّة ليست سوى أجزاء ضئيلة من كون مادى تكون حدوده – إن كانت له حدود – وراء قدراتنا على الملاحظة.

هناك – فضلا عن ذلك – فى داخل كل واحد من البشر – عالم نفسى يثبت فيما يبدو أنه لا يقل فى اتساع مجاله عن العلم الطبيعى على الأقل. إن عالم النفس وعالم الطبيعة والعلاقة بينهما كلها ليست واضحة، فهى غامضة، ويصعب أن تكون الحقيقة النهائية. هل يستطيع الإنسان الاتصال بهذه الحقيقة النهائية؟ وإذا استطاع، هل يتمكن من تصالح نفسه مع الموت بالدخول فى اتصال خالد مع الحقيقة النهائية، أو بالاندماج فيها؟

٦– تحرير النفس من التركيز على ذاتها باندماجها فى الحقيقة النهائية:

إن الاتصال بالحقيقة النهائية واندماج النفس فيها ظل بحثا هنديا. وما زال هذا فى الهند البحث الأساسى عند الفلاسفة من المدارس جميعا على مدى ثلاثة آلاف سنة أخيرة على الأقل. وأدى البحث عند منعطف القرنين السادس والخامس قبل الميلاد إلى

انفصال حاد بين مدرستين قدمتا تقارير مختلفة عن اكتشافات الاستبطان، واجتهدتا فى تأليف وصفات مختلفة لتحقيق أهداف روحية ربما كانت متماثلة.

يقرر أتباع إحدى المدرستين أن الإنسان حين ينجح فى جلب مركز نفسه حقا تحت نور الوعى فإنه يجد هناك ساكنا فى أعمق الأعماق هو الروح؛ الذى يتماثل مع الحقيقة النهائية نفسها. وتم التعبير عن هذا الكشف فى ثلاث كلمات: " الحقيقة النهائية هى الروح الإنسانى That art thou" حيث تعنى That الحقيقة النهائية، وتعنى thou الروح الإنسانى. هل كان التعرف على ماهية الروح الإنسانى Thou مع الحقيقة الإلهية That مساويا لاندماج الروح الإنسانى فى الحقيقة النهائية ؟ يمكن أن يكون كذلك؛ لأن التعرف على الماهية ليس مجرد كشف فكرى، إنما هو اكتمال جهد روحى شاق طويل.

أما المدرسة المقابلة فقد أسّسها بوذا. وكانت اكتشافات بوذا تختلف تماما عن تلك الاكتشافات لدى معاصريه، وكانت أبعد جدا من الاكتمال النهائى لجهد روحى شاق طويل، إذ كانت نقطة البداية الطازجة لهذا(١).

قرر بوذا أن ليس فى النفس روح، وإنما وجد هناك فقط سلسلة من الحالات النفسية غير متصلة، وهى مترابطة ومتحركة بدفع قوة الكارما (القدر) الناشئة من الرغبة فقط. ويقدم الوصفة لاندماج النفس فى الحقيقة النهائية على أنه لا يكون بالنفاذ إلى لُبّ النفس والتعرف على ماهية الحقيقة النهائية مع هذا اللّب، وإنما يكون بإيقاف تدفق الحالات النفسية بالقضاء على الرغبة؛ أى التركيز على النفس، وبذلك يبلغ الإنسان حالة الفناء (النرفانا).

إن الأحرى بالمراقب الغربى فى العصر الحاضر أن يكون أوعى بالأساس المشترك بين هاتين المدرستين الهنديتين المتعارضتين فى التفكير، على نحو يزيد على

---

(١) انظر الفصل التالى: مواقف تجاه الموت فى الديانات الشرقية.

الفوارق التى لاحت كبيرة جدا فى عقول مؤسسيها الهنود على التوالى. تُسلّم كلتا المدرستين بأن جميع الكائنات الشاعرة محكوم عليها بالمرور فى دورة من الولادات المتجددة تستمر إلا إذا نجح من يعانى فى إحدى هذه الحيوات المتعاقبة فى إنهاء سلسلة الحيوات. وتؤمن كلتا المدرستين بأن الولادة المتجددة أعظم شرا من الموت، وأن الهرب من الولادة المتجددة، لا الهرب من الموت، ينبغى على ذلك أن يكون الهدف الأسمى للجهود الإنسانية. وتؤمن كلتا المدرستين كذلك أن الجهود الروحية المطلوبة لتحقيق هذا الهدف طويلة شاقة، وإن كانت وصفاتهما فى سبيل الكفاح لبلوغ الهدف مختلفة. إن الإنسان الذى يتمسك بإحدى هاتين المدرستين فى الفلسفة الهندية سيجد قليلا من المشقة فى مصالحة نفسه مع حقيقة الموت (التى يُسلّم بها) فى أن الموت سوف تعقبه ولادة أخرى ستكون كابوس هذا الإنسان. ولم أنس قط الابتسامة الوضيئة التى ارتسمت على وجه باحث يابانى هو الأستاذ أنيساكى Anesaki، عندما أعلن فى مؤتمر عُقد فى كيوتو Kyoto فى عام ١٩٢٩: " أنا من طوكيو، ولكنى من كيوتو أيضا، لأنى سأحضر هنا بعد موتى". وأتصور أن ابتسامة أنيساكى كان الباعث عليها فكرتين: فكرة الجمال الطبيعى للمدينة التى سوف تحافظ على بقاياه بعد الموت، وفكرة جمال النِّرفانا الذى يفوق الوصف[1].

٧- الإيمان بالخلود الشخصى للأرواح الإنسانية:

يؤمن الهنود بالخلود لشىء يسمو على الشخصية الفردية (أعنى هوية الجمع بين ماهية النفس البشرية والحقيقة النهائية). ويؤمن البوذيون بالخلود اللاشخصى (أى إمكان إفناء النفس من خلال تحريرها من التركيز عليها). وقد اقترحت أن هاتين العقيدتين من أصل هندى يثبتان - عند التحليل - أنهما يتشابهان من قريب أكثر مما قد يبدو لأول نظرة، وأكثر مما كانتا فى الخلافات الفلسفية الهندية. ومن الظواهر

(1) For a fuller discussion of the quest for ultimate reality, see below Ninian smart, "Attitudes towards death in Eastern Religions", PP. 101-102.

الأخرى التى تجمع بينهما هى أن كلتيهما معا أحرى بالتصديق من الإيمان بالخلود الشخصى.

من المعقول أن يكون الإنسان من جانبه النفسى جزءا من الحقيقة النهائية فى جانبها الروحى، ومن المشاهد أن الإنسان نفسه من جانبه المادى جزء من الكون من الجانب المادى الذى ندرك فيه الكون بحواسنا ونفسر معلوماتنا الحسية بالتعبيرات العلمية - وفى الجانب المقابل، لم يتمكن أى أنسان حىّ على الإطلاق أن يبين بطريقة نهائية أنه كان فى تواصل نفسى مع نفس إنسانية بغير جسد (أى نفس إنسان لم يكن جسده فى تلك اللحظة حيا، ولكنه كان إمّا جثة، أو قد تحلل إلى عناصر كيماوية كانت الجثة تتألف منها فى اللحظة التى توقفت فيها حياة الجسم الحى)[1]. ولم يستطع أى إنسان حقا أن يبين أنه كان فى اتحاد نفسى مع نفس إنسانية بغير جسد، وهى لم تتلبّس بالجسد حتى الآن، أو أنه كان عندئذ بغير جسد بصفة مؤقتة فى فترة بين تجّسدين متعاقبين (وهو مفهوم يستدعى فرضا لم يَثْبُت؛ وهو أن النفس يمكن أن تتجسد من جديد فى أجسام حية متعاقبة إنسانية أو غير إنسانية دون فقدان هويتها، وهى تفعل ذلك) إن كل إنسان حىّ قابله أى إنسان حىّ آخر على الإطلاق لا يزال حقيقة جسمية نفسية **Psychosomatic entity**، وأن حياة كل واحد من هذه الموجودات الجسمية النفسية، مثل حياة كل كائن جنسى آخر يسكن هذا الكوكب قد تحرك، أو فى سبيل التحرك على مدى الزمن فى مسار صاعد من الولادة ثم عبر الطفولة إلى بلوغ أشده، ثم ينحدر إلى الشيخوخة هابطا إلى الموت، على فرض أن الإنسان المقصود سيعيش حياته أو حياتها حتى نهاية أجلها الطبيعى الكامل، وأن تلك الحياة المعنية لن تَقصُر بالموت قبل الأوان بواسطة المرض أو الحوادث أو العنف من أناس آخرين فى الحرب أو بالقانون أو النشاط الخاص.

(1) But see below, Rosalind Heywood, "Death and Psychical Research", P. 219 ff.

إن الموت، أيا كان سببه وظروفه، حدث يتحول فيه الجسم الحىّ سابقا إلى جثة تتحلل (إلا إذا تم إيقاف التحلل البدنى بطريقة صناعية)، بينما تخرج النفس من قرينها الإنسانى (وتتوقف عن التواصل مع نفس أى إنسان حىّ فى تلك اللحظة). ومن المستحيل أن نتصور جسما إنسانيا حيًّا دون ارتباط بنفس إنسانية. وقد أمكن أن نتصور نفسا حية دون ارتباط بجسم حى. وقد بلغ هذا الجهد من صعوبة التخيل على كل حال بحيث تعرضت محاولات التصرف فى عواقب الأمر بالتفصيل إلى مواجهة ألوان من التنافر، وعدم الاتساق والتوافق، والتعارض مع النفس.

عندما بحث المؤمنون بالخلود الشخصى عن وصف الأرواح بغير أجساد، فإنهم لم يجدوا طريقة لوصف هذه الحالة الافتراضية، التى لا تتعلق بشىء من التشابه مع الحياة الجسمية النفسية على الأرض؛ ولنا بها تجربة واقعية. إن الشبح الذى أرسل إلى النار أو الجحيم، أو إلى العالم السفلى كما تصور السومريون وأعقابهم الوارثون لثقافتهم من الأكاديين والبابليين إنما هو طبعة ضعيفة من الشخص الميت الآن، الذى كان حيا ذات مرة فى صورة جسمية نفسية. والواقع أن مؤلف الكتاب الحادى عشر من الأوديسا كان يُسلِّم بأن الحالة الوحيدة التى يستطيع بها الزائر الحىّ أوديسيوس Odysseus أن يتواصل مع أشباح الموتى فى عالمهم من الأشباح هى أن يُضفى عليهم من جديد صورة من الحياة المادية. وكان على أوديسيوس من أجل تمكينهم من الحديث إليه أن يقدم إليهم شرابا منبّها ماديا أولا. فأعطى كل واحد منهم على التوالى شرابا من دم حيوانات جسمية نفسية غير بشرية – وهى الأغنام – وكان أوديسيوس ذبحها لهذا الفرض(1). أما الأقلية صاحبة الامتياز من الذاهبين الذين نتصور متعتهم بالرحمة فى وجودهم فى مملكة الغرب أو مثل نجم فى السماء (لو كان الذاهب العظيم فرعون مصر)، أو فى الليسيوم Elysium (لو كان بطلا إغريقيا قبل المسيحية). أو فى فالاهلا

(1) Odyssey, Book x1, lines 23-50, 82, 88-80, 153, 232, 390.

Vallahalla (إذا كان محاربا اسكندنافيا قبل المسيحية). وهؤلاء القليلون المحظوظون يتميزون بحيوية فوق الطاقة البشرية، بل بحيوية أشبه بالإلهية.

هذا العجز عن فهم الأرواح بغير أجسام تُوصف بتعبيرات الجسمية النفسية يُشكل على أولئك المؤمنين بالخلود الشخصى الذين يعتقدون بأن مصير الراحلين لا يحدّده مكانتهم السابقة، وإنما يحدده سلوكهم السابق. إن عذابات الملعونين فى الجحيم مصوّرة على جدران المقابر فى إتروريا Etruria(*) وقاعات الطعام فى الأديرة المسيحية الأرثوذكسية الشرقية على جبل أثوس Mount Athos، وهى موصوفة فى الكوميديا الإلهية لدانتى فى صور مادية تماما، وبعضها بلغ من التطرف حدا لا يمكن لأى إنسان حىّ أن يتعرض له أكثر من بضع ثوان دون أن يموت، وإن كان من التناقض أن هذه الأرواح بغير أجسام، والمعتقد أنها تعانى هذه العذابات القاتلة وقد جُعلَتْ خالدة حتى تصبح معاناتها دائمة. وقد كان هناك عدد من المفاهيم المختلفة عن طبيعة الخلود الشخصى للروح بغير جسم أو التى خرجت من الجسم، لكنها جميعا ذات سمة واحدة مهمة. فهى جميعا تتعلق إلى حد ما ببعض التنافر وعدم الاتساق وعدم التوافق والتناقضات فيما بينها.

كان واحد من المفاهيم عن خلود الروح أن الأرواح ليست خالدة فقط، ولكنها أزلية؛ أى أن كل روح كان موجودا منذ الأزل قبل أن يتلبّس بالجسد قط، وسوف يبقى موجودا إلى الأبد بعد مغادرة الجسد مرة واحدة. هذا المفهوم – من بين المفاهيم التى تعرضت للبحث – هو الأقرب إلى المفهوم الهندى عن الخلود غير الشخصى أو الخلود الذى يسمو فوق الشخصية. وقد آمن بهذا المفهوم بعض الإغريق قبل المسيحية، لكنهم لم يكونوا قط – حسب تقديرنا المتاح – أكثر من قلّة راقية التفكير. واعتقدت قلة أخرى أن الروح تغنى عند الموت – ولعل الأغلبية منذ أوائل العصر الإغريقى قبل

(*) مملكة فى غرب إيطاليا ازدهرت منذ خمسة قرون قبل الميلاد. المترجم

المسيحى حتى آخره آمنت بأن كل روح إنسانى يأتى إلى الوجود مع الجسد الذى يرتبط به فى الحياة، وأنه يستمر بعد الموت مثل الشبح يعيش فى الجحيم حياة الأشباح على نحو صوّره الكتاب الحادى عشر من الأوديسا.

إن أشهر المؤمنين الإغريق بخلود الأرواح هم الفيثاغوريون (وهم جماعة منظمة سرية من الأصحاب أنصاف الفلاسفة وأنصاف المتدينين، والأورفيون (وهم طائفة غير منظمة متواضعة الثقافة). وكانت كلتا هاتين الطائفتين من الإغريق المؤمنين بخلود الأرواح مؤمنة أيضا بهجرة الأروح من تقمص إلى آخر، وهذا الإيمان الخير ظهر على نحو عجيب غالب بحيث يكون ظهوره فى وقت واحد فى القرن السادس قبل الميلاد فى العالم الإغريقى والهند من قبيل المصادفة أمرا عسيرا. والمصدر المشترك المحتمل هو المجتمع البدوى فى أوراسيا، الذى هبط فى القرنين الثامن والسابع قبل الميلاد إلى الهند وآسيا الجنوبية الغربية وبلاد السّهوب على الشاطئ الشمالى للبحر الأسود وشبه جزيرة الأناضول والبلقان فى هجرة من هجراته المتفجرة.

إن الإيمان بالخلود الشخصى للأرواح الذى لا يرتبط بالإيمان بأبديتها - مثل خلودها - يتعلق بالمحاولات التى لوحظت سابقا للتهرب من الموت بوسائل مادية مضادة. إن المصريين قبل المسيحية وقبل الإسلام آمنوا مثلا بالخلود المشروط لأرواح الموتى، أو بصورة محددة فى الخلود المشروط لروح من أوراح عديدة يعتقد أنها تتعلق بإنسان. وكان المُعْتَقَد أن الروح المُعّين "كا" Ka يظل موجودا يحوم حول قبر الميت ما دامت الذرية مستمرة فى حفظ القبر فى حالة روحية صحيحة بأداء الطقوس المطلوبة هناك، وتموين الأزواد المطلوبة من الطعام والشراب والملابس والأثاث؛ التى تعتبر ضرورات للحياة بعد الموت، كما كانت قبل الموت. وكان هناك إيمان بهذا الاعتقاد مع الإيمان فى الوقت نفسه بمعتقدات لا تتوافق معه، إذ يمكن أن يهاجر روح الميت إلى مملكة الغرب، أو يرقى فى السماء كى يلمع هناك مثل النجم، أو يهبط إلى العالم السفلى الذى ترأسه الإلهة أوزيريس.

هذا الاعتقاد المصرى فى الخلود المشروط للأرواح بعد الموت اعتقد فيه كذلك جميع الآخرين من الناس الكثيرين الذين مارسوا عبادة الأسلاف؛ مثل الصينيين، وإن لم يتطور الاعتقاد فى جميع الحالات بصورة بالغة التنظيم.

سبق أن ذكرنا ثلاثة أنواع من الاعتقاد فى خلود الأروح بعد الموت، وهو لا يتعلق بالاعتقاد فى وجودها قبل الميلاد، أو أزليتها. وهناك اعتقاد فى حياة سيئة لأرواح الموتى، التى تحتفظ هناك بوجود للأشباح. هذه هى جهنم العبرانيين (شيول Sheol وجحيم الإغريق Hades، وما يقابل هذه عند السومريين. وكان هناك اعتقاد فى مأوى النعيم لأرواح الموتى الذين كانوا فى مناصب مرموقة فى أثناء حياتهم. هذه هى المملكة المصرية للغرب ومملكة السماء، وفردوس الإغريق Elysium وفالاّهلاّ عند السكندنافيين.

كان هناك أيضا إيمان بوجود مصيرين بديلين لأرواح الموتى، وهما مصيران محدّدان تبعا لهذا الاعتقاد الذى يزيد فى الجانب الأخلاقى لا بالمكانة السابقة، وإنما بالسلوك السابق. إن أرواح الأشرار حبيسة فى الجحيم عقابا لها، وهى مأوى دائم ليس سيئا فقط مثل نار اليهود أو الإغريق، وإنما يكون عذابها مُبرّحا. أما أوراح الأخيار فى الجانب المقابل فهى تُدعى إلى الفردوس أو الجنة جزاء لها، وهى مأوى دائم فى مثل نعيم فردوس الإغريق أو فالاهلا عند السكندافيين، لكن بلوغها – على خلاف الآخرين – بناء على الفضائل السابقة، لا المناصب السابقة.

إن احتباس روح الميت فى واحد أو آخر من هذين البديلين من المأوى أمر تلقائى عند المؤمنين بالجحيم والفردوس من الإغريق. ويتقرر بناء على مكانة الميت الاجتماعية فى حياته. أما المؤمنون بالجنة والنار فيعتمد القرار على سلوك الميت فى أثناء حياته، ولا يمكن تقدير سلوكه دون فحصه وتقييمه، ويستدعى هذا إصدار حكم عليه من بعض السلطات. إن الإيمان بإصدار الحكم على الأرواح بعد الموت ضرورة لازمة للإيمان بالجنة والنار.

ظهر هذا الإيمان بالحكم على الأرواح بعد الموت فى تاريخين متباعدين إلى حد بعيد وفى مكانين متباعدين (متباعدين أى قبل إلغاء المسافات حديثا جدا) ربما ظهرت العقيدة فى مصر فى عهد المملكة القديمة فى الألف الثالثة قبل الميلاد، كما ظهر كذلك فى الشمال الشرقى من إيران، حوالى منعطف القرنين السابع والسادس قبل الميلاد، أى فى حياة النبى زرادشت، الذى نشر العقيدة فى هذه المنطقة. ولا دليل عندنا على أن هناك أصلا مشتركا لعقيدة المصريين والإيرانيين فى الحكم على الروح بعد الموت إما بالذهاب إلى النار وإما إلى الجنة. وجدير بالملاحظة أنّ بين العقائد المصرية والإيرانية سمة مشتركة زيادة على ذلك. إن القاضى الذى يحكم على أرواح الموتى؛ وهو أوزيريس فى إحدى الحالتين، وأهورا مازده **Ahura Mazda** فى الحالة الأخرى هو ربّ خيّر انتصر، أو سينتصر فى معركة شاقة مع إله شرير أو كائن نصف إله شرير. أما أوزيريس – بعد هزيمة مبدئية – فقد حاز نصرا فى النهاية على أخيه وعدوه الشرير ست **Seth** بواسطة قوة حورس ابن أوزيريس، وتفانى أخته وزوجته إيزيس. أما أهورا مازده فسوف ينتصر فى النهاية على عدوه الشرير أهريمان.

من المفروض أن عقيدة المصريين فى الحكم على الأرواح بعد الموت بالذهاب إلى الجنة أو النار هى مصدر العقيدة نفسها فى عالم الإغريق فى العصر الهيلينى – ولعل الأمر فى كريت فى العصر البرونزى كان من تراث التأثير المصرى. كان أوزيريس فى نطاق وظيفته قاضيا على أرواح الموتى له نظير كريتى هو رادامانتوس **Rhadamanthus.** كانت كتب الأهرام فى مصر، وهى المنقوشة من أجل مصلحة الفراعنة فى عصر المملكة القديمة، كما كان كتاب الموتى من الكتب الشائعة بين عامة الناس؛ وهى مجموعات من القواعد والتعاويذ والتعلميات يُقصد بها مساعدة روح الميت حتى يجد سبيله بنجاح إلى نهاية سعيدة دون الوقوع فى أية عثرات أو شباك أو عقبات تعرقل الروح فى مساره العسير الخطير. إن محتويات الألواح الأورفية مشابهة، وهى مُخطَّطَة لخدمة الغرض نفسه.

الهدف فى كلتا الحالتين هو الإرشاد العملى، لا الحث على الفضيلة، أما فيما يتعلق بدور التطهير فيها، فهذا تطهير فى الطقوس، لا بالمعنى الأخلاقى. كان تيتيوس Tityusوسيسيفوس Sisyphus وتَنْتَالوس tantalus وإكسيون ixion أربعة ممثلين نموذجيين للملعونين الذين يعانون من العذاب الأبدى، كما ورد فى صورة النار عند الإغريق قبل عصر المسيحية. إن الصور المرسومة على المقابر الإيطالية قبل الميلاد تبيّن أن صورة النار عند الإغريق أثرت تأثيرا قويا على أهل إتروسيا الإيطاليين.

وليس من الخيال أن يكون هناك عنصر من تراث إتروسيا (محفوظ فى الفن الشعبى التالى فى توسكانيا Tuscany)، وكذلك عنصر مسيحى لدى الشاعر التوسكانى المسيحى فى العصور الوسطى دانتى فى وصفه المتوهج لعذابات الملعونين فى الجحيم المسيحى.

إن المفاهيم المسيحية والإسلامية للحكم على الأرواح بعد الموت وصدور القضاء عليها بالجنة أو النار تبعا لذلك نابعة حقا فى جانبها الرئيسى، لا من ديانة مصر قبل المسيحية، وإنما من الرزداشتية عن طريق اليهودية الفارسية التى تفتحت لتأثيرات الرزادشتية التى تدخلت فى اليهودية بعد دخول بابل وسوريا وفلسطين ومصر فى الإمبراطورية الفارسية فى القرن السادس قبل الميلاد، على خلاف اليهودية الصدُّوقية فى النظام اليهودى فى يهوذا بعد السبى اليهودى.

فى العقيدة المسيحية يكون الحكم الفردى على الأرواح بعد الموت مباشرة وإرسالها على الفور بعد الحكم إلى جهنم أو الجنة أو الحكم عليها بالانتظار، ويكون فى الوقت نفسه مع عقيدة فى الحكم العالمى على جميع الأرواح؛ أرواح المبعوثين من الموتى، وأرواح الناس الأحياء فى تلك اللحظة، عندما ينفخ فى البوق للمرة الأخيرة كى يبعث الإشارة ببعث الموتى "للحكم الأخير" على الأحياء والموتى المبعوثين على السواء.

عندما يكون الإيمان بالخلود الشخصى مرتبطا بالإيمان بالحكم على الإنسان بعد الموت، وهو حكم سوف يبعث الميت إما إلى النعيم الأبدى، وإما إلى العذاب الأبدى، فإن ثمن الإيمان عند الإنسان ببقاء شخصيته بعد الموت هو القلق فى أثناء حياته.

"فإننا نعرف الذى قال: لى الانتقام. أنا أجازى يقول الرب. وأيضا الرب يدين شعبه. مخيف هو الوقوع فى يدى الله الحىّ»[١].

٨- الإيمان ببعث الأجساد البشرية :

الروح الذى خرج من الجسد، أو الروح بغير جسد أشق فى التخيل من الروح الذى يرتبط بالجسد الحى فى وحدة جسمية نفسية نألفها من خلال تعرفنا على أنفسنا وعلى رفاقنا من الناس الأحياء. وهذا الاتحاد بين الروح والجسد فى حياة بعد الموت أيسر فى التصور إذا تمثل فى اتحاد من جديد، يكون فيه الجسد الذى يرتبط به الروح الآن هو الجسد الذى تمت إعادته وصياغته وبعثه، حيث كان هذا الروح مرتبطا به قبل افتراق الروح والجسد بواسطة الموت، وأصبح الجسد جثة بناء على ذلك. وفى الجانب المقابل، يستحيل فى الواقع تصور إعادة الجثة وصياغتها وبعثها، إذا اعتبرنا أن جسم الإنسان يبدأ فورا بعد الموت فى التعفن، ثم يتحلل تماما فى النهاية، إلا اذا استئوصلت الأحشاء ، وتم الإبقاء على الجثة بالتحنيط.

إن الحاضرين الذين جذبهم القديس بولس فى أثينا كانوا يستمعون إليه صابرين حتى قال عبارة: إن الله بعث رجلا من الموتى، لكن هذا التأكيد أدى إلى انتهاء الاجتماع. وضحك بعض الذين سمعوا بولس، بينما أخبره آخرون فى تلطف بأنهم سوف ينتظرون لسماع المزيد منه حين يجدون مناسبة أخرى[٢]. كان بولس قد قرر أن المسيح له روح خالد سبق له الوجود من قبل ، وسوف يستمر باقيا إلى الأبد، ولعل المستمعين إليه من الإغريق ودّوا لو استمعوا إليه حتى النهاية. إن خلود الأرواح الشخصية كان نظرية مألوفة ولم تكن غريبة عند الإغريق من جيل القديس بولس، أما أن يطلب منهم الإيمان ببعث الموتى فقد كان ذلك يساوى أن يُقدّم المتحدث نفسه ملاحظة إليهم بأنه يُضيع وقتهم بالكلام الفارغ.

(1) Hebrews x, 30-31.

(2) Acts, xvii, 32.

ربما وجد بولس أذنا صاغية أكثر لإعلانه الإيمان ببعث الجسد لو كان واعظا فى مصر المعاصرة عندئذ، حيث كان المعتقد منذ الألف الثالثة قبل الميلاد على الأقل أن جسداً واحدا قد عاد إلى الحياة مرة أخرى، وهذا بعد أن تم تقطيعه إلى أربعة عشر جزءا مبعثرا، وكان يجب جمعه من جديد. قيلت هذه الحكاية عن إله، هو الإله أوزيريس فقد أصبح منذ بعث جسده قاضيا للأرواح بعد الموت. عندما أخبر بولس الأثينيين بأن المسيح قام من بين الموتى، فقد أشار إلى المسيح باعتباره رجلا وقال إن الله هو الذى بعثه، لكن بولس ذكر فى الوقت نفسه أن هذا العمل من الله دليل على أن الله قد اختار المسيح للحكم على الجنس البشرى كله فى زمن قادم تم تحديده من قبل[1]، وآمن بولس بأن المسيح كان إلها على معنى من المعانى، وإن لم يبح بإيمانه هذا فى هذه المناسبة. وسوف يُعرف أن دور الإله الذى يتعرض للموت ثم يبعث حتى يصبح قاضى الجنس البشرى يُعزى إلى أوزيريس والمسيح كليهما.

إن الإيمان بأن المسيح قام من الموتى، وأنه سيكون قاضيا للجنس البشرى والعلاقة فيما بين هاتين العقيدتين لها سابقة مصرية. لكن هناك أيضا مبدأ آخر فى المسيحية يتعلق فيه الإيمان بالبعث بالإيمان بالقضاء، ويبدو أن هذا المبدأ زرادشتى، لا مصرى. إن قضاء المسيح على الجنس البشرى – حسب المبدأ المسيحى – ليس قاصرا على الحكم على أرواح الموتى أفرادا، بعد موت كل واحد منا على الفور، إنما هو حكم فى المستقبل على الجنس البشرى كله فى الوقت نفسه، ويشمل الناس الأحياء عندئذ، وكذلك أولئك الذين عاشوا وماتوا جميعا فى ذلك الحين، وسيأتى الموتى للحكم عليهم بعد بعث أجسادهم، التى سوف تعود إلى الحياة فى المناسبة وتتحد من جديد مع أرواحهم. هذا الاعتقاد فى بعث أجساد الموتى من البشر جميعا شائع فى المسيحية والإسلام، وهو ملحوظ من قبل مثل الإيمان بالحكم عليهم[2]، ويبدو أنه فى الديانتين

(1) Acts , xvii, 32..

(٢) انظر ما سبق فى هذا الفصل.

ناشئ من الزرادشتية عن طريق اليهودية الفارسية. إن التفرقة بين الخيّرين والأشرار فى الحكم العام الأخير- تبعا للمذهب الزرادشتى - سوف تتم بواسطة عذاب بدنى بالنار والمعدن المذاب. وهذا يدل على بعث الموتى جسديا مرة أخرى؛ حسب الزرادشتية التى تتفق مع اليهودية الفارسية، والمسيحية والإسلام.

توقعت الزرادشتية من المسيحية أن تؤمن بحكمين:

حكم على كل روح بصفة فردية بعد الموت مباشرة، ثم حكم أخير على جميع البشر فى الوقت نفسه، الموتى وكذلك أولئك الأحياء فى ذلك الحين. هذا الاعتقاد غريب جدا، ويتعلق بتناقضات تؤكد علاقة تاريخية بين ظهورها فى هاتين الديانتين المختلفتين، أى أن المسيحية لا بد أنها تبنّت الاعتقاد من الزرادشتية.

والدليل على سبق الزرادشتية لا يدل عليه مجرد الحقيقة الزمنية ؛ وهى أن الزرادشتية أسبق من المسيحية بنحو ستة قرون، وإنما يدل عليها أيضا علاقة فى الزرادشتية بين الإيمان بحكم عام أخير فى المستقبل والإيمان بانتصار نهائى أخير لإله الخير أهورا مازده على الروح الشرير أهريمان فى الحرب الراهنة بين هاتين القوتين الروحيتين. إن انتصار أهورا مازده على أهريمان فى المستقبل سيكون عاقبته الحكم العام على الجنس البشرى.

إن الإيمان بالحكم على الجنس البشرى مرتين - فضلا عن التناقض الكائن فيه - يبدو زائدا عن الحاجة؛ إذ تُستَدعى الأروح من الجنة أو النار - حسب الحالة - إلى الأرض كى يتلقوا الحكم نفسه عليهم للمرة الثانية، ويثير تساؤلا أيضا عما إذا كانت الجنة والنار تعتبران فى البعد النفسى أو البعد الجسمى. ومن المفروض أن مكان الأرواح بغير أجسام ليس ماديا. ومع ذلك، فإن العذاب والنعيم لأرواح الموتى قبل البعث العام يكون فى صورة مادية - وإذا كانت الأرواح بغير أجسام مؤقتا - عند الحكم العام الأخير - سوف تتحد بأجسادها التى بُعثت، فإن الجنة والنار التى سوف يُحكم بها عليهم لا بد أن تكون أماكن مادية، إذا كان البشر الذاهبون هناك بعد الحكم

الثانى قد أعيدوا إلى الحالة النفسية الجسيمة التى عاشوا بها على الأرض قبل موتهم، ولا نتحدث عن أولئك الذين استولى عليهم - وهم أحياء - صوت البوق الأخير.

إن بعث الأجساد البشرية فى المسيحية والإسلام وكذلك فى الزرادشتية يصاحبه الحكم العام الأخير، وهو الذى سيوجّه أو يعيد توجيه الموتى المبعوثين كما يوجّه الأحياء أيضا؛ إما إلى الجنة وإما إلى النار. ويبدو أن ديانتهم الأم المشتركة، وهى اليهودية الفارسية، قد تبنّت العقيدة الزرادشتية فى بعث الأجساد فى صورة أقرب إلى الصورة المسيحية الإسلامية منها إلى الصورة الأصلية(١).

إن البعث فى هذه الصورة اليهودية الفارسية الأصلية يبدو كأنه مزية، لا محنة. إن شهداء اليهود الذين ضحوا بحياتهم من أجل العقيدة اليهودية والشعب اليهودى سوف يقومون من الموتى، لا ليحضروا الحكم الإلهى الذى يبعثهم إما إلى الجنة وإما إلى النار، وإنما لإعادة مملكة يهوذا على الأرض بواسطة المسيح، وهو سليل بيت داود، الذى لن يقتصر على إعادة مملكته السالفة إلى حدودها فى عهد داود ، ولكنه سيحولها إلى إمبراطورية عالمية تكون الإمبراطورية الألفية اليهودية التى تلى الإمبراطوريات المتعاقبة للآشوريين والفرس والمقدونيين.

هذا التبنى اليهودى الدنيوى للعقيدة الزرادشتية المتسامية يُظهر الحق فى أن بعث الجسد لا يعنى أن الإنسان النفسى الجسمى الذى أعيد بعثه سيكون خالدا. ويبدو أن المظنون بالمسيح نفسه هو أنه فى الأصل رجل معرض للموت، وإنما الذى يميزه من أقرانه الفانين أنه هو الوريث الشرعى فقط لبيت داود فى مملكة يهوذا ، والحاكم على إمبراطورية عالمية تكون أوسع وأقوى من نطاق مملكة سلف المسيح ، وهو داود نفسه. وسوف يموت المسيح على مسار الطبيعة مثل داود وكل من أعقب داود ، وكل السابقين على المسيح الذين حكم كل منهم على التوالى مملكة يهوذا كأنه

(١) انظر ما سبق فى هذا الفصل .

مسيح الله ، أى الممثل الحى وإذا كان يُعيد مملكة داود من بيت داود معرضا للموت، مثل سلفه ، فالمفروض أن الشهداء المبعوثين يثبتون أنهم معرضون للموت أيضا. وسوف يبعثون ليموتوا مرة أخرى ، وهم يموتون فى النهاية فى حالتهم الاستثنائية للمرة الثانية.

سنرى فى هذه المرحلة الأولى أن تبنى اليهود الفرس للعقيدة الزرادشتية فى بعث الأجساد قد خلّى مكانه للنظرة اليهودية التقليدية، التى عبر عنها تراث يهواه فى وعوده المتعاقبة لإبراهيم؛ وهو أن أعظم بركة للإنسان الفانى أن يتأكد، لا من ضمان الخلود الشخصى لنفسه، ولكن من أن يُخلف وراءه ذرية تحفظ جنسه. وكان من المقرر بالطبع أن الشهداء اليهود سوف يقومون من الموتى سريعا من أجل مشاهدة العنصر الحزبى والسياسى الأخير ليهودا، الذى أسهموا فيه بالتضحية بحياتهم. وكان المفروض أنهم راضون تماما "للرحيل فى سلام"، مع المسيح نفسه، عندما رأت أعينهم خلاص الله الذى هيّأه أمام رؤية الناس جميعا[1]، وهو خلاص سوف يكون الخلاص العام للشعب اليهودى، ومجد سوف يكون مجدا سياسيا للدولة اليهودية القائمة من جديد، وسوف لا تكون هذه المرة بلدية محلية صغيرة، ولكنها إمبراطورية عالمية بحق.

٩- الأمل فى الجنة والخوف من النار:

إن الهندى الذى يصل بالتجربة الشخصية إلى حدسه بأن ماهية روحة متماثلة مع الحقيقة النهائية نتيجة للتأمل الاستبطانى البالغ، يكون قد تحرّر كما هو مفروض بهذه التجربة من جميع الآمال والمخاوف حول الحياة أو الموت. وأصبح مدركا للحق الذى يؤكد له انعدام الأهمية فى الحياة أو الموت على السواء. كما أن البوذى الذى يتعلم أن فى الإمكان أن يخرج حقا إلى النرفانا من سلسلة مؤسفة من الولادات المتجددة، والذى تلقى تعليما فى التدريبات الروحية الشاقة التى يمكن بها تحقيق هذا

(1) Luke ii, 29- 32.

الهدف، سيكون مشغولا جدا بمتابعة محاولاته الروحية العملية بحيث لا يشغل نفسه بالحياة أو الموت، أو ينشغل بالآمال أو المخاوف. لكن الآمال والمخاوف الحية حول مصير الإنسان بعد الموت إنما يثيرها الإيمان بالخلود الشخصى، سواء توقع المؤمن بهذا أن يعيش إلى الأبد كروح بغير جسد، أو توقع أن يتحد روحه من جديد عند صوت البوق الأخير - مع جسده المبعوث، حتى يعيش إلى الأبد بعد ذلك بوصفه حقيقة نفسية جسمية تمت صياغتها من جديد: أى أنه إنسان إيمان مركب على نحو نفسه الحية الحاضرة، ومثل الأنفس الحية لمعاصريه، وهم مثله لم يعانوا حتى الآن من الموت.

ما هو تأثير الإيمان بالخلود الشخصى بعد الموت على مشاعر المؤمن وسلوكه ومواقفه؟ وإلى أى مدى، يبلغ التأثير - إن وُجد - على سلوكه فى أثناء حياته فى صورة الحياة النفسية الجسمية، وهى صورتها الوحيدة المعروفة لنا فى تجربتنا؟

إن المؤمن بالخلود الشخصى المشروط - وهو خلود يعتمد على قيام ذريته بأداء الطقوس الدائمة - أحرى به أن يعانى من القلق. وسوف يكون قلقا حتى يتأكد من وجود ذرية من بعده، وأن هؤلاء ستكون لديهم الإرادة والوسائل وكل ما هو مطلوب بدقة، كى يضمنوا خلود سَلَفهم هذا.

أما المؤمن بالخلود الشخصى فى مجال الأشباح فى النار أو جنهم فسوف يندم على قصر الحياة النفسية الجسمية الفوارة بالمتعة على الأرض، إلا إذا قاسى بالطبع من معاناة بالغة جدا قبل الموت، فأصبح يتقبل المستقبل الكئيب للنار أو جهنم فى إذعان. أما العظيم الذى يثق بأن مصيره الشخصى لن يكون إلى النار أو جهنم، وإنما إلى الفردوس أو فالآهلاّ فقد يتشجع باطمئنانه الأرستقراطى على مواجهة مستقبل الخلود الشخصى بعد الموت برباطة جأش، أو حتى بالتوقع السّار الذى يتطلع به البوذى إلى خروجه إلى النرفانا، حيث تفنى فيها شخصيته، والبوذى هو القطب المعاكس للمجاهد الوثنى البربرى.

إن المؤمن بالخلود الشخصى، ولعله يذهب فيه إلى النار أو الجنة تبعا للحكم الصادر على سلوكه فى أثناء حياته بعد الموت، أولى به أن يكون أشد قلقا من الجميع، لو كان مؤمنا حقا بعقيدته. ويجب أن يكون لإيمانه بالخلود الشخصى أعظم تأثير على سلوكه الراهن. وهو يلتزم بإيمانه بأن الموازنة بين رصيده الدائن والمدين فى حساب أعماله الخيّرة والشّريرة فى أثناء حياته القصيرة سوف تُقرر إلى الأبد ما إذا كان مصيره خيرا أو خيرا فى حياته الشخصية العارفة الخالدة التى تنتظره فى المستقبل بعد الموت.

هناك فى بعض الحالات فى الحياة العملية تفاوت عظيم بين الإيمان من ناحية – حتى لو آمن المؤمن بإخلاصه – والحالة العقلية للمؤمن وسلوكه من ناحية أخرى. لقد عرفت مثلا واحدا من المؤمنين كان بالغ الخوف من مستقبل الموت، على الرغم من وعيه بحياته التى عاشها على طريق الحق بصفة رئيسة، وكان واثقا تماما بأنه على صواب مائة فى المائة فى مبادئه اللاهوتية. كان من المنطق أن يشعر بالاطمئنان إلى أنه لن يذهب إلى الجنة فقط، وإنما سوف يُستقبل هناك باعتباره من الشخصيات المهمة جدا. وكان مع ذلك كله عاجزا عن مواجهة الموت مستقبلا فى رباطة جأش. هناك على النقيض أناس آمنوا بأن العقوبة الأكيدة لارتكاب الخطايا الخطيرة فى هذه الحياة هى الحكم بعد الموت بالعذابات الدائمة فى جهنم، ومع ذلك لم يمنعهم هذا الإيمان من ارتكاب خطايا شنعاء، بحيث تكون معاناة العذاب الدائم فى جهنم لا مهرب منها، تبعا لإيمان الخاطئ نفسه.

إن مثل هذه الاختلافات بين الإيمان والسلوك تدل على أن من الواجب تدعيم الإيمان بتجربة تأثيره على السلوك حتى يكون فعّالا. إن جميع العقائد – أيّا كانت – والتى تتعلق بما سيحدث أو لا يحدث للإنسان بعد الموت، هى بطبيعتها الذاتية من وراء نطاق التجربة، وربما كانت حتى من وراء نطاق التصور الواقعى.

إن الصورة العقلية للجحيم عند المؤمن تبدو أكثر حيوية من صورته العقلية عن الجنة بصفة عامة، إلى الحد الذى يستأثر فيه الإيمان بالخلود الشخصى على خيال الإنسان الحىّ. وقد تم تصوير عذابات الملعونين فى الجحيم ووصفهم بصورة عامة بحيوية أشد من نعيم الناجين فى الجنة. يجادل لوكريتيوس فى الكتاب الثالث من "المشهد الطبيعى الثانى De Reyun Natura"[١] بأن الموت يعنى الفناء التام الدائم، وهو يقدم هذا فكرة لعزاء الأحياء؛ لأن المستقبل يحررهم من الخوف بعد الموت من الحكم عليهم بالمعاناة من العذابات الأسطورية الدائمة، التى يؤمن بها الذين يسارعون إلى تصديق وقوعها على كبار الخاطئين الأسطوريين من أمثال تَنْتالوس وتيتيوس وسيسيفوس وإكسيون[٢]. وإذ يختم لوكريتيوس هذه الفكرة عند نهاية هذه الفقرة فإن الحياة تصبح جحيما فى هذه الدنيا فقط، وينطبق هذا فحسب على الناس الذين يبلغون من الحماقة ما يجعلهم يؤمنون بالحقيقة فى حياة الجحيم بعد الموت.

إن هذا الخوف من الجحيم الذى سعى لوكريتيوس إلى إزالته يعوضه بالطبع أمل فى الاجتماع بعد الموت مع الأحباء الأقران من البشر من جديد، وهم الذين فارقهم الإنسان إما بالموت قبلهم، أو البقاء بعدهم. إن الأسى للموت أصعب فى المواجهة والاحتمال من الموت نفسه، ويخفف من ألم الأسى أن يعتقد الإنسان أن الانفصال الذى يأتى به الموت ليس دائما، وإنما هو مؤقت فقط. إن أدعى الفقرات إلى إثارة المشاعر فى جحيم دانتى هو تصويره لباولو Paolo وفرانسيسكا Francesca وهما فى أحضانهما متلاصقان[٣] فى حب خالد، إذ يدوران معا فى عاصفة دائمة من العذاب.

(1) Lines, 978-1023.
(2) Cp. Odyssey, Book x1, lines 582-600.
(3) Inferno, Canto Quinto, lines 73-142.

الفصل الثانى

مواقف تجاه الموت فى الديانـات الشرقية

نينيان سمارت Ninian Smart

ما زالت الهند أهم مركز للتأثير الدينى فى آسيا. ولا يرجع هذا إلى نشأة عدد من الديانات فحسب، مثل الهندوسية والبوذية والجينيَّة، والسِّيخية.. إلى آخره، وإنما لأن إحدى الديانات؛ وهى البوذية، أصبحت تؤثر تأثيرا بالغا على ثقافة كل آسيا الشرقية فى الواقع. ومن اليسير بناء على ذلك أن نتناول مشكلة الموت من وجهة نظر البوذيين أولاً. ثم نستطيع بعد ذلك أن نتناول المواقف تجاه الموت فى الديانات الهندية الأخرى، والديانات التقليدية فى الصين (وهى الكونفوشية والتاوية)، وفى اليابان (وهى الشنتوية).

البوذية :

إن العامل الذى يتحكم فى وجهة نظر البوذية تجاه الموت هو مبدأ الولادة المتجددة Rebirth. ويختلف هذا المبدأ اختلافا بالغا عن مفاهيم الحياة بعد الموت عند التقاليد الغربية والسامية. إن الفرد يعتبر باقيا فى الواقع ما لم يبلغ التحرر (النِّرفانا)، حيث لا تكون هناك ولادة جديدة. ويمُرّ الفرد خلال حيوات متتابعة سابقة كثيرة جدا، ويستمر على هذا النحو ما دام فى قبضة الرغبة والجهل الروحى. ويمكن رؤية هذه الدورة من الوجود على خلفية كونية أوسع، حيث تستمر العودة على مدى أجيال هائلة

من انهيار الكون وتمدده. ويجد الإنسان كونا مشابها في الهندوسية والجينية. ويمكن أن نتذوق شيئا منها فى الحساب الهندوسى بأن كل كالبا Kalpa أو عصر يتألف من أربعة بلايين وثلاثمائة وعشرين مليون سنة، ويؤلف يوما فى حياة الإله براهما، وهو يعيش مائة عام، ويُكمِّل الليل كل نهار. وعلى ذلك يتألف كل عصر عظيم (ماهاكالبا Mahākalpa) من حياة براهما من ٣١١٠٤٠ بليون سنة. ثم تبدأ العملية كلها مرة أخرى بواسطة براهما جديد.

ثانيًا: إن الإيمان بالولادة المتجددة يقدم شيئا من الالتواء المتناقض فى مفاهيم الجنة والعذاب وهكذا.. ذلك بأن البوذية لا تنكر المجالات العليا أو الدنيا من الوجود وراء مستوى هذا العالم، وليس هناك إنكار أيضا للآلهة، حتى لو كان هناك إنكار لمبدأ الخالق. وقد تؤدى الأعمال الخيِّرة إلى ولادة جديدة للفرد فى الجنة، لكن هذا لا يمثل التحرر النهائى. وليست الجنة دائمة مثل كل شىء آخر. ومن حسن الحظ أن النار كذلك، وكذلك الإله العظيم براهما فى الواقع والآلهة الأخرى. من دواعى التناقض أن عليهم أن يتعلموا من بوذا، ومن خلال التجربة الإنسانية أن فى إمكان الإنسان أملا فى النرفانا. إن كسب النرفانا يعنى تحقيق شىء أعلى من الجنة عندئذ، وأعلى من الحالة الإلهية. وهناك مفهوم لا يختلف؛ وهو موجود فى بعض مبادئ النظام الهندوسى. ويؤدى هذا إلى تناقض يصادفه المبشرون المسيحيون، وإن كانوا لا يدركونه فى أغلب الأمر. وإذا كان مفهوم الخلاص المسيحى هو بلوغ الجنة، فإن أولئك الذين نشئوا فى جو مبدأ الولادة المتجددة – كما وصفنا سابقا – يعتبرونه مجرد صورة من الدرجة الثانية للخلاص.

ثالثًا: إن مبدأ البوذية فى الولادة المتجددة (تمييزا له من المفهوم الهندوسى الرئيس) لا يتعلق بالإيمان بالروح وليس هناك نفس دائمة وراء الحالات الجمسية والنفسية. وعلى ذلك لا يكون الخلاص تحقيق انطلاق الروح. ولا يعنى الأمر أن يصبح الفرد خالدا فى النعيم على نحو ما.

وإنما الأحرى أن يتم استبدال الحالة الدائمة وهى النرفانا بالحالات المتغيرة التى تصنع الفرد. ليس هناك شخص فى النرفانا؛ لأن الشخص هو ببساطة حالات متغيرة متعاقبة مترابطة معا. ولا يمكن لهذا السبب أن يقال عن بوذا بصورة صحيحة إنه موجود (على الأقل فى البوذية الثيرافادية Theravada أى البوذية فى سيلان وبورما وأجزاء من آسيا الجنوبية الشرقية). ولا يمكن أن يكون معه مبادلات، فلا صلاة ولا عبادة له بناء على ذلك. وأدعى بحفلات المعابد أن تكون تعبيرا عن التكريم للمعلم الراحل. لذلك يخلّف الخلاص الحقيقى الفرد وراءه.

إن القديس الحق هو الذى لا يحب أن يتوقف عن الوجود، ولا أن يستمر فى الوجود. وبواسطة التناقض:

الشقاء وحده موجود، وليس هناك الذى يَشْقَى

هناك عمل لكن ليس هناك فاعل العمل

هناك نرفانا، ولا فرد يدخل فيها

الطريق موجود، ولا أحد يرى مسافرا فيه.

من أجل ذلك، لا ينبغى أن يأمل الإنسان فى الخلود الشخصى على أعلى مستوى. إن انرغبة فيه علامة على أن الإنسان لم يكسب السكينة والاستبصار عند القديس. وكان هذا سببا واحدا من الأسباب حتى يرفض بوذا الإيمان بالروح أوالنفس الخالدة. ومن الأسباب الأخرى، إنه لا توجد حاجة أو مكان لمثل هذا المفهوم فى عالم يتميز بالتغير، لا بالدوام: فإذا كان كل شىء لا يدوم، فكذلك أنا. وكل حادث – فضلا عن ذلك – يأتى به حادث آخر، وكل شىء آخر لا يتغير مثل الروح الأبدى لا يمكن أن يكون له تأثير، إذ لا يحتوى على أحداث أو تغيرات، وكذلك لا يمكن أن يحدث تغيرات. ومن الأفكار المُضَلِّلة التى لا نفع لها عندئذ أن نُعْزِىَ الروح إلى الإنسان.

رابعًا: كما يستطيع الفرد كسب حالات الجنة والنار فى الوجود، فكذلك يستطيع أيضا أن يصبح حيوانا أو كائنا حيا آخر. ويتعلق بعض من أكثر الحكايات الشعبية الساحرة فى البوذية بالحيوات السابقة لبوذا، وغالبا ما تكون فى صورة حيوانية. إن جميع العالم من الكائنات الحية يُعتبر سلسلة متصلة، وليس هناك فصل حاد بين البشر والحيوانات كالذى يوجد فى التقاليد الغربية.

خامسًا: وهو أمر مهم جدا إذ إن الولادة المتجددة توصف أحيانا فى الكتب الأولى بأنها موت متجدد. ويُنظر إلى المستقبل الذى يواجه الإنسان بصورة سلبية على أنه دورات متعاقبة من الموت. لكن الموت نفسه تأتى به الولادة. وليست المشكلة إلى حد كبير هى أن الإنسان سوف يموت، ولذلك يجاهد للخلاص الذى يجلب إليه الخلود فى النهاية. لكن الأحرى أن الإنسان محكوم عليه بالحياة؛ وهى الحياة التى تكشف عن إحباطاتها الأساسية (من حيث إنها تؤدى إلى الموت بوصفه أهم سبب). هذا ما يكمن وراء مبدأ الدّوكّا Dukkha، ومعناه الحرفى "نصيب سيئ"، لكنه يترجم بصورة شائعة بأنه "الشقاء Suffering". كل شىء حزمة من النصيب السيئ. وتتميز الحياة بالولادة؛ وهى مؤلمة، ثم الشيخوخة، والمرض والموت.

إن الكثيرين من الغربيين يعتبرون هذه الرواية عن العالم باعثة على الأكتئاب إلى حد كبير، ومن المُحيِّر أن أتباع ما يبدو إيمانا قاتما غالبا ما يكونون متفائلين.

إن انطباع الاكتئاب مُضَلِّل إلى حد ما على كل حال. ومن اللازم أن نتذكر أن الجانب المظلم يُكمِّله جانب مضىء. إذ إن الأهداف الباقية من سكينة النرفانا وهدوء القديس، ما زالت باقية. ولم يكن بوذا – فضلا عن ذلك – مُنكرا حقيقة الأفراح الإنسانية، لكنه كان يشير إلى انعدام الرضا الكامن وراءها (هنا حيث يكون ترجمة كلمة suffering بالشقاء قوية جدا): فالسعادة الحقيقية توجد فى اتباع المساق. هذا هو الطريق للتغلب على الموت المتجدد الذى يهزأ بالإنجازات والإشباعات الإنسانية.

هذا هو السبب فى وصف النرفانا "بالمكان الخالى من الموت"، لكنها لا تخلو من الموت لأن الحياة لا تمضى إلى الأبد. إن النرفانا – كما رأينا – من وراء مجال التغيرات، وهى لذلك من وراء الوجود الفردى. ومن الأمور التى حيّرت المعلقين أحيانا أن سؤالا غير محدّد من الأسئلة التى رفض بوذا الإجابة عنها، لا لأنها مشورة سيئة أو دون أهمية، ولكن لأن صياغتها خاطئة؛ وكان سؤالا عما إذا كان بوذا أو القديس بعد بلوغ النرفانا الأخيرة بعد موته يعيش أو لا يعيش. أعلن بوذا أنه ليس من الصواب أنه يقول إنه يعيش، ولا أن يقول إنه لا يعيش، ولا أن يقول يعيش ولا يعيش معا، ولا هو يعيش ولا هو لا يعيش. وقارن الحالة بالسؤال عن مصير النار عندما تنطفئ. هل تذهب الشعلة شمالا ؟ فلا يمكن الإجابة عن السؤال بصورة صحيحة؛ إذ هو بطبيعته أحمق. كذلك إذا كانت حياة الفرد تتألف من تغيرات؛ أى تيار من الأحداث العقلية والبدنية، فليس هناك وجود فردى فى النرفانا، والنرفانا مع ذلك موجودة.

لما كان بوذا قد رفض الإيمان بخالق شخصى أعلى، فلا يمكن وصف الخلاص بأنه اتحاد أو اندماج فيه. إن الإنسان – عند بلوغه المكان الخالى من الموت – فإنه يتجاوز الآلهة. ويتحملها بوذا باعتبارها حقائق أسطورية تعيش فى السماوات وأماكن أخرى فى الكون. لكن بوذا – كما يشير فى فقرة من كتب التراث – يقول إن الإنسان لا يبلغ نهاية العالم بالسفر. إن الصعود إلى مجال السماوات فى ذلك المجال لا ضرورة له تماما. إن نهاية العالم تقع فى طاقة الإنسان نفسه عند نهاية المساق. إن معرفة ما يشبه الذى يمكن استشفافه من حياة أولئك الذين بلغوه هو بوذا نفسه فوق كل شىء.

أما البوذية فى صورتها الماهايانية Mahayana (وهى التى أصبحت شائعة فى الصين واليابان) فقد عدلت المبادئ السابقة مع الزمن، كما سوف نرى. دعونا فى أثناء ذلك ننظر إلى طريق الرمزية لاتجاهات البوذية وتحقيقها من الناحية الوجودية عند أولئك الذين يسعون على مساق ذى ثمانية مراحل. إن للبوذية – على خلاف الهندوسية –

أسطورة مركزية للشر، يعبر عنه شخصية مارا Mara، وهو يماثل الشيطان بصورة عامة. يعني مارا من الناحية الحرفية "الذى يسبّب الموت". وهو على أحد المستويات زعيم القوى العدائية التى تحيط بالإنسان العادى فى الثقافات التى تغلغلت فيها البوذية، فلعل الإنسان العادى قد يشعر بالتغلب على القوى المعادية فى النهاية، من خلال أسطورة بوذا فى النصر التام على مارا. ويرمز مارا على مستوى آخر إلى الإغراءات والمفاتن التى تكون عقبة فى سبيل تحقيق المصلحة الحقيقية، وهى النِّرفانا. ويرقى الناس - من خلال الرمز - إلى ما وراء الديانة الشعبية إلى مفهوم أعلى، ويتلقون رمزا حيا للعدو الذى تجب محاربته. ونجد أيضا مع ذلك أن مارا فى الملاذ الأخير هو رمز فقط.

إن الكتب الدينية البوذية تقدم سردا وثقائيا نفسيا للعقبات فى سبيل الخلاص، ويمكن للإنسان أن يستغنى عن الأسطورة من هذا الجانب. ويلعب مارا على الرغم من ذلك دورا تاريخيا مهما فى حياة النظام البوذى للرهبان والراهبات؛ باعتباره رمزا للتشجيع على الجهاد الدائم فى سبيل ما هو أعمق من السكينة والاستبصار(1).

ربما خطر بالبال أن أكثر هذا التأكيد على الحياة الأعلى قد يتجاوز عامة المؤمنين. وكما سنرى، فإن الواحد من عامة الناس يرغب فى الخلاص الفورى بسرعة أكثر من الخلاص بواسطة الولادة المتجددة مثل الذى سيكون راهبا؛ وقد تم التعبير عن الأمر فى ماهايانا. ولكننا نستطيع - حتى منذ أوائل الزمن - أن نجد تضامنا قويا بين العامة والرهبان، وهو الذى يجعل البوذية قوة اجتماعية متماسكة. ويعتبر الرجل العامى أنّ الراهب أمامه رمز أيضا لهزيمة الموت المتجدد. وفى بواكير البوذية، لم تكن الحقائق مقدمة إلى العامة بواسطة الرموز فقط مثل مارا، وإنما كانت مقدمة فى صورة الأمثال أيضا. ولعل أشهرها مثل حبة الخردل. إذ يقول بوذا لأم تبكى

(1) I am indebted here to Trevor Ling's excellent Buddhism and the Mythology of Evil (George allen & Unwin, 1962).

وتندب، ولا تستطيع التغلب على مأساة الخسارة فى ابنها العزيز الصغير أن تبحث عن حبوب من بذور الخردل فى أحد بيوت المدينة، لم يمت فيه أحد. وسيكون هذا دواء لحالتها لكنها بالطبع لم تجد مثل هذا البيت، وانتهت إلى رؤية الموت فى صورته الوجودية العالمية. وإذا هى تذهب إلى أرض المحرقة، وتحرق ابنها.

لمّا كان الموت أكثر العلامات التى تدعو إلى الخوف من زوال الدنيا وسوء الحظ فيها، فهناك تحذير عظيم من التفكير فى الموت فى التقاليد البوذية. ينبغى أن يذكر الإنسان الموت:

"لكنك إذا وضعت أية خطط لا تحسب حسابا للموت الحتمى، فعليك أن تبذل جهدا كى ترقد مرة أخرى، كأن ذلك مرض يهاجم ذاتك نفسها. ولا يجب أن تعتمد على استمرار الحياة ولو لحظة واحدة، لأن الزمن كالنّمر المختبئ، يقبع فى انتظار حتى يفترس الذى لا يرتاب"(١).

إن أدعى الطرق إلى الرهبة والدهشة فى تأمل الموت أن يجلس الراهب على الأرض المشتعلة بين الجماجم والبقايا المُتفحِّمة. وهذا يبقيه بصورة حية واعيا بما قد يُخَبَّأ وراء النظر والعقل. وعلى ذلك، لا يُعالج الموت باعتباره مجرد حدث، وإنما باعتباره رمزا لأنواع السخط الكامن وراء الحياة الإنسانية، عندما يعيشها الإنسان على نحو يجافى الواقع؛ كأن الأفراح يمكن أن تدوم.

أنشأت البوذية الماهايانية مبادئ ونِحَلاً ذهبت إلى أبعد مما سبق وصفه لأسباب تاريخية ودينية مختلفة. ومن العقائد المهمة عقيدة فى بودى ساتفاس **Budhisatvas**، أو بوذ المستقبل. وتبعا لقصة بوذا فى الاستنارة، فقد قام مارا بإغراء بوذا كى يحتفظ بالحقيقة المُدخرة ويحقق الخلاص الفورى. لكن بوذا رفض هذا الإغراء على كل حال،

(1) Translation by E. Gonze, Buddhist Scriptures (1959, P.112).

وأنفق سنوات شاقة، وإن كانت مطمئنة، وهو يسافر فى البلاد يعظ، وينشئ نظام المذهب وهكذا. وأجَّل فناءه النهائى من أجل خير الكائنات الحية. وانتقل هذا الموضوع بطريقة تزداد فى الدراما والأسطورة فى الإيمان ببودى ساتفاس - لقد ترك نماذج بوذا نصيبيهم من النرفانا، ونصيبيهم من منصب بوذا، على مدى حيوات لا عداد لها، إذ خدموا الآخرين وساعدوهم على الخلاص ببطولة. وأصبحت وظيفة هذا الاعتقاد من الناحية الدينية أن يكون بؤرة للعبادة أو الهيام (باكتى Bakti) يكتسب بوذا المستقبل مثل هذه الثروة من الجدارة من خلال حيوات لا عداد لها (وهو رصيد فى الحساب هائل)، يمكن أن يُحوِّل بعضه إلى المخلصين - الذين لا يستحقون فيما عدا ذلك - حتى يمكّنهم من القرب من الخلاص بواسطة الإيمان ببوذا المستقبل. هذا التعديل فى مبدأ الكرما (القَدَر) أضيف إليه مبدأ آخر، فى مدرسة الأرض الصافية Pure Land School (وأصبحت فى النهاية مؤثرة فى كل من الصين واليابان، وإن كانت جذورها فى التطورات الهندية).

أما بوذا أميتابا Buddha Amitabha العظيم (وهو أشهر باسمه اليابانى أميدا Amida) فقد خلق الجنة؛ وهى الأرض الصافية إلى الغرب. والذين يَدْعُون مخلصين فى الإيمان باسم بوذا فسوف ينعكس الأمر على الموت بعيدا. فالظروف هناك من أجل تحقيق الخلاص النهائى تبشر بالخير على نحو عجيب. وليس من غير الطبيعى أن مظاهر الروعة فى الجنة، التى صورتها بعض الكتب الماهايانية تصويرا حيا أصبحت تحل محلّ النرفانا فى الخيال الشعبى باعتبارها هدفا ساميا. وأنشأت البوذية بهذه الطريقة شعبة من الإيمان بحياة أخروية سماوية، لها أشباه بما هو موجود فى الإلهيات الإسلامية والمسيحية التقليدية. ولعل مدرسة الأرض الصافية كانت أدعى إلى التكيف الجيد مع الأحوال الصينية، حيث لم يكن هناك إيمان بالولادة المتجددة، ولذلك كان الوعد بالجنة الفورية على المستوى الشعبى أقرب إلى الفهم من الجهاد الطويل فى سبيل النرفانا.

من الأمـور الطريفة فى التقـاليد البـوذية، سواء كـانت الماهايانية أو النيرافـادية Theravada مـفهوم بوذا المستقبل ميتريا Maitreya، وهو الذى سوف يستعيد أمجاد العقيدة عند نهاية العصر الحالى (وهو عصر انحلال، وهناك لذلك حاجة للتعويل على الإيمان بالجنة أكثر من التعويل على التأمل والتحكم العميق فى النفس). من أجل ذلك تصبح الولادة المتجددة فى زمن بوذا المسـتقبل أملا من الآمـال، وتحتـوى البوذية فى هذا المدى على عنصر أخروى مشـابه للأسـاطير عن "الأشياء الأخيرة" "Last things" فى المسيحية والزرادشتية وغيرها.

على الرغم من التغيرات التى حدثت فى البوذية فى أثناء هجراتها، فإن أفـخم أنواع البوذية تطورا؛ وهى تلك الخـاصة بالتبت، قد اشتملت على عناصر محلية بطريقة بوذية متميزة. ولذلك يُفيد كتـاب التبت عن الموتى the Tibetan Book of the dead من أساطير ما قبل البوذية؛ ولكن فى نطاق إطار عام للمبادئ البوذية. يصف هذا الكتاب مصير الفرد بعد الموت، عندما يمر فى مرحلة وسطى قبل أن يولد من جديد.

إن النور البـاهر للحقيقـة النهـائية يشرق بلون أبيض ناصع بحيث يعجز عن احتماله أغلب الأفراد: وهم لا يكسبون الخـلاص، ولكنهم موجّهون للولادة المتجددة. وتحيط بالفرد جميع أنواع الصور الحسية المرعبة، ويقدم الكتاب نصيحة عن كيفية اجتناب أسوأ الأقدار؛ مثل الولادة المتجددة فى الجحيم. ويذكر الكتاب بلغة رمزية رسالة مفادها أن رغباتنا وأهواءنا تجعلنا نتشبث بالحياة، وتمنعنا من القبول المطمئن لفقدان الوجود الفردى فى الفضاء الباهر من النرفانا.

تلخيصـا للتعاليم البوذية العامة عن الموت نقول: إن الرسالة الرئيسة ليست هى: "يمكن أن تقبل الموت، لأنه المقدمة للخلود: إن الموت لن يُدمِّرك فى ماهيتك" ولا هى مـوقف اللا أردية : "يمكن أن تقـبل الموت، لأنك عندئذ لن تزداد خـوفـا من حـرارة الشـمس". والأحرى أن تكون الرسـالة: " تقبّل الموت على أنه العـلامـة الرئيسـة على

انعدام الآمال التى يمكن أن تنالها: وعندما لا تتطلع إليها، ولا تخاف منها، فإنك على الطريق لتسمو فوق الحياة والموت كليهما، وتكسب الخالد".

الجينية :

لعل الجينية Jainism ترجع فى التاريخ إلى القرن الثامن قبل الميلاد أو قبل ذلك، ولها مقاربات مع البوذية، وجدير بالذكر عقيدة الولادة المتجددة وغياب الإيمان بالله المتعالى. وهناك بعض الأصول العقائدية نفسها عن الحياة الأخرى بعد الموت، لكن الجينية أقل اهتماما بسيكلوجية الخلاص من البوذية. لقد أكّد بوذا الاتجاهات العقلية التى تؤدى إلى السكينة، ومن ثم إلى النرفانا بصورة أقوى. أما الجينية فقد كانت أشد تقشفا فى مفهومها عن كيفية التصرف فى قانون الكارما (القدر).

إن إعدام النفس بلغ فى الجينية حدا من التطرف حتى أصبحت أعظم الوسائل بطولة فى الإفلات من دورة الولادة المتجددة هى الامتناع تماما عن الطعام، وبذلك يتم الانتحار البطىء. ويكون مثل هذا الانتحار صوابا فعالا على كل حال لو كان القديس قديسا حقا. ولا يُوصَى بمساره البطولى عند ذوى الاستعداد السيئ. إن الرموز القوية لموقف جين Jain هى التماثيل العظيمة مثل تلك التماثيل لأبطال جين فى سرافانا بيلجولا Belgola فى ولاية مايسور Mysore، وهى عارية متباعدة لا اكتراث لها بالعالم حتى نمت عليها النباتات المتسلقة، وتشابكت حول أرجلها. إن هذا التسامى فى انعدام الاكتراث بالقيم والممتلكات الدنيوية يصوِّر طريقا إلى هزيمة الموت بهزيمة الحياة نفسها.

الهندوسية :

سبق أن لاحظنا شيئا من التنوع الواسع فى العقائد البوذية. بل إن تعدد المدارس والنِّحل أوضح فى الهندوسية. إن بعض صور العقائد الهندوسية مُلحدة، بينما

تؤكد أخرى وحدة الوجود والروح والحقيقة النهائية، وبعضها مرة أخرى مؤمنة بالألوهية. تعبد بعض الجماعات شيفا Shiva، ويعبد آخرون فشنو Vishnu، وهناك ثروة مدهشة من التقاليد الأسطورية المختلفة.

هذه المتنوعات تؤدى إلى اختلافات بالغة فى مفاهيم التحرر والخلاص. وقد أصبح مبدأ الولادة المتجددة عالميا مع ذلك فى العقيدة الهندية فعلا، وهذا يهيئ بعض الإطار المشترك للمواقف تجاه الموت. وينطبق ما قيل من قبل عن ضخامة الكون ودورة الوجود على كلتا البوذية والهندوسية (والجينية حقا).

من دواعى العجب مع ذلك أن عقيدة التقمص غائبة عن الأناشيد المبكرة وتظهر بغير لبس أول مرة فى التقليد المقدس فى الأوبانيشاداUpanishads (وهى تتزامن مع بوذا تقريبا). أما العقائد الأسبق عن الموت فقد تصورت صعود الروح إلى عالم الآلهة، أو عالم الآباء، أو فى صورة أدعى إلى الكآبة إلى بيت الوحل. وقد تم استبقاء بعض هذه المفاهيم فى عادات الجنازات الحديثة، على الرغم من عدم اتساقها تماما مع عقيدة الولادة المتجددة. والمقصود من الاحتفالات تخليص الإنسان الميت من الحالة التى يكون فيها شبحا، وإرساله فى طريقه إلى الآباء، أو إلى تقمص جديد.

لا شك أن أشد النظم التعليمية تأثيرا فى داخل الهندوسية فى الأزمنة الحديثة ما زال أدفيتا فيدانتا Advaita Vedanta (وهو التفسير غير الثنائى للنصوص التقليدية)، وقد اتخذ صورته الرئيسة على يد كتابات سانكارا Sankara (فى القرن الثامن الميلادى)، وقد تأثر إلى حد ما بالبوذية الماهايانية. والهدف النهائى هو تحقيق هوية الإنسان مع براهما Brahman وهو القوة المقدسة، أو الكائن المطلق وراء عالم المظاهر. هذا التحقيق فى الواقع هو تحرر، لكنه لا يغيّر حالة الإسنان الأساسية، لأن ماهية الإنسان الداخلية هى النفس الحقيقية الواحدة، وإن ظل الإنسان على جهل بذلك. ولما كانت هناك نفس واحدة ليس إلاّ، فإن سانكارا يستبعد من عقيدته الإيمان بأرواح خالدة لا عداد لها؛ وهو ما يميز العقائد الهندوسية فى عقائد أخرى. وهناك

بناء على ذلك شبه بين نظام سانكارا وذلك النظام البوذى: كلاهما ينكر الخلود الفردى (فيما عدا معنى الولادة المتجددة)، لكنّ هناك عند سانكارا نفسا كامنة فى قاع الوعى، أما عند بوذا فلا شىء أكثر من القدرة على بلوغ النرفانا– هذه القدرة الأخيرة فى تعاليمه تحلّ محل الإيمان بالنفس أو الروح. ولما كانت هناك حقيقة واحدة فقط تبعا لسانكارا؛ وهى براهما – أتمان brahman -Atman (النفس المطلقة)، فإن العالم كما نتصوره عالم موهوم. وإذا تصورناه على أنه شىء غير الحقيقة الواحدة، فنحن نشارك فى الوهم. وبناء على ذلك، يكون موقف الإنسان العادى من المطلق الإلهى الذى يعتبره خالقا فى آخر المطاف موقفا مُضَلِّلا. ومع ذلك فليس الإيمان بالإله الشخصى ضارا، ويؤدى به فى النهاية إلى التسامى فى تحقيق صوفى بين المطلق وهوية الإنسان. بناء على ذلك، تكون هزيمة الموت والولادة المتجددة تباعدا أصوليا يذهب إلى أبعد من أقسام العالم الواقعى، بل أبعد من الديانة حسب فهمها التقليدى.

هناك مفاهيم أخرى مهمة ومنافسة لمفاهيم الخلاص من دورة الوجود، على الرغم من تعاليم سانكارا، وقد تعرضت لتعديلات مختلفة بواسطة الرئيس السابق راداكريشنان radhkrishnan، وسوامى فيفكنندا Vivekananda وغيرهم من بعثة راماكريشنا الممتازة RamaKyishna، وألدوس هكسلى Aldous Huxley فى كتابه الفلسفة الحولية Perennial Philosphy، وكثيرين من الآخرين الذين أعادوا تفسير التراث الهندى، وكانوا مؤثرين. من الموضوعات البارزة بين هؤلاء شروح رامانوجا Ramanuja (فى القرن الثانى عشر الميلادى)، ومادفا madhva (فى القرن الثالث عشر الميلادى). وقد قام الأول بتدريس العقائد المعروفة باسم غير الثنائية المخصّصة Qualified Non-Dualism ؛ صورة أخرى من فيدانتا Vedanta. وقد تأثر تأثرا شديدا بالديانة التى تعبد الله فى حب وتعظيم، وازدهرت فى عصره فى جنوب الهند؛ وهى لم تُقدّم توازنا أمام الطقوس الفيدية التقليدية كما يتأملها البرهميون فقط، ولكنها عبرت كذلك عن التقوى الحارة عند كثيرين عجزوا عن التطلع إلى قواعد الديانة المحفوظة

للطبقات العليا بصفة أساسية. يمثل رامانوجا – وهو من أتباع فيشنو – الله على أنه شخصى، والعالم على أنه حقيقى، والفرد على أنه قادر على الخلاص من دورة الوجود بالإيمان الذى يحب الله. وبذلك يقدر على كسب حياة النعيم قريبا من الله فى الجنة – فيكونتا Vaikuntha – وهى مقر فيشنو العظيم. وقد رفض رامانوجا الواحدية عند سانكارا، وأكّد الإيمان أكثر من المعرفة الروحية، وهو الذى يتغلب على الجهل الذى يحبس الناس فى أغلال العالم الموهوم ودورة الولادة المتجددة.

حتى مادفا رفض بشدة النظام غير الثنائى Non-Dualism (ويُعرَف اسم نظامه بالثنائى أو دفيتا Dvaita). وكان فريدابين اللاّهوتيين الرؤساء فى التقاليد الهندية فى تأكيد احتمال اللعنة الأبدية: فكان لديه درجات مختلفة من الخلاص والعقاب، من بينها حبس بعض الأرواح فى جهنمْ ميئوسا منها؛ أما فى مذاهب أخرى كما لاحظنا – فإن أنواع الجحيم الهندية تطهيرية، ويتخلص الإنسان فى النهاية من قَدَره الشرير (الكارما الشرير). هذا أحد الأسباب التى جعلت بعض الدارسين يؤمنون بأن مادفا قد تأثر بالمسيحية (وتأسست منذ أزمنة قديمة جدا فى جنوب غرب الهند)، وإن كانت هناك أسباب من داخل نظام مادفا من أجل هذه العقيدة، وقد لا يكون التأثير حقيقيا.

هناك بناء على ذلك أفكار مختلفة فى داخل الفيدانتا. وأولئك الذين يؤكدون الشخصية والله الآخر يتصورن احتمال الجنة، بينما نجد أن سانكارا، وهو أكثر اتفاقا مع البوذية، يتميز فى الوقت نفسه مع ذلك بالهندوسية، وينظر إلى تسامى الفردية فى التحقق بين النفس والمطلق.

إن أشهر الروايات الأخرى عن الخلاص فى الهندوسية هى اليوجا Yoga. ويضع نظام اليوجا طريقا للتحرر (واليوجا مدرسة فكرية، وإن كانت أساليبها مستخدمة بطرق مختلفة فى الهندوسية، والبوذية، والجينية. ويمكن أن يتحدث الإنسان عن اليوجا بناء على ذلك كأنها مجموعة من الأساليب فى التأمل وضبط النفس، وأن يعتبر اليوجا نظاما تمارسه هذه المدرسة).

لكن هزيمة الشقاء هنا وهو الذى يتعلق بالوجود الواقعى، لا تعنى الاتحاد مع المطلق، أو الاندماج مع الله. فالروح - على النقيض حالما ينفصل عن الحالات النفسية والجسمية التى تظهر عند تعلقها بدورة من التقمص - يعيش فى عزلة رائعة. هذه العزلة خالية من الألم، لكنها خاملة فيما عدا ذلك. وربما كانت الصورة الأولى من اليوجا مُلحدة (أى تنكر الخلق الشخصى)، وإن كانت التطورات التالية تدل على الإيمان بإله؛ والروح الواحد لا يتعلق أبدا بدورة من الولادة المتجددة كما أن التأمل فى الله يمكن أن يساعد اليوجى فى جهاده للتحرر. وسنرى أن عقائد اليوجا العامة تقارب تلك الموجودة فى الجينية والبوذية الباكرة؛ على الرغم من إنكار الأخيرة للروح الخالد. إن الحالات المتحررة من الحياة - بناء على ذلك - ليست فى أية واحدة من هذه التعليمات متعلقة بأساطير الجنة، ولا بالاتحاد مع الكائن الإلهى. ولا تتم هزيمة الموت أو الموت المتجدد بالاعتماد أساسا على الله أو غيره، وإنما بالاعتماد على جهود الإنسان الشخصية، تبعا لأساليب التأمل المختلفة، والصرامة، وهلمّ جرًا. ليس فى اليوجا إذن تحقق لوحدة الإنسان مع المطلق أو الوجود الإلهى، وإنما انعزال الروح، حتى لا يعود يتعلق بالمادة. فى هذه الحالة من العزلة الرائعة، لا يعمل الروح شيئا، لكنه قد تحرر على الأقل من الألم الذى يجلبه الوجود المادى حتما.

الأساطير الهندية :

ينبغى فهم هذه العقائد المختلفة من التحرر - على أهميتها - فى النطاق العام للتصور الرمزى والأسطورى الذى يغذّى خيال الهندوسى عند الاقتراب من الحقيقة الأعلى. وعلى ذلك تُقدّم تعاليم سانكارا فى مجال عبادة شيفا، وهو تلك القوة الإلهية المدمرة الخلاقة المتوحشة الرحيمة الشاعرة الصارمة الراقصة المستكينة، وهى تخلط الأضداد بصورة دينامية رأسا على عقب فى شخصيته نفسها. فهو الخالق والمدمر كلاهما، حيث إن العالم فى حالة حصن دائم من الخلق والتدمير. ويرمز شيفا فى

بعض الأحيان إلى قوى الانحلال، وإن كان بوصفه ملك الرقص يعبر عن حيوية الحياة. هذا الغموض فى شيفا يتوافق مع المبدأ القائل بأن الخير والشر كليهما يعود إلى مصدر واحد؛ والرجل الحكيم يتسامى فوق الخير والشر معا. هذا حقا هو سبيل التغلب على الموت.

ولا يظهر هذا لأن شيفا ليس الزمن فحسب ولكنه رب اليوجا؛ وهو راعى أولئك الذين يسعون على طريق التأمل نحو التحرر. ذلك لأن شيفا - باعتباره الزمن - يجلب الموت ولكنه باعتباره اليوجى العظيم يتضمن التغلب على الموت - وإذا أخذ الإنسان عقائد سانكارا مأخذ الجد فإن شيفا يختفى فى المأوى الأخير: ذلك بأنى عندما أدرك توحّدى مع المطلق فأنا أكون من وراء ثنائية العبادة والتصور الدينى. وأنا من وراء الخالق الذى يتعلق بالوهمية فى العالم الذى يخلقه.

هذه الوهمية ترتبط بعقيدة البوذية فى الزوال. والعلامة الرئيسة على الوهم فى العالم هى أنه زائل، تبعا للتعاليم غير الثنائية. ولا تزال هناك نبرات عالية من المفهوم الهندوسى فى حاجة إلى بيان. إن الإله هو الساحر العظيم - كما كان - وهو يخلق العالم الوهمى بقدرته السحرية. ونحن الذين نعتبره حقيقة نكون مخدوعين؛ كالرجل الذى يرى حبلا فيظنه حيّة. وإذا زال الوهم رأينا الحقيقة. وعلى ذلك، ترتبط أسطورة شيفا مع العقائد: يجب أن نتسامى فوق الحياة والموت معا حتى نهزم الموت.

هناك شىء أقل من هذا الإحساس فى نحلة فشنو، وهو ممثل أشد عطفا للحق الأخير. إن باجافاد جيتا Bhagarad Gita مثلا؛ وهو أعظم عهد فى ديانة فشنو فى التقاليد الهندية أشد اهتماما بالاعتماد على الله من الذهاب فيما وراءه إلى حالة متسامية تضيع فيها كل الأمور الواضحة. وأولئك الذين يؤدون واجباتهم اليومية معتمدين على الله لن يذهبوا بغير جزاء. ينهزم الموت عندئذ من خلال الإيمان وقوة الكارما (القدر) التى تنطلق من فعل الله الرحيم. هذه الرحمة منظورة كذلك فى رغبته أن يكون معروفا للناس من خلال الآلهة المتجسدة Avatars؛ مثل كريشنا؛ فهو

مثل بوذا يستعيد الإيمان الحق عندما يكون فى حالة هبوط، وإن كان - على خلاف بوذا - يجتذب العبادة والهيام أكثر من التبجيل. هناك فكرة أخرى على كل حال فى عهد جيتا على خلاف ما مع طبيعة الحب المصورة عند الله هناك، وهى بالتأكيد على خلاف مع مبادئ غاندى الذى وجد فى الكتاب كثيرا جدا من الإلهام. كان غاندى يدعو إلى عدم العنف؛ تبعا للتقاليد القديمة فى البوذية والجينية وبعض الهندوسية. ومع ذلك استطاع عهد جيتا تهدئة البطل أرجونا Arjuna الذى يرتعد ويشعر بالقلق على المذبحة المتوقعة فى المعركة التى ينتظرها (وهى فضلا عن ذلك ضد أقاربه وأصدقائه) ويبدى ملاحظة هى أن القاتل خاطئ حين يفكر فى القتل. وإن الروح الخالد لا يقتله السيف. ويحتاج أرجونا إلى الاستمرار فى أداء واجبه، مهما كان خاليا من السرور. سوف يتم إنقاذه لو أنه تبرأ من ثمار عمله فقط، واعتمد على الله. سيؤدى فعل الله الرحيم بهذه الطريقة إلى اختصار آثار الكارما، واستكمال إيمان أرجونا.

هذا التأكيد على عدم انعدام الروح بصفة أساسية (ولبّ الإنسان بناء على ذلك) يبدو كما ذكرت على خلاف مع تعاليم اجتناب العنف، لأنه يعكس الاتجاه المعهود للجدال حول الروح؛ إذ يؤكد أحد المبادئ " لا تحطّمه لأنه يملك روحا خالدا". بينما يؤكد آخر: " لماذ لا تقتله ؟ إنه يعجز عن الموت". إن الرسالة الرئيسة عند جيتا هى الاعتماد على الله، ومن الصدق بصفة عامة أن تقول حيثما تطور هذا الإيمان الفردى الحار بالألوهية تطورا جيدا فى التقاليد الهندية فإن عقيدة الولادة المتجددة كلها تصبح أقل أهمية. هناك - كما فى حالة البوذية فرصة الخلاص الفورى من خلال الإيمان، إذ يجتبى الله الناس إليه فى حب، دون انتظار للآثار البعيدة للكارما حتى تنجز عملها من خلال حيوات لا عداد لها. فى هذه العقيدة الأرحم فى الموت والخلاص هناك وسيلة جاهزة لهزيمة الفناء وعدم الرضا؛ بواسطة الدعاء باسم الله الذى يختاره الإنسان.

هناك فى أساطير شيفا وفشنو أفكار وشخصيات عديدة أخرى متشابكة. هناك ياما Yama، وهو رب الموتى، وهو شخصية مرسومة منذ الفترة الفيدية فى الديانة

البرهمية الباكرة – ياما هو أول رجل يموت، وهو الذى يحكم على الموتى اليوم بوصفه قاضيا، يساعده باقتدار أمين سجلاته شيتراجوبتا Chitragupta (صاحب الأسرار المتنوعة)، الذى يقرأ حساب أعمال الإنسان الميت. ويسمّى شيفا يامانتاكا Yamantaka، أو القاضى علَى ياما، من حيث إنه عند نهاية كل فترة من العالم يذيب الكون، ويعطى الكائنات الحية راحة من تكرار الموت والحساب. وعند ياما جانب يُذَكِّر بإحدى الملامح فى كتاب الموتى عند التبت. وتبعا لهذا الكتاب الأخير، فإن الأسرار المتسامية تبدو مشرقة جميلة أمام أولئك الذين هزموا الأنانية، أما الذين لا يزالون فى ربقة الرغبات فيجدونها مرعبة، كالحلم المزعج. وكذلك يبدو ياما رحيما بأولئك الذين كانوا فضلاء، ومرعبا لأولئك ذوى الأخلاق الشريرة.

حتى أولئك ذوى الأخلاق الفاضلة أحرى أن يجدوا مندوبة كالى – وهى رفيقة شيفا – مرعبة. تلبس إكليلا من الجماجم، "وتنّورة" تتكون من أذرع مقطوعة، وهى تشرب الدم، كما تتسلط بشراسة على الهدم والموت. وهى كأنثى مع ذلك مصدر الحياة أيضا، وينبوع قوى شيفا الخلاقة. وهذا يمثله منظر شيفا الراقد؛ جثة تحت قدميها. وعندما ينهار الكون فى سكون، فكل ما يبقى هو قوة الزمن (كالى نفسها)، وهى تنتظر اللحظة التى يبدأ فيها الكون فى التفتح مرة أخرى.

هذه الصور متعددة الألوان، وأخرى كثيرة تتعلق بالمواقف من الموت والهدم والحياة فى التقاليد الهندية: هذه المقدمة الرمزية الصوفية فى مواجهة خلفية العقائد الخاصة بالولادة المتجددة والتحرر. وتنشأ التناقضات فى الصور بصفة جزئية من الشعور بأن الخير والشر لهما مصدر واحد. وليس من دواعى الدهشة كما فى حالة الروح الخالد، أن نخرج باستنتاجات مختلفة. إن التعاليم الرئيسة للصور والعقائد هى أن الهزيمة النهائية للموت إما أن تكون توقف الحياة بواسطة اليوجى، أو الاعتماد على رحمة الله حتى يكسر قيود الكارما. ويمكن مع ذلك استلهام كالى Kali لتبرير قتل

قطاع الطرق (السفّاحين). كما أن الاتجاهات الغامضة تجاه الموت والتدمير لها علاقة بشكل المجتمع الهندى.

الجهاد فى سبيل القداسة :

كان من التقاليد الدينية الحيوية من زمن طويل أن ينسحب من المجتمع من يسعى إلى أعلى مستوى من الاستصبار الروحى. فقد ترك بوذا زوجته وابنه، وكذلك فعل ماهافيرا Mahavira المعلم الجينى. وتطورت فى نطاق الهندوسية عقائد الأشراما Ashramas أو مراحل الحياة. كان هذا تقسيما صناعيا إلى حد ما، لكنه يعكس مساقا يتبعه البعض على الأقل. يكون المرء أولا طفلا وطالبا يعيش أعزب مع معلّمه. ثم يتزوج المرء ويصبح رب أسرة. ثم يبدأ فى التخلى عن أعباء الدنيا عندما يكبر أولاده. ثم يصبح فى الشيخوخة أخيرا زاهدا جوّالا (سانياسين، Sannnyäsin) – يكون المرء فى هذه المرحلة الأخيرة وراء المجتمع، ولذلك وراء مطالب أتباع القواعد المعقدة التى تحكم المجتمع الهندى. ويكون الرجل المقدس بصفة عامة قد ذهب وراء الخير والشر، وأصبح عند العالم "ميتا". وربما حقق "جيفانموكتى Jivanmukti" ؛ أى "التحرر فى أثناء الحياة"، وإنما ينتظر أن ينهار الجسم فقط، مثل عجلة الخزّاف عندما يتوقف عن العمل بها. وعلى ذلك تنعكس فكرة التحقيق لحالة متسامية على الحياة المتجددة والموت المتجدد فى المجتمع، حيث تسامى الرجل المقدس على التزاماته ورغباته الاجتماعية ونهايات الحياة.

لكن أغلب الرجال يبقون فى المجتمع طبعا. ويظل عندهم مثال بعيد دائم للقداسة والتحرر الحق. لكن أعمال الكارما الفعلية بالنسبة لهم أهم من أسلوب هزيمتها. إن الأعمال الخيرة والشريرة على المستوى الشعبى تعتبر طريقا للمكانة الأعلى أو الأدنى فى الحياة الآخرة. وكذلك يتقرر أوان الموت وكيفيته للإنسان، وعلى ذلك كان هناك نوع

من المنطق فى كوارث الحياة ومصائبها من وجهة نظر الإنسان العادى، ويمكن بالتأكيد متابعتها فى الماضى إلى بعض الأعمال السيئة.

طقوس العبور :

يستبقى الموت مع ذلك بواعث الخوف منه، ولا يعبر علم الأساطير الشيطانية Demonologyy عن ذلك فقط، حيث يمكن أن تقوم أرواح الأشرار والمهملين من الناس بتعقب المجتمع، وإنما يظهر أيضا فى القذارة التى تحيط بالجثة. وهناك اتجاه نحو تعقيد الاحتفالات بطقوس العبور المتحكمة، وبخاصة فى الطبقات العليا؛ كما يجرى فى مواضع أخرى من المجتمع الهندى. ويجب حرق الجثة. والأفضل أن يكون إلى جوار نهر، حيث يُنثر فيه الرماد. وتجمع العظام فى اليوم الثالث وتُنثر كذلك فى النهر. وتُقدم العطايا للميت فى الأيام التالية، وتكون له الآن حالة الشبح، ويحتاج إلى تغذية حتى يكتسب جسما لطيفا يُمكنه من السفر قُدما إلى وجوده التالى. ولا يصبح الأقارب الذين أدّوا هذه الطقوس نظيفين من ناحيتها إلا بعد عشرة أيام، بحيث يقدرون على استئناف أعمالهم. وتمثّل هذه الطقوس الأرثوذكسية تلاحما بين مفهوم آرى باكر للحياة الأخرى وبين فكرة الولادة المتجددة المتغلغلة فيما بعد. لكن حرق الجثة إذا كان واسع الانتشار فى الهند، غير أنه لم يكن عاما. فهناك حالات من الدفن فى جنوب الهند وأماكن أخرى، وهناك فى أقدم المراجع حالات من تعريض الجثث للحيوانات والطيور؛ مثل النسور (وقد لعبت الطيور الأخيرة دورا بارزا فى العادات الجنائزية عند البارسيين(*) حتى هذا اليوم). لكن الشىء المثالى أن يُنثر رماد الإنسان فى النهر، ونهر الجانج قبل كل شىء. وإذ يطفو هابطا نحو المحيط فهو يرمز إلى الطريقة التى يرجع بها الكل إلى الحقيقة الإلهية الواحدة.

(*) انحدر البارسيون من الزرادشيتين فى فارس وعاشوا فى الهند. المترجم

هزيمة الموت :

تعتبر هزيمة الموت فى التقاليد الهندية عملا طويلا بصفة عامة، وغالبا ما يكون شاقا، حيث إن على الإنسان أن يتسامى على سلسلة كاملة تصنعها الولادات المتجددة. ويمكن أن تمنح الفضيلة بركة محدودة حقا فى الجنة، لكن الخلود المبارك لا يكون إلا فى بعض فروع التقاليد فى مثل تلك الحالة من فعل الله - هنا يكون إيمان الإنسان بالله أهم من فضائله، ويتم اختصار عملية الكارما؛ بواسطة فشنو فى حالة تعاليم رامانوجا Ramanuja مثلا، أو بواسطة بوذا أميتابا فى ماهايانا مثلا. أما فى غياب نشأة التقوى القوية فالصورة تبيِّن صراعا شاقا لتحقيق السكينة والاستبصار. والصراع فى الجينية زاهد عفيف، ويستدعى إيذاء قويا للنفس لتدمير آثار الكارما السابقة. وهناك فى البوذية وأدفيتا Advaita مزيد من التأكيد على الفهم والاتجاهات النفسية. إن ممارسة اليوجا المعتدلة التى ترتبط بتسكين الحواس ومعرفة الزوال يمكن أن تبلغ مذاقا خاصا من الانفصال لا تكون فيه الحياة ولا الموت سببا فى تعكير السكينة. وليس هذا نفيا للدنيا فى ذاته، لأن أية رغبة فى نفى الدنيا تستحق الريبة مثل أية رغبة فى تأكيدها. أما الطريق إلى هزيمة الموت عند سانكارا فهو أعقد؛ لأنه يوافق على ديانة العبادة مع طقوس التضحية والطقوس الأخرى من الماضى البعيد، وإن كان ذلك على مستوى أدنى من الواقع. وقد تساعد مثل هذه التقوى الإنسان، والواقع أن الصور الأسطورية الغامضة المدهشة لله على هيئة شيفا يمكن أن تقدّم استبصارا بالتسامى على الحياة والموت، والخير والشر. لكن الإنسان يختفى فى النهاية وراء هذه الصور، وينظر إليها بصفة أساسية على أنها طريقة تقليدية أدنى للإشارة إلى ما يكون وراءها. إن الدنيا نفسها بكل ما فيها من الأفراح والتقلبات تتخذ جوّ الحيلة العظيمة الخادعة. إن التحرر أشبه باليقظة من الحلم؛ والموت نفسه إنما هو جزء فقط من ذلك الحلم.

إذا كـان الطريـق شـاقـا على الأغلب مـع ذلك فـفى إمكـان الإنسـان أن يهـدأ من ناحيته، حيث إن الإنسان سوف يمر فى ولادات متعددة جدا.

إن عقيدة الولادة المتجددة تؤدى وظيفة التهوين من مشقات الحياة العليا. ولكن ليس المقصود بها نوعا من القدرية (وإن كان هناك بعض المعلمين القدريين فى التقاليد الهندية). هناك دائما تفسير للموت، لكن هناك دائما احتمال التغيير أيضا فى اتجاه مـصير الإنسـان. ويسـتطيع الإنسان فـعل هـذا فى حيـاته العـادية، والأغلب الأعم أن الوقت لم يفت بعد. وعلى ذلك، يكون الجهاد فى هزيمة عليا للموت قد انقلب فى التقاليد الهندية نـحو حيوية عظيمة فى هذه الثـقافية العالمية، والسعى وراء الغـايات الدنيوية المعهودة عند الناس. إن الأسطورة الغربية الشائعة عن القدرية الشرقيـة والصرامة وإنكار الدنيا فى هذه النواحى مسألة مُضَلِّلة.

هنا مسـألة أخيرة عن التقاليد الهندية قبل أن نتقدم نحو المزيد من الشرق: كانت هناك حتى العصـور الوسطى مدرسـة مـادية ليست قليلة الشـأن فـى الهند، وقد أنكرت الولادة المتـجـددة واحـتمـال النرفـانا والخـلاص والجنة... إلى آخـره وكـانت علاقـاتهـا المتشـابكة مع الأرثوذكسية البرهمية شديدة فى الغـالب، وكانت الديانة تعتبر كـاذبة. وكان أحد التفسيرات المقدمة عن الوعى - للرد على حجج الولادة المتجددة المأخوذة من وجود الروح - إنه خاصية جديدة تحدث عند امـتزاج عناصر مـعينة معـا، تمامـا مـثل مـزج شـراب بطريقة مـعينة إذ يـصبح كـحـوليًا، وإن لم يكن أى من عناصره الأصلية كـذلك. ويوصف بعض الماديين بالزهد على سـبيل التناقض إلى حـد مـا، لكن أكـثـر التغيـرات الشـائعة التى تسـتخلص من مـوت النفس هو أن فى اسـتطاعة الإنسـان أن يكسب ألوانا من الرضا فى هـذه الدنيا، ولو كانت غير دائمة(*). من أجل ذلك، لا يقتنع كل إنسان بالدعوى الدينية الشائعة أن الخالد وحده هو الذى يكون مصدر الرضـاء التام.

(*) لا ينهاها الإسلام عن التمتع بما عندنا من صحة وحيوية وما فى الدنيا من جمال فى غير إسراف أو اعتداء على حريات الآخرين وحرماتهم - لكن الدنيا بعد هذا كله هشيم تذروه الرياح! طوبى لمن يزرع فيها حتى يحصد الخالد الباقى من فضل الله ورحمته... المترجم

الصين :

من الشائع أن نتحدث عن الديانات الثلاث للصين، لكن التاوية Taosim والكونفشيوسية أخذتا مكانة العقائد على أكمل معنى فى البداية نتيجة الاستجابة للبوذية إلى حد كبير، وكانت مؤسسة قوية من قبل.

كان هناك عدد من الحركات أو التقاليد فى التعليم، وكان أهمها تلك التى ترجع إلى كونفشيوس وإلى أشهر شخصية أسطورية على الأرجح وهو لاوتسى Lao-tse، فى القرون السابقة على دخول البوذية فى الصين؛ منذ القرن الأول الميلادى فما تلاه. وحدث أن كانت هناك جوانب من التعاليم والممارسات التاوية تتقارب مع البوذية: مثل هدوئها، وتأكيدها على أساليب التأمل ....إلى آخره، بحيث خرج من التفاعل بينهما فى النهاية ذلك الإسهام الصينى المتميز فى الديانة البوذية: شان Ch'an (أو زن Zen حسب الترجمة اليابانية المعروفة على نحو أفضل). ونحن هنا مهتمون بصفة رئيسة بالتاوية على كل حال.

تاو – تى – تشنج Tao -te -ching هى المصدر الرئيس للفكر التاوى، وإذا كان مرتبطا باسم لاو تسى، الشهير فى القرن السادس قبل الميلاد، فقد أصبح فيما بعد منتخبات من التعاليم، وفيه مع ذلك قدر طيب من التناسق. وهناك تفسيرات تحمل اختلافات واسعة جدا عند الباحثين المحدثين. ويكفى هنا أن نحدد بعض التفسيرات التقليدية المهمة، التى تبيِّن موقف التاوية من الموت. والمفهوم الرئيس فى العمل هو ذلك المفهوم عن الطريق (Tao) أو المبدأ الذى يحكم الكون. إن الحكيم هو الذى يعيش حسب الطريق، وعلى ذلك يشارك فيه حقا.

هذا التقمص مع "التاو" يُذكّر ببعض الصور الأخرى من التصوف مثل تلك الموجودة عند سانكارا وماهايانا. هناك فكرة أخرى أيضا، إذا كان تاو – تى – تشنج لا يُعلم الولادة المتجددة والكارما، فهو يصل إلى نتيجة لا تختلف عن تلك التى نصل

إليها فى بعض مراحل الديانة الهندية: إن الهروب من آثار العمل - حسب العمل - هو نوع من عدم العمل، وهو استجابة اليوجى. وعلى ذلك، يكون التقمص مع التاو فى التاوية المبكرة بواسطة وو- واى Wu -Wei أى عدم العمل. إن الطبيعة نفسها تعمل تلقائيا بغير جهد: تعمل بألا تعمل.

والسلبية المتسامية هى السبيل الحق للقوة؛ والحكيم يسعى إلى الفراغ وبهذا العمل ينهزم الجميع. وهو عندما يُفرغ نفسه من الرغبات (مثل الطبيعة) إنما يحقق غاية الرضاء؛ ما هو سبب السخط، إذا لم يكن عجزاً عن إشباع الرغبات وتطلعا إلى ما عند الغير؟ هذه السلبية فى التاوية الباكرة عبرت عن نفسها فى المسالمة ونوع من الفوضى اللطيفة ؛ على نقيض مدرسة كونفشيوس التى تؤكد الإتيكيت والسلوك السليم وهموم الحكومة والإدارة. وليس من العسير أن نرى انتماء التاوية الباكرة إلى الجانب التأملى الصوفى فى الديانة - وإذا كان من خطأ التاويين - بعد وصول البوذية إلى الصين - أن يفترضوا أن لاو تسى قد ذهب غربا لتعليم الحق، بحيث أصبحت البوذية فرعا من التاوية، فإن للدعوى الفكرية أساسا على الأقل فى التشابه بين المساقين من التفكير.

يترتب على النظرة العامة السابقة أن الحكيم يبلغ نوعا من الخلود؛ فهو إذ يتقمص التاو يصبح خالدا. وهو حين يعلو على الرغبات، وبذلك يتجاوز همَّ الحياة أو الموت، لا يمكن أن يناله سوء الحظ. وكما يقول تاو - تى - تشنج : الحكيم الحق منيع على لدغ الحشرات وهجمات الوحوش المفترسة والطيور الجارحة.

ليس هذا المعنى حرفيا بالطبع، لكنه يرمز إلى الهدوء الكافى للإنسان الذى يجد القوة فى الضعف والخلود فى الفراغ. ربما كان هناك تشابه أيضا مع اتجاهات معينة فى الوجودية الحديثة: مثل قبول الموت كالفاصل، وإن السخرية بآمالنا هى فى الواقع مفتاح الوجود الأصيل (قيل عن هيدجر Heidegger إنه قال: إذا هو فهم د.ت. سوزوكى D.T.Suzuki فهما صحيحا، وهو الشارح الشهير لبوذية زن Zen Buddhism،

حيث كان سوزوكي يقول كل شيء حاول هو، أي هيدجر، أن يعبر عنه). لكن الهدوء والصوفية في التاوية الباكرة لم تبق الإسهام المهم الوحيد في العقيدة التي ازدادت في التطور فيما بعد وعرفت بالتاوية. ولا يستطيع كل واحد أن يبلغ غاية التجربة الداخلية، وفي الإمكان تفسير الحياة الخالدة في صورة مادية على أنها نوع من الخلود.

في التاوية المتأخرة أصبحت الرغبات الدنيوية في طول العمر والأمان بعد الموت بديلة من الجهاد في سبيل الخلود بصورة متزايدة. كما اتصلت بالتعاليم في الوقت نفسه أساطير معقدة إلى حد ما؛ خرجت جزئيا من التقاليد الصينية وخرجت جزئيا من مصادر أخرى، كما ظهر تنظيم كهنوتي طبقي. وتعلق التصوف بالكيمياء والممارسات السحرية أو شبه السحرية الأخرى؛ كما حدث في مرحلة أو مرحلتين أخريين في تاريخ الدين. وأدت الرغبة في الخلود إلى البحث عن إكسير الخلود الشهير، واستطاع الرجل العادي أن يستقر على الأقل على وسائل إطالة حياته نفسها. وتمكن اللُّب الداخلي عند البارعين – من خلال التمرينات التنفسية والوسائل الكيماوية وغيرها – أن يكسبوا خلود الجسم؛ حيث يُنقل بطريقة غامضة عند الموت إلى جزيرة الفردوس المقدسة، وهناك يسكن الخالدون المقدسون. أما الناس العاديون فربما يأملون في بركات أقل. وسيذهبون عند الموت إلى عالم الموتى في مكان مرغوب لو كانوا أتقياء : وقد تساعد ذريتهم على نقلهم أيضا إلى فردوس الخالدين من خلال الاحتفالات المناسبة للموتى. إن الانشغال بالحياة المديدة قد ارتبط بالطبع بهموم المرض، واعتُبر أنه تدنيس أو خطيئة أحيانا. واجتذبت التاوية لنفسها على ذلك مكانا بارزا في ممارسة الطب التقليدي وشبه السحري.

وإذا كان الكونفشيوسيون المتعلمون يحتقرون أغلب هذه الصورة من التدين بالإضافة إلى التقوى البوذية، فإن أغلب التاوية يمكن أن تتعايش مع الديانتين الآخريين من "الديانات الثلاث" في الحياة الشعبية. وإذا كانت الكونفشيوسية المتأخرة تلبي الحاجات الرسمية، وتحتضن النِّحل السالفة، فإن البوذية والتاوية تلبي مطالب القلق والتطلعات الخاصة.

إن مادية مفهوم التاوية عن الحياة الخالدة كانت هى بعينها استجابة جزئية لوجود البوذية – على الرغم من تعاليم البوذية الغربية عن الولادة المتجددة، فقد استجابت لآمال الناس فى الفردوس، وبخاصة فى مدرسة الأرض الصافية بطريقة فعالة، وفى بؤرة أسطورية للعبادة والهيام، على هيئة بوديسَتْفاش bodhisattvas وشخصيات بوذا السماوية. لكن التاوية كانت أقل نجاحا فى التلاحم بين العقيدة والأسطورة والممارسة جميعا؛ بحيث ظل هناك انفصال بين العقيدة المنظمة التى كانت شعبية بصورة أساسية، وبين الفلسفة التاوية، كما يُعبِّر عنها فى تاو – تى – تشنج وغيره. كان هذا سببا فى الهبوط العظيم للتاوية المنظمة فى العصور الحديثة.

لكن البوذية والتاوية قدمتا الصورة والمادة للعقائد عن الحياة الأخروية التى كانت غامضة فى عبادة الأسلاف فى الصين القديمة (والأفضل أن تُسمّى نحلة الأسلاف، إذ إن كلمة "عبادة " شديدة القوة جدا). وكان للنحلة طقوس واسعة الانتشار وأهمية اجتماعية كبيرة فى التأكيد والتشجيع على تماسك العائلة والجماعات الأكبر، ولكن لم يكن هنا وعد بخلود شخصى إلى درجة كبيرة أو خلاص دينى. وإذا كان من المبالغة أن نقول إن كنفشيوس كان لا أدريا فى الدين، فقد كان هناك كثير من ضبط النفس فى إجاباته عن أمور مثل الحياة الأخروية. وكانت محاولته فى استعادة القيم القديمة وإعادة تنظيمها قد وجهته إلى إحسان الظن بنحلة الأسلاف، لكنه فضل التأكيد على منفعتها الاجتماعية والأخلاقية. وينبغى على ذلك أن يتناول الإنسان الأسلاف كأنهم حاضرون بصفتهم الشخصية، وبهذه الطريقة يزداد الاحترام للأفراد. ولما طُلب منه أن يُصلّى وهو على فراش الموت أجاب بأنه كان يصلى زمنا طويلا؛ والمغزى أن الحياة كلها هى التى تؤدى إلى موت طيب، وليست هى التوسلات فى النهاية. وذكر ملاحظة عن الموت هى أن معرفته تستدعى أن يعرف الإنسان الحياة. لم يتطور إيمان بالآخرة إلى درجة جيدة مثل ما قدمته البوذية والتاوية فيما بعد؛ لا من وجهة النظر التى تناسب الكونفشيوسية ولا من وجهة نظر النحلة الشعبية.

على ذلك بقيت الأرواح المفارقة حول المكان كائنات فردية على مدى بعض الأجيال ثم اختفت بالتدريج. ومن الحق أن الرجال ذوى الجاذبية القوية قد يظلون زمنا أطول فى حالة الشبح، ويستطيع عظماء الرجال فى الأزمنة التالية أن يبلغوا درجة الآلهة فعلا، وبخاصة الكونفشيوسيون نفسه، الذى انضم إلى نحلة الدولة، حتى يقدم دعما فكريا لتعاليمه من جانب، وهو أمر مهم بصفة خاصة باعتباره توصيفا لسلوك الطبقة العليا، ومقاومة لتأثير البوذية من جانب آخر.

ثم حاول الفلاسفة الكنفوشيوسيون فيما بعد أن يقيموا توافقا بين هذه العقائد الضعيفة إلى حد ما وبين مفهوم ين Yin ويانج yang. والأول هو المبدأ الأنثوى القائم الذى يرتبط بالأرض، والثانى هو المبدأ الذكورى الخفيف الذى يرتبط بالسماء. ويتم التحكم فى الأرض من خلال التفاعل بين هذين المبدأين. وهناك عناصر فى داخل الإنسان تقابلهما: الروح العلوى؛ وهو عن طبيعة يانج، والروح السفلى وهو من طبيعة ين.

والروح الثانى هو ببساطة قوة الحياة التى تحفظ الوظائف الحيوية للجسم، وتتوقف عند الموت إذ يتم امتصاصها من جديد فى الأرض. والروح الأول أكثر تباعدا، ويستبقى النشاط فترة من الوقت، ويُمكّن الفرد فى هذه الصورة الملطّفة من استقبال القرابين المقدمة إليه فى النحلة.

ظهر موقف لا يختلف اختلافا كليا فى النهضة الكونفشيوسية الجديدة (فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر بعد الميلاد)، وإنما كان هنا تأثير أكبر من البوذية (وبخاصة من شان Ch'an) ومن التاوية. وأهم مفكر من ناحية التأثير التاريخى فى تنظيم العقائد الكونفشيوسية الجديدة تشو سى Chu His (فى القرن الثانى عشر الميلادى). رأى كذلك أن الكون يحكمه مبدآن رئيسان: مجال الماهيات المتسامية (لاى Li)، وعامل مادة بخارية (تشاى Chi). تمثل الأشياء والأشخاص نوعا من اجتماع الاثنين، على نحو يشبه مبدأى الصورة والهيولى فى الفلسفة الإغريقية. إن مبدأ "لاى"

فى الإنسان خير، لكنه يتلطخ بما يصاحبه من المادة. وهدف الحكيم أن يحقق نفسه الحقيقية وهى لاى فى كل صفائه. وإذ هو يفعل ذلك فسوف يشارك فى الهدف النهائى الأعلى؛ وهو صورة الخير، الذى يُوحِّد الماهيات المتسامية للأشياء جميعا.

إن طريق تحقيق لاى الخاص بالإنسان يتشابه تشابها قريبا مع وسائل التأمل فى البوذية والتاوية الفلسفية. ولكن إذا كانت مثل هذه التأملات تُمكِّن من المشاركة فى الحقيقة العليا، ونوع من الإحاطة العلمية، وشعور بالوحدة مع الأشياء جميعا؛ من خلال ماهياتها، فإن هناك فارقا حيويا بين مواقف الكونفشيوسية الجديدة، وبين تلك المواقف الخاصة بالبوذية والتاوية، وبخاصة التاوية المنظمة. فقد ظل الحكيم الكنفوشيوسى الجديد شديد النقد لمثال الرهبنة. وهو يحقق استنارته بالبقاء فى العالم وأداء واجباته الاجتماعية والأخلاقية، وهو - على نحو معهود - ينكر الرغبة فى النرفانا، ويعتبرها هروبا من العالم يدل على ارتباط كامن. ويمكن للطريقة الكونفشيوسية أن تجلب المعرفة الكاملة والحب الكامل، كما أن الحياة التى يحياها المرء على هذا النحو تنتهى بالموت فى سلام. ويستطيع الإنسان أن يكسب التوافق مع الكون بما هو عليه فى الواقع: فلا ينبغى للإنسان الانطلاق فيما وراءه. وعلى ذلك تمثل الكنفوشيوسية الجديدة موضوعين يتكرران من التقاليد الصينية القديمة فى صورة متطورة؛ هما الحاجة إلى الحياة فى توافق مع العملية كلها التى يجد الناس أنفسهم فيها، وأهمية الروابط الاجتماعية والعمل السليم. وإذا اندمجت نحلة الأسلاف فى النحلة الأخيرة فإنها تعطى الكونفشيوسية اندفاعا معينا فيما وراء الموت؛ لكن الرجل المثقف لن ينخدع بالتخيلات عن الأرض الصافية Purer Land أو جنة الخالدين. وعلى الرغم من التوافق المدهش بين "الديانات الثلاث"؛ وهى غالبا ما تتداخل فى حياة الناس، فقد كان هناك بعض الانفصال من هذا الجانب بين الطبقة المتعلمة؛ من حيث استمرارها فى استبقاء التقاليد الكونفشيوسية، وبين الجماهير. وقد أدى هذا بالغربيين

أحيانا إلى تقدير غير سليم لقوة الدين فى التاريخ الصينى، من خلال اتصالهم الرئيس بالرسميين والأساتذة الذين تشربوا الإنسانية الكونفشيوسية.

اليابان :

انتقلت بعض القيم فى الديانة الصينية إلى الثقافة اليابانية بالطبع؛ وبخاصة البوذية والكونفشيوسية، وتدين الثقافة اليابانية بالكثير جدا إلى الأرض الرئيسة فى تطور حضارتها. وتأكدت بعض الاتجاهات الموجودة من قبل فى الصين، وعُدلت فى اليابان، فقد بلغت التقوى فى الأرض الصافية Pure land مستويات أقوى مثلا فى تعاليم هونين Honen وشينران Shinran (فى القرن الثالث عشر الميلادى)، وهى تعد بالخلاص من خلال عمل الإيمان. وقد كيَّف نيشيرين nichiren فى الفترة نفسها مثل هذه التقوى مع القومية. ومن الشائع فى مثل هذه المدارس أن العزوبة والأعمال الأخرى التى يفترض فيها أنها تؤدى إلى التقدم على طريق البوذية هى عديمة النفع، وهناك شبه قوى مع عقائد التطوير عند لوثر. وأظهرت الأرض الصافية فى اليابان بناء على ذلك الثورة البوذية بصورة مدهشة؛ وهى التى تقدم الخلاص للجميع، لو أنهم اكتفوا بترديد اسم بوذا أميدا فى إيمان. أما الطريق الأشق والأقدم نحو التسامى على الموت والحياة نفسها فلم يعد قابلا للتطبيق.

تكاملت مثل هذه التقوى فى اليابان على كل حال بحركات بوذية أخرى، مثل حركة زن Zen ؛ التى جلبت أساليب جديدة تتعلق باليوجا البوذية القديمة. وبهذا العمل ذهبت إلى أبعد من الرهبانية فى تقديم نظام فى العصور الوسطى، يتمكن به عامة الناس من كسب الاستنارة بوسائلهم العادية؛ ومن ثم طرق زن المختلفة فى الاستنارة بواسطة ألعاب السيف والرماية وتنسيق الأزهار - ونحو ذلك. كان هذا إلى حد ما يعكس إضافة عجيبة للإقطاع فى العصور الوسطى نحو ممارسة التأمل.

وكان الساموراى Samurai بصفة رئيسة فرسانا من الطبقة الأدنى يخدمون أمراء الإقطاع بوصفهم محاربين؛ واستطاعوا على سبيل التناقض أن يجمعوا بين القيم البوذية وآداب الشجاعة الشخصية الكافية - وساعد هذا على غرس روح البوشيدو Bushido مع مثلها من التصبر والانتحار الشريف. هذا الشعور باحتقار الموت تفشّى فيما بعد فى الشّنتوية Shinto التى تنتمى إلى الدولة، فى محاولتها لتقديم أيديولوجية للروح الحربية. من الفوارق العامة جدا بين زن ومواقف الأرض الصافية تجاه الموت أن الأول يكون فيه تحقيق السّاتوراى Satori أو الاستنارة فى هذه الحياة (حتى عند الرجل العادى) بحيث يضع الإنسان من وراء تقلبات الحياة، وبذلك يتمكن الإنسان من مواجهة الموت برباطة جأش، بينما يكون هناك فى الثانى جنة فى الحياة الأخروية تنتظر أولئك القادرين على الإيمان، وبذلك يتمكن الإنسان من مواجهة الموت فى أمل التقوى.

لم تكن الشنتوية فى أوائل الزمن معنية كثيرا بمشكلات الحياة الأخروية، وكان المظنون عادة أن الموتى يذهبون إلى مكان أدنى تحت الأرض؛ وكانت هناك قلة من أهل الرفعة فقط تستطيع الصعود إلى أفق السماء - لكن الشنتوية تعايشت على مدى فترة طويلة جدا مع البوذية والكونفشيوسية وكانت البوذية إلى حد كبير فى الصين هى التى قدمت الإيمان بالآخرة. وعندما تمت استعادة مايجاى meiji أصبح للشنتوية مكانة خاصة باعتبارها نحلة الدولة، وقدمت دائما إطارا لاحترام الإمبراطور. وإذا كانت نحلة الدولة معارضة للبوذية بصفة أساسية فقد انتهت باحتواء عقيدة الفردوس الشائعة، على أنها مكافأة على الشجاعة والالتزام تجاه الإمبراطور على كل حال، أكثر منها نتيجة للإيمان بالبوذية. وقد قدمت أيديولوجية حربية قابلة للبقاء عندما مزجت هذه بالتقاليد الأرستقراطية التى تحتقر الموت. كان هذا سببا رئيسا لانفصال الشنتوية عن الدولة فى عام ١٩٤٥ بعد الاستسلام - لكن شنتوية الأضرحة Shrine Shinto التى تحفظ التقاليد القديمة للعبادة الطبيعية ما زالت قوة حيوية.

من الجائز، وإن لم يكن مؤكدا، أن الشنتوية منذ أوائل عهدها كانت تحتوى على نحلة الأسلاف، وكانت هذه الملامح على كل حال مهمة جدا دائما فى الحياة اليابانية، وزاد فى تدعيمها احتواء الممارسات المشابهة فى التقاليد الكونفشيوسية.

أنماط عامة :

فى استطاعتنا الآن أن نرسم بعض الأنماط العامة فى النحل والعقائد فى جنوب وشرق آسيا. فى نحلة الأسلاف على أحد المستويات... إلى آخره.

ليس هناك اهتمام متطور جدا بالخلود الشخصى، وإن كانت هناك رغبة فى تأكيد التماسك العائلى والاجتماعى، وتكريم الموتى. هذا التكريم للموتى يتمشى غالبا فى الممارسات الدينية الشعبية مع الخوف منهم، والشعور بقذارة الجثث، والإمكانات الخارقة فى عودة الموتى، إلا إذا حسُنت العناية بهم. ويمتزج هذا الخوف مع الخوف العام من الأرواح والكائنات الروحية الأدنى الأخرى التى تتفشى فى حياة من يتعلق بها. وقدّمت البوذية - كما لاحظنا - رمزا فى شخصية مارا mara من أجل توحيد هذه القوى المهددة، وعرضها على أنها فاقدة للقوة فى النهاية نتيجة لانتصار بوذا عليها.

هناك فى الهندوسية والبوذية أفكار أرقى عن الخلاص الشخصى والخلود والتحرر - ونظرا للإيمان بالولادة المتجددة، فإن الخلاص فى النهاية تساميًا على الموت بالإخراج من تيار الوجود إلى مجالٍ مُتسامٍ. ويعتبر السبيل إلى هذا من طريق اليوجا عند تأكيد حياة التأمل، وحيثما يكون هناك إيمان بإله شخصى فإن التقوى والالتزام يهيئان أحوال الخلاص.

إن سبيل التأمل يتخذ فى بعض الأحيان صورة الانسحاب من الواجبات الاجتماعية، كما يحدث فى الرهبانية البوذية، والتاوية، وحياة السانياسين Sannyasin الهندوسى (الزاهدالحكيم). هذا يميل إلى تأكيد جانب الأقلية فى الحياة العليا. لكن

زيادة الاهتمام بالموت والتحرر أدت إلى البحث عن نمط فى الخلاص يسهل إتاحته للناس فى جهودهم العادية. وإذا كانت عقيدة الولادة المتجددة تقدم إجابة عن هذه المشكلة بإسقاط سعى الإنسان الروحى الأعلى على الحياة فى المستقبل، إلا أن الضغط من أجل المزيد من الخلاص الفورى ظل باقيا، وبخاصة فى ثقافات مثل تلك الثقافات اليابانية والصينية حيث إن عقيدة الولادة المتجددة لم تسبق وصول البوذية. إن ديمقراطية الطريق بعد الموت تتخذ صورتين رئيستين إحداهما تطور اليوجا حتى تتكيف مع الحياة العادية؛ كما يحدث فى بعض مراحل زن، حيث يستطيع حتى المحارب بلوغ الاستفادة من خلال تنظيم أعماله فى اتجاه روحى. أما الأخرى، فهى إحلال الجنة محل الأمل فى التحرر المتسامى. وقد اعتمد هذا المساق الأخير إلى حد كبير على الأفكار الشخصية عن الله، أو شخصيات بوذا السماوية... إلى آخره، وهى القادرة على ضمان الوجود فى الجنة للمؤمنين.

إن المساق الأول يميل إلى الارتباط بما وراء الطبيعة، حيث يقدر الإنسان هنا والآن على الاتصال بالحقيقة النهائية التى تتغلغل فى الحياة كلها. وعلى ذلك، نجد فى ماهايانا تناقضا؛ هو أن النرفانا وسمسارا Samsara (التردد الوجودى الدورى) شيئان متماثلان. إن الفراغ ليس مجرد المطلق المتسامى على العالم، إذ إنه نسيج الظاهرة حقا. وعلى ذلك نحن نسبح فى بحر من التحرر - إن صح التعبير - لو أننا استطعنا أن نراه فقط - ويستطيع الحكيم فى التاوية كذلك أن يشارك فى التاو الخالد بالتكيف معه من خلال الامتناع عن العمل. ويمكن للإنسان فى الكونفشيوسية الجديدة أن يكسب معرفة بالحقيقة العليا النهائية التى تحتضن الماهيات التى تتكون منها أنفسنا والعالم من حولنا- وتميل مثل هذه الأنماط الفكرية إلى الاختلافات فى تأكيد الأهمية لهزيمة الموت.

وإذا شاركت فى الحقيقة النهائية إن صح التعبير، فقد تم لى الحصول على سر الحياة الخالدة، وأستطيع مواجهة الموت برباطة الجأش: وليس هناك حاجة إلى افتراض حالة خالدة للروح بعد موتى النهائى (كما فى الجينية واليوجا مثلا).

وإذا كانت هنا وهناك أفكار عن حساب الإنسان بعد الموت فى الديانات الشرقية؛ فإن إطار الولادات المتجددة من جانب، والشك الكونفشيوسى المقارن من جانب آخر لا يعطيا سوى أهمية قليلة. إن الحساب الخطير يجرى من خلال الكارما على أعمالى السابقة والحاضرة التى تخصنى. وإذا نظرنا إلى الأمر من جانب آخر، كما فى كتاب التبت عن الموتى، فإن الطبيعة المرعبة للآتى فيما بعد؛ كما تتمثل فى العقوبات الجهنمية، إنما هى عاقبة الفشل الشخصى فى كشف السلام والاستنارة فيه. وهناك شىء من هذا البعد الصوفى من الهندوسية؛ حيث يكون الله هو مصدر الخير والشر كليهما، والروح المتطهر يسمو فوق هذه المرعبات.

إن تقوى مدرسة الأرض الصافية، وديانة باكتى bhakti عند رامانوجا؛ هذه والمظاهر الأخرى للاعتماد على الله الودود لها بعض الأشباه القوية للتقوى المسيحية مهما اختلفت الأطر الأسطورية. وينبغى ملاحظة مثل هذه الآمال الموجودة فى الاتحاد السماوى مع الله، إذ إن هناك فى الغالب فكرة تبالغ فى التبسيط عن روح الديانة الشرقية، وليس هذا الجانب من العقائد الشرقية – فى الوقت نفسه – هو الذى يمثل المقابل للآمال اليهودية والمسيحية والإسلامية، أى إن الجمع بين الولادة المتجددة والتأكيد على اليوجا يقدم وجهة نظر مختلفة ؛ حيث تتم فيها هزيمة الموت بالذهاب فيما وراء السماء، ويتحقق السلام الصافى هنا والآن.

الفصل الثالث

الموت فى التقاليد اليهودية - المسيحية

نينيان سمارت Ninian Smart

المواقف تجاه الموت في التقاليد اليهودية المسيحية يمكن رؤيتها بصورة عامة من جابنين. هناك أولاً تطور العقائد المختلفة عن الحياة بعد الموت. وهناك ثانيا تقييم التجارب وأساليب الحياة التى تمثل الحياة الحقيقية أو الخالدة، عند مقارنتها بالاغتراب عن الله، الذى يكون الموت الطبيعي أقوى رمز له.

الموت فى العهد القديم :

يعبر العهد القديم عن المرحلة الأولى من العقائد فى الموت فى التقاليد التى تشعبت مع تزايد المسيحية، والتى شاركت معها فى الكثير جدا منها. ويعتبر الموت فى العهد القديم بصورة طبيعية كأنه انحلال للإنسان بصفة رئيسة. وهناك مع ذلك تصريحات بالحياة بعد الموت. ويستبقي الإنسان الميت قوة معينة بعد موته. وتمكنه هذه القوة من جرجرة وجوده فى الهاوية (شيول Sheol)، وهى "العالم السفلى". وهناك يتصل الإنسان بأسلافه ؛ فهو "يجتمع مع آبائه". مثل هذا الوجود هو مع ذلك مجرد ظلّ لحياة أولئك الذين لا يزالون فى هذا العالم. هذا التهوين من موضوع الخلود يرجع إلى حد ما إلى تأكيد العهد القديم على الفصل بين الإنسان الفانى والله الخالد (ويتردد

صدى هذا على نحو أضعف فى ثقافات الشرق الأدنى القديم). كان هذا موضوعا رئيسا فى ملحمة جلجامش لكن له بروزا خاصا فى الإنجيل، نظرا للتعبير عن التوحيد القوى فيه، مع ما يتعلق به من الفجوة بين الله والإنسان، فالله وحده يملك القدرة على الإنجاء، وكذلك يملك الامتياز فى أية قداسة أو خلاص ينعم بها. وليس الناس بطبيعتهم خالدين، وإنما يرجع الخلود إلى الله. والسبب الآخر فى التناول البسيط للخلود فى العهد القديم هو أن المعاملات بين الله والإنسان (وبخاصة إسرائيل) كانت تعتبر متعلقة بالله من جانب، والمجتمع من جانب آخر. وكان بقاء الفرد من هذه الناحية باهتا عند قياسه على بقاء المجتمع.

وقد انعكست هذه المواقف تجاه الخلود على الفكرة الرئيسة عن الإنسان فى العهد القديم باعتباره حقيقة نفسية جسمية، لا باعتباره منقسما إلى جزئين؛ روح وجسم، كما كان الحال. ونعترف بأن ماهية الحياة كانت تتمثل فى النّفس أو الروح، لكن هذه الفكرة عن الجانب الروحى للإنسان لم تتطور بحيث توحى بأية عقيدة عن أى عنصر خالد بطبيعته فى الإنسان.

مفهوم البعث :

تزايد الاهتمام بعقيدة بعث الموتى على كل حال (وهى فكرة ناشئة بصفة جزئية من التأثيرات الزرادشتية) عند نهاية فترة العهد القديم، والأهم فى الفترة بين تأليف أغلب وثائق العهد القديم وبين عصر المسيح. وأصبح هذا الاعتقاد من الملامح الرئيسة فى تقوى الفريسيين، وكانت للمسيحية بهم علاقات أقرب وأكثر مما توحى به الأناجيل فيما يبدو. وجمعت فكرة البعث بين ثلاثة ملامح من المواقف المبكرة.

أولاً: يعنى البعث أن الوجود المتخلص أو الوجود الأعلى سوف يظل مثل الوجود فى الحالة الراهنة بصفة أساسية، ويتعلق الخلاص بتجديد الوجود الجسمى النفسى،

لا خلود الروح الخالص من الجسم. ثانيًا: كان مفهوم البعث بصورة نمطية أنه حدث جماعي يرتبط بالحساب الإلهي؛ في فترة المسيح وما بعد حياته. ومن المعترف به أن هناك فوارق بين الأفراد في مثل هذا الحساب العالمي. وكان لا يزال من المفاهيم المهمة أن الحساب سيكون للناس في الوقت نفسه عند "نهاية التاريخ" بدلا من حساب الأفراد واحدا واحدا عند خروجهم من الوجود الفردي.

ثالثًا: أكدت عقيدة البعث نظرة متميزة للتاريخ ناشئة في الإنجيل. إذا كان الله يعمل في الأحداث الزمنية والتاريخ المستمر لشعب معين، فليس من غير الطبيعي أن نفكر في نوع من التماثل بين الماضي والمستقبل، وبينهما قنطرة من تاريخ بني إسرائيل. إن خلق العالم أدى إلى خلق الشعب المختار من خلال الميثاق، واستكمال العملية التاريخية التي بدأت هناك سوف تحدث في "نهاية" الزمن، بالبعث والحساب الأخير. وعلى ذلك تطابقت أفكار البعث مع الفكرة "المادية" أو الوصف الجسمي النفسي للفرد والشعور بانتماء الفرد إلى المجتمع، والشعور بأهمية المستقبل في التماثل في الأهمية مع الماضي.

وقد تلقّت عقائد البعث بعدا جديدا في المسيحية المبكرة بالإيمان ببعث المسيح. وكان هذا جزءا محوريا في الوعظ الكنسي الباكر. كانت الأفكار السائدة على وجه العموم جماعية، ولكن ها هنا الآن بعث إنسان معين، وليس في المستقبل المستَكمل. وعبّر هذا الإيمان عند المسيحين الأوائل عن أن أمور المستقبل كانت من قبل موجودة في الحاضر. واعتبُر المسيح "بواكير الفاكهة"، أي توقع الخلاص الذي يتاح لأولئك القادرين على المشاركة في بعثه. هذه المشاركة في المملكة، في الخلاص المتوقع قرّبت جدا من أفكار الحياة الأبدية هنا والآن؛ من خلال المشاركة مع الرحمة والسرّ عند الإله الحي ، وعمل إله في إظهار الهدف من التاريخ، الذي يبلغ غايته في البعث والحساب.

نظر كثيرون في الكنيسة المبكرة إلى البعث على أنه في المستقبل القريب بصفة أساسية على كل حال. ولكن ما الذي يمكن قوله إذا لم يتحقق مثل هذا المستقبل

القريب ؟ ماذا عن أولئك الذين يقعون فى النوم فى المرحلة المتوسطة ؟ إن الإيمان بالمسيح قد وعد بالخلاص، وكان هناك شعور بأن مثل هذا الخلاص يبلغ غايته فى الحياة الآخرة على نحو ما. والمشكلة فى الحالة الوسطى للمؤمنين بين الموت والبعث تم النظر إليها من جانب العقائد الشائعة فى العالم الرومانى والهيلّينستي، حيث نجحت العقيدة الجديدة فى التغلغل فيه إلى حد كبير. وأصبح من الطبيعى تبنى الإيمان بروح خالد، وأصبح شائعا فى الفلسفة الإغريقية (والرومانية كذلك).

خلود الروح :

كان هناك سبب آخر لزيادة التأكيد على الإيمان بالخلود بين المسيحيين، إلى جانب الحقيقة فى الامتصاص الثقافى. كان الإيمان نفسه يحتوى بقوة فكرة المجتمع؛ لكن هذا المجتمع - إسرائيل الجديدة - لم يتكون بصورة تقليدية، وبصورة طبيعية كما كان. ولم يكن فى الإمكان أن يتميز بتقاليد قومية مثل إسرائيل القديمة. كان يتكون من أولئك الذين اعترفوا بألوهية المسيح بوصفهم أفرادا. ولذلك تفتحت الكنيسة للمزيد من المفاهيم الفردية عن الخلاص، وكان التعبير عن هذه المفاهيم أيسر من خلال عقيدة الروح الذى يستقر فى الفرد أكثر من الإيمان بالبعث الجماعى. ولا ينبغى للإنسان أن يرى المسيحية الباكرة فى صور تبالغ فى التبسيط بالطبع، فقد كان هناك توازن مقابل من ناحية موضوع الإيمان الذى يتعلق بمشاركة الحياة مع المسيح، وكذلك مع المسيح الذى رفعه الله. ورأى أعضاء الكنيسة أنفسهم مترابطين بصورة عضوية فيما بينهم من خلال شخصية المسيح.

ولا يزال يُرى فى القرون الأولى من الكنيسة تطور فى عقيدة خلود الروح وعلى ذلك نصل إلى المرحلة الثالثة من العقائد اليهودية المسيحية عن الحياة الآخرة (ظهرت فى اليهودية كذلك عقيدة خلود الروح). تعلقت المرحلة الأولى بفكرة غامضة عن بقاء

الناس بعد الموت فى الهاوية (شيول). وتتمثل المرحلة الثانية بزيادة تأثير الإيمان بالآخرة فى البعث والحساب. وتجلب المرحلة الثالثة تزاوجا بين الخلود وأفكار البعث.

هذا التزاوج لم يكن واضح الاستقرار، وظل هناك توتر بين الطرفين. وتم التصالح جزئيا فى المسيحية التالية من خلال عقائد أمثال الحساب العام والخاص، ويكون الحساب العام عند نهاية التاريخ عند استكمال خطة الله.

وفى هذه الخطة، يحاسب الله الجنس البشرى كله، متتابعين عند بعث الموتى. أما الحساب الخاص فى الجانب المقابل فهو يتعلق بالفرد، واعتبرت الكنيسة الكاثوليكية أنه يقع بصورة تقليدية عند وقت الموت. وهو يكشف للروح علاقته بالله، كما أن مفهوم مثل هذا الحساب قرين طبيعى لعقيدة خلود الروح.

الجنة والنار والتطهير :

إذا انتهت الكنيسة إلى تبنى عقيدة الإيمان بخلود الروح، فقد أكدت على الرغم من ذلك أن الروح من خلق الله؛ وأن الخلود يظل بصفة أساسية منحة من الله، ولا ينشأ من الطبيعة الداخلية للإنسان. وكانت العقيدة وثيقة الصلة بالحساب الإلهى إضافة إلى ذلك كما رأينا من قبل. إن مسألة صفة الخلود أهم من الخلود. إن الحياة الآخرة فى العهد الجديد، وهى التى ترمز إلى عواقب الإيمان والكفران، تنقسم من قبل إلى الجنة (وهى التى تقترن بالسماء) وجهنم، وهى مكان العقاب والتدمير. وهناك تلميحات إلى حالة وسطى ممكنة ؛ وانتهى البحث فى هذه الأمور إلى عقيدة التطهير فى الكاثوليكية. وهناك على كل حال فى العهد الجديد قليل من الغيبيات عن الحياة الآخرة – إن وجد – ويوصف المستقبل بصورة رمزية، وأسلوب ضرب الأمثال. وإنما تم تحت ضغط بطيء من التركيب الثقافى وتطور نظام السلوك والتعليم فى الكنيسة أن تطورت الصورة الكلاسيكية عن الجنة والنار والتطهير . وكان من البنود الرئيسة عند أصحاب

التطوير على كل حال إنكار هذه الحالة الأخيرة، حيث إنها كانت ترتبط عمليا بنحلة القديسين ومنح الغفران، وكانت من الناحية النظرية فى اتجاه مناقض لعقيدة التبرير بناء على الإيمان وحده.

إن الفاصل الأساسى فى أحد الجوانب هو بين الجنة والتطهير من ناحية والنار من ناحية أخرى. إذ أنه تبعا للعقيدة الكاثوليكية، يتم إنقاذ أولئك الذين يدخلون التطهير ، لكنهم يحتاجون إلى التكفير عن خطاياهم البسيطة، وعواقب خطاياهم القاتلة التى تم غفرانها. إن الإيمان بالتطهير يمثل مع ذلك تخفيفا من عقيدة اللعنة الأبدية ؛ حيث إن الإنسان فى هذه الحياة الذى لم يُظهر كثيرا من القداسة أو الخير قد يُعتبر أهلا للخلاص إذا تاب. وقد قدمت فكرة التطهير تفسيرا جزئيا أيضا لحالة كثير من الأرواح بين الحساب الشخصى والبعث الأخير. وسوف تجد الأرواح فى حالاتها الأخيرة من الابتهاج والخلاص أن خطاياها ونقائصها قد زالت بعيدا عنها، ويصبح عندئذ فى الإمكان أن تتحد مع الوجود الجسدى من خلال الأجساد التى يبعثها الله.

لعبت هذه الفكرة الأخيرة دورا كذلك فى صورة العصور الوسطى عن السماء. وقد اعتبر القديس توما الإكوينى – وهو يتابع أرسطو – أن الروح صورة الجسم، وأن الفصل بين الروح والجسم غير طبيعى. ويستدعى الأمر للوجود الكامل بعد الموت على ذلك أن الروح ينبغى أن يتحد مع جسد. إن أولئك القديسين الذين يذهبون إلى السماء عند الموت بناء على ذلك ما زالوا ينتظرون استكمال البركة الكاملة عند نهاية التاريخ مع البعث العام، وهو مفهوم هنا على أنه يتعلق بخلق الأجسام المتجددة فى الحياة التالية.

كان المظنون بالنعمة السماوية فى التفكير المركزى فى التقاليد الكاثوليكية أنها تتركز على رؤية الله التى تبعث على الابتهاج. وليس هذا الإدراك المباشر لله ممكنا فى هذه الدنيا (وإن زعم الإكوينى أنه مُنح بصفة استثنائية لموسى والقديس بطرس)، وكل

تلك العطايا هى تذوق مُقدّما للرؤية الباعثة على الابتهاج (للصوفية المتأملين مثلا). أما الأرواح المباركة فهى فى السماء تنعم بالنعمة السابغة والتجربة المجيدة إلى الأبد.

أما موقف أولئك الذين فى الجحيم فهو على النقيض الواضح. إن الأرواح الملعونة مُستبعدة من الحضور الإلهى، وهى لذلك محرومة من السعادة، وتعانى من العذابات. وتم تصويرها تصويرا حيويا - ولا نقول ماديًا - فى الخيال الشعبى. ومن المشاكل عند اللاهوتيين الذين تفكّروا فى المشكلة أن هناك صعوبات أمام التفسير النفسى للجحيم. وقد جادل البعض بأن الجحيم تتعلق بالندم والتعاسة التى يشعر بها الروح عندما يدرك اغترابه عن الله. لكن الإنسان اللّعين - حسب النظرية - هو الذى لا يتوب، ولا يريد أن يرجع إلى الله. كيف يأسى إذن على الاغتراب ؟ هذا سبب للصورة التقليدية عن وكالة خارجية (ترمز إليها النار)، وهى تعذب الأرواح فى جهنم.

وقد هاجم زعماء التطوير من البروتستانت عقيدة التطهير، كما رأينا. لكن الإيمان باللعنة الأبدية ظل مهمًا عندهم، مهما كانت إرادة الله غامضة فى اختيار أولئك النّاجين. ولكن كان هناك تجديد سابق للاهتمام بالآراء التى قدمها بعض الأقطاب فى القرون الأولى للكنيسة. فقد آمن أوريجن Origen بأن الجحيم كانت أقرب إلى طبيعة التطهير، وأن الحياة التالية ستحقق الخلاص لكل واحد فى النهاية.

ثم أصبحت أعمال أوريجن متاحة فى القرن السادس عشر مرة أخرى. وقد قام عدد من حركات البروتستانت التى تزداد فى الراديكالية بتعديل عظيم فى التعليم التقليدى عن الجحيم، مثل حركات المعمدانيين Anabaptists والمورافيين(*). عاملت الطائفة الأولى الجحيم مثلا على أنها تطهير، وعلى ذلك سوف يحقق الجميع الخلاص فى النهاية (وإن كان من المعترف به أن يعانى أغلب الناس عذابا كبيرا). وقد دافع السّوسينيّون Socinians(**) عن القضاء على الأشرار كما تفعل بعض الطوائف

(*) طائفة من البروتستانت هاجرت من مورافيا فى جمهورية التشيك. المترجم

(**) طائفة من المسيحيين فى القرن السادس عشر والسابع عشر لا تؤمن بألوهية المسيح والتثليث. المترجم

الحديثة ؛ أى إن الأشرار يموتون ببساطة عند الوفاة، وإنما يرتفع الذين حازوا الخلاص فقط إلى آفاق الابتهاج.

نفى الأسطورة عن الموت :

حدث فى البروتستانية هبوط فى تصور العقاب وجهنم. واستطاع واحد من أهم الشخصيات فى تاريخ الفكر البروتستانتى هو فردريك شلايرماخر Fredrich Schleiermacher أن يدافع عن العالمية Universalism؛ أى الخلاص العالمى لكل إنسان. وقد أدت أسباب مختلفة إلى نقص الاهتمام بالحياة الآخرة. كان أحد الأسباب أن التيار البروتستانتى الرئيس يميل إلى الوعظ بالأخلاق فى هذه الدنيا، وصورة جديدة بالتقوى فى هذه الدنيا. وكان عامل آخر يتصل بعمل الباحثين فى الإنجيل، وإعادة اكتشاف الجوانب الرمزية الأسطورية وضرب الأمثال فى لغة العهد الجديد، وهى التى لا تُسلم نفسها بسهولة كبيرة للتقسيمات المفهومة ضمنا فى العقائد التقليدية عن الحياة الآخرة. وكان عامل آخر هو التغير فى نظريات العقاب الدنيوية. إن اللعنة الأبدية لا يسهل أن تتفق بسهولة كبيرة مع نظرية إصلاحية فى العقاب، ولكنها أحرى أن تتفق مع نظرية عقابية. وكان سبب آخر هو الإلغاء الواقعى فى البروتستانتية للممارسات التى أضفت الحيوية على اللاهوت الكاثوليكى التقليدى للموت؛ مثل صلوات التوسل للقديسين وللعذراء مريم المباركة فوق كل شىء، والغفران والقُدّاس للراحلين... إلى آخره (ويحتفظ المذهب الأنجليكانى Anglicanism بالطبع بموقف وسط فى هذه الأمور).

إن التأكيد على هذه "التقوى الدنيوية" يشجع بالطبع تأكيدا متجددا على الحياة الأبدية حتى تتم تجربتها والاستمتاع بها هنا والآن. وهى - فى المقابل - تميل إلى نفى الأسطورة عن الموت. كانت الكنيسة ترى الموت الجسدى نتيجة لخطيئة السقوط: وقد عبّر هذا عن العلاقة بين الموت باعتباره نهاية لحياة الإنسان واغتراب الإنسان عن

الله. ولكن لمّا كـان الناس قد جـذبوا الموت من خـلال تضـامنهم مع آدم الأول، فكذلك يستطيعون كسب الحياة والتغلب على الموت من خلال تضامنهم مع آدم الثانى؛ وهو المسيح الذى رفعه الله إليه. هذا التمثيل الأسطورى للتفاعل بين الموت والحياة الأبدية ينبغى أن يعاد تفسيره حالما يخفت الإيمان بآدم الحقيقى البدائى (كما حدث بصفة حرفية من خلال الاكتشاف الحديث للماضى التطورى وفيما قبل التاريخ). هذا أحد الأسباب للاهتمام بالتفسير الوجودى للحياة الأبدية وهزيمة الموت، وهو اهتمام ناقشته فى موضع آخر من هذا الكتاب.

الفصـــل الرابــــع

مواقف متغيرة تجاه الموت في العالم الغربي الحديث

أرنولد توينبى Arnold Toynbee

ظلت المواقف تجاه الموت فى العالم الغربى الحديث تتغير على الدوام على مدى الأعوام الثلثمائة الأخيرة. كانت هذه التغيرات من عواقب التراجع المعاصر المستمر فى الإيمان بمبادئ المسيحية. إن الإيمان القلبى الكامل الحقيقى بالعقيدة المسيحية شىء أكثر من رصيد فكرى من عدد من القضايا اللاهوتية. إنه عمل للإيمان يُلزم المؤمن حتى يعمل على المستوى الأخلاقى والروحى والفكرى كذلك. وهو يُلزمه بموقف مسيحى تجاه الموت إلى جانب أمور أخرى.

النظرة المسيحية:

المسيحية ديانة من الديانات التى تشمل الإيمان بالخلود الشخصى للأرواح الإنسانية إلى جانب مبادئ أخرى. هذا الإيمان مشترك بين المسيحية واليهودية الحديثة (الفريسية)، وهى الديانة غير المسيحية الوحيدة التى كانت محتملة فى البلاد المسيحية الغربية حتى نهاية القرن السابع عشر تقريبا (على حساب العقاب العنيف). إن الإيمان بالخلود الشخصى واحد من مبادئ الإسلام ، وهو دين شقيق للمسيحية. وكان الإسلام هو الدين الوحيد غير المسيحية فضلا عن اليهودية، الذى ظل الناس فى المسيحية الغربية على اتصال به حتى عام ١٤٩٨، عندما اتصل البرتغاليون بالهندوسية حين

هبطوا أرض الهند. كان الإيمان بالخلود الشخصى حتى ذلك التاريخ هو الإيمان الموجود الوحيد بعاقبة الموت للإنسان فى نطاق التجربة المسيحية الغربية.

من الحق أن المسيحيين الغربيين ظلوا دائما على اتصال بما تبقى من الأدب اللاتينى قبل المسيحية ، وفيه تسجيل لعقائد أخرى لا تتوافق مع العقيدة المسيحية، وهى موضع إطراء فى بعض الحالات. وهناك مثلا فى شعر لوكريتيوس Lucretius بعنوان Rerun Natura De دعوة قوية عاطفية إلى اعتبار فناء الشخصية عند الموت تحريرا وانطلاقا مُعزِّيًا من قلق عنيف لا أساس له. وكان تعرف العالم الغربى فى عصر النهضة على الأدب اللاتينى قبل المسيحية قد لقى دعما فى الغرب من التعرف على الأدب الإغريقى قبل المسيحية ، وتمت دراسة هذين الأدبين الكلاسيكيين كليهما بحماسة منذ ذلك الحين فصاعدا. لكن المسيحيين الغربيين فى أوائل العصر الحديث تمكنوا على كل حال من احترام الآداب الكلاسيكية الإغريقية واللاتينية والإعجاب بها دون السماح لها بزعزعة إيمانهم المسيحى بالمسائل التى تتعارض فيها مواقف الإغريق والرومان تجاه الحياة والموت مع الموقف المسيحى. واستطاع المسيحيون الغربيون أيضا منذ نهاية القرن الخامس عشر فصاعدا أن يتعرفوا على عدد من الأديان الحية غير اليهودية والفلسفات إلى جانب الهندوسية ، مثل البوذية والكنفوشيوسية ، دون السماح بزعزعة إيمانهم المسيحى نتيجة لهذه التجربة على السواء.

كذلك لم يؤد الانشقاق فى المسيحية الغربية تجاه الإصلاح الدينى إلى زعزعة العقيدة المسيحية الأرثوذكسية فيما وراء الموت ، حيث إن هذا لم يكن واحدا من المسائل التى تراجع عنها البروتستانت عن الكنيسة الرومانية. وأدت العقيدة الكالفينية البروتستانتية الخاصة بالحكم المقرر predestination إلى زيادة الآمال والمخاوف فى مصير الروح بعد الموت ، وكان من طبيعة الخلود فى العقيدة الزرداشتية واليهودية والمسيحية والإسلامية. لكن هذه العقيدة نفسها – والعقائد المرافقة فى البديلين المتقابلين بعد الموت من النعيم فى الجنة أو العذاب فى النار – ظلت يتمسك بها جميع

المسيحيين الغربيين ، وكذلك جميع المسيحيين من غير الغربيين ، وجميع اليهود وجميع المسلمين. ولقد ظل الغربيون بصفة عامة مسيحيين أرثوذكسيين عند بداية القرن السابع عشر في العقيدة المسيحية الأساسية كما تتجلى في المبادئ المسيحية. وإذا كان هناك أي ملحدين في ذلك التاريخ فقد كانوا لا يزالون نادرين. ولم يكن الاعتراف الصريح بالإلحاد مسموعا به تقريبا، حيث كانت عقوبته ما زالت هي الإعدام تحت النظام الكاثوليكي والبروتستانتي على السواء ، وفي صورة مؤلمة بصفة خاصة بالإحراق فوق الحطب. ثم أصبح الإلحاد قبل نهاية القرن السابع عشر ليس شائعا فحسب بين قلة صغيرة من المثقفين من الغربيين المسيحيين السابقين، والكاثوليك السابقين وكذلك البروتستانت السابقين ، بل أصبح هذا الإلحاد عندئذ معترفا به بصورة ضمنية أيضا، أو يُلمح إليه بتحفظ دون عقاب على أية حال.

إن تغير القرن السابع عشر في هذا الاتجاه تجاه الدين المسيحي واحد من أعظم الثورات التي حدثت حتى الآن في التاريخ الغربي ، وهي ثورة تزايدت منذ العقود الأخيرة من القرن السابع حتى اليوم الحاضر. وقد انتشرت على نطاق أوسع فأوسع ، كما تزايد الاعتراف بها في الوقت نفسه.

إن التغير المفاجئ في القرن السابع عشر، من عقيدة ظلت مقبولة دون تساؤل في الغرب خلال ثلاثة عشر قرنا سابقا، قد أثاره في المحل الأول فضيحة الحروب الدينية الغربية في القرنين السادس عشر والسابع عشر. وكانت هذه الحروب معارض تؤدي إلى الصدمة من ناحية الحقد والشر والعصبية والنفاق أيضا. وكان اللاهوتيون المختلفون في كلا الجانبين متعصبين وإن كانوا مخلصين، وكان السياسيون منافقين في استغلال العصبية الدينية المخلصة من أجل زيادة مصالح دولهم المعنية، وكان المتحاربون ، أيا كانت بواعثهم وأهدافهم ، مذنبين في ارتكاب الفظائع المروعة. هذا المشهد كان باعثا على الألم المبرح للأرواح الحساسة، وكان هناك على مسار القرن السابع عشر حركة مقصودة أظهرها تاريخ إنشاء الجمعية الملكية في إنجلترا من أجل

الإعراض عن الخلافات اللاهوتية الحادة غير المحسومة والاتجاه إلى الأبحاث العلمية حيث يمكن تأسيس الحق دون خلاف بالملاحظة والتجربة، وحيث يمكن تحويل المكتشفات التى لا شك فيها إلى تطبيق عملى فى تحسين التكنية ، من أجل ترقية الأحوال المادية للحياة الإنسانية.

تقدم الاتجاه العلمى:

هذا التحول فى الاهتمام الفكرى والطاقة الحيوية من اللاهوت إلى العلم كانت له عواقب لم يتنبأ بها الأوائل الذين بدءوها منذ ثلاثمائة عام. إن اللاهوت المسيحى يتصور فى ثقة أن الكون الذى يدركه الإنسان قد خُلق كما يجده الإنسان بواسطة الإله القادر على كل شىء ، وهو شخص على المعنى الذى يكون عليه الإنسان. وهو يفترض أن الكون تحت تصرف خالقه، وأنه محكوم بنظام تصوره الخالق نفسه وقام بتنفيذه. إن مكان الإنسان فى هذا النظام فى الحياة فى هذه الدنيا أولا ثم فى الحياة بعد الموت مكان مركزى مؤكد ، سواء للنعيم أو العذاب. ومنذ بدأ الإنسان الغربى يولى العلم أعلى مكان فى سلم اهتماماته الفكرية، فقد أدى تقدم المعرفة العلمية فى الغرب إلى تخفيض مكانة الإنسان إلى تفاهة ظاهرة فى كلا البعدين المكانى والزمانى.

أظهر تقدم علم الفلك فى البعد المكانى أن كوكب الأرض- وهى بعيدة جدا من كونها مركز الكون النجمي- هى تابعة للشمس، التى هى مجرد واحدة من عدد هائل من الشموس التى تكون مجرة واحدة من جملة مجرات لا يُعرف عددها، ولعلها خارج نطاق المعرفة ، لأن من المتصور أنها لا نهائية. وقد توصل علماء الفلك من قبل فى عصر باسكال Pascal (1623-1662) إلى تقدير للبعد الطبيعى للكون المادى أدى إلى تثبيط أحد الغربيين الذين كانت مكانتهم الفكرية والروحية كذلك رائعة. وسجل باسكال أنه كان خائفا من "طبقات السكون" ، والأسرار الخافية غير الإنسانية للأماكن الهائلة فى كون النجوم. هذه الأماكن حسب تقديرها فى القرن السابع عشر كانت هائلة حقا

حسب مستوى الصورة الهندسية التقليدية للكون الطبيعى كما يصوره دانتى مثلا فى الكوميديا الإلهية. ومع ذلك فقد كانت تافهة فى الحقيقة عند مقارنتها بمستوى الكون الطبيعى حسب تقديره بواسطة علماء الفلك فى عصرنا.

إن التقدير التقليدى للبعد الزمنى أو بالأحرى الحساب الاعتسافى لعمر الأرض والكون الطبيعى كله تعرض لثورة مع ظهور علم الجيولوجيا الحديث عند بداية القرنين الثامن عشر والتاسع عشر. وكانت الأحداث تؤرخ منذ القرن السادس بالسنوات قبل وبعد الميلاد المفروض للمسيح فى المسيحية الغربية. وكانت الأحداث فى المسيحية الشرقية والمجتمع اليهودى ما زالت تؤرخ بالسنوات العالمية (أى عدد السنوات التى يُعتقد أنها انقضت منذ خلق الله العالم). وكانت البداية لتاريخ العالم عند المسيحيين الشرقيين الأرثوذكس هى عام ٥٥٠٩ قبل الميلاد، وبدء التاريخ عند اليهود هو عام ٣٧٦١ قبل الميلاد – وكان الأسقف ج. أوشر **J. Ussher** باحثا عظيم الاجتهاد وعالما وأستاذا ساذجا ، ونشر كتابا فى عام ١٦٥٠ ميلادية وقد حسب فيه أن العالم تم خلقه فى السادسة من المساء قبل ٢٣ أكتوبر من عام ٤٠٠٤ قبل الميلاد (حسب الأسلوب القديم). وقد أظهر الدليل الجيولوجى أن الحياة ظهرت على هذا الكوكب منذ ألفى مليون سنة فى الماضى. كما حسب علماء الفلك فى بحث البعد الزمنى أن كوكب الأرض نفسه ربما وُجد منذ ضعف ذلك الزمن على الأقل ، وهم يتنبئون أنه سيظل قابلا للسكنى طوال ألفى مليون سنة أخرى (إلا إذا اختار سكانها من البشر بالطبع فى الجيل الحاضر أن يغامروا بجعل الكوكب غير صالح للسكنى بشن حرب ذرية عالمية). وعلى ذلك يظهر أن مدى حياة الفرد البشرى قصير بصورة لا حد لها فى البعد الزمنى، كما أن حجم الجسم فى البعد المكانى ضئيل بصورة لا حد لها. وأدى هذا إلى صدمة لليهود والمسيحيين. أما بالنسبة للهنود، فليس باعثا على الدهشة طبعا فى الجانب المقابل. وإنما هو تحقيق عسير متأخر قام به العلماء الغربيون لضخامة الزمن على نطاق العصور المتطاولة ، والتى سبق أن فهمها الفلاسفة الهنود حدسا منذ ألفين وخمسمائة عام تقريبا.

أن النتائج التى توحى بها الاكتشافات العلمية الغربية الحديثة عندنا تبعث على التناقض. فالاكتشافات – فى ذاتها– نواتج ودلائل مدهشة على عبقرية الإنسان الفكرية ، ولكن هذه الأعمال الفكرية المجيدة بعينها قد كشفت له فى الوقت نفسه مع ذلك أن الكون الذى يجد نفسه فيه هائل الاتساع فى بعده المكانى وبعده الزمانى بحيث يكون دور ضيوفه البشر– باعتبارهم ظواهر طبيعية – تافها للغاية. إن إدراك هذه الحقائق العلمية التى ثبتت حديثا يستحيل أن يتوافق مع الإيمان التقليدى، الزرادشتى واليهودى والمسيحى والإسلامى بالبعث البدنى للأجساد البشرية ، ويصعب أن يتوافق مع الإيمان التقليدى للمجموعة نفسها من الأديان بالله الذى يُتصور على أنه شخص بالمعنى الإنسانى للكلمة(*). ومن الأشق أيضا إيمان بأن الكون المادى – كما نعرفه – قد خلقه إله من هذا النوع. وأصعب الأمور جميعا إيمان بأن هذا الإله – أو شخصا واحدا ذا ثالوث إلهى قد تخير أن يصبح متجسدا فى صورة إنسانية على هذا الكوكب بعينه ، نظرا لاهتمامه بخلاص سكان هذا الكوكب من البشر. وقد هدأ أينشتاين من نفسه ذات مرة عندما تأمل لحظة عندما شعر بالاكتئاب لمشهد الحماقة والشر فى الجنس البشرى فقال : "هذا نجم صغير بعد كل شيء".

الحق أن جميع البيض من خلق الله أو بيض الطبيعة ليس فى هذه السلة الصغيرة الوحيدة . ويخبرنا علماء الفلك – عند اعتبار مدى الكون النجمى – أن هناك احتمالا فى وجود كواكب أخرى قابلة للسكنى ولا عداد لها، وهى حسب كل ما نعرفه ، مسكونة فى الواقع بكائنات شبيهة بالبشرية، حتى وإن كان أقرب هذه الكواكب الأخرى القابلة للسكنى إلى كوكبنا على بعد ملايين السنين الضوئية فى مجرة أخرى لا تكاد تظهر لنا ، حتى بمساعدة أمهر أدواتنا وتكنياتنا الفلكية. وإذا آمنا بأن المسيح قد حرّكه الحب والرحمة حتى يصلب من أجل الإنسان على هذا الكوكب ، ألا يحق لنا

(*) غاية التنزيه لله سبحانه وتعالى فى الإسلام : "ليس كمثله شيء وهو السميع البصير" فى صورة الشورى: ١١، وفى سورة الإخلاص : "قل هو الله أحد، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد". المترجم

أن نؤمن أيضا أنه تعرض للتعذيب الاختيارى نفسه من أجل السبب بعينه على كواكب أخرى لا عداد لها؟ وقد يبدو هذا للمسيحيين كأنه نتيجة حتمية للإيمان بتعدد العوالم. إن السلطات الرومانية الكاثوليكية المتطرفة التى حكمت بالموت على چيوردانو برونو Giordano Bruno فى عام ١٦٠٠ لأنه اعترف بهذا الإيمان كانت تدرك عواقبه بالنسبة للصورة المسيحية التقليدية عن الكون. لكن عملها كان بالطبع واحدا من تلك الأخطاء الفاضحة التى كانت أسوأ من الجرائم ، وكان يمكن أن تتحقق بنفسها من ذلك، لو أنها تفكرت أن السابقين عليها من غير المسيحيين قد نفعوا المسيحية عندما سمحوا لأنفسهم بالوقوع فى شرك الشهداء المسيحيين. فقد لعبت شهادة الفيلسوف الديمقراطى الجديد برونو دورها فى الإسراع بعلم الفلك الحديث على طريقه نحو النصر. ونشر فونتينل Fontenelle فى عام ١٦٨٦ كتابا دون عقاب بعنوان "مناقشات حول العوالم المتعددة Conversations on the plurality of worlds".

إن الكون الطبيعى من نوع يستبعد الاحتمال فى وجود الإله الشخصى الذى يكون خالقه ، ولا بد أنه يستبعد أيضا – فيما يبدو – احتمال الخلود الشخصى بعد الموت للبشر من سكان كوكب واحد من أى عدد من نتف التراب المبعثرة بعيدا عن بعضها بعضا فى أماكن لعلها بغير نهاية، وهى التى راعى صمتها المريب باسكال. ما هو إذن تأثير التقدم المتسارع للعلم ، والتراجع للمسيحية فى عالمنا الغربى على مدى القرون الثلاثة الأخيرة على موقف الإنسان الغربى الحديث تجاه الموت؟

انتشار الإلحاد :

من العسير تقدير التأثير، لأن موقف الإنسان ذو ثلاثة جوانب – فإن ما يعترف به فى العلانية عن إيمانه قد يختلف عما يعترف به لنفسه، وهذا قد يختلف مرة أخرى عن إيمانه أو عدم إيمانه الحقيقى ، إذا كان له أن يخرج إلى النور إذا أظهره بتحليل نفسه ،

أو السماح لنفسه بتحليل أحد المختصين المهنيين لها . وهناك فترة من تراخي الوقت في العادة بين وصول الإنسان إلى حالة حقيقية من الإيمان أو عدم الإيمان واعترافه بهذا لنفسه ، ثم فترة أخرى من تراخي الوقت بين اعترافه لنفسه والاعتراف فى العلانية (إذا كان له أبدا أن يفعل). وإذا توقف فى الحق عن الإيمان بمبادئ ديانته السالفة ، فقد يتعرض للقلق النفسي إذا أصبح واعيا بفقدان إيمانه وعند شعوره بذلك ، حتى لو لم يعلن عن اكتشافه الباعث على القلق. وإذا كان هناك فى الوقت نفسه إنسان آخر له التجربة الداخلية نفسها وعنده الشجاعة أو الصفاقة أو الخشونة لإعلان فقدان إيمانه على رءوس الأشهاد فإن زميله المرتد المخادع قد يرجع إليه ويمزقه بكل وحشية زائدة ، لأنه يدرك أو يدرك جزئيا على كل حال أن هذا الاعتراف الصريح بالإلحاد من أحد معاصريه يهدد بتمزيق القناع عن وجهه الخاص، وهو الذى يُخفي نفاقا خسيساً.

كانت هذه تجربة جيبون Gibbon فى عام ١٧٧٦، وهو العام الذى نشر فيه الجزء الأول من " تاريخ هبوط وسقوط الإمبراطورية الرومانية " The History of The decline and fall of the Roman Empire .

وقد دهش جيبون من كلا الترحيب الذى تلقى به الجمهور جزء الكتاب بصفة عامة والنار التى فتحها عليه الفصلان الأخيران من هذا الجزء. ويتناول هذان الفصلان تقدم المسيحية ومعها تحول الإمبراطورية فى النهاية، ويقترحان عددا من الأسباب غير الغيبية يمكن أن تفسر الإنجازات الرائعة للكنيسة المسيحية ولو إلى حد كبير على الأقل - وعندما بحث جيبون هذا الحدث التاريخي من انتصار المسيحية فى هذه الأمور المسلم بها فى الواقع ، فقد كان يراها بعين المثقف الغربى فى جيله ، ويحتمل أن بعض ناقديه على الأقل لم يختلفوا إلى حد كبير عنه فى أعماق قلوبهم. والإهانة التى تعرض بسببها جيبون للهجوم العنيف والضارى من بعض النقاد كانت أنه قال فى العلانية ما فكر فيه كثيرون من معاصريه فى الحياة الخاصة.

إن الاعتراف بديانة سابقة فى العلانية يحدث بصعوبة، وهو أشق إذا كان الانتماء إلى الكنيسة وحين يكون ذا مكاسب اقتصادية أو اجتماعية سواء كان الانتماء مخلصا أو لا.

كان هناك مثلا فى فرنسا قطاع من الطبقة الوسطى عند نهاية القرن التاسع عشر وكان معارضا للكنيسة أو لا أدريا ، أو ملحدا منذ ما لا يقل عن زمن الثورة الفرنسية ، ثم عاد للاعتراف بالكنيسةِ الرومانية الكاثوليكيةِ الأرثوذكسُ فى مزاج ساخر إلى حد ما ، لأنهم أصبحوا يظنون أن الكنيسة الرومانية الكاثوليكية. بما فيها من محافظة متأصلة أصبحت الآن دفاعا عن الملكية الخاصة فى عصر تقدم الاشتراكية. وكان كثيرون من هؤلاء المرتدين من جديد فى الجيل الأول يحفظون ألسنتهم فى أفواههم ، كما كانت الملكية عندهم تستحق قداسا، وكذلك كانت باريس عند هنرى الرابع.

الدين باعتباره عرفا اجتماعيا:

هناك قطاع من الطبقة الوسطى فى العصر الحاضر يتمتع بعضويته فى الكنيسة فى الولايات المتحدة ، أيا كانت الكنيسة التى تنتمى إليها عائلة معينة، ولسبب لا يكون دينيا، كالسبب عند الفرنسيين المرتدين من جديد ، وإن كان السبب اجتماعيا لا اقتصاديا فى الحالة الأمريكية. إن الطبقة الوسطى الأمريكية تشعر بالحماس للاحتفاظ برفاهيتها مثل حماس الطبقة الوسطى الفرنسية بالطبع. ولعلها أشد حماسا حيث إن لديها المزيد مما تفقده، كما أن جهدها فى الميدان السياسى للدفاع عن مصالحها المادية يماثل عنف الجهاد للطبقة المقابلة فى فرنسا. إن حافز الطبقة الوسطى الأمريكية فى الميدان الدينى على التمسك بالكنيسة على كل حال ودعمها ماليا بالكرم الأمريكى المتميز هو أن سكان الولايات المتحدة أصبحوا فى حركة متزايدة ، وأحسوا لذلك بازدياد الحاجة إلى غرس جذور مؤقتة من نوع ما على الأقل فى البيئة

الباردة غير الشخصية فى بعض المدن الهائلة ، وقد اضطرت العائلة الأمريكية إلى اتخاذها مقرا لها نظرا لضرورات العمل فى المدينة الذى تكسب منه رزقها ، حيث تحولت الولايات المتحدة من مجتمع زراعى إلى حد كبير إلى مجتمع تغلب عليه المدينة . ويمكن أن تكون الكنيسة فى هذه الظروف بمثابة مركز ترحيب اجتماعى يستطيع من خلاله المشردون والتائهون فى المجتمع تحقيق علاقات شخصية مع أعضاء آخرين فى مجتمع قليل على نطاق إنسانى صغير.

إذا تمشيت فى شوارع هيوستن بولاية تكساس ، وهى مدينة غربية تجارية حديثة تكبر فى الحجم بسرعة ، وفيها قطاع ثرى من السكان غير الزنوج وغير المكسيكيين ، فسوف تجد كنائس عديدة لها انتماءات مختلفة كثيرة مبنية من زمن حديث ، أو فى طريقها للبناء فى الوقت الراهن. إنك ستجد ، ولن ترى، فهى الكلمة الصائبة، لأن الكنيسة نفسها أى بيت الله فى حالات كثيرة تتعرض للتهوين والاختناق. بما يحيط بها من مجموعات الأبنية التى تستخدم لأغراض اجتماعية غير دينية. هذه الأبنية المدنية التى تخنق الكنيسة نفسها تعتبر ثانوية من الناحية الاسمية لكنها غالبة فى الواقع. وهى تستخدم فى أغراض بريئة ، وقيمة على الأغلب. هذه الأبنية الأخرى هى مكتبات وأماكن للأندية وقاعات للمحاضرات ومسارح والسمة المشتركة بينهما جميعا هى أن وظائفها الاجتماعية غير دينية.

اركب طائرة الآن من هيوستن فى تكساس إلى مدينة المكسيك (وهى رحلة سريعة) ، وقم بجولة حول القرى فى منطقة بويبلا Puebla على هضبة المكسيك. إن التعارض سيصدمك. أن الكنيسة فى قرية مكسيكية فى هذه المنطقة هى أكبر وأظهر مبنى فى المكان. والأرجح أن تكون بناء جميلا على منوال عصر النهضة أو المنوال الباروكى. وستكون تراثا للقرويين منذ الأجيال الأولى عقب الهزيمة لطائفة دينية أو أخرى من الرومان الكاثوليك. ستجد أن القرويين – وإن كان كثيرون منهم غير مثقفين وحتى أميين – يقدرون كنيستهم لقيمتها الجمالية والدينية معا. إن العبادة المشتركة فى

الكنيسة هى الصورة الرئيسة التى يعبر بها الفلاحون عن شعورهم بالمجتمع. وليسوا فى حاجة إلى أبنية ثانوية لاستكمال الأغراض الاجتماعية الدنيوية فى الكنيسة ، على خلاف جيرانهم فى الولايات المتحدة ، وهم على خلاف زملائهم المتدينين من أهل الطبقة الوسطى الفرنسية من الروم الكاثوليك لا يهرعون إلى الكنيسة الرومانية دفاعا عن الملكية الخاصة. إن الملكية الخاصة للفلاح المكسيكى هزيلة بالمقاييس الفرنسية ، ولا نتحدث عن الولايات المتحدة. وهو يجد الرضا فى إنفاق الفائض الضئيل الباقى له بعد سداد حاجات عائلته الأولية لعيش الكفاف لرعاية كنيسة قريته ، فى استبدال البلاط التالف على السطح ، أو إعادة طلاء تمثال أحد القديسين ، أو تمثال طفل فى الداخل.

إن المكسيك بالطبع بلد نصف غربى ، على خلاف الولايات المتحدة وفرنسا، وهى ما زالت حسب تعبير النفاق العالمى بلداً ناميا فقط، ولم تستكمل التطور حتى الآن. إن المظهر الخارجي والروح فى مجتمع القرية المكسيكية فى العصر الحاضر بتعبير آخر يمثل الباقين من أولئك الذين كانوا شائعين فى العالم الغربى بصفة عامة قبل الثورة الروحية والفكرية العظيمة التى بدأت فى الغرب فى القرن السابع عشر ، والتى أخذت تزداد اندفاعا هناك منذ ذلك الحين.

الرجل الغربى والخوف من الموت:

إن الناس الذين تشربوا روح المسيحية الغربية قبل القرن السابع عشر يجدون من الأيسر عليهم أكثر من ذرياتهم أن يواجهوا حقيقة الموت بصراحة وقوة.

إن الاحتفال بالزواج مناسبة بهيجة فى أى مجتمع ، أيا كانت ديانته وثقافته. وتوجد هذه الملاحظة البهيجة فى "صورة الزواج الشرعية " فى كتاب الصلوات العامة للكنيسة الأسقفية فى إنجلترا ، وقد تم جمع النسخة الأولى منه فى القرن السادس عشر ، والإعلان الحاسم الذى يعلنه كل من القادمين على الزواج مع ذلك يحتوى على

عبارة : "أن يحب ويعطف حتى يفرق بيننا الموت". إن هذه الكلمات المعلنة لا تتعلق فحسب بحقيقة مؤلمة ، هى أن كلا الزوجين سيموت يوما. إنها معلنة عن حقيقة أخرى أشد إيلاما ، وهى أن واحدا منهما أو الآخر سيعانى ألم الحداد، وهو أدعى كثيرا إلى الأسى من محنة موت المرء نفسه بالنسبة إلى زوجة أو زوج يحب شريكه أو تحب شريكها حقا فى الزواج ، إلا إذا حدث احتمال استثنائى فى موت الزوج والزوجة معا فى حادث مادى أو اغتيال.

إن قليلين من الذين يتحدثون فى غير أنانية ولا تعثر عن الموت بين الغربيين من الجيل الحاضر موجودون بين الرهبان من طوائف الرومان الكاثوليك. وليس الرهبان جامدى الشعور ، بل هم أبعد عن ذلك ، فهم يشعرون بعاطفة عميقة نحو إخوانهم ، وحب ملتزم نحو أمهاتهم (اللواتى لا يملك أبناؤهن - إن كانوا رهبانا - زوجات يشاركن الأمهات فى حب أبنائهن). ويستطيع الرهبان أن يتحدثوا فى سكينة، بل فى ابتهاج عن الموت ، ولا استبعاد لموت أولئك الذين هم أحب إليهم ، لأن لديهم إيمانا لا يتزعزع بالخلود الشخصى. وفى اعتقادهم أن الفراق بالموت مؤقت ، وفى الإمكان احتماله من أجل ذلك. وإذا كان مصيرهم أنفسهم ومصير إخوانهم من البشر بعد الموت معلقا ما دامت الحياة فى هذه الدنيا، فإن مصيرهم سيتقرر تبعا لسلوكهم فى هذه الحياة ، وأن السلوك شيء يقع فى يدى الإنسان نفسه بعون الله. إن الإيمان المسيحى عند الراهب المسيحى راسخ. الإيمان يجعل الموت حدثا تافها عنده نسبيا، كما يكون الأمر عند البوذى الذى يؤمن بالقدرة على تحقيق النرفانا ، أو الهندوسى الذى يؤمن بأن الكائن فى أعمق أعماق الإنسان هو متماثل مع الحقيقة الروحية النهائية الموجودة وراء الكون الموهوم.

منذ الثورة الكبرى فى نظرة الإنسان الغربى فى القرن التاسع عشر، غلب العجز عن مواجهة الموت برباطة جأش ، وهو عقاب على فقدان الإيمان بالخلود الشخصى، أو النرفانا ، أو الإلهام " بأنك أنت ذاك Thou art that" وهو عجز لم يغلب فقط على

كثيرين من الغربيين الذين فقدوا إيمانهم بمبادئ ديانتهم السالفة، وإنما غلب على بعض أولئك الذين استبقوا إيمانهم بغير شك كذلك. وقد كان الدكتور جونسون فى القرن الثامن عشر (١٧٠٩-١٧٨٤) مسيحيا مؤمنا، وكان شهيرا بالرعب من الموت. وتردد رعبه مرة بعد مرة كما سجله بوسويل Boswell. وليس من المبالغة العسيرة أن نقول إن هذا كان من الموضوعات الرئيسة عند جونسون. وقد كنت أنا شاهدا من الطراز الأول على هذا الرعب الجونسونى من الموت عند أحد المسيحين المؤمنين وكنت أنا أكبر أبناء أخيه. فقد ولد الكابتن هنرى توينبى Henry Toynbee (1819-1909) ونشأ فى مزرعة قريبا من بوسطون Boston فى إنجلترا، وأصبح رئيسا فى شركة إيست إنديامان East- Indiaman واشتهر بالدقة العلمية فى ملاحظاته البحرية - ولم يكن مؤمنا بمبادئ المسيحية دون ريب فقط وإنما كان كذلك على قناعة بأنه من المسيحيين القلائل جدا الذين يملكون العقيدة المسيحية بصورة صحيحة بدقة (وكان عمى الكبير من أتباع الكنيسة الإنجليكانية على مستوى بسيط جدا). ويبدو كأنه حدث بنوع من التشرب الروحى أن بعض الباقين من المؤمنين الغربيين بالمسيحية فى عصر الإلحاد الآخذ فى الانتشار فى العالم الغربى قد أصبحوا مصابين بطريقة تدريجية بالعجز عن مواجهة الموت بالجو الثقافى الفكرى العام ، الذى كانوا ينكرونه هم أنفسهم بحمية على قدر وعيهم به.

إن هذا الخوف من الموت الذى أخذ فى الانتشار فى الغرب بعد القرن السابع عشر قد أعلن عن نفسه بطرق مختلفة. كما أن الرجل الغربى النمطى الحديث أو المرأة سمحا الملكة من أخص وأنبل ملكَات الطبيعة الإنسانية بالضمور، أو إذا لم تكن ضمرت فهو يحاول أو هى تحاول عمدا كبتها. هذه هى المَلَكة التى يتم تنميتها بحماس وفعالية فى الهند من أجل التواصل مع نفس الإنسان ومن خلال الإنسان ، والتواصل لا مع الإنسان نفسه وحده ، بل مع الحقيقة الروحية النهائية وراء الكون. هذا الملكة من التأمل الروحى من سمات الطبيعة البشرية التى تجعلنا بشرا. ونحن نتحول إلى ما

دون البشر إذا فقدنا هذه الملكة أو دمرناها. ومع ذلك، فإن الغربى الحديث من أوساط الناس يصبح متحرجا إذا خلا إلى نفسه. إن العلم وتطبيقه بنجاح مثير على التكنية قد حل محل الانتصار المادى على الطبيعة غير البشرية من أجل الانتصار الروحى لنفسه باعتباره الهدف الأسمى للرجل الغربى. ولذلك يميل الرجل الغربى لإنفاق أقصى ما يمكن من وقته ونشاطه فى العمل، فيما عدا ما يحدد به هذا الميل لحماية عمله من الاستغلال بغير حق لمنفعة الناس الآخرين. أما الوقت الذى لا يستهلك فى العمل والطعام والنوم فهو يشغله بصورة من "التسلية" . وإذا لم تتيسر التسلية المرحة تحول إلى جهاز التليفزيون أو الراديو أو الأشرطة. إن أى شىء وكل شىء مقبول عندما يمنع هرب الوحيد إلى الوحيد. إن الإنسان الحديث عند مواجهة الموت بغير إيمان قد قص عامدا أجنحته الروحية.

إن كلمة الموت كادت أن تصبح نفسها غير مذكورة فى الغرب، وبخاصة فى الولايات المتحدة ، وهى من بين جميع الدول المتقدمة أشدها تقدما فى الإيحاء بما دون البشرية فى تلطيف التعبير عن هذه الكلمة البغيضة. إن الموت "غير أمريكى"، لأن حقيقة الموت إذا تم الاعتراف بها كحقيقة حتى فى الولايات المتحدة، فيجب الاعتراف إذن بأن الولايات المتحدة ليست كذلك هى الجنة الأرضية الموعودة (وهذه من الحقائق المسلمة فى طريقة الحياة الأمريكية). إن الأمريكيين المعاصرين والغربيين الآخرين المعاصرين أيضا فى حياتهم يميلون إلى قولهم "ذهب" أو "مضى"بدلا من "مات". وعندما يقف المُعزُّون المحزونون فى جنازة غربية أمام رجل التصوير فإن عليهم أن يرسموا ابتسامة المصور التقليدية على محياهم كأنهم يحضرون حفل زفاف أو سباق، ولا يحضرون جنازة.

إن أسوأ الأمور جميعا أن هناك نفورا فى العالم الغربى اليوم من إخبار الإنسان المحتضر أنه أو أنها ستموت(1). وينفر الأطباء والمرضات والأقارب من الإخبار، ليس

(1) For a fulley discussion of this, see above, John Hinton "The Dying and th Doctor", p.36ff.

عندما ينفر المريض من الاستماع ، بل حين يشك أو تشك فى الحقيقة، ويظل فى حالة ترقب روحية وألم نتيجة لهذا الشك وأنه لا يُمَنح أو تُمنَح الحق الإنسانى فى المعاملة باعتباره إنسانا بالغا أو بتعبير آخر باعتبار حقه فى سماع الحقيقة فى الوقت المناسب حتى يهيئ نفسه روحيا للموت.

إن النظرة المسيحية التقليدية هى أن الإنسان المحتضر ينبغى قدر الإمكان أن يُحذَّر مقدما بأنه سيموت أو بأنها ستموت حتى يتلقى كل المعونة الروحية فى سبيل التهيئة للموت التى يمكن أن تقدمها الكنيسة إليه. والموت بغير تحضير- تبعا لهذه النظرة – هو أسوأ حظ روحى يمكن أن يصيب إنسانا. ويعبر عن هذا الإيمان باللعنة الإيطالية الموجزة " حادث Accidente" ، وهى كلمة "شماعة" ، ويقول عنها لويس كارول "Lewis Carroll" وقعة لا قيام بعدها "Humpty Dumpty" وهى تركز كل الشر الذى لا مزيد عليه فى تسعة من حروف الهجاء. وعندما تقال كلمة "حادث" فهى تعنى : "أدعو عليك بالموت فى حادث مفاجئ عنيف حتى تقع بين يدى الله دون أن يكون لديك وقت للحصول على خدمات القسيس كى يسمع اعترافك ويمنحك الغفران وغاية النعيم. وإذا كنت فى ذلك الحادث مذنبا، وأراهن أنك واحد من المذنبين ، فسوف يحكم عليك بقضاء أقصى زمن فى التطهير، والأفضل من وجهة نظرى أنك قد تجد نفسك مستقرا إلى الأبد فى النار".

إن الشر يمكن أن يصل إلى أبعد من ذلك ، ولكن كلمة الشر اللعينة البالغة "حادث" بالإيطالية تعنى بالتأكيد فى شذوذها إيمانا بالكرامة الإنسانية، وبينما يكون هناك فقدان لهذا الإيمان ضمنا فى التعبير الأمريكى ، "مضى" كبديل مخدر لكلمة "مات". إن شعور الإنسان بكرامته قد يغضب لمعرفته بموته ، وما دام يستبقى هذا الشعور مع ذلك ، فإن الأمر يستدعى منه أن يواجه الموت كالإنسان الذى يكونه، وليس مثل واحد من "الوحوش التى تهلك". كان أحد أعمامى الذى أتشرف بحمل اسمه قد مات فجأة فى سن الثلاثين وقد كتب (كأنه يتبنأ عن نفسه كما ظهر فيما بعد): "يرفع

الإنسان رأسه لحظة واحدة فوق الأمواج، وينظر نظرة طليقة حوله، ويموت" . لكن تلك اللمحة هل كانت عبثا؟" لقد عرف أسلافنا المسيحيون الغربيون أنها لم تكن عبثا. ويجب على ذرياتهم أن يقتنصوا هذه المعرفة مرة أخرى إذا كان للحضارة الغربية أن تعيش.

الفصــل الخامــس

بعض ألوان القصور فى الفكر المسيحى الحديث عن الموت

نينيان سمارت Ninian Smart

كان من الاتجاهات الرئيسة فى اللاهوت المسيحى فى القرن العشرين ميل إلى إعادة تأكيد الصدق فى الإنجيل، ولكن فى نطاق جديد من النقد التاريخى للنصوص. وكان هناك أيضا أسباب مختلفة للشك الكبير فى محاولات قديمة للتزاوج بين المسيحية ومنهج ما وراء الطبيعة. وإذا استطاع الإنسان منذ مائة عام مضى أن يجد مناقشات متكررة عن مشكلة خلود الروح، فمن النادر أن نجد اليوم شيئا ، وهذا يعكس الحقيقة وهى أن العهد الجديد ليس فيه عقيدة منظمة عن البقاء، كما يعكس حقيقة أخرى أيضا وهى أنه ليس من اليسير جدا أن نتمسك بالإيمان بثنائية الجسم والعقل بحيث نجعل الخلود معقولا لأسباب فلسفية وعلمية.

من الموضوعات المتكررة فى كثير من اللاهوت الإنجيلى الحديث أن صور التفكير فى الإنجيل تختلف اختلافا عظيما عن تلك الصور الخاصة بالعالم الإغريقى القديم، ومع ذلك فإن اللاهوت التقليدى ، وبخاصة عقائد الروح، يميل إلى حد كبير إلى آراء فلسفية مستخلصة فى النهاية من الإغريق. وقد حاول كارل بارث Carl Barth وتابعوه بطرق متعددة فى تفسير لاهوت الكلمة أن يستبقوا نقاوة إنجيلية معينة تتكيف مع الموقف النقدى من مادة النصوص، وهو الذى نشأ عن النقد التاريخى. والنتيجة تأكيد مفاهيم الإنجيل، والمرور بخفة على الدعاوى التاريخية والمعجزات فى العهد الجديد.

والبديل كما أُشير إليه فى فصل سابق[1] هو تناول المفاهيم نفسها بصورة جذرية إلى حد ما، وكانت المحاولة هى فهم وظيفتها فى الكنيسة المبكرة ، ثم إحلال الأفكار الحديثة مكانها (وغالبا ما تكون وجودية)، وبهذه الطريقة لا يتعطل الإنجيل بالعناصر الأسطورية التى تتباعد عن الطرق الراهنة فى النظر إلى العالم.

هناك فى الوقت نفسه ميل متزايد فى التفكير المسيحى لتأكيد "المادية"، وهى هذا الجانب الدنيوى من المسيحية. وكان هذا أحد البواعث فى كتاب جون روبنسون John Robinson "أحلف بالله Honest to God"، وهو الخروج من الانفصال بين هذه الدنيا من الهموم الإنسانية وبين الله "الموجود هناك" والأمر أظهر عند اللاهوتيين من أمثال بول فان بورين Paul Van Buren فى كتابه (المعنى الدنيوى للإنجيل The secular meaning of the Gospel) ، وهارفى كوكس Harvey Cox فى كتابه (المدينة الدنيوية The secular City). إن ذبول الاهتمام بإله العالم الآخر يصاحبه بصورة طبيعية نقص الاهتمام فى متابعة فكرة استكمال الحياة الإنسانية فى عالم آخر. ومن النقائض أن نتيجة لا تختلف عن ذلك يمكن أن تأتى من تأكيد الله المتعالى: إن وجوده من وراء الفكر، وغيابه من العالم يمكن أن يعنى حرية الإنسان فى العمل تلقائيا فى العالم الدنيوى. ويوجد هذا المفهوم عند بعض الكتاب الكاثوليك، مثل كارل رانر Carl Rahner، وهانز أورز فون بالتاسر Hans Urs von Balthasar.

تفسيرات جديدة للأساطير الإنجيلية:

تبين هذه الاتجاهات بعض الطرق المتميزة فى النظر إلى نشاط الله فى الإنقاذ. وإذا بقينا فى نطاق صور التفكير فى الإنجيل، ولم نحاول نفى الأسطورة عنها ، فإن هناك ميلا إلى تأكيد عمل الله فى التاريخ من خلال إعادة التجسد لاستكمال التاريخ فى المستقبل.

(1) Philosophical concepts of Death, pp. 33-4.

وفى الإنجيل كلام كثير يقوله عن قدوم المملكة وبعث الموتى. إن المملكة هنا سابقا على صورة ما ، حيث إنها تحققت فى حياة المسيح. أما فيما يتعلق بالأمل عند المسيحيين فلا بد أن يتحقق فى القدوم الثانى وبعث الجسد. لكن التأكيد الجديد لهذه الأفكار الأسطورية يعوقه بالضرورة صعوبة احتوائها على مضمون محدد، وعلاقتها التقليدية بفكرة الحساب الإلهى، وهو مفهوم تعرض للتآكل مع التغيرات فى طرق النظر إلى العقاب والثواب.

(إن نظرية العقاب الانتقامية لم تَعُد تكتسب الولاء السابق لها).

إن إحدى الطرق فى محاولة تقديم بعض المضمون لاستكمال التاريخ فى المستقبل هى فى نسبته إلى عملية التطور، كالموجود فى عمل تيار دى شاردان Teilhard de Chardin، لكن هذا نفسه يتضمن تفسيرا جديدا على نطاق واسع للأقسام الإنجيلية. وقد يلاحظ أيضا أن التأكيد على الاستكمال فى المستقبل يستدعى الاهتمام بصورة مباشرة بخلاص الجماعة أكثر من خلاص الفرد: ويأتى التبرير للفرد إلى حد كبير من خلال كونه عاملا مساعدا مع الله فى التحرك نحو التحقيق الكامل لملكة الله.

يمكن فى الجانب المقابل تبديل الأساطير فى الإنجيل بحيث تتعلق رسالة الإنجيل بصفة أساسية بعلاقة الفرد بالله (أو حتى علاقته بنفسه)، وتصبح أسطورة السقوط رمزا لحالة الاغتراب بين الإنسان والله (أو اغتراب الإنسان عن طبيعته الأساسية – وهو موضوع موجود فى كتابات بول تيلليتش Paul Tillich). إن التصوير البديع فى سفر الرؤيا والأفكار الأخروية المشابهة فى المسيحية المبكرة تصبح رمزا لنهاية الفرد على ضوء موته المحتوم. وقد تطور هذا الموضوع عند رودلف بولتمان Rudolf Bultmann. إن قيامه المسيح – وهى علامة مركزية وسبب فى هزيمة الموت – تصبح تجربة لحياة جديدة عند الحواريين نابعة من المسيح. ويستخدم بول فان بورين هذه الفكرة فى تناول مسيح الناصرة على أنه مصدر لعدوى الحرية التى سرت عبر التاريخ.

إن هذا الموقف الفردى الوجودى تجاه "الأشياء الأخيرة" لا بد أن يؤكد تفسير الحياة الخالدة على أنها عاملة هنا والآن. ويرتبط الموقف بنفى المعنى فى الحديث عن وجود مستمر بعد القبر (والواقع أن فكرة الخلود نفسها تسلب الموت من أهميته، وتجعل الأساطير فى العهد الجديد تفقد قوتها عندما تدعونا إلى العمل الفورى هنا والآن). وهناك مع ذلك – كما سوف نرى – طريقة للجمع بين الموقف الوجودى وبين الإيمان ببعث الجسد.

وفى الإمكان أن نلاحظ فى الوقت نفسه أن انهيار الجانب السلبى فى فكرة الخلاص قد أكد فى الجانب المقابل على الجوانب الإيجابية من التجسد، تماما كما أدى انهيار أفكار الخلود والحساب والجنة والنار إلى فهم هزيمة الموت باعتبار الأفكار الإيجابية للوجود الأصيل (الحياة الخالدة) فى مواجهة الموت (وهذا من زاوية اللاهوت الراديكالى على كل حال). وعلى ذلك ، فلا يمكن معالجة السقوط من الناحية التاريخية (من زاوية النظر الراديكالية): فليس المسيح هو آدم الثانى (إلا من الناحية الرمزية) وهو الذى جاء لعلاج الموقف الذى سببه آدم الأول... ولا يعالج الخلاص إلى حد كبير على أنه خلاص من ورطة تاريخية، والأيسر أن يعالجه خلق إيجابى لحياة جديدة من خلال المسيح. إن كل هذا التأكيد على الجانب الإيجابى يعمل جيدا مع تجديد المواقف الإيجابية نحو العالم، على خلاف التفسيرات الدنيوية الأخرى للإيمان، كما يُعبر عنه بالوعد بالجنة على أنه تعويض متوازن عن شقاء الناس فى هذه الحياة.

لكن فى الإمكان كما قلنا أن نجمع من ناحية المبدأ بين مواقف وجودية من الحياة والموت وبين التعاليم التقليدية عن بعث الموتى. وقد نذكر أن بولس تحدث عن "جسد روحى" يبعث فى الفرد المتخلص. وهناك اليوم قليلون لعلهم يرجعون إلى تصورات لاهوتية مبكرة عن ضرورة تجميع الجسيْمات التى تكون الجسم المادى من جديد فى البعث العام. والأكثر شيوعا أن نعتبر الجسد الروحى نوعا من وعاء الشخصية (لا يمكن تصوره). ويلمح كارل رانر إلى أن بعث الموتى يمكن تفسيره على أنه قيام

الفرد الذى اكتملت حياته بموته ، وكان من قبل يتحرك من خلال الزمن. إن التأكيد المركزى عند رانر على كل حال هو على قبول الموت فى هذه الحياة، بحيث يكون الموت هو الفعل الأسمى للحياة المسيحية على أحد المعانى، حيث يتحد الإنسان مع المسيح فى موته. وهو على ذلك يرفض من ناحية الجوهر فكرة الاستمرار بعد الحياة وراء القبر، ويركز تأكيده على الحياة الأبدية كما يمكن تحقيقها هنا والآن.

إنكار الخلود :

هناك اتجاه مزدوج فى اللاهوت الحديث نحو رفض الإيمان بالخلود أو تجاهله، وهو ما يؤدى إلى التهدئة أو الأهمية العالمية. الاتجاه الأول تأثير النقد الخاص بالأساطير فى الإنجيل وهو ما تناولناه، والشعور بالحاجة إلى تفسير جديد للإيمان فى تعبيرات معاصرة. ويتعلق هذا بالشك العام – نوعا ما – فى إمكان الحياة بعد الموت. أما الباعث الآخر على عدم اعتبار خلود الروح بصورة جدية إلى حد كبير فهو ناشئ من مفاهيم الإنجيل نفسها ، ومن عناصر أساسية معينة فى التجربة الدينية. إن الفكرة القائلة بأن الناس خالدون فى أية حالة لا تتوافق بسهولة كبيرة مع تأكيد الإنجيل على الحياة الأبدية باعتبارها منحة من الله، فالتأكيد بدوره يرتبط بتجربة الرحمة والشعور بالله القدوس المتفرد. فالله وحده قادر على الإنقاذ، وعلى ذلك فهو وحده قادر على منح البركة الأبدية للناس. إن فكرة الخلود الداخلى للروح توحى بأن الحياة الآخرة طبيعية أكثر منها فوق الطبيعية أو إلهية فى الأصل. ونعترف بأننا نستطيع الاهتمام بهذه العاطفة على فرض أن منحة الله هى مكان مصير الإنسان أكثر من بقاء الإنسان (فالحياة فى الجنة منحة من الله، أما فيما عدا ذلك فهناك تطهير أو لعنة فى النار)، لكن المفاهيم التقليدية للثواب والعقاب لا تبدو عند الكثير من الناس اليوم مهمة، كما رأينا.

الفجوة بين اللاهوت والدين الشعبى:

على الرغم من الكثير الذى توصى به الراديكالية المسيحية الحديثة، لأنها تواجه واقعية معينة للمشاكل التى تواجه تقديم الإيمان فى موقف تغير فى القرن العشرين، وعلى الرغم من أن مجرد الاستجابة المحافظة لهذه المشكلات أدعى إلى اغتراب أولئك الذين تأثروا بالصعوبات الفكرية فى الإيمان التقليدى، فإن بعض أنواع النقد المهمة للاتجاهات المذكورة سابقا تبقى مع ذلك هناك.

أولا: إن الكنائس فى الواقع أحرى بالارتباط بالصور المحافظة للإيمان ، كما أن الاتجاهات التقليدية راسخة التكوين فى الأناشيد والتعبيرات الدينية الشائعة فى الاستعمال. وهناك شك فيما إذا كانت عواقب اللاهوت الراديكالى عن عقائد الموت مفهومة على نطاق واسع بين أولئك الذين يشاركون فى الواقع فى الممارسات المسيحية. وهذا جانب من حالة الاختلاط الراهنة فى المسيحية. ويتذكر الإنسان الموقف فى آخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر عندما كان كثيرون من اللاهوتيين فى بريطانيا ينقدون الإيمان بالنار أو يرتابون فيه، ولكنهم أحجموا عند نشر هذا الموقف فى العلن ، حيث شاع التفكير بأن الخوف من لعنة النار أساسى فى استبقاء الأخلاق العامة.

ثانيا : كان اللاهوت بالغ الاهتمام بمشكلات تفسير الأساطير فى الإنجيل أو استبدالها (ومن المعترف به أنها مهمة). وكانت اتجاهات الإصلاح فى الكاثوليكية بعد الفاتيكان الثانى قد أدت باللاهوت الكاثوليكى إلى بذل المزيد من طاقاته فى إعادة اكتشاف أساس الإيمان بناء على النصوص. هذا الاهتمام بالإنجيل بين الكثير من أنبه اللاهوتيين فى أوروبا وأمريكا أدى إلى تجاهل نسبى للمشكلات الفلسفية والعلمية فى تحليل الشخصية والنتائج الممكنة للبحث الراهن. ومن الجائز أن يؤيد البحث "المادية" إلى حد ما فى الكثير من موقف الإنجيل تجاه طبيعة الإنسان، لكن التفسير الجديد لرسالة المسيحية قد يحتاج إلى بنائه على الواقع إلى حد بعيد.

إن الأفكار الإيجابية عن الوجود الأصيل وتقبل الموت مثلا تحتاج إلى التحديد فى بعض التفصيلات العملية قبل أن تستطيع الهرب من مجرد الحديث الروحى . ويحتاج الأمر كذلك إلى شىء من البحث الصحيح فيما إذا كانت الرموز (مثل تلك الخاصة بالآخرة) تؤدى وظيفتها للناس حسب الطريقة التى يتطلبها اللاهوتيون.

ثالثا : ليس فى الإمكان التفكير فى لاهوت مجرد عن الموت. وربما كان هناك شعور بأن إنكار الحياة الأخرى، كما تفهم بطريقة حرفية تقليدية، قد يغضب الكثيرين من المؤمنين. لكننا نحتاج هنا إلى تعمق البحث فى البواعث الجادة لرغبات الناس فى الشعور بالاطمئنان والتهدئة. ويحتاج اللاهوت أيضا إلى بحث ما إذا كانت عقائده التقليدية نفسها ليست مخيفة فى أية حالة ، وربما كانت هى بعينها سببا فى مواقف ضارة تجاه الموت ، لكن هذه أيضا مشكلة واقعية إلى حد كبير، وليست مجرد مسألة تأمل. تأمل العبارة التالية : "رأى أبيقور باستبصار يزيد على بعض مريديه فى العصر الحاضر أن الذى يخاف الإنسان ليس هو أن الموت عدم، وإنما أن يكون الموت ليس كذلك، وأن الرعب من الموت ليس من الفناء، ولكنه من العقاب القادم[1]. ولعل الناس يجب أن يخافوا من هذا ، لكن من الواجب أن يقاس هذا جزئيا بالآثار الفعلية لهذا النوع من التصور عليهم.

وليس من المحتمل أن يظهر بسهولة إجماع مسيحى على الموت والحياة الأخرى لفترة طويلة على كل حال، نظرا لجميع هذه المشكلات. ومن دواعى التشجيع صراحة النقد الذاتى المسيحى فى الوقت الحاضر، لكنه لا يؤدى إلى الاتفاق والتهدئة. وإنما أقل ما نتوقعه هو الاستعداد المباشر لمناقشة مسألة الموت بصورة أوضح وأصرح. وقد تم تناولها على نحو منحرف بصفة عامة فى اللاهوت الحديث كما فى أماكن أخرى.

(1) H.F. Lovell- Cocks, By, Faith alone, p.57, quoted by Alan Richard son in A Theological word of the Bible.

الفصل السادس

الموت وهبوط الدين فى المجتمع الغربى

نينيان سمارت Ninian Smart

من الأمور الشائعة (وإن لم تؤيدها الحقائق فى كل مكان) أن الدين فى هبوط فى الغرب، وأنه ظل ثابتا على هذه الحال منذ بداية القرن العشرين على الأقل، وقد جربت معظم الدول الصناعية الغربية المتقدمة نقصا فى الأنشطة الدينية الرسمية ، ما عدا استثناء رئيسا هو الولايات المتحدة، حيث تذهب نسبة عالية بصورة مدهشة من السكان إلى الكنائس والمعابد اليهودية. وقد تناقصت نسبة الحاضرين فى كنيسة إنجلترا يوم عيد الفصح بنحو الثلث منذ عام ١٩٠٠ (وإن كان العدد الكلى قد تزايد قليلا كما يحدث، لكن العدد الكلى للسكان قد تزايد أكثر بالطبع). وكان الربع أو أقل من الفرنسيين والبلجيكيين الكاثوليك فقط يحضرون القداس فى الخمسينيات، وكانت النسبة نحو ٢٠ فى المائة فى لشبونة وفيينا. والأرقام أفضل فى إيطاليا وإسبانيا. ولكن حدث بعض الانخفاض الكبير فى إيطاليا فى السنوات الأخيرة. وعلى العكس، تضاعفت النسبة ثلاث مرات تقريبا فى عضوية الكنيسة فى الولايات المتحدة منذ بداية القرن العشرين. إن أظهر العلمانية **secularization** حدث فى البلاد التى تغلب عليها البروتستانتية بصفة عامة، إذا تركنا الولايات المتحدة، لكن هناك سؤالا حقيقيا عما إذا كان لهذا علاقة بالبروتستانتية بطبيعتها ، أم بتلك البلاد التى بلغت مستوى عاليا نسبيا من التطور الاقتصادى ، أم باجتماع عدد من الأسباب الخاصة الأخرى.

إن العينات السابقة من الإحصاءات تتعلق على كل حال بالأعمال الرسمية فى الدين. ومن النافع حين نتحدث عن هبوط الدين أن نكون واضحين فيما يُعرف الدين. فقد يكون أولئك الذين يمتنعون عن الذهاب إلى الكنيسة يؤمنون بالله ويؤدون الصلاة فى بيوتهم الخاصة على الرغم من ذلك. (وهناك فى الواقع دليل على هذه المسألة ، فإن أغلب الإنجليز مثلا يؤمنون بالله، أو بشبيه له، وإن كانت القلة تذهب إلى أماكن العبادة). وفى الإمكان النظر إلى الدين بصفة عامة من جانبين: أولا، باعتباره مجموعة من العقائد (وتشمل العقائد الأخلاقية)، وثانيا، باعتباره نمطا من الممارسات، وتشمل العبادة والصلاة وإعطاء الصدقات وهكذا. ويتلاحم الجانبان بصورة وثيقة على نحو نموذجى، وإن كان ذلك ليس بصورة شاملة : فالله لا يعتبر خالقا فقط، ولكنه أسمى كائن للعبادة، فهو الذات التى يصلى لها الإنسان. لكن فى الإمكان دائما أن نسأل عن هبوط الدين (أو الهبوط المفترض) إذا كان يمثل هبوطا فى العقيدة، أو هبوطا فى الممارسة أو فى كلتيهما. لكن هناك مسألة أخرى تحتاج إلى بيان حول الممارسة. إذ يمكن أيضا أن يكون لها جانبان.

إن أحد الجوانب فى الممارسة الدينية جماعى فى التقاليد اليهودية المسيحية، ويحتاج إلى مجموعة من الناس واجتماع بينهم للممارسة، وما قد يمكن تسميته بالممارسة العامة على سبيل الإيجاز. وفيما يخص مؤسسة العقيدة المسيحية مثلا فإن الشعائر تمارس إلى حد كبير من خلال الكنيسة التى تعبر عن نفسها فى صورة مركزية من خلال العبادة العامة. لكن أعمال الصلاة ونحو ذلك لا تحتاج دائما إلى أدائها فى العلانية فى جماعة، ذلك بأن الممارسة الدينية يمكن تأديتها فى صورة "خاصة". وعلى ذلك يمكن أن تؤدى الأقلية فقط ممارسة الشعائر الدينية الرسمية العامة، بينما تكون ممارسة الشعائر الخاصة على نطاق أوسع كثيرا.

من الجدير بالملاحظة أيضا كى نتفادى الخلط، أننا لا نقصد إصدار أحكام بالقيمة حين نقول إن هناك هبوطا فى الدين، سواء فى العقيدة أو الممارسة، فى صورة

عامة أو خاصة. إن مثل هذا الهبوط قد يؤدى أو لا يؤدى إلى سلوك "مسيحى" على نحو السلوك الأخلاقى الذى يتمشى مع روح تعاليم المسيح (هذا ما يعتبره كثير من الناس روح المسيحية، حتى ولو كان يعنى تجاهل جزء رئيس مما اعتبرته العقيدة المسيحية).

إذا أخذنا فى اعتبارنا هذه الفوارق، ففى الإمكان أن نشير بصورة عامة إلى بعض التغيرات الدينية التى حدثت على مدى السنوات المائة الأخيرة أو أقل. (سأقتصر هنا فى كثير من ملاحظاتى على المشهد البريطانى، وإن كانت لها أهمية على نطاق أوسع، لكن هناك أنواعا مختلفة إلى حد كبير من الأحوال الدينية، حتى بين الأمم فى العالم الغربى، والتعميمات خطيرة). وسأعقد الصلة بصفة خاصة بين الصورة وبين المواقف والعادات المهمة فى الموت.

الأزمة فى العقيدة الدينية :

أولا: فيما يتعلق بالعقيدة، كان هناك شىء من الأزمة فى العقيدة الدينية فى الغرب، وقد صدمت الجماعات الدينية المختلفة فى أوقات مختلفة وبأساليب مختلفة. وكان للأزمة ثلاثة جذور رئيسة. كان أحدها تطبيق الوسائل العلمية التاريخية على النصوص الدينية، منذ الجزء الباكر من القرن التاسع عشر، وكانت النتيجة فى إضعاف العقيدة أقل من إضعاف طريقة معينة فى الدفاع عن العقائد وصياغتها، أعنى باستخلاص فقرات من النصوص وتأسيس المبادئ على أساس شهادة النصوص ببساطة. وكان التأثير هنا بالغا بصفة خاصة على البروتستانتية، وهى التى يقل انجذابها إلى سلطة الكنيسة، وهى لذلك أكثر اعتمادا على سلطة النصوص. وكان تأثيرها على الكاثوليكية أوسع مدى فى الشعور به فى الجو العام الناشئ عن الفاتيكان الثانى. أما الجذر الثانى للأزمة فكان تأثير بعض جوانب التفكير العلمى على الأساليب التقليدية فى صياغة العقيدة المسيحية. إن الإطار العام للأساطير فى الإنجيل وعلم

الكون قد أصبح مُعدلاً إلى حد بالغ بالتفكير فى العصور الوسطى وفيما بعد الإصلاح بصورة معترف بها ، لكنه كان لا يزال يستبقى تأثيرا عظيما بطريقة نظرة الناس إلى العالم. لكن عقيدة السقوط مثلا كان من العسير أن تظل كما كانت فى صورتها الأصلية بعد نشر نظرية التطور. ولاح على نطاق أوسع أن هناك انعداما فى التوافق بين التفكير بالمعجزات والسابق على العلم لدى كتاب العهد الجديد وبين الافتراضات التى نحاول تبعا لها أن نفهم العالم من حولنا. وكان الجذر الثالث للأزمة هو موقف النقد الذاتى الذى يزداد تجاه الأفكار الدينية وغيرها، والذى جاء به تطور علم النفس وعلم الاجتماع فى الأزمنة الحديثة. وقل الميل إلى قبول العقائد قبل بحث أصولها الخاصة الممكنة، لا فى التعاليم والإنجيل، وإنما فى نفوسنا ومجتمعاتنا الخاصة.

أدى هذا إلى ترك الكنائس فى حالة فكرية لا استقرار فيها، لعلها إثارة وتخمر، لكنها كذلك حالة تتزايد فيها صعوبة الحديث عن الموقف المسيحى، أو تعاليم المسيحية. ويمكن أن تستثير الأزمة استجابات متناقضة، أحدها إنكار عالم الفكر الجديد، أو إنكار الحاجة إلى تعديل صياغة النصوص التقليدية بصورة خطيرة على كل حال. أما الاستجابة الأخرى فهى محاولة تطوير راديكالية مسيحية جديدة. والاستجابة الأولى أكثر شيوعا بين الإنجيليين، وقد سببت انشقاقات فى داخل كل طائفة لعلها أهم من الخلافات بين الطوائف المختلفة. وقد اتخذت الاستجابة الأخيرة صورا مختلفة، منها محاولة تعديل الأفكار الوجودية فى تقديم تعاليم الإنجيل من دون الأساطير القديمة (مثل كتابات رودلف بولتمان وكتابات بول تيلليتش إلى حد ما)، والحداثة الانتقائية. (عند أسقف ولوتيش Woolwich)، وما يسمى لاهوت "موت الله" فى الولايات المتحدة ، والماركسية الكاثوليكية وهكذا.

من آثار الأزمة أن الصور الجديدة من اللاهوت الراديكالى عالجت أفكار الحياة الآخرة فى العهد الجديد (صور "الأشياء الأخيرة" مثل البعث والحساب والحياة الآخرة) باعتبارها تنتمى بصفة أساسية إلى طريقة أسطورية فى التفكير فى ذلك

العصر. إن مشروع إعادة تقديم الإنجيل بغير الأساطير البائدة قد اتجه نحو الشك فى الحياة التالية، واتجه إلى هذه النظرية الدنيوية، أو تأكيد النظرة الدنيوية فى الحياة الأبدية على أنها شىء يستدعى التجربة هنا والآن من خلال العلاقة مع الله والعمل فى دنيا المعاناة. وهناك على أية حال أساس فكرى للقول بأن فكرة الروح الخالد ليست مميزة للتفكير بالإنجيل، ومن العسير أن نعرف ماذا تعنى مفاهيم بعث الجسد أو مجىء المملكة من زاوية القرن العشرين. ويحب البعض تفسير هذه الأفكار عن الحياة الآخرة حسب تعبيرات التطور، ومن هنا جاء الإغراء فى تصوير تيار دى شاردان للوعد باستكمال التاريخ التطورى فى التوافق والوحدة التى ترتكز على المسيحية فى المستقبل.

العقيدة الشعبية وممارسة الشعائر العامة:

ولكن إذا كانت هذه الأمور غير الأكيدة تؤثر على المثقفين المتدينين، فإنها لا تؤثر على رجل الشارع بنفس الدرجة. ويؤمن نحو نصف البريطانيينِ بالحياة الآخرة فيما يبدو. والمشكوك فيه هو ما إذا كان الكثيرون يؤمنون بها بالمعنى المفهوم فى المسيحية التقليدية. ويظن عدد كبير من الناس بالطبع أن الحياة الآخرة – على نحو ما نقول – مكان للاجتماع من جديد بأحبائهم وأصدقائهم، وقد تُعارض هذا عقيدةُ الحساب فى الحقيقة.

إن الموقف فيما يتعلق بالممارسات العامة للدين فى السنوات المائة الأخيرة أصعب فى التشخيص بإيجاز. لكن جانبا مهما فيه كان الافتراض الذى ظل يتزايد بين الولاء المفهوم للكنيسة وبين عملية الوظائف الدينية فى إجراء الطقوس التشريعية مثل التعميد والزواج والجنازات. وهناك فجوة صغيرة بين الولاء والعقيدة الدينية من جانب والرسميات-فى الأحداث الرئيسة فى الحياة العائلية والاجتماعية من جانب آخر، فى المجتمعات التى تتكامل فيها الطقوس الدينية مع نسيج الحياة الاجتماعية. لكن موقف الكنائس فى

كثير من البلاد الآن، وبخاصة فى بريطانيا، هو أنها بصفة أساسية طوائف من الجمعيات الاختيارية. وإذا كان لكنيسة بريطانيا مكانة قومية، فإن عضويتها الحقيقية تتكون من أولئك الداعمين لأنشطتها بصفة اختيارية، ولا يختلف وضعها الجوهرى عن الأبرشانية Congregationalism أو المنهجية Merhodism. إن حركة المجتمع الحديث التى بدأت من إعادة التجمع الجغرافى الضخم للسكان نتيجة للثورة الصناعية قد هدمت مبدأ الأبروشية Parish، أى أن هناك ارتباطا بين مجتمع حقيقى ومجتمع الكنيسة. ويعتمد التعبير عن العبادة العامة نتيجة لذلك على الأنشطة المتعددة، وهو أقل مما كان أبدا مؤسسة مفروضة متفقا عليها فى المجتمع. هذه الطائفية فى المسيحية الحديثة تستبقى وظائف معينة فى الطقوس، وبخاصة الإجراءات الرسمية التى تحوز دعما واسع الانتشار. وإذا كان هناك على ذلك ١٥ فى المائة من السكان فى إنجلترا يذهبون فى المتوسط إلى العبادة يوم الأحد ، فإن ٧٠ فى المائة تقريبا من السكان يريدون الزواج فى الكنيسة. إن العضوية الفعالة أكبر بالطبع من نسبة ١٥ فى المائة هذه، ولكن هناك مع ذلك فارقا كبيرا بين العضوية الحقيقية وعدد أولئك الذين يستخدمون الاحتفالات الدينية فى الإجراءات الرسمية. بل إن هناك عددا أكبر من الناس يستخدمون الاحتفالات الدينية عند الموت ، لأنها على أية حال أحرى أن تكون عسيرة الاجتناب.

الطقوس المتعلقة بالموت:

لا ينبغى على الإنسان بالطبع أن يبالغ فى هبوط الممارسات الدينية على المستوى العام، فقد كانت القلة فقط تذهب بانتظام إلى الكنيسة فى إنجلترا منذ خمسين عاما. لكن الدين العام كان يعمل بصورة متجانسة متغلغلة لسبب جزئى هو تحصنه فى سلوك الطبقة الوسطى، وكانت الطبقة الوسطى هى الصانعة الفعالة "للرأى العام". وهناك فضلا عن ذلك انعزال متزايد للطقوس الرسمية وبخاصة فى الجنازات. وكانت

الجنازة فى الصورة التقليدية تعقبها فترة من الحداد، وإن كانت طويلة حقا. ويظهر هذا جيدا فى ذكريات جوفرى جورر Geoffrey Gorer فى مقدمة كتابه الموت والحزن والأسى Death, Grief and Mourning. وأصبحت الاستعدادات للموت وعواقبه أقل من الناحية الرسمية وفى الأعباء. ولعل هذا يتمشى مع اتجاه الدين نفسه نحو اعتباره مسألة شخصية خاصة. ولذلك يكاد يكون من سوء الأدب أن يستعرض الواحد مطالب الطقوس فى عقيدته إلا فى أماكن معينة وأوقات معينة. وكذلك يكاد يكون من سوء الأدب أن تعرض الحداد الرسمى فى العلانية أمام الجميع وبطرق مختلفة. إن الموقف الذى جاءت به ظاهرة الطوائف الدينية يعنى أن المظاهر العامة المتفق عليها بين الجماهير والمتعلقة بالرسميات فى الموت قد تآكلت إلى حد كبير. وليس هناك طريقة أكيدة للإعلان عن الحزن بصورة مقبولة فى غياب إيتيكيت للأسى.

ينبغى أن نلاحظ أن ما سميته ظاهرة الطوائف الدينية لا يعنى التعدد الكامل للدين فى المجتمع ، وهذا أحد الأسباب فى أن اجتمعات الحداد قد تناقصت فى الولايات المتحدة التى هى من أهل التقوى نسبيا. ومن المتوقع فى المجتمع ذى التعدد الكامل مثل الهند أن تتصرف الجماعات الدينية المختلفة بطرق مختلفة، فيما يتعلق بطقوسهم وسلوكهم العام. أما فى المجتمعات الغربية وهى على الأقل متعددة من حيث الانتماءات الدينية المتنوعة فهناك توقع للسلوك العام المتجانس بصفة عامة. فالاحتفال اليهودى بالزواج أو الجنازة، يختلف عن الزواج المسيحى أو الجنازة، ولكن هناك توقعا بالتجانس العام خارج ذلك النطاق الوقتى. وانعدام الصورة الرسمية يأتى بناء على ذلك ليحل محل طقوس الحداد الممتدة.

من الأمور الرئيسة التى تربط بين عقائد الكنيسة وبين إجراء الطقوس للمحتضر والميت هو الكاهن أو القسيس بالطبع. وإذا كانت الكاثوليكية تستبقى بالتقدير ثقة فى دور القسيس والاحتفالات والعقيدة ما زالت بعيدة عن تأثير التغيرات المذكورة سابقا، فإن القسيس الإنجيلى البروتستانتى أو الكاهن الذى لا يلتزم بالصورة الرسمية يجد

نفسه فى صعوبة متزايدة من ناحية دوره ومكانته فى المجتمع. إن من المتوقع أن يقوم بالطقوس لكثيرين ليسوا أعضاء فعالين فى الكنيسة، ومن المتوقع أن يقوم بدور الراعى نحو المحتضر. وغالبا ما يفهم هذا على أنه تقديم التهدئة لأولئك المحتضرين والذين يمرون بمرحلة الحداد، وهذا بدوره غالبا ما يفسر على معنى تقديم الطمأنة بالحياة الآخرة. وهو على ذلك مع تعدد الطوائف فى موقف مزدوج الغموض. من الواجب عليه أن يعمل فى نطاق عقائد واتفاقات اجتماعية محل اتفاق بصفة عامة، لكن من المتوقع أن يتخذ خطا فكريا معينا. لكنه ليس متأكدا جدا من هذا الخط مع ذلك. إن التخمر فى اللاهوت قد يتركه غير سعيد بتكرار الطمأنة التقليدية ببساطة، ولا هو متأكد من أن واجبه مسيحى بصفة خاصة تجاه المحتضر والذى يشعر بالحداد. ولعل هناك أيضا فكرة ملحة بأن الطبيب النفسى أكثر تهيئة لتناول كثير من المشكلات التى تقع تحت رعايته بسبب الشيخوخة والموت. وقد خفت هذه المتاعب إلى حد ما بالحركة العالمية للوحدة الكاثوليكية والاهتمام القوى المعاصر بطرق جديدة لتدريب رجال الدين على الرعاية (وإتاحة بعض المعارف المتعمقة عند العاملين المدنيين فى مجالات مثل علوم الشيخوخة، وتدخل فى نطاق الاهتمامات الرئيسة لرجال الدين القائمين على رعاية المسنين). أما فيما يتعلق بالوحدة الكاثوليكية، فهى تُسهل فيما يبدو- التأكيد من جديد على تعاليم مسيحية موحدة فى هذه الأمور، وإن كان هذا حتى الآن مجرد وعد. ومن الصعوبات هنا أن الطوائف المختلفة قد لا تتفق على مبدأ، لكن الإنجيل عام، ومع ذلك فالأساطير فى الإنجيل (عن الأشياء الأخيرة وأمور أخرى) هو بالضبط محل التساؤل بواسطة الأساليب المعاصرة فى النظر إلى العالم ، والنقد التاريخى لمادة النصوص. ومن الحق أن هذه المسائل لا تنطبق على أولئك الذين عارضوا الراديكالية المعاصرة، لكن عددا كبيرا من رجال الدين لا يقعون فى هذا القسم.

من العوامل الأخرى فى هبوط الاهتمام الدينى بالموت تطور حركة من داخل المسيحية تميل إلى رفع الإيمان بالمسيح فوق الدين (ويُعتبَر الدين خلقا إنسانيا). وهذا

التعارض موجود بصورة واضحة فى كتابات كارل بارث Carl Barth، ولكن ديتريش بونهوفر Dietrich Bonheffer زاد فى تطويره ، والأكثر من الشارحين المحدثين "للمسيحية بدون دين religion onless Christianity". والإنسان – تبعا لهذه العقيدة – حالما يتطور فهو لا يحتاج إلى الدين، وإن ظل فى حاجة إلى المسيح. وهذه الصورة من الراديكالية لا تؤدى إلى أخذ الدور الدينى المسيحى مأخذ الجد فى المجتمع إلى حد كبير. والنتيجة لهذا النوع من التفكير أن الوظائف الاجتماعية للدين قد تُحوَّل إلى وكالة أخرى غير الكنيسة. وقد يثبت أن الحركة سريعة الزوال حقا ، لكنها عرض لأزمة العقيدة الحاضرة، وموقف يؤمن فيه بالوحى المسيحى قلة فقط فى مجتمعات تظل مسيحية من الناحية النظرية. إذا اعتبرنا الفوارق بين درجة الاقتناع عند كثيرين من الناس العاديين وبين تعاليم الكنائس، فلنا أن نتساءل عما إذا كانت هذه التعاليم تساعد على غموض رسالة المسيح ، بدلا من توضيحها. وتؤدى مشكلة الموت إلى التأكيد الشديد على حيرة الطائفية المسيحية، ذلك بأنه مهما كانت القلة أو الكثرة تتمسك بالعقيدة، فإن كل واحد سيواجه الموت أو الحداد قريبا أو بعيدا. ويكون من العسير فى هذه الظروف معرفة كيف يمكن أن تندمج العقائد المسيحية بصورة محددة فى التعبير عن طقوس الموت.

لعل من المدهش بناء على ذلك أن قليلا من المناقشة قد تم حول الرغبة فى طقوس علمانية للحداد (كما دعا إلى ذلك جوفرى جورر مثلا) حتى تقابل الزواج المدنى الذى يخدم أولئك الذين لا يرغبون أن يرتبطوا بالضرورة بصور الاحتفال المسيحى بالتحديد (أو أية صور أخرى دينية). وقد يكون هذا أحد الاتجاهات التى يميل إليها التفكير فى "المسيحية بدون دين".

إن الأحكام على هذه الأمور تتحول إلى نظرة أوسع نحو الاتجاه الراهن فى الاعتقاد والمناسبات الدينية – وليس من الواضح أن الحاجة تدعو إلى استمرار هبوط الدين حيث يحدث الآن – وليس من الأمور الواضحة بذاتها أن هبوط الدين نتيجة

لزيادة التصنيع أو نمو التكنية فى المجتمع (وقد سبق أن لاحظنا التقوى النسبية فى الولايات المتحدة، وقد لاحظت اليابان بعد الحرب نموا مدهشًا فى حركات دينية جديدة).

وهناك علماء فى الاجتماع يجادلون - على أساس البحث الوظيفى فى الدين - بأن الدين ضرورة مستمرة فى المجتمع الإنسانى، وإنما يتعلق الأمر بصور الدين التى تتعرض للتغير مع التغيرات فى المجتمع. وإذا صح هذا التقدير فقد يعنى أن مساق المسيحية بغير دين كان خاطئا فى أساسه إلا إذا عدلت نفسها بعلاج الدين نفسه على أنه مجال من التجربة والممارسة الإنسانية يخدمه المسيحيون كما يخدمون حاجات الجنس البشرى الأخرى تماما.

ولكن ، أيا كانت التصورات المهمة للمستقبل ، فإن الموقف الراهن يبدو واضحا، وهو أن الطائفية المسيحية تتزايد، وتصبح المسيحية قرارا شخصيا ولهذا السبب وأسباب أخرى لا تستدعى العقائد والممارسات التقليدية المتعلقة بالموت الاتفاق العام. والحل بناء على ذلك أن نتناول الموت بطريقة غير رسمية وأقل قدر من التدخل. ولما كانت الكلمات نفسها يمكن أن تكون نوعا من الطقوس، فكلما قل الكلام عن الموت كان الأمر أفضل. إن الناس يميلون إلى الاستمرار فى حياتهم بآمال غير واضحة وطقوس ضئيلة فى الزمن الذى لا تتأكد فيه العقيدة والسلوك.

الفصل السابع

الموت فى الحرب

أرنولد توينبى Arnold Toynbee

ليست الحرب مخرجا تلقائيا للطبيعة البشرية الفطرية فى العراك. هذا العراك طبيعى ولولاه لاستحالت الحرب. لكن الحقائق المتعلقة بالحرب تدل على أنها مؤسسة ولا يمكن أن تكون قديمة جدا. والحرب مؤسسة حديثة نقيسها بمدى الزمن فى عمر الجنس البشرى حتى الآن ، أو فى الحقيقة بالمدى المتوقع الراهن لعمر الجنس البشرى على هذا الكوكب.

إن شن الحرب غير عملى إلا إذا توفر شرطان. الشرط الأول أن المجتمعات التى تصنع الحرب يجب أن يكون فى حوزتها فائض من الوقت والطاقة والإنتاج يزيد ويعلو على حاجتها فيما يكفى حياتها فقط، كما أن الحرب لا يمكن أن تشنها الحيوانات المجترة المضطرة إلى إنفاق كل ما يمكن أن توفره من وقت نومها على الأكل. ولا بد أن البشر كانت تنقصهم كذلك الموارد لشن الحرب حتى بداية الألف الرابعة والثالثة قبل الميلاد؛ عندما تم أولا إنتاج فائض كبير فيما يعرف الآن بالعراق ، ثم بعدئذ فيما يعرف الآن بمصر، ولأول مرة فى التاريخ يكون ذلك برىّ الأرض وصرف المياه، والأرض بطبيعتها غنية للزراعة، وكانت من قبل مشغولة بمستنقعات الأحراش التى لا يمكن استغلالها. ولم يكن فى الإمكان تحقيق هذين العملين الهائلين المجيدين إلا بتنظيم أوتوقراطى ماهر أيضا للقوة العاملة من أعداد كبيرة من العمال الطائعين.

واستدعى إنشاء المزارع الخصبة فى سومر ومصر نظاما جماعيا، والنظام الجماعى هو الشرط الثانى أيضا لشن الحرب. وإذا كان للإنسان أن يتحول إلى جندى فينبغى عليه أن يتكيف مع الخطر على حياته، أو احتمال فقدانها ، عندما يحاول قتل زملائه من البشر، وليس بينه وبينهم شجار شخصى. إن الطاعة والنظام الجماعى لازمان لارتكاب هذه الجريمة العامة الشريرة، كما هما لازمان فى تنفيذ المشروعات العامة المنتجة على نطاق واسع.

معاهدات الحروب:

للحرب مثل أية مؤسسة شروطها ومعاهداتها. الشرط الأساسى فى مؤسسة الحرب هو أن القتل فى الحرب ليس اغتيالا. أما الاغتيال بواسطة المؤسسة الخاصة فقد تم اعتباره جريمة على أكبر مستوى على نطاقٍ عالمى تقريبا، سواء كان الباعث كراهية أو طمعا. أما الاغتيال الذى يرتكب طاعة لأوامر السلطات العامة فى سبيل المصالح العامة (الحقيقية أو المظنونة) للمجتمع فقد كان يعتبر نشاطا فاضلا نبيلا، إلا عند بضع مجتمعات صغيرة دينية (مثل المسيحيين فى الأجيال القليلة الأولى، وجمعية الأصدقاء society of friends فقط بين المسيحيين المحدثين ، الذين يؤمنون بأن الإسهام فى الحرب لا يسمح به من الناحية الأخلاقية فى جميع الظروف)، لقد كان الشعور الأخلاقى عند البشر جامدا إلى حد يكفى لاعتبار القاتل فى الحرب على حق، ما دام مخلصا على الأقل إلى حد ما للقواعد المعروفة. فإذا مات فى المعركة، أو أبدى فى موته أو حياته شجاعة سواء فى حالته مقاتلا أو قائدا فإنه يكرم باعتباره بطلا. ومن معاهدات الحرب التى كانت عالمية حتى زمن حديث، ولكنها ألغيت الآن، إعفاء النساء من الخدمة مقاتلات (وإن كن غير معفيات من القتل أو الاغتصاب بواسطة المقاتلين بحكم الواقع). ومن المعاهدات الأخرى التى لا تزال سارية أن الإنسان المحارب يجب أن يلبس ملابسه العسكرية. وحتى فى العصر الحاضر، عندما أصبحت

تكنية الحرب معقدة وعندما أصبحت عدة الجندى بالمقابل "وظيفية"، فإن المقابل لشارة المحارب وزينته التقليدية تبقى فى صورتها دون تدخل (مثل النجوم والأشرطة والأزرار).

إن ارتداء ملابس الحرب يبدو طفوليا ، وهو كذلك، لكن له وظيفتين خطيرتين، إحداهما نفسية والأخرى عملية. أما النفسية فهى ترمز إلى إلغاء المحرمات الطبيعية فى قتل الزملاء من البشر، وهى تضع محل هذا واجبا فى قتلهم. ومن الناحية العملية، يميز ارتداء الزى العسكرى الجنود من المدنيين بصورة ظاهرة. وقد لوحظ هذا التمييز بإخلاص إلى حد ما فى أثناء فترتين قصيرتين من تاريخ الغرب، فى إيطاليا فى القرن الخامس عشر قبل غزو فرنسا لإيطاليا فى عام ١٤٩٤، وفى القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر فى أوروبا قبل غزو ألمانيا لبلجيكا فى عام ١٩١٤، واستخدام الطائرات القاذفة للقنابل فى الحرب فيما بعد. وحدث فى الغرب بين نهاية الحرب الدينية ونشوب الحرب العالمية الأولى فى عام ١٩١٤ لعبة قتال من الناحية النظرية على الأقل بين المقاتلين فى الزى العسكرى، ولم يكن للمدنيين نصيب فيها. ومع ذلك، فقد كان من المعهود بعد بداية القرن التاسع عشر وبعد استيلاء الجيش الغربى بالقوة على مدينة محصنة يدافع عنها أهلها أن ينهب ويغتصب ويقتل سكانها المدنيين، حتى لو كان الجيش المدافع المهزوم أجنبيا ، وقد احتل المدينة الساقطة بالقوة وظل على احتلالها ضد إرادة سكانها أو دون أن يكون لديهم أية قوة لصد الجيش المحتل عنها فى أية حال. والحالة المشهورة هى سلوك الجيش البريطانى فى المدينة الإسبانية باداهوز Badajooz بعد الاستيلاء عليها بالقوة من حامية فرنسية محتلة فى ٦ أبريل ١٨١٢ .

دين القومية :

ليست الحرب مؤسسة فحسب، وإنما هى عمل من العبادة الدينية أيضا. إن الإله الذى يُشَنّ باسمه هذا العمل الدينى هو القوة الجماعية لطائفة من الجنس البشرى. والأداء صورة من التضحية البشرية أو طقوس القتل.

إن حكام إحدى الدول يقتلون بالوكالة جنود دولة أخرى يحاربون حكامها، وهم يفعلون ذلك على حساب تعريض شبابهم، المجبرين على الجندية إذا لم يتطوعوا، للإصابة بالجراح أو التشويه أو القتل من جنود الجيش المعارضين ، الذين أمروا بالجرح والتشويه والقتل بأقصى قدرتهم.

إن المجتمعات التى تتكون من طوائف من الجنس البشرى كانت محل العبادة، التى يخدمها أداء هذه الطقوس الإجرامية، منذ تغلب الإنسان بصورة قاطعة على الطبيعة غير الإنسانية. منذ ذلك الحين أصبحت عبادة الطبيعة غير الإنسانية لاغية، وكانت ديانة الإنسان الرئيسة ما دام تحت رحمة الطبيعة غير الإنسانية، بينما استمرت عبادة الإنسان للقوة الجماعية لطوائف من الجنس البشرى إلى جانب تزايد قوته نتيجة التقدم فى تكنيّته. هذه العبادة الوثنية للقوة الجماعية البشرية مع طقوسها الجهنمية فى صورة الحرب لم تتعرض للكبح الناجح بعد ظهور الديانات العليا الحديثة نسبيا، والتى كان الهدف من عبادتها ليس الطبيعية غير البشرية ، ولا القوة الجماعية البشرية، وإنما كان الحقيقة الروحية النهائية من وراء الكون. وقد ظل أتباع الديانات العليا دائما يقدمون نصيبا من ولائهم فى الواقع للآلة القديمة الشريرة.

كانت استجابة القرن السابع عشر فى العالم الغربى الحديث ضد المسيحية نابعة من انقلاب المشاعر بعيدا عن الفرع المتعصب فى هذه الديانة العليا، وأعقبها فى القرن الثامن عشر هدوء روحى، كان فيه الحماس فى انحسار واطئ (وكان هو الاسم الذى أطلقه القرن الثامن عشر على ما نسميه اليوم بالتعصب). حتى فى ذلك الحين لم تتوقف مؤسسة الحرب. وكانت بواعث صناع الحرب فى القرن الثامن عشر أدعى إلى التناقص من بواعث أسلافهم أو أعقابهم، لأن بواعث صناع الحرب فى القرن الثامن عشر كانت غير دينية. كانت المكاسب التى حاربوا من أجلها متوسطة ، لكن هذه المكاسب المتوسطة فى القرن الثامن عشر كانت مصالح اقتصادية وسياسية عارية. إن الطبيعة الروحية – مثل الطبيعة المادية – تكره الفراغ على كل حال، ومنذ قيام الثورتين

الأمريكية والفرنسية فإن الفراغ الروحى الذى تركه انحسار المسيحية فى الأرواح القريبة قد ملأه ظهور جديد لعبادة قديمة كامنة للقوة للجماعية للمجتمعات البشرية.

هذه العودة الجديدة لعبادة القوة الجماعية البشرية بعد المسيحية فى الغرب (وكذلك فى تلك المجتمعات غير الغريبة التى اتبعت الحضارة الغربية فى الشر والخير أيضا) قد أثبتت أنها أشد ضراوة من صورتها قبل المسيحية، حيث مارس تلك العبادة مثلا الرومان والإغريق والسومريون والصينيون فى فترة الدول المتنافسة. أما فى عصرنا بعد المسيحية، فإن عبادة القوة الجماعية البشرية قد ارتبط بنبرة أعلى من حقنها بتعصب خارج عن نطاق المسيحية. هذه العبادة للقوة الجماعية البشرية بعد المسيحية هى الديانة الشريرة التى تسمى "القومية". وهى غير مسيحية إلا فى كونها متعصبة مسيحيا. ومن دواعى الشقاء، أن القومية المتعصبة هى اليوم تمثل نحو ٩٠ فى المائة من الدين الحقيقى عند نحو ٩٠ فى المائة من الجنس البشرى.

إن تزايد التعصب فى القومية قد تقاضى زيادة فى "المناولة المقدسة" للضحايا البشرية فى الصراعات الحربية. ويمكن قياس الزيادة بازدياد انتشار التجنيد العسكرى منذ الاحتجاج الجماعى فى فرنسا عام ١٧٩٢ .

وقد كان التجنيد فى العالم الغربى الحديث الأخ التوأم للمساواة. وقد أدخلت الدولة البروسية الخدمة العسكرية العامة – وهى مؤسسة مساواة، لكنها غير ديمقراطية – على أنها الرد اللاذع على هزيمتها المذلة المؤقتة من نابليون. أما فى الولايات المتحدة، حيث يعتقد مواطنوها أنهم أكثر أمة ديمقراطية وجدت على الأرض، ما عدا الاستثناء الممكن للأثينيين المخدوعين فى أنفسهم على قدم المساواة، فإن التجنيد الانتقائى قد تم فرضه فى مناسبتين: الأولى فى أثناء الحرب الأهلية بين عامى ١٨٦١– ١٨٦٥ على كلا الجانبين، ثم فى الولايات المتحدة التى أعيد توحيدها منذ عام ١٩٤١ حتى اللحظة الحاضرة.

الفظائع :

من المؤشرات الأخرى على تزايد التعصب فى القومية ، عند قياسه تبعا للسلوك فى الحرب، رجوع متسارع للفظائع من جديد. وعندما توقف الغربيون أخيرا فى مدى القرن السابع عشر عن حروبهم الدينية بين الكاثوليك والبروتستانت، فقد بذلوا جهدا خطيرا نجح بصفة جزئية، لا فى إلغاء مؤسسة الحرب بالطبع ولكن فى تخفيف الفظائع المحتومة المصاحبة لها إلى الحد الأدنى بالنسبة إلى المتحاربين ، وبالنسبة للمدنيين حقا. ومنذ أغسطس ١٩١٤ أخذ المستوى الإنسانى النسبى الذى وضعه الغربيون لسلوكهم فى الحرب منذ نهاية القرن السابع عشر يتهاوى بحدة، وبخاصة فيما يتعلق بإعفاء المدنيين. وعندما أطلقت القوات الألمانية الرصاص على جماعات من البلجيكيين المدنيين فى أثناء غزوهم لبلجيكا فى عام ١٩١٤ فقد تعرض الرأى العام الغربى لصدمة عميقة.

وعندما تعرضت مدينة جويرنيسا Guernica الصغيرة فى الباسك للتدمير بالقذائف من الجو فى يوم ٢٦ أبريل ١٩١٤، وقتل المدنيين دون تفرقة بين الجنسين وجميع الأعمار فقد اجتاحت العالم الغربى موجة جديدة من الرعب. وقد كان ضرب جويرنيسا نذيرا بحق بقذف القنابل فى المستقبل على نطاق أوسع. أما فى الحرب العالمية الثانية، فإن الفظائع التى تشعر بضآلة تلك المرتكبة فى الحرب العالمية الأولى من حيث المدى والقسوة فقد سببت إزعاجا أقل. إن الفظائع فى حد ذاتها لا تكفى فى إحداث الصدمة، فلا بد أن يكون هناك تجديد أيضا. والقلوب الإنسانية تتبلد أمام أى شيء مألوف. وقد أصبحت درجة الفظائع في الحروب الدينية أحداثا مألوفة مرة أخرى منذ عام ١٩٣٩، ولا بد أنه كان هناك فى عام ١٩٦٨ أمريكيون فى مثل سنى الآن (٧٩) وشعروا بالرعب من الفظائع الألمانية فى عام ١٩١٤ ، وضرب جويرنيسا بالقنابل فى عام ١٩٣٧، والذين ينظرون اليوم رابطى الجأش إلى شاشة التليفزيون مع ذلك، أو إلى الصور الساكنة فى كتاب ويشاهدون منظر القرى فى فيتنام الشمالية، وهى

تتعرض للقصف بعنف أشد من قصف أية مدينة أوروبية على الإطلاق فى الحرب العالمية الثانية، أو يرون ما هو أدعى إلى الروع فى مشهد الجنود من فيتنام الجنوبية وهم يعذبون المسجونين لانتزاع المعلومات، بينما يراقبهم الجنود الأمريكيون وهم يتغاضون ويتسامحون.

فى الولايات المتحدة اليوم، أصبحت المشاهد من الحياة الواقعية للجنود يقتل ويجرح بعضهم بعضا فى المعارك في فيتنام ملامح منتظمة فى برامج التليفزيون وقد أصبح الأطفال والصغار يألفونها. كان ينبغى أن تكون الاستجابة لهذه المشاهد الجهنمية الواقعية المباشرة للحرب هى بالطبع إصرارا قوميا عاما على إيقاف الحرب فى فيتنام فورا. وقد قيل لى على كل حال إن مشاهد الحرب على التليفزيون يجعلها تبدو غير حقيقية، نظرا للارتباط بين ما تحت العقل الواعى ومشاهد التليفزيون باعتبارها من قبيل التمثيل لا الحياة الحقيقية، وذلك أبعد من جلب حقائق الحرب إلى بيوت الناس. إن مشاهد المعارك المنقولة على التليفزيون تتحول فى عقول وقلوب المشاهدين من الحياة الحقيقية إلى مشاعد تمثيلية. ويعرف كل طرف أن مشاهد القتل فى التمثيليات الغربية ليست حقيقية، وكذلك تبدو مشاهد القتل الحقيقية كأنها تمثيلية غير حقيقية، وهذا لا يجعل مشاهدها حساسا بل متبلداً.

إن مدى القتل بين المتحاربين الأوروبيين فى الحرب العالمية الأولى قد روع جميع المحاربين حقا. كان مدى لم يقصدوه أو يتوقعوه عندما ذهبوا ليتحاربوا فى عام ١٩١٤ . إن جميع الناس الأوروبيين الذين تحاربوا فى الحرب العالمية الأولى قد أُلهبَت ظهورهم للاشتراك فى الحرب العالمية الثانية. وقد اختلفت درجة النفور من دخول الحرب مرة ثانية اختلافا كبيرا بين جماعات الناس المختلفة.

كان الفرنسيون والبريطانيون أشد الناس نفورا، وربما كان الإيطاليون نافرين على قدم المساواة دون شك، لو لم يكونوا يعيشون تحت نظام يفرض أقصى العقوبات على أى فرد من الإيطاليين يجهر بمعارضته للحرب. كان الألمان أقل نفورا من

الفرنسيين والإيطاليين، وإن كانت إصاباتهم أشد فى الحرب العالمية الأولى. كان بعض الألمان مدفوعين بتعطش للانتقام، ولكنهم كانوا على استعداد أيضا للتضحية بشبابهم فى سبيل شهوة الغزو. وقد انكسر بين الأوروبيين الفرنسيون والإيطاليون وقد صمد فى الحرب العالمية الثانية حتى النهاية الروس والألمان والبريطانيون فقط. وكان الأمريكيون من بين المتحاربين غير الأوروبيين فى الحرب العالمية الثانية، وكانوا مدفوعين كالألمان بتعطش للانتقام، وكان الانتقام فى حالة الأمريكيين من هجوم اليابانيين على بيرل هاربور. كانت الإصابات الأمريكية خفيفة نسبيا فى الحرب العالمية الأولى ، عند المقارنة بتلك الإصابات بين الأوروبيين المتحاربين ، وكانت إصابات اليابانيين أخف بصورة أكبر فى تلك الحرب، لكن الروح اليانانية فى الحرب الروسية اليابانية فى عام ١٩٠٤ توحى بعزيمة اليابانيين على شن الحرب دون تردد فى عام ١٩٤١، حتى لو كانت الإصابات اليابانية ثقيلة كالإصابات الألمانية فى الحرب العالمية الأولى.

وقد انتهت الحرب العالمية الثانية بإسقاط قنبلتين ذريتين أمريكيتين على مدينتى هيروشيما وناجازاكى فى اليابان. ولم يسبق قط لأى سلاح صنعه الإنسان من قبل أن تكون له قدرة على القتل تقارب هذه القدرة. وأدى اختراع السلاح الذرى إلى تغير فورى فى طبيعة الحرب. إن خمسة آلاف سنة من المؤسسة الشريرة التى كانت دائما قاسية مخربة قد أصبحت انتحارية. وأصبح جليا أنه فى أية حرب مستقبلا يملك فيها المحاربون من كلا الجانبين ويستخدمون السلاح الذرى لن يوجد فيها تمييز واضح بين المنتصر والمهزوم، وهو تمييز كان يجعل النصر مرغوبا إلى حد كبير. وسيكون كلا الجانبين منهكا، ولن يخرج منتصر منهما.

مواقف تجاه الحرب فى العصر الذرى:

إن الفهم العقلى لهذا التغير الثورى فى طبيعة الحرب وعواقبها تفشى بسرعة مدهشة حول العالم كله بين الناس الذين يدركون الشئون العامة وإذا مثّل هؤلاء أقلية

من غير شك، فإنها مع ذلك أقلية تقرر ما هو الاتجاه الذى سوف تسير فيه الشئون العامة. وربما كان من المتوقع من أجل ذلك للوهلة الأولى من التفكير أن فهم الأهمية الثورية لاختراع السلاح الذرى الذى سوف يعقبة تغير ثورى فى السياسة من أجل المحافظة على الذات، إن لم يكن من أجل التغير فى شعور القلب، وقد كان عاملا قويا جدا فى إلغاء الرق، وما زال عاملا قويا جدا فى الكفاح الراهن اليوم ضد التمييز العنصرى فى جنوب أفريقيا والولايات المتحدة وبريطانيا. ومع ذلك، فما زال الجنس البشرى بصفة عامة حتى الآن يتصرف منذ عام ١٩٤٥ كأننا ما زلنا نعيش فى ما قبل عصر الذرة.

إن القوتين العظمتين، وهما الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى ما زالتا تمارسان اللعبة الخطيرة فى سياسة القوة، وهى اللعبة التى دمرت حضارة بعد أخرى منذ بدأتها دول المدن السومرية فى الألف الثالثة قبل الميلاد. وهناك فى خلال تلك الأثناء عدد كبير من الدول الثانوية فى عالم اليوم - وهناك اليوم نحو ١٢٥ من دول السيادة المحلية على سطح هذا الكوكب الصغير - وهى تتبع مسلك القوتين العظميين فى الاستمرار فى استخدام الحرب كأداة فى السياسة القومية، وإن النجاح فى هذا من أكبر الحظ السيئ فى بعض الحالات. إن الخطورة فى لعبة سياسة القوة الدولية أنها تؤدى حتما إلى "المواجهات". وكانت هناك أربع من هذه المواجهات على الأقل بين الاتحاد السوفيتى والولايات المتحدة بين عامى ١٩٤٥ و١٩٦٧، حول برلين وكوريا وكوبا والشرق الأوسط، وهناك الآن أيضا مواجهة بينهما فى فيتنام، وهى ليست أقل خطورة من حيث أنها ظاهرة، وهى أخطر منها جميعا لأنها قد تجر الصين أيضا.

من الواضح أن كلا من روسيا وأمريكا تنوى أن تمتنع عن شن حرب ذرية على بعضها بعضا. والواقع أنهما تنويان الامتناع عن الحرب بينهما حتى بالأسلحة التقليدية، لأنهما تدركان أن الحرب بينهما التى تبدأ بالأسلوب القديم لا بد أن تنتهى بالإبادة الذرية الجماعية. ولعل الولايات المتحدة من بين الاثنين هى الآن فى مزاج أخطر. وعند

روسيا تجربة الخضوع للغزو والتدمير مرتين فى ذاكرة كثيرين من الذين ما زالوا أحياء من الروس. وليس فى الولايات المتحدة جزء تعرض للغزو والتدمير منذ الحرب الأهلية بين عامى ١٨٦١-١٨٦٥ .

إن الجنوب القديم الذى تعرض للتخريب والعجز فى تلك الحرب، وما زال يتحسر تحت تأثير ذكراها، وهو اليوم أيضا أكثر أجزاء الولايات المتحدة شبها بالحرب، والسبب المفروض أنه الأكثر تأخرا والأسوأ تعليما. وفيما عدا الإشارة إلى الاستثناء فى إسقاط الاتحاد الكنفدرالى بالإضافة إلى ذلك، فإن التاريخ الحربى للولايات المتحدة ظل حتى اليوم "قصة نجاح" بغير انقطاع. وقد بدأ بالانتصار على بريطانيا، وكانت كارثة إسقاط الاتحاد الكنفدرالى نصرا شهيرا للوحدة، وقد وضع الشمال المنتصر سياسة المجتمع الأمريكى منذ ذلك الحين. من أجل ذلك، يكون من العسير على الأمريكيين اليوم بصفة عجيبة أن يعترفوا بارتكابهم أحد الأخطاء، وأنه يحسن بهم أن يعيدوا التفكير مرة أخرى ويغيروا سياستهم. هذه العقلية الراهنة فى أمريكا خطيرة فى العصر الذرى ، لا على الناس فى الولايات المتحدة فقط، وإنما على الجنس البشرى كله.

إن حرب فيتنام هى أول حرب استعمارية تحاربها قوات من المجندين الإلزاميين، لا المحترفين ولا المتطوعين لهذا الغرض. وكانت الجزائر جزءًا من فرنسا الكبرى من الناحية الاسمية، حتى تخلت فرنسا عن سيادتها عليها. لكن الحرب الجزائرية كانت حربا استعمارية حقا على كل حال. ومن المهم أن المجندين الإلزاميين الفرنسيين الذين أرسلتهم الحكومة الفرنسية قد أسهموا بصورة ملحوظة فى استحالة استمرار الحرب، وذلك بثورتهم ضد ارتكاب الفظائع التى يستدعيها بالضرورة حرب الكبت.

إن أغلب المواطنين الأمريكيين من الطبقة الوسطى اليوم مستعدون كما كان أى كنعانيين أو أهل الأزتيك مستعدين أبدا للتضحية بأبنائهم على مذبح مولوخ(*). والسؤال هو ما إذا كان الجيل الصاعد من المواطنين الذكور الأمريكيين سوف يخضع للتضحية به من طريق الإكراه.

(*) إله سامى يعبده الناس بالتضحية بأطفالهم على مذبحه. المترجم

لقد ظل الجنس البشرى فى تلك الأثناء منذ عام ١٩٤٥ يعيش فى ظل تهديد بالفناء لم يتعرض له منذ انتصر الإنسان انتصارا أكيدا على جميع الوحوش المفترسة الكبيرة على هذا الكوكب. وربما حدث هذا منذ ثلاثين ألف سنة تقريبا، ولعل البشر كان يصعب عليهم أن يدركوا خطر الفناء، الذى كانوا يحاولون تحرير أنفسهم منه فى ذلك التاريخ. وهم اليوم فى الجانب المقابل يدركون التهديد تماما، وقد عرفوا أنه الآن يأتى من أنفسهم، كما يعرفون أيضا أنه تهديد أصعب كثيرا من التهديد السابق بالفناء من جراء النمور ذوات الأنياب المعقوفة. وربما كان أصعب حتى من التهديد بالفناء بواسطة البكتيريا، الذى تم التخلص منه حديثا، (وهو تهديد ربما استعاده الإنسان فى صورة الحرب البكتيرية).

وقد ظهر فى الولايات المتحدة منذ عام ١٩٤٥ علم كاذب يزعم قدرته على التنبؤ بآثار الحرب الذرية فى المستقبل. وهو يعبر عن نتائجه بالإحصاءات التى تجمع أعداد الأنفس البشرية المفقودة، وكمية الإنتاج البشرى المدمر من جميع الأنواع. وقد تكون هذه الإحصاءات قريبة من الصواب أو بعيدة عنه ولكن ممارسى هذا العلم الكاذب عندما يستمرون فى مناقشة عدد الملايين من الوفيات الذى يمكن أن يكون "مقبولا"، فإنهم يخونون دعواهم الكاذبة بالعلم عند تعديهم على مجال المجهول، وهو ما لا يمكن معرفته. ليس هناك أية سابقة فى التجربة الإنسانية الماضية تتعلق بأى تخمين عن شدة مشاعر الرعب والحزن والخوف، والشعور بالذنب فوق كل شىء لما سوف تجلبه طقوس القتل على المستوى الذرى إلى سطح الوعى الإنسانى من الهاوية العميقة المظلمة، وهو ما يكشفه لنا تقدم علم النفس الحقيقى.

الفصل الثامن

طول العمر والنقص فى وفيات الأطفال

أرنولد توينبى Arnold Toynbee

ظل الموت بسبب المرض فى الحياة المدنية فى أثناء زمن السلم مألوفا كالموت بالعنف فى الحرب خلال مسار التاريخ البشرى كله حتى الآن فى العالم بأسره. وإنما كانت إدارة الصحة العامة ورعاية الأفراد من البشر حديثة فى الذاكرة الحية، وهذا - حتى الآن- فى نطاق جزء صغير من الجنس البشرى، وقد بلغت درجة من التقدم حيث أمكن تخفيض الموت قبل الأوان إلى حد أصبح معه فى حالات أزمنة السلم غير مألوف، وهو الموت من "الأسباب الطبيعية" (أى المرض) فى فترة الرضاعة والطفولة الباكرة وكل مرحلة تالية فى الحياة قبل بلوغ غاية العمر التقليدية وهى مائة وثلاثة أعوام.

إن الجزء المتقدم من الجنس البشرى هو بالطبع جزء ظل فيه الموت بالعنف فى الحرب مألوفا تماما كما كان فى أغلب الأماكن والأزمان فى الماضى منذ اختراع مؤسسة الحرب. إن عدد الأحياء من المحاربين فى الحرب العالمية الأولى لا بد أن يكون بالملايين فى عام ١٩٦٨، ويقدر عدد الأحياء من المحاربين فى الحرب العالمية الثانية بما يزيد على ملايين أخرى. ولا بد أن الكثيرين من هؤلاء السابقين الذين لا يزالون اليوم أحياء قد قتلوا رفاقا من البشر، بطريقة غير شخصية فى بعض الحالات، بإلقاء القنابل من الطائرات، أو إطلاق القذائف من المدافع أو القتال يدا بيد فى بعض الحالات كذلك بواسطة حراب البنادق، والقنابل اليدوية وقاذفات اللهب. وأكثر من هؤلاء رأوا رجالا يقتلون بأيد أخرى، وجثثا على أراضى المعارك.

أصبح توجيه الحرب منذ عام ١٩١٤ أشد فظاعة بصورة متزايدة، كما لوحظ فى الفصل السابق(١). إن قنابل النابالم والقنابل الموجهة ضد الأشخاص والمستخدمة اليوم فى فيتنام، وهذه موجهة ضد المدنيين والمحاربين كذلك، هى أسلحة وحشية أكثر من أية أسلحة مخترعة أو حتى مُتصوَّرة فى تاريخ اندلاع الحرب العالمية الأولى. وقد تم ارتكاب إبادة الجنس فى الحياة المدنية أيضا فى عصرنا بدم بارد بواسطة النازيين فى ألمانيا نفسها أولا، وبعدئذ فى البلاد الأوروبية الأخرى التى هزمها الألمان مؤقتا فى أثناء الحرب العالمية الثانية. إن القتل الجماعى الذى قام به الألمان للمدنيين من اليهود وغير اليهود يمكن مقارنته فى مداه بالإبادة الجماعية التى قام بها المغول فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر من العصر المسيحى، وقام به تيمور لنك فى القرن الرابع عشر. وقد تزايد السلوك الإنسانى فى زمن السلم على كل حال فى العالم الغربى بصفة عامة منذ العقود الأخيرة من القرن الثامن عشر. وتزايدت بناء على ذلك الفجوة بصفة عامة بين السلوك والتجربة الغربية زمن السلم وبين السلوك والتجربة الغربية زمن الحرب فى عصرنا، حتى أصبحت الآن ولعلها أوسع مما كانت فى أى زمن أو أى مجتمع آخر.

إن هذا التزايد الدائم فى التعارض بين أحوال الحرب وأحوال السلم قد أدى بصورة ظاهرة إلى ضغوط وتوترات نفسية فى الأرواح الغربية المعاصرة فى الغرب المعاصر. ربما كان تأثير نظرات أزمنة الحرب إلى الموت على نظرات أزمنة السلم إلى الموت أقل مما كان متوقعا فى الوقت نفسه. ومن سمات مؤسسة الحرب أنها تُعَلِّق "فى أثناء وجودها" عددا من المحرمات الأساسية فى زمن السلم ، لكنها عند تعليقها لا تلغيها، لأنها تحيا من جديد عند عودة السلم (وإن لم تكن دائما سليمة). وهذا أحد الأسباب الذى يجعل سنوات الحرب فى حياة الإنسان تبدو له عند استرجاعها كأنها

(١) انظر فصل الموت فى الحرب.

تنتمى إلى مجموعة من السنين مختلفة عن سنوات السلم. وهذا على الأقل مظهر حياة الغربيين السابقة كما تبدو لهم، وقد عاشوا فى أثناء الحربين العالميتين.

إن سنوات الحرب تبدو عند النظر إلى الماضى غير حقيقية على نحو ما بالنسبة للغربيين الذين كانوا محاربين، وهى تبدو كذلك بحق الأغلبية الذين كانوا لا يزالون مدنيين فى ذلك الحين. وقد لوحظ أن الأطفال فى الولايات المتحدة الذين يشاهدون مظاهر العدوان تتقدم فى الحقيقة على شاشة التليفزيون قد تعودوا على النظر إلى القتل الحقيقى والشعور به كأنه من قبيل التمثيل، كما يرون الكثير جدا مما يشاهدونه فى الحقيقة على التليفزيون. ولعل من الحق - تبعا لذلك - وإن كان متناقضا فيما يبدو- أن ألفة الموت فى المجتمع الغربى المعاصر أقل منها فى أغلب الجنس البشرى من غير الغربيين، وأقل منها فى الغرب نفسه حتى زمن قريب، وذلك فى المجتمع الغربى الذى شن حربين عالميتين من الإبادة الجماعية لا سابقة لهما، واخترع السلاح الذرى.

هبوط الوفيات المبكرة :

لم يحلم الغرب حتى زمن قريب فى جميع المجتمعات - وهى تشمل الغرب - باحتمال فى الاعتراض على خصوبة الطبيعة وهزيمتها. فقد تناسل البشر كالأرانب إلى أقصى الحد البيولوجى باعتبار ذلك أمرا طبيعيا، حيث كان إنجاب أقصى عدد من الأطفال هو الوسيلة الوحيدة المعروفة لتمكين الجنس البشرى من البقاء تحت ظروف كانت الوفيات فيها من الأسباب الطبيعية على الحد الأقصى أيضا (ونتعمد استبعاد وفيات الحرب من العدد). وتصور الآباء من الأمور الطبيعية أن نسبة فقط من نسلهم الكثير ستحيا حتى تبلغ العمر البالغ. وأدرك الأطفال أن إخوانهم وأخواتهم قد ماتوا قبل بلوغهم أنفسهم سن الوعى، وأن الأحياء عاشوا حتى يفقدوا أخوات وإخوة آخرين كانوا زملاءهم فى اللعب.

إن تجربة اليُتم قبل بلوغ مرحلة الكبار كانت كذلك أكثر شيوعا فى الغرب منه اليوم منذ بضعة أجيال فى الماضى ، وكان موت الأجداد لا يزال مألوفا بصورة أكبر منه اليوم لسبب جزئى، هو أن متوسط العمر المتوقع كأن أقصر عندئذ إلى حد كبير مما أصبح عليه اليوم فى الغرب، وكذلك لأن تماسك العائلة كان لا يزال عندئذ قويا فى الغرب، وهو ما زال تماسكا سعيدا فى بقية العالم حتى اللحظة الراهنة. وكان للأجداد مكان بالطبع فى بيوت الأبناء والأحفاد فى الغرب وبقية البلاد الأخرى حتى زمن ليس بالبعيد جدا. وكانت العلاقات الشخصية وثيقة بين الأجداد والأحفاد، وشعر الأحفاد بالخسارة عندما مات الأجداد على مسار الطبيعة.

هذا التعليم التلقائى للأطفال بغير قصد حتى يألفوا الموت كان قاسيا (وهو اليوم قاس حيث لا يزال جزءا من تجربة الطفل الطبيعية بين أغلب الجنس البشرى من غير الغربيين). وهناك شعور فى الوقت نفسه بأن هذه التجربة كانت وما زالت نافعة ، حيث إن كل إنسان سوف يموت عاجلا أو آجلا، وسيكون الأمر أقل صعوبة عليه فى مواجهة موته الخاص فى النهاية، حين يدرك دنو أجله، إذا كان يألف الموت منذ الطفولة باعتباره إحدى الحقائق الطبيعية فى حالتنا الإنسانية. وقد ينفر على الرغم من ذلك باعتباره إنسانا من الموت، حيث يستثير الموت الغضب للكرامة الإنسانية، ولكنه سوف يدرك على الأقل أن الموت مدعاة للغضب، وهو حقيقة ثابتة ، وأن على كل إنسان أن يرضى بها. إن العقوبة على عدم ألفة الموت فى الطفولة، وحتى فى أوائل الحياة البالغة، أن يصبح الموت بعيدا عن التفكير والذكر، كما أصبح فى الولايات المتحدة اليوم[1].

المشكلات الاجتماعية المتعلقة بطول العمر:

كانت إطالة العمر المتوقع فى الشيخوخة نصرا من الانتصارات الجديرة بالتنويه للعلوم الطبية الغربية الحديثة، ولهذا أيضا مساوءه. فقد تحققت إطالة العمر فى الغرب

(١) انظر الفصل الرابع : مواقف متغيرة تجاه الموت فى العالم الغربى الحديث.

فى الوقت نفسه حين بدأ التماسك العائلى التقليدى القديم جدا فى التهدم هناك، وفى فترة من التضخم النقدى المتزايد كذلك. إن المسكن العائلى التقليدى هيأ مكانا لجميع الأحياء من أفراد العائلة من كل الأجيال ولم يشتمل على الآباء والأطفال فقط ، وإنما اشتمل كذلك على العمات والخالات. وإذا كانت حياة العانس عسيرة فى مجتمع لم تتفتح فيه مجالات العمل المهنى للنساء بعد، فإن حياة العمة أو الخالة كانت لها وظيفتها حقا ومكافأتها وإرضاؤها فى مسكن عائلى يوجد فيه الأجداد وجماعة من الأطفال أيضا فى حاجة إلى الرعاية، حيث إن هذا كان ولا يزال عملا عسيرا على امرأة واحدة مثل الزوجة أو الأم تقوم به وحدها. وتقتصر العائلة العادية فى العالم الغربى اليوم على عدد قليل من الأطفال وآبائهم. ولم تعد تشتمل على العمات أو الخالات غير المتزوجات للمساعدة فى البيت، فالنساء غير المتزوجات يعملن الآن كالرجال فى أعمال غير منزلية.

تقوم الزوجة والأم فى بعض العائلات بالعمل المهنى بعض الوقت الآن لتكمل دخل زوجها من جهة فى فترة تزيد فيها الأسعار دائما على زيادة الأجور، ومن جهة أخرى لأن مكانة المرأة المتزوجة ومكانة العانس قد تبادلت المواقع. فقد تغيرت العانس من امرأة تعتمد على غيرها وتعيش فى بيت أختها المتزوجة أو بيت أخيها إلى امرأة مهنية تكسب عيشها كالرجل. ووضعت العانس فى دورها الجديد الزوجة والأم فى حالة من عدم الارتياح ، إذ تميل الزوجة والأم التى كانت ذات مرة فخورة إلى الشعور بأنها أدنى إذا لم يكن لها عمل سوى ذلك. إن المسكن العائلى الذى لا يشتمل على العمات أو الخالات غير العاملات، والذى تكون فيه الزوجة والأم ناقمة إذا كانت أعمالها المنزلية وظيفتها كل اليوم، لن يكون فيه مكان للأجداد. ويجب على هؤلاء الآن أن يعولوا أنفسهم على أقصى طاقاتهم.

إن زيادة العمر المتوقع فى مثل هذه الظروف الجديدة أبعد من أن تكون نعمة بغير شائبة. ويجب على المسنين فى الغرب اليوم أن يحتملوا عبئا مضاعفا من الوحدة والقلق.

إن سبب القلق مالى. والمعاش الثابت يشترى الأقل فالأقل فى زمن التضخم. وأغلب معاشات الطبقة الوسطى من مصادر غير حكومية ثابته أبدا. وتزداد معاشات الحكومة من زمن إلى زمن، حيث تستمر تكاليف المعيشة فى الارتفاع، ولكن الزيادة نادرا ما تكون مناسبة، وهناك فى العادة تأخر زمنى بين زيادة تكاليف المعيشة والزيادة التالية فى مستوى المعاش. إن أغلب العاملين الكاسبين السابقين الذين بلغوا وتخطوا سن التقاعد من العمل الذى كانوا يعملون فيه عاجزون عن الحصول على أعمال جديدة لكسب المال فى حرية، حتى لو كانوا لا يزالون يتمتعون بالصحة البدنية والطاقة والقدرة الفكرية للإسهام المستمر الفعال فى عالم العمل. إن أولئك الذين يجدون أعمالا جديدة ويحتفظون بالقدرة على استغلالها حقا هم قلة محظوظة. ويكون حظهم الطيب مع ذلك كفاءة ضائعة "مدى سنينا سبعون فإن كانت قوة فثمانون- جلها عناء وخيبة ليس غير"(١).

إن المسنين فى عالم اليوم يعيشون فى وحدة لأنهم لا يطمئنون إلى مكان أكيد فى مسكن عائلى بالطبع يشتمل كذلك على أناس فى أوسط العمر وأطفال. وإذ يقتصرون على مواردهم الخاصة، فإن المسنين يخرجون من العالم، ويفقدون الصلة بالأجيال التى تمثل الحاضر والمستقبل. إن المسنين وحيدون حتى لو كانوا متزوجين، وكان كلا الزوجين لا يزال حيا. وهم أشد وحدة إذا كانوا غير متزوجين. وهم فى غاية العزلة إذا كانوا أرامل من الرجال والنساء.

عندما علق صاحب المزامير بأن قوة الرجال والنساء الذين بلغوا سن الثمانين ليست عندئذ سوى عناء وأسف، كان السبب الذى قدمه للأسف فى الشيخوخة البالغة هو "أن الحياة تختفى سريعا ونحن نغيب". هذه العبارة التى كانت صادقة فى العالم

---

(١) سفر المزامير ٩٠-١٠ الترجمة : محمد الصادق حسين ، والأب س. دى بوركى الدومنكى دار المعارف، القاهرة.

حتى زمن قريب يقرؤها الناس على سبيل التناقض اليوم. إن العجوز الغربى اليوم الذى تصبح إطالة الحياة عبئا متزايدا بالنسبة إليه، ويشعر باقتراب الموت، لا يكون هذا المستقبل سببا فى أسفه، وإنما سوف يقدم إليه التخفيف. ومن سوء الطالع، أن العالم الطبى قد أصبح اليوم ماهرا فى حفظ البشر أحياء فى ظروف بيولوجية كانت تقتلهم حتما منذ زمن غير بعيد جدا. إن الرجل الغربى اليوم - بناء على ذلك - لا يمكن أن يعتمد على الخروج من محنة تزداد صعوبة احتماله لها فى المستقبل القريب، حتى فى سن الثمانين. وإذا كان محروما- كما هو الآن- حتى فى سن الثمانين من المستقبل الأكيد فى موت مبكر، فعليه أن يقصر آماله - بدلا من ذلك - على بداية الخرف المبكر، لأن الخرف يقدم حقا خدمة رحيمة، ويكون تأخير الموت سببا للإحباط لعجزه عن تقديمها نظراً للتقدم الرائع فى المهارة الطبية. إن الخرف مثل الموت يقضى على القلق والوحدة معا، لأن الخرف يمكن أن يطمس الوعى كما يفعل الموت.

المسئوليات الناشئة عن نقص معدل الوفاة:

إن إطالة العمر المتوقع ونقص وفيات الأطفال يواجه البشر بضرورة اتخاذ قرارات وخيارات كانت من قبل غير عملية وغير متصورة، وهذا التوسع فى مجال العمل الإنسانى إضافة إلى عبء المسئولية الإنسانية.

إن تقدم العلم الذى أنقص وفيات الأطفال هو الذى أنتج فى الوقت نفسه وسائل منع الحمل، وقد فرض هذا الإنجاز فيما بينهما واجب تنظيم العائلة على الآباء الغربيين. ويجب على الآباء اليوم أن يقرروا العدد الاجتماعى الأنسب، بدلا من إنجاب العدد البيولوجى الأقصى من الأطفال. وهذا هو العدد الذى سيقدم إلى الطفل - الذى يأتى عمدا إلى العالم - أكبر فرصة فى أفضل حياة ممكنة، وأفضل ما يمكن بالمعنى الروحى للكلمات، ويخضع لاعتبار المستوى الأدنى للرفاهية المادية، الذى لولاه لا يُحتمل للإنسان أن يقدر على تحقيق إمكاناته الروحية الكاملة.

من الواضح أن الخيارات المتعلقة بتنظيم الأسرة عسيرة. وهى مع ذلك لا تبلغ فى الصعوبة مستوى الصعوبات التى يثيرها طول العمر المكتسب حديثا لدى الإنسان الغربى.

لقد وسّع آرثر هيو كلاو Arthur Hugh Clough الوصية السادسة فى قصيدته "آخر الوصايا العشر The latest decalouge" بحيث تقرأ:

لا تقتل ، ولكنك لا تحتاج إلى الجهاد

بصفة رسمية حتى تبقى حيا

كتب الشعر سخرية من تهرب الإنسان المنافق من واجباته التى يقدم فى سبيلها كلاما من طرف اللسان. وما كان فى طوق الشاعر أن يشك فى أن سخريته سوف تصبح مشكلة أخلاقية خطيرة فى غضون قرن من موته شخصيا.

الانتحار:

إن مأزق المسنين فى العالم الغربى فى القرن العشرين كان متوقعا منذ أكثر من قرنين فى حدس سويفت Swift الذى تخيله فى تصوراته عن أهل سترلدبروجز Struldbrugs، لكن هناك فارقا محوريا بين مشكلتهم ومشكلة الإنسان فى القرن العشرين. كانوا خالدين. ولم يكونوا أنفسهم ولا أى إنسان آخر قادرين على إعفائهم من الخلود بالإنعام عليهم بنعمة الموت. أما طول العمر فهو ليس خلودا على كل حال مهما امتد طول العمر بالمهارة الطبية فى العصر الحاضر. وفى إمكان الرجل المسن أن ينتحر، وفى طاقة طبيبه أن يجاهد بصفة رسمية لإبقائه حيا. بل إن فى إمكان طبيبه فوق ذلك أن يعفى المريض التعيس من تعاسته، وهى خدمة يمكن لأى إنسان رحيم العقل ألا يتردد فى تقديمها لأى كائن حى غير بشرى تصبح حياته غير جديرة بأن يعيشها. هنا ثلاثة خيارات، وليس خيار المريض أقل صعوبة من الخيارين اللذيْن يواجهان طبيب المريض.

سبق أن لاحظنا فيما سبق[١] أن الكبح الراهن ضد الانتحار أسطورة مسيحية هى مفارقة فى مجتمع ما بعد المسيحية. وحتى إذا تم الاتفاق على أن الانتحار حق إنسانى أساسى مع ذلك (وما زال هذا الموضوع محل خلاف فى الغرب)، وهو ما يتعلق على الأقل بإنسان أصبحت الحياة عبئا عليه ، فقد تكون هناك أسباب وجيهة لجعل ممارسة هذا الحق محل اعتبار وتأييد بواسطة السلطات العامة المسئولة. ويجب عليها قبل أن تمنح موافقتها أن تتأكد من أن الانتحار هو الخيار الحازم للمريض الذى فكر فيه جيدا، وأنه ليس نزوة يائسة من مزاج سوداوى قد تزول. ويجب على السلطات العامة للتأكد من عدم تفكير المريض فى الانتحار تحت ضغط من أناس آخرين، وأن هذا احتمال يجب أن تحترز منه السلطات العامة ، ذلك بأن أى إنسان مُسنّ عاجز يكون حتما عبئا على المجتمع بصفة عامة، وعلى أقاربه المقربين بصفة خاصة، وإذا تصادف أن كان صاحب أملاك فقد يكون لأقاربه مصلحة إيجابية أو سلبية كذلك فى موته عاجلا لا آجلا.

افرض أن المريض قد أصبح خرفا على كل حال قبل أن يستولى عليه الموت، فإن عبء الاختيار بين إبقائه حيا، أو تركه يموت، أو مساعدته على الموت لن يقع على المريض نفسه، بل على طبيبه.

وسيكون الخيار صعبا بالنسبة للطبيب، كما ستكون المسئولية ثقيلة، وقد أصبحت المشكلة تشغل عقول الأطباء الممارسين وضمائرهم. ولا بد من مواجهة المشكلة عاجلا أو آجلا، لا من جهة الأطباء وحدهم، بل من جهة الجماهير والسلطات المدنية وسيكون من الظلم وسوء الأدب أن نترك العبء كله حتى يحمله الأطباء بغير مساعدة. ولا بد من تخويلهم السلطة فى ممارسة هذا الخيار العسير عاجلا أو آجلا تبعا للقواعد المتفق عليها من أجل إرشادهم بواسطة المجتمع بالتعاون مع الأطباء أنفسهم.

---

(١) انظر الفصل السابق: مواقف تقليدية تجاه الموت.

الفصل التاسع

الموت فى الرواية فى القرن العشرين

إريك رود Eric Rhode

إن قصيدة وليم إمبسون William Empson بعنوان "جهل الموت Ignorance of Death" هى أحسن وصف عرفته عن مأزق الكتاب الذى يجدون أنفسهم فيه عند مواجهة هذا الموضوع. ويبدأ إميسون بالسخرية الهادئة من المواقف المختلفة التى يتخذها بعض التابعين الشعبيين لماركس وفرويد. ثم يواصل ويزعم:

حيث إننا لا نملك معرفة وراثية أو مباشرة بالموت

فهو قادح زناد أكبر بندقية لدى رجل الأدب

ونحن سعداء إذ نساويه بأى هدوء مفهوم

يؤدى هذا الهدم حتما إلى خلخلة كل موقف أدبى ممكن، ويترك إمبسون مع القليل الذى يقول عن نفسه:

..... أشعر أنى فارغ الذهن فى هذا الموضوع

وأظن هذه الفكرة مهمة، وصحيحة عند أى إنسان كى يستحضرها فهى فكرة ينبغى على أغلب الناس أن يتهيئوا لفراغ الذهن عنها.

هذه الحجة فعالة ، حتى لو أردنا التساؤل عن خلاصتها. إن صورة رجل الأدب كأنه صياد فيها قوة. إننا اليوم على وعى كبير بكيفية قيام المؤلف بتصوير موت إحدى

الشخصيات عند موتها : أجاثا كريستى Agatha Chrisite مثلا تستخدم المؤامرة فى جرائمها. ويجب أن نتناول أى حزن على هذه الوفيات بدقة شديدة، إذا كان له ألا يبدو نفاقا.

إن بعض المؤلفين فى العصر الفكتورى قتلوا فى رواياتهم من أجل التأثير. إن مشهد فراش الموت الجيد شجع على التقوى، (على الرغم من أن أحدا لم يصور هذه التقوى تصويرا ساخرا على نحو مقنع أكثر من الكاتب الفكتورى لويس كارل Lewis Carroll عند تصويره والروس Walrus وكاربنتر Carpenter يبكيان على أصداف المحار). لقد هيأ درسا أخلاقيا، ودعم القيم الاجتماعية والدينية بجمع المؤمنين وإزعاج المرتابين. لكن بعض هؤلاء الفكتوريين العظام كانت عندهم بواعث أخرى إلى جانب الضغط على قرائهم، وآمن كثيرون منهم بقدرتهم الشبيهة بالقدرة الإلهية على الإحاطة الشاملة بالأشياء، حتى التجربة المجهولة فى الموت ، وتصوروا الكثير، وليس أقله الحياة الآخرة. إن تناول ديكنز لموت نيلْ Nell الصغيرة غالبا ما يُضرب مثلا لهذه القدرة العامة. يكتب جابريل بيرسون Gabriel Pearson فى كتاب: ديكنز والقرن العشرون Dickens and the twentieth century عن "دكان الفضول القديم The old Curiosity Shop":

"إذا كانت مشاهد الموت تُختار وحدها لاستغلالها المسيئ للعاطفة فلا يتعلق الأمر بهذه (فهى تشغل حيزا صغيرا) ، وإنما يتعلق الأمر بالمفهوم العام للطفلة، كأنها بطلة شهيدة، ملاك عروس، طفلة للعالم السفلى الذى يُنفِّر.. ويبدو لها أهمية كبيرة، ولا يدعم كل ذلك أى شىء تعمله أو تعانيه".

ولكن إذا كان ديكنز قد مكَّن لموت نيلْ وصور بحق معاناتها، ألا نشعر بالقلق مع ذلك على الموضوع؟ ما هى بواعثه على اختيار موت طفلة؟ ربما كان إلى حد ما علمه باستمتاع قرائه بمثل هذا المشهد. ولكن كان هناك باعث آخر، وأظن أن ديكنز يلمح إليه بعد بضع صفحات من موت نيل، عندما يشير إلى الانتحار الظاهرى الذى ارتكبه كويلب Quilip الشرير.

"تركوه حتى يدفن بخابور فى قلبه فى مركز يتوسط أربعة طرق منعزلة.. وسرت شائعة بعد ذلك بأن هذا الاحتفال الرهيب البربرى ينبغى التخلص منه.. لكن الآراء كانت منقسمة حتى فى هذا المجال ...".

قد يكون الأمر حسنا كذلك. إن الهجوم على كويلب واضح جدا ويجب أن يكون مبررا. وكأن ديكنز قد أدرك جزئيا كيف يمكن أن يكون الموت الروائى ذريعة للانتقام. ها هنا شكوانا التى يجب أن تكون بصفة رئيسة من بعض الفكتوريين؛ فغالبا ما يكون اختيارهم للضحية بمصادفة لطيفة جدا، أو موضوع معهود لخيال شاذ أو نفور شهوانى. وهناك على هذا المعنى مجال قليل للاختيار بين وفيات ملائكة ديكنز الصغار وتلك البغايا عند دُستُيْفسكى.

لكن التأثير الأدبى يمكن أن يتخذ صورة أخرى. ما الذى نستخلصه مثلا من رثاء عطيل لنفسه فى كلمته العظيمة الأخيرة؟ إن ف.ر. ليفز **Leavis** قد زعم أنها كان مخططة عن وعى للكشف عن غرور عطيل، ولكن هذا يبدو وكأنه دفاع خاص. كما أن تأثير كلام عطيل فى هذه المسألة قوى جدا، ولا يتعرض للنقد إلى حد كبير فى بقية المسرحية، بحيث إننا نشعر على الأقل فى المسرح بأنه إنكار للموت. وأنا أقترح أن شكسبير يتعاطف مع الدور الذى يلعبه بطله. إن شعره المرسل بعيد عن فراغ إمبسون- لكننا لا نستطيع بالطبع معرفة ما الذى كان يتعاطف معه شكسبير. والذى يمكن أن نتأكد منه هو أنه الآن فقط فى القرن العشرين أحس الناقد بالحاجة إلى توضيح عدم التوافق بين أسلوب درامى معين – هو كلام سينيكا – فى التناول الصادق لتجربة الموت.

ثم شرح هذه المسألة بصورة مستفيضة فى مسرحية توم ستوبارد **Tom Stoppard** بعنوان "روزنكرانتز **Rosencrantz** وجولد نستيرن **Guildenstern** مَيِّتَان" حيث يعلق جيلدنستيرن المعاصر جدا باشمئزاز على مداولات هاملت: "لا، لا- ليس الأمر كذلك – ليس الموت رومانسيا.. ليس الموت أى شىء... ليس الموت كذلك.. إنه

انعدام الوجود، ولا مزيد.. الزمن اللانهائى فى انعدام العودة أبدا.. فجوة لا يمكن أن تراها، وعندما تهب الرياح فيها فإنها لا تحدث صوتًا".

إن مسرحية ستوبارد تبين مزاجا معاصرا بصورة تامة، مثل الكآبة والصفاقة والتردد والفراغ ولم يفعل أحد من الكتاب فى إقرار هذا المزاج فى الأدب المعاصر أكثر من فيليب لاركين Philip Larkin.

الساعات تقدم الدليل

أو يتقدم الميلاد

على الموت ببطء على السواء

إن قول هذا للبعض

لا يعنى شيئا، ويترك الآخرين

بلا شىء يقال

لكن هذه الاستجابات، مثل "فراغ" إمبسون يسيرة جدا مهذبة جدا- ويقدم إمبسون حجة تزعزع أغلب المناقشات السابقة للموت، وإنما يتمكن فقط من إحلال نوع آخر من العاطفية مكانها. ولعلك تظن أن هذا الحدث الذى لا يمكن معرفته، والذى يؤثر تأثيرا عميقا جدا فى وعينا ومشاعرنا يستدعى ما هو أكثر من التحفظ المؤدب. وهذا جائز، لكن كثيرين من المفكرين والكتاب فى هذه البلاد يشاركون تحفظات إمبسون فيما يبدو. ورأى فينجشتاين Wittegenstein فى كتاب "تراكتاتوس Tractatus" أن "الموت ليس حدثا فى الحياة. فالموت لا يعاش خلاله"، وهو ما يرتبط بصورة وثيقة بما ينتهى إليه، وهو : "حيث لا يستطيع الإنسان أن يتكلم ، يجب عليه أن يصمت". وتوحى الإعلانات العفوية المفاجئة للموت فى روايات إ. م. فورستر E.M. Forster فيما أظن بالرغبة فى وصف مجالات التجربة المعروفة فقط. إن الحكمة تكمن فى معرفة حدودنا.

إن نفورنا من الحداد العلنى فى طقوس الجنازات والملابس السوداء هو تراجع فى العادات شرحه جوفرى جورد فى كتاب الموت والحزن والأسى ولعله يتعلق بعدم رغبتنا فى الاحتفال بالموت فى الرواية فى العصر الحاضر. لكن إبعاد الموت عن مجالات الشعور، واختزاله إلى مجموعة من الحقائق والإحصاءات عن الجثث يجعل الموت يصبح موضوعا للكوميديا السوداء والتفصيل البشع - ويعزى هذا الكبح للتصور أحيانا إلى مخاوفنا الباعثة على الشلل من الإبادة الجماعية، أو شعورنا بالذنب الذى لم نتخلص منه فيما يتصل بمعسكرات الاعتقال. إن مذابح القرن العشرين - فيما يبدو- أصعب من قدرة العقل على التأمل، ولست أدرى إن كان فى الإمكان اختبار هذه النظرية وكيف يمكن ذلك.

إن الموت والأسى لا ينبغى مع ذلك أن يكون من الموضوعات المحظورة فى الرواية، كما تبين رواية تولستوى "موت إيفان إليتش The Death of Ivan Ilyich". ولا يتخذ تولستوى أية مواقف. ولا يبدى تعليقا صريحا على موت إيفان. وتبدو قصته كأنها سلسلة من الملاحظات. ويكمن الفن (وتعليقات الفنان) فى تنظيم هذه الملاحظات. وربما كانت هذه الأمانة هى ما نرجوه من رواية تسجيلية مثل: "موت يسير جدا A very easy death" - فقد أحست سيمون دى بوفوار بانفعال عميق جدا لموت أمها، لكنها لم تسمح لشعورها بتشويه قدراتها على الملاحظة والمنطق وجمعت دليلها وانتهت إلى نتيجة متسقة لديها هى أن الموت يبعث على الغضب الشديد وهو يحط من الكرامة وغير طبيعى.

ينتهى تولستوى إلى نتيجة مختلفة، لكنه على الأغلب يستخدم الطريقة نفسها- إن موت إيفان إليتش من أحد الجوانب على كل حال لا يشبه الرواية التسجيلية، وإنما يتيح الحرية فى عرض التجربة من خلال وجهات نظر العقول المختلفة. يختص الجزء الأول من الحكاية بزملاء إيفان واستجاباتهم الحكيمة الذكية لأخبار موته. وحكاية تولستوى دقيقة الإدراك إلى حد القسوة فى الغالب. وقد لوحظ ابن إيفان المخلص

أنه يشبه أباه شبها كبيرا: "كانت عيناه حمراوتين من البكاء، وكانت له النظرة التى تشاهد فى عيون الصبيان الأشقياء فى سن الثالثة عشرة والرابعة عشرة". ثم ترجع الحكاية فى الزمن إلى الوراء، وتأخذ نبرة دافئة غير متوقعة إذ تراجع فى إيجاز حياة إيفان. إن الدليل حتى هذا الموضع من الناحية التسجيلية لا يستحق اللوم، لكن الجزء الثالث يقوم على أساس يقل التأكد منه، وهو يخبر عن مشاعر إيفان فى عملية الاحتضار.

"خطر له أن ما كان يبدو مستحيلا تماما من قبل قد يكون صحيحا تماما، وهو أنه لم يعش حياته كما كان يجب عليه أن يفعل. وصدمة أن تلك الميول التى ندر أن يشعر بها عنده فى حربه ضد ما كان يعتبره الناس فى أعلى المناصب حسنا، تلك الدوافع التي ندر أن يلاحظها، والتى كبحها فورا، قد تكون هى الشىء الحقيقى، وكل ما عداها كاذب" .

إن هذه الملاحظات مقنعة. ويمكن أن نتصور كيف تسمح تجربة الاحتضار للإنسان بتذكر حياته بغير اهتمام. ويمكن أن نوافق أيضا على أن الصدق- وإن كان مؤلما- إلا أن التهرب منه قد يسبب عذابا أكبر. لكن تولستوى يبدأ حين يموت إيفان عندئذ فى ذكر افتراض واحد على الأقل ليس معترفا به.

"وأصبح واضحا له على الفور أن ما كان كابتا له لن يذهب وأصبح يتساقط فجأة على كل الجوانب. وشعر بالأسى لهم جميعا (لعائلته)، وعليه أن يفعل شيئا حتى يخفف من ألمهم ، ويطلقهم ويطلق نفسه من هذا العناء. تفكر: يا له من أمر صحيح بسيط". وسألهم "والألم؟ ما الذى صار إليه؟ أين ألمكم؟"

بدأ مراقبته.

" نعم، هو هنا . حسنا، ماذا عنه؟ دع الألم يوجد"

" والموت، أين هو؟"

بحث عن خوفه المعهود السابق من الموت، ولم يجده. "أين كان؟ أى موت؟ لم يكن هناك خوف، حيث لم يكن هناك موت هو الآخر. كان هناك نور فى مكان الموت".

يفترض تولستوى أن التنازل الاختيارى عن العالم سوف يجعلنا فى توافق مع التنازل العام الذى هو الموت. (وهو افتراض قريب من ذلك الموجود فى مسرحية يجدها تولستوى غير مقبولة، الملك لير.) والمشكلة فى هذه النتيجة الصارمة ليست فى أنها تطلب منا الكثير جدا، ولكن فى أنها يسيرة جدا. نحن نتذكر أن إيفان ما أحب أحدا قط، ولكن ماذا يحدث لو أنه فعل، ولو أنه وجد الدنيا جميلة إلى حد هائل، كيف يكون شعورنا بنهاية هذه الرواية لو أنها كانت عند موت جون كيتس John Keats مثلا؟ أن التنازل عن الزيف شىء، لكن التنازل الاختيارى عن العالم كله على أساس أن من الأنانية ألا نفعل هو أحرى أن يدمر الطيب مع السيئ.

نحن لا نذهب إلى الرواية مع ذلك للاستبصار الشامل بمعنى الموت. إن الذى نبحث عنه آملين هو التناسق فى الصورة. إن رواية موت إيفان إيليتش تحفة أدبية بحيث يحتمل أن نقتنع بصفحاتها الأخيرة: لكن الذى يقنعنا هو إتقان الأسلوب، إذ تشتمل على رؤية رجل واحد بصورة كاملة، لا الشعور بأنها الكلمة الأخيرة فى الموضوع. ويمكن أن نقتنع على السواء بأمير سالينا The Prince of Salina فى رواية الفهد The leopard التى كتبها جويسيبى دى لاميدوسا Giuseppe di Lampedusa (1958) الذى يتذكر عند موته المباهج التى جلبتها الحياة إليه، وهى مباهج تتركز فى صورة للموت تدعو إلى السرور. "ظهرت فجأة بين الجماعة سيدة شابة نحيلة، فى رداء سفر بنى اللون وتنورة واسعة وتلبس قبعة من القش يتدلى منها نقاب منقط، لا يمكن أن يحجب السحر الدفين فى وجهها.. كانت هى الإنسانة التى تشوق إليها، وقد أقبلت تبحث عنه، ومن الغريب أن سيدة فى مثل هذه السن الصغيرة تخضع له، ولا بد أن وقت سفر القطار قريب جدا. وعندما كانت وجها لوجه أمامه، رفعت نقابها، وكانت هناك عفيفة ولكنها على استعداد للخضوع، وبدت أجمل على الإطلاق مما كانت عندما لمحت فى فضاء النجوم.

" لقد تلاشى طغيان البحر تماما " .

إن هذه الرؤية : وهى صورة شهوانية من عبادة العذراء هى أبعد ما تكون عن تطهر تولستوى، وهى مع ذلك تكاد تكون فى تحفيزها مثل تنازل إيفان. ويبدو أننا إذا عجزنا عن التنبؤ بلحظاتنا الأخيرة فكل ما نستطيع عمله عند موتنا أن نسقط مخاوفنا ورغباتنا على المجهول. ويكسب الكاتب ثقتنا بتقديم جوانب التجربة التى نشعر أنها صادقة بالنسبة لشعورنا بالحياة. وإذا ذهب عندئذ كى يبنى أفكارا ومشاعر على فراش موتنا، فإن أكثر ما نتوقع منه هو التناسق. لكن هذا الاستقراء يستدعى لياقة غير عادية. إن الدافع لتغيير الموقف أو للتبسيط أو تغيير صورة الموت بصورة رمزية ينبغى مقاومته. إن فنانة عظيمة مثل فرجينيا ولف Virginia Woolf يمكن أن تفشل فى هذا، كما نرى فى الفقرة الختامية من رواية "الأمواج "The waves" (١٩٣١):

"وارتفعت الموجة فى نفسه أيضا. إنها تتضخم ، وتقوس ظهرها. وأشعر مرة أخرى برغبة جديدة، شىء يرتفع تحتى كالحصان المزهو الذى يغمزه راكبه، ثم يشده إلى الوراء. ما هو العدو الذى ندرك الآن أنه يتقدم نحونا، أنت الذى أركبه الآن، بينما نقف وأنت تضرب هذا الجزء من الرصيف بحوافرك ؟ إنه الموت. فالموت هو العدو. إنه الموت الذى أركبه ومهمازى يتهيأ للوثب، وشعرى يتطاير إلى الخلف مثل شاب صغير.. إنى أغمز حصانى بمهمازى. سوف أقذف نفسى عليك دون هزيمة واستسلام، أواه يا موت!

تكسرت الأمواج على الشاطئ:

إن رؤية الموت فى صورة مجازية غامضة كأنه مبارزة فى العصور الوسطى تختزله إلى شىء يمكن أن يحتويه العقل : فالسيدة ولف عندما أعطت الموت تكوينا structure يبدو أنها خففت من رعبه. والواقع أن مجازها متنافر، بل هو غريب إلى حد

يوحى بأنها لجأت إلى تصور وكلام لا علاقة له بالشعور. ولكن كيف تكون الكلمات مناسبة لهذه التجربة، كيف يستطيع الإنسان أن يجد تركيبا كلاميا أو أسطورة تعكس التجربة بصدق؟ إن رواية أبناء وعشاق (1913) Sons and Lovers تكشف طريقة لحل هذه المشكلة فى المشهد الذى يكتب فيه د.هـ. لورنس D.H. Laurence موت أ.م. بول موريل Paul Morel. ويشجعنا لورنس على التجاوب مع بول الذى يظن فى الخيال أنه عشيق السيدة الميتة:

"رقدت مرتفعة على السرير، وكانت لفة الغطاء على قدميها المرتفعتين مثل منحنى نظيف من الثلج، ساكنة جدا. رقدت نائمة كالشابة. وانحنى عليها، وفى يده شمعته، رقدت كأنها فتاة نائمة تحلم بحبيبها... كانت شابة مرة أخرى.. قد تفتح جفنيها.. كانت لا تزال معه" .

إن مقارنة جثة سيدة عجوز بشابة نائمة قد تبدو متهافتة مثل مجاز السيدة ولف لو ظل بغير تحديد. لكن لورنس يبين أن خيال بول وهم على كل حال :

"وانحنى عليها وقبلها بشغف – ولكن كانت حول فمها برودة. وعض شفتيه فى رعب. عندما نظر إليها، شعر بأنه لا يستطيع أبدا أبدا أن يدعها تذهب. لا. وأزاح الشعر عن فوديها. كان ذلك باردا أيضا. رأى الغم بلا تعبير، وتعجب من الأذى. عندئذ جلس القرفصاء على الأرض هامسا إليها:

أمى ، أمى!

كان لا يزال معها حين جاء الحانوتية ، وهم شباب كانوا معه فى المدرسة ".

إن تحويل أم ميتة إلى شابة نائمة يمكن أن يتحقق برهة قصيرة فى ذهن رجل واحد. كما أن شعور التهدئة من جرائه يجب أن يتم مع ذلك قبل أن يخترق الشعور بالخسارة. ودعت الحاجة إلى غطاء الأسطورة بحيث يمكن أن تجمده صدمة الحقيقة بالمزيد من القوة قبل تمزق الغطاء. إن الجملة الأخيرة هى أشد لذعا بما تلمح إليه من أن بول وجيله هم الآن وحدهم مسئولون عن العالم.

إن النهاية الملفتة للقصة القصيرة التى كتبها جيمس جويس James Joyce بعنوان الميت (1914) The Dead لها تأثير عكسى، مما يقلل من قدرها. فهى تعزلنا بصورة جميلة عن أى شعور بالخسارة أو العزلة بالالتجاء إلى أسطورة من فرجيل ولذّات الكلام المعسول. يرقد جبريل وزوجته فى الفراش. وكانت قد فرغت توا من إخباره بحبها الأول من مايكل فيورى Michael Furey الذى مات شابا.

"ملأت الدموع الغزيرة عينى جبريل - لم يشعر قط بمثل ذلك تجاه أية امرأة، لكنه عرف أن مثل ذلك الشعور لا بد أن يكون هو الحب. وتجمّعت الدموع بصورة أغزر فى عينيه، وتخيل أنه رأى فى الظلام الجزئى هيأة شاب واقف تحت الشجرة تسقط منها قطرات الماء. كانت صور أخرى قريبة. واقتربت روحه من مكان يحوى عددا كبيرا من الموتى كان يدرك ولكنه لا يفهم الوجود العنيد المهتز. كانت هويته تختفى فى عالم رمادى غير محسوس. كان العالم الجامد نفسه يتضاءل ويتحلل، وهو العالم الذى نشأ وعاش فيه أولئك الموتى.

بضع نقرات خفيفة على جانب النافذة جعلته يلتفت نحو النافذة. بدأت تُثلج من جديد. ولاحظ ندف الثلج وهو نعسان، فضية وقاتمة وهى تتساقط مائلة فى مواجهة ضوء المصباح. لقد حان الأوان كى يبدأ رحلته نحو الغرب. أجل، كانت الصحف على حق، إذ كان الثلج عاما فوق أيرلندا. كان يسقط على كل جزء من السهل المركزى القاتم، وعلى التلال العارية من الأشجار، ويسقط بصورة خفيفة على بحيرة ألين Allen وعلى ما هو أبعد غربا، ويخف سقوطه على أمواج شانون Shannon الداكنة المتمردة. كانت تسقط كذلك على كل جزء من مساحة الكنيسة فوق التل، حيث كان يرقد مايكل فيورى وهو مدفون. وسقط كثيفا تحرفه الرياح على الصلبان المعقوفة وأحجار الشواهد على القبور، وعلى حراب البوابة الصغيرة، وعلى الأشواك العارية. وغامت روحه ببطء حين كان يسمع الثلج يسقط خافتا على العالم، ويسقط خافتا مثل سقوطه عند نهايته على جميع الأحياء والأموات".

هذه قطعة من الكتابة الجميلة إلى حد مدهش. وهى مع ذلك أجمل جدا من حيث إنها تبدو قليلة الاهتمام بحاجات الحداد. وربما كان هذا هو المطلوب. وقد يسقط الثلج على أيرلندا، وقد يكون مايكل فيورى مدفونا فى ساحة المقبرة، لكن جبريل يرقد مندسا فى الفراش مع زوجته. إن حزنه متسامح فى الحقيقة مثل تقوى "والروس وكاربنتر فى رواية كارول". وليس من الواضح إن كان جويس قصد هذه المسألة أم لا، وإن كانت التورية المفهومة فى اسم فيورى تبين بالتأكيد نقص العاطفة عند جورج، كما يبدو أن جورج يمثل بالتأكيد خمول أيرلندا (كان الثلج عاما على جميع أيرلندا). لكن التعارض بين الرجلين لا نشعر به حقا. إن الموتى ليسوا أكثر من أطياف ، ولا قدرة للأطياف على الأذى أو التأثير. إنها والثلج الذى يتساقط بعيدا تشبه من الناحية المادية مشاهد سينمائية تقريبا. وقد كتب جويس (١٩٣٧) عن الموت بصورة أشد سخرية. ومع ذلك، كانت تأملات بلوم Bloom فى جنازة ديجنام Dignam بطريقتها الخاصة فى مثل عاطفية جبريل.

"إررر س ت رر ...! خشخشة حصوات – انتظر– قف. نظر عامدا إلى أسفل فى شق حجر– حيوان ما– انتظر– إنه يذهب هناك.

فأر سمين رمادى ينط على جانب الشق، ويحرك الحصوات. إنه مجرب قديم، جد كبير: يعرف الحبال – إن الفأر الرمادى الحى دسّ نفسه تحت القاعدة، ولوى نفسه تحتها. مخبأ جيد للكنز.

من يعيش هنا؟ ترقد رفات روبرت إمرى. دُفن روبرت إيميت على ضوء البطاريات، ألم يكن كذلك؟ إنه يقوم بالجولات.

اختفى الذيل الآن.

واحد من هؤلاء الشباب سيؤدى عملا وجيزا لأحد الزملاء. خذ العظام نظيفة أيا كانت من قبل. لحم عادى بالنسبة إليه. إن الجثة لحم فسد. حسنا، ما هو الجبن ؟ جثة من لبن".

هذا كابوس إدجار إلين بو ، على الرغم من الظاهر الهزلي، وفيه كل ما عند بو من أشكال القصور في موقفه من الموت. إنه يؤسس النغمة الحديثة، وهي النغمة الاصطلاحية الطبيعية الساخرة. لكن هذا متوقع، وأحب أن ننظر أولا إلى مؤلف آخر قبل الحرب العالمية الأولى يوجد في كتابته عن الموت صفة نادرة لعلها فريدة.

إن بعض قصائد توماس هاردى عن الموت أمثلة على الأديب إمبسون في أسوأ حالاته : قصائد يصبح فيها هاردى الإرادة القريبة التى تصنع أنماط الحظ فى طرب كئيب – إن أبياته عن خسارة تيتانيك Titanic بعنوان تجمع توين The Convergence of the Twain نموذج لهذه التركيبة. إن الكارثة متباعدة لا إنسانية فيها. وتصبح موضوعا لتأمل سعيد:

كانت معناها على المرايا

أن تلمع فى عيون الموسرين

تزحف ديدان البحر غريبة لزجة بليدة غافلة

الجواهر التى زُخرفت فى بهجة

حتى تخلب العقل الحسى

ترقد بلا ضياء ، وقد أصبح لألاؤها نمائما أسود، لا نور فيه.

إن خصائص الأشياء تصبح متبادلة عندما لا يلاحظها الإنسان.

تتخذ المرايا حياة غير طبيعية وتصبح كالجواهر، بينما تصبح الجواهر مثل المرايا المعتمة. ويبدى الكون عملية غريبة فى النشاط (تسمى "شريرة" بصورة محتومة)، وتكون قوى الطبيعة غريبة عن الإنسان. إنه مشهد رائع غريب عن المألوف للكارثة، وهو غير إنسانى مثل العمليات التى يريد وصفها.

لكن هاردى كان يستطيع أن يستثير تجربة الموت والحداد على نحو لا يبارى. وقد خلق فى ديوانه Veteris Vestigia Fiamme (1913) إحدى وعشرين قصيدة بعد موت زوجته الأولى، أبدع فيها ابتهالات كانت كما وصفها ر. ب. بلاك موير R.P. Blackmuir فى كتاب اللغة باعتبارها الإيماء "language as Gesture": تم استبعاد كل ما هو شخصى، الباعث الشخصى، والحزن الشخصى ، وترك كل ما هو غير شخصى عاريا، أثر قديم متأثر مشوه لذلك الوجه الذى يخفيه الشعور الشخصى فقط.. أسلوب مختزل إلى اللامسمى، مختزل إلى الثراء". ولا يصدق هذا على شعر أكثر من صدقه على قصيدة: "النزهة The Walk".

لم تخرجى معى

فى الآونة الأخيرة إلى الشجرة فى أعلى التل،

عند الطرقات ذات البوابات

كما فى الأيام السالفة.

كنت شديدة الضعف والعجز

ولذلك لم تحضرى قط.

وذهبت وحدى ولم أبال

أو أفكر فيك متخلفة هناك

صعدت هناك اليوم

بالطريقة السابقة تماما .

الأرض المألوفة

وحدى مرة أخرى

أى فارق إذن؟

ذلك الشعور الباقى فقط

لمشهد الغرفة عند العودة حينئذ.

أى تعليق على هذا الشعر المتقن يبدو فضولا. لكنى أحب أن أذكر ملاحظة جانبية. إن هاردى يبين لنا– فيما أظن– أنك لا تستطيع الكتابة "عن الموت" حقا، وإنما تستطيع أن تكتب عن تجربة شخصية فى الحداد فقط. وقد اقترحت الإخصائية فى التحليل النفسى ميلانى كلاين Melanie Klein أن هذه التجربة فى الحداد هى أساس كل إبداع وهى فكرة قامت الدكتورة هنا سيجال Hannah Segal وهى إخصائية فى التحليل النفسى من مدرسة كلاين – بالتوسع فيها طويلا فى مقالها :"موقف التحليل النفسى من الجماليات[1] psychoanalytic approach to aesthetics » ولا يوجد فنان يمتلك استبصارا بعملية الإبداع أكثر من بروست، وهى تعتقد أن استبصار بروست متعلق بقدرته على التأسى: أى قدرته على استعادة الشخصيات الداخلية التى يشعر أنه حطمها بنفسه، مهما كان الثمن من الألم.

"يصف بروست فى الجزء الأخير من عمله كيف قرر أن يضحى بقية حياته فى سبيل الكتابة. وعاد بعد غياب طويل للبحث عن أصدقائه القدامى فى حفل، وظهروا جميعا أمامه كأنهم حطام أناس حقيقيين عرفهم، إنهم عديمو الفائدة، جديرون بالسخرية، مرضى على حافة الموت. ووجد أن آخرين قد ماتوا من زمن طويل. وعندما تحقق من تدمير عالم كامل كان عالمه الخاص، قرر أن يكتب، وأن يضحى بنفسه فى سبيل خلق جديد للمحتضرين والموتى. ويستطيع أن يضفى على شخصياته حياة أبدية فى عمله، بفضل فنه».

(1) New Directions in Psycoanalysis, Tavistock.

" إن الذى يصفه بروست يقابل موقف الحداد: فهو يرى شخصياته المحبوبة موتى أو يحتضرون. وكتابة كتاب هى بالنسبة إليه مثل فعل الحداد من حيث إن الموضوعات الخارجية يستغنى عنها، ثم يعاد تشكيلها فى الذات، ويعاد خلقها فى الكتاب.. إن بروست يكشف وعيا حادا بما اعتقد أنه موجود فى اللاشعور عند جميع الفنانين: أعنى أن الخلق كله هو فى الحقيقة خلق جديد لكيان كان ذات مرة متكاملا محبوبا، لكنه الآن كيان مفقود مدمر، عالم داخلى مدمر وذات مدمرة. وعندما يصبح العالم فى داخلنا مدمرا، وعندما يصبح ميتا بلا حب، وعندما يصبح أحباؤنا أشلاء، ونحن أنفسنا فى يأس بلا عون، فالواجب علينا عندئذ أن نعيد خلق عالمنا من جديد، ونعيد تجميع الأجزاء، ونصب الحياة فى الأشلاء الميتة، وأن نعيد خلق الحياة ".

ويمكن أن نرى هذه العملية فى فعلها فى "النزهة" عند هاردى، حيث يحاول الشاعر أن يدرك استمرار وجود العالم الخارجى من دون زوجته، وهو يحاول مع ذلك أن يعيد مكانة زوجته باعتبارها شخصية داخلية. إن هارى يذهب للنزهة وحده ، لكنه لا يبالى لأنه يستطيع أن يتوقع ترحيبها عند عودته. لكن عليه بعد موتها أن يرجع إلى غرفة خالية. وهو مع ذلك لا يقدم شعره إلى شخص آخر. إذ هو على استحياء وتردد، بل مع لوم خفيف يواصل الحوار مع زوجته الميتة وفى صورة خاصة قد تشعرنا بالحرج، نحن القراء الفضوليين، إذ لامسها رثاء الذات. إن الشعر انتصار جزئى على اليأس الذى يفتقد إلى العون، وتعتمد قوته على إيمان هاردى الكامن بأن الوجود الداخلى لزوجته لا يمكن أن يموت. والنصر فى الوقت نفسه جزئى فقط. فإن الخسارة رهيبة، ولا بد من التعايش مع الغرفة الخالية. وينبغى التخلى عن أى أمل فى رؤية زوجته مرة أخرى وهى حاضرة حقا.

إن هاردى غارق فى تجربة الحداد بحكم الواقع نفسه. وهو عاجز عن الدفاع عن نفسه ضد الألم بتحالفه مع القوى المدمرة الغالبة، سواء كانت للطبيعة أو الآلهة. ولا يستطيع أن يكون – كما كان فى شعره عن تيتانيك – متفرجا أولمبيا – وليس فى موقف لخلق أسطورة من ألمه.

وقد كان يختلف قليلا عن بعض شعراء الحرب العالمية الأولى. كان إسحق روزنبرج Isaac Rosenberg مثلا ذا شجاعة نادرة فى احتمال الألم، ولم يستطع أى رجل أن يُعرض نفسه لفظائع الحرب أكثر منه. وقد دفعه هذا الكرب والحاجة إلى الحفاظ على العقل إلى البحث عن بعض المواجهة الإيجابية للمذبحة التى لا معنى لها، وبحث عن علاج أكثر من العلاج السياسى، وإجابة من السياسيين فى بلده. كانت الحرب شريرة قبيحة، واستدعت الاستجابة من وراء الطبيعة. وكان من المحتوم أن يضطر روزنبرج على ذلك فى قصيدة "كومة الرجل الميت Dead Man's Dump" أن يعقد مقابلة بين الصور الوحشية للوجود التى هشمتها العجلات والعظام المتكسرة وبين التصور الذى يحمل قداسة الحياة (كيس الروح Soul's Sack)، "ماهيات الله السالفة God ancestralled essences".

مالت العجلات فوق أجساد الموتى المتمددة

ما كان فيهم آلام، وإن كانت عظامهم مهمشة.

أفواههم المغلقة لا أنين يصدر منها.

يرقدون هناك متساندين، صديق ورئيس.

إنسان من نسل رجل، ونسل امرأة.

وتتهاوى القنابل صارخة فوقهم.

من ليلة إلى ليلة والآن.

كانت الأرض فى انتظارهم

وهى طوال الوقت فى أثناء نومهم

قلقة على انحلالهم

وقد تلقتهم الآن فى النهاية!

فى عنفوان قوتهم

ساكتين – متوقفين ومحمولين

ما التصورات الوحشية التى أضاعتها روحهم المعتمة

أيتها الأرض! هل دخلوا فى جوفك؟

لا بد أنهم ذهبوا فى مكان ما

وقذفوا بهم على ظهرك المتين

هل تكون أكياس أرواحهم

خالية من ماهيات الله السالفة

من الذى قذف بهم إلى الخارج ؟ من قذف ؟

لا يتلبث روزنبرج عند الجوانب الكابوسية للحرب. وأنت أحرى أن تشعر بأنه يجهد فى إعطاء الغضب معنى بربطه بالقيم فى الأسطورة الشاملة. وهو لا يسمح لتأثير الموت أن يخفض القيم إلى العدم. إن التصور يمكن أن يستشعر فظائع أرض المعركة إذا سمحنا له بالامتداد وأن يتشرب التصورات فى الإنجيل عن التقاليد اليهودية المسيحية. ولا تعود جهنم مجازا. إن غارة بالغاز السام أو البحث عن قملة لا يفترقان عن "رقصة الموت The Dance of Death". إن ولفريد أوين Wilfred Owen فى "اجتماع غريب Strang Meeting" يمكن أن يتصور قوى الرؤية عند دانتى أو كيتس دون إكراه الشعر. ونحن بعيدون عن أطياف جويس. لكننا بعيدون أيضا عن فأره الفوضوى. وينبغى تناول فظائع الحرب فى إيجاز، لأن الاهتمام الرئيس لا يتعلق بها، ولكن بالذى يمكن أن يحدث.

إن التوتر مع ذلك بين المقدس والقبيح لم يكن له أن يدوم، كما أن إغفاءة جبريل وفأر بلوم سيصبحان من نماذج التيار الرئيس فى الكتابة بعد الحرب. إذ نرجع الى

الرومانسية القديمة وقد لمّعتها الأساليب فوق الواقعية المحدثة. وينظر إلى الموت على أنه يشبه حالة النوم، والأحلام، وصور الأحلام، والتجزئة وانعدام المسئولية. وغالبا ما تكون هذه التجزئة متهربة، وإن كان الكثير من هذه الكتابة أغنى مما يوحى به ذكر أورفيه Orphee بقلم كوكتو Cocteau أو أميديه Amedee بقلم يونسكو Ionesco وكذلك خروج الملك "Exite the king". بل إن شاعرا بالغ الذكاء مثل راندال جاريل Randall Jarrell في موت جونر "The Death of a ball turret Gunner" (١٩٤٥) يمكن أن يختزل عواقب الموت إلى ما لا يزيد على صدمة عنيفة.

من نوم أمى ، وقعت فى حالة

وانكفأت على بطنها حتى تجمد فرائى المبتل

تخففت من حلمها بالحياة على بعد ستة أميال من الأرض

وصحوت على النيران السوداء ومحاربى الكابوس

وعندما مت غسلونى مطرودا من البرج بخرطوم

إن حلم الحياة يخلى مكانه لكابوس الحرب، ولكن كيف يُفهم الحلم والكابوس إذا استمرا دون علاقة بحالة عقلية لا حلم فيها وهى خارجة عنهما؟ إن ما كتبه كيث دوجلاس Keith Douglas فى Vergissm einnicht (1943) لديه التجزئة من النوع نفسه.

لكن عليها أن تبكى حتى ترى اليوم

كيف يحوم الذباب الداكن فوق جلده

ويتراكم التراب على العينين الجامدتين الجافتين

والبطن المنفجر مثل الكهف

ذلك بأن المحب والقاتل هنا يختلطان

ولهما جسد واحد وقلب واحد

والموت الذى اختار الجندى

لقد قتل القلب عند المحب

كان دوجلاس متأثرا بروزنبرج، لكن استجابته للعنف الذى أصاب الرجل الميت، لم تكن غضبا عارما. وهى استجابة الأسف فى أقصى الحالات. وقد يبكى المرأة العاشقة، ولكن ليس هناك شعور بالقباحة، ولا علاقة للحدث برؤية أشمل لما قد تكون عليه الحياة. أما التشابك الأخير فهو يشبه ما كتبه جراى Gray فى "الرثاء Elegy" والأسى فيه مخيم بل فيه استعلاء، وفيه الكذب الشبيه بأسف جبريل على مايكل فيورى. إن الوصف القاسى للجثة يبدو عند استرجاعه - محاولة لتعويض فشل الشاعر فى تقمص المحبين. تصور مدى اختلاف تفكير دوجلاس إذا هو فكر فى مرثيته الخاصة.

إن التجزئة على هذا المنوال هى سمة ثقافتنا، وهى غالبا ما لا تنفصل عن العنف الحاد مثل الفضة فى مرآة مكسورة. وقد يتم التعبير بحرية عن هذا العنف فى الرواية الشعبية، وفى روايات ميكى سبيلان Mickey Spillane وإيان فلمنج Ian Fleming يصبح البشر ، أو بالأحرى الدمى التى تمثل تلك الأشياء التى نخافها ونكرهها، كأنهم علب من الصفيح يمكن الاستغناء عنها. والنتيجة كما يسميها جوفرى جورر هى قباحة الموت. وقد كانت هذه القباحة معنا دائما إلى حد ما- لكن جورر يعتقد أنها تزداد "بينما يصبح الموت الطبيعى متزايد الاختناق فى الاحتشام، فإن الموت العنيف لعب دورا متزايدا فى الروايات الخيالية المقدمة للجماهير، مثل القصص البوليسية والقصص المثيرة، ومغامرات الغرب، وقصص الحرب، والخيال العلمى، وهزليات الرعب فى النهاية".

لكن شعر هاردى عن غرق تيتانيك Titanic يبين لنا أن نوعا آخر من خلع الإنسانية ممكن، وفيه تكون تجربة الموت طقوسا من ناحية النظرة الفنية الخالصة.

وهذه الطقوس معرضة للالتواء وما هو فوق الواقعية، وهى تدين بشىء لليعقوبيين كما فى "الأرض اليباب The Waste Land" التى كتبها ت.س. إليوت (١٩٢٢).

الجثة التى زرعتها فى حديقتك فى السنة الماضية

هل بدأت تنبت؟ هل تزهر فى هذا العام؟

أم أقلق الجليد المفاجئ مهادها؟

أواه، دع الكلب بعيدا، ذاك الصديق للإنسان

أو هو سوف يحفر بأظافره ويكشفها مرة أخرى!

إن أجزاء الحلم تتشابك معا بطريقة تزيد من انعدام واقعيتها. إن رمز هذه العملية قد يكون جثة تتحلل، وما زالت تشبه الجسم الحى وإن كانت بدأت فى التحول إلى شىء آخر: رأس الحصان المتحلل فى "طبلة الصفيح The Tin Drum" من تأليف جونتر جراس Gunter Grass،" الذى كانت تنطلق منه ثعابين صغيرة خفيفة الاخضرار بصورة هوجاء" ، أو نار القديس إلمو Corposant من تأليف بيتر ردرجوف Peter Redgrove (1961):

تنهض صارخة من الحمام الجاف

والفقاقيع على معصميها، معها مصباح ولها أنفاس تعبق البخار.

وتمتد الظلال فى غرفتها حتى يتفتح النهار

يتلألأ الدهن الذى تَزنَّخ من جثتها

طويلا ملتويا كالطحالب والضباب الخفيف

يفسد قيمة البيت فى السوق

فى رواية "الجلد الثانى The Second Skin" (١٩٦٣) من تأليف جون هوكس John Hawks، يصف صبيا يعزف على آلة الشيلّو خارج الحمام حيث يوشك أبوه على

الانتحار. "عزفت دون أى تفكير فيه حقا، لكنه لا بد اختنق قليلا بينه وبين نفسه، وغُص حلقه قليلا كالذى يسعل دما لأول مرة، إذ كان يحاول اتخاذ القرار باستخدام السلاح المطلى بالنيكل على أحسن وجه". ويبدو أن الصبى يريد أن يثنى عزم أبيه - لكن تأثير المشهد مختلف تماما، ويبدو كأنه يقود أباه على طريق رقصة كئيبة. "وعلى ذلك ، أخذت فى العزف، طيف شريك فى عمله الوحشى، بينما كنت أفكر فى أثناء ذلك كله فى النجاح، مسرورا بالأغنية". نحن نتذكر نيرون الذى كان يعزف بينما روما تحترق. أصبح هناك تقمص بين الفنان والموت. إن الموت الماهر يحول ضحاياه إلى أشياء غريبة أكثر ثراء كما يفعل الفنان. وعلى ذلك ، يقول هوكس فى "آكل لحوم البشر The Cannibal" (١٩٤٨):

" كان التاجر هناك دون أفكار عن التجارة، فى ملابس رمادية، لا يزال بدينا. لقد مات فى يومه الأول عند المقدمة ، وكان محشورا وهو ما زال واقفا بين عمودين، وكان وجهه مضروبا إلى الوراء، غاضبا مضطربا. استقرت هناك فى فمه المفتوح شرنقة كبيرة بارزة حية، تحركت أحيانا كأنها. حية سقط بنطالة إلى عقبيه، وكان مليئا بالصدأ وخصلات الشعر".

هناك بالتأكيد على جميع مستويات المجتمع شعور بعدم الارتياح نحو طقوس الجنازات أو الأخلاق المهذبة التى يجب أن تصحب جنازة الميت. إن "فراغ blankness" أميسون ربما كان أعسر فى المحافظة عليه تحت ضغط الحزن، وإن كان له إغراءاته. إن محاولات "الفراغ" فى الرواية تأتى عادة كأنها انعدام الشخصية بغير شعور. ولعل جوركى Gorky يستطيع تذكر جثة والده فى شىء من السطحية (فى طفولتى in My Childhood)، لكنه عندئذ يعيد تكوين المشهد بعينى الصبى الصغيرتين.

" كانت قدماه عاريتين والأصابع متورمة بصورة غريبة، بينما كانت أصابع يديه منقبضة نحو الداخل، وهى مستريحة على صدره ... ذهب النور كله من وجهه الساكن- لكن أكثر ما أخافنى كان التشنج الذى أبداه فمه المفتوح بأسنانه المكشوفة".

إن الأمر يستدعى منا الكثير حتى نظل فى الفراغ. إن انعدام الشخصية لا بد أن يبدو استجابة سطحية عند مقارنته بالامتلاء فى الحزن عند بول موريل Paul Morel، أو الصورة الجميلة التى يرسمها باسترناك Pasternak ليورى زيفاجو Yuri Zhirago عن أمه المدفونة التى تهبط إلى الأعمق فالأعمق بعيدا عنه تحت الأرض، بينما يسقط الثلج. وقد يتعرض الأمر أيضا إلى الانحراف نحو ما يبعث الرعب أو يكون هزليا(١)، أو هما معا، كما فى نهاية رواية والاس ستيفنز Wallace Stephens "إمبراطور الآيس كريم The Emperor of Ice- Cream" (١٩٢٣).

إذا كانت قدماها الجافتان تبرزان ، فهما

يظهران كم هى باردة وبكماء

دع المصباح يثبت شعاعه

إن الإمبراطور الوحيد هو إمبراطور الآيس كريم

إن هذا الشعور الاجتماعى بعدم الارتياح نحو الطقوس الجنائزية يستغله الفنان الساخر، وقد استغله الروم الكاثوليك غاية الاستغلال من أمثال إيفيلين فو Evelyn Waugh وموريل سبارك Muriel Spark لكن هذه النغمة الساخرة يمكن أن توجه نحو الطقوس العليا أيضا، فإن واحدا من اللاأدريين مثل هـ.ج. ويلز H.G. wells يمكن أن يشعر بالسرور اللطيف عندما يبين لنا كيف أن ذوى الحداد فى الجنازة الوقورة لوالد السيد بولى Polly ظلوا سارحين. "أثبتت الجنازة فى الهواء البارد نوعا ما أنها مثيرة للشهية .." والواقع أن معظم الصور الهزلية عن الموت تكون أقل من تصوير الظروف المحيطة به. إن و.هـ. أودين N.W.H.Auden، ووليم بلومر William Plomer، كليهما يجد

(١) فيما يتعلق بالملهاة ، انظر توماس مان Tomas Mann: الجبل السحرى the magic mountain (١٩٢٤). بعد وصف جليل لجثة يواكيم الجميلة، يجعل مان السيدة المحبوبة الحمقاء ستور stohr تطلب فى فلتة لسان أن من الواجب عزف السيمفونية الشهوانية على قبره.

فكاهة قاتمة فى المقابلة بين تهذيب نساء من نوع معين وبين موتهن القبيح، كما أن جوزيف كيسيلرنج Joseph Kesselring فى "الزرنيخ واللحسة القديمة Aresenic and Old Lace" يعتمد على الشذوذ فى أن تكون سيدتان عجوزان راقيتان سفاحتين على نطاق جماعى، ثم تدفنان ضحاياهما حسب الاحتفال فى كتاب الصلوات.

لكن هذه الملهاة التى يبدو أنها تدور حول الموت، غالبا ما تكون فى الحقيقة على أساس إنكار تجربة الحداد. إن مثل هذه السلبية التى تتحول إلى خلق أدبى جميل تميز أغلب كتابات صمويل بيكيت Samuel Beckett. إن مالون Malone فى "مالون يموت Malone Dies" مثلا يستمرئ طبيعة وجوده المتحجرة القاحلة. وهو عاجز عن الحب، وليس لديه بناء على ذلك ما يفقده بالموت. ويحاول أن يتصور الحياة الأخرى فى بعض الأحيان، لكنها على أحسن الأحوال جهنم مشابهة لحالته الراهنة. والحيوية الوحيدة التى يمكن أن يجدها فى نفسه هى اللغة وألعاب الأفعال. وهو يجب أن يخبر نفسه بالحكايات الحزينة عن الشخصيات المشرفة على الموت. لكنه مهما حاول أن يعيد هذه الشخصيات إلى الحياة، فإنها تظل ناضبة. إن مستقبل مالون مأسوى - وإن كان لا يدرك ذلك. إنه محكوم فى داخله بأصوات حاسدة مدمرة، تحكى كل المشاعر بصورة هزيلة. إنها تسخر منه، وهى بالتالى تسخر منا جميعا.

"سوف أموت سريعا حقا على الرغم من كل شىء. ربما فى الشهر التالى. سيكون فى شهر أبريل أو مايو. إن العام ما زال شابا، وتخبرنى بذلك ألف من العلامات الصغيرة. لعلى مخطئ، وربما عشت حتى يوم التعميد للقديس جون، بل حتى الرابع عشر من يوليو وهو عيد الحرية. وقد ألهث حتى أبلغ عيد التجلى transfiguration فلا يفوتنى ، ولا أتحدث عن عيد رفع العذراء إلى السماء Assumption".

لكن هذه الأصوات المدمرة لا يمكن أن تهزم مالون تماما. إذ يبقى عنصر من الأمل. وتستمر الحياة نابضة فيه، ويستمر فى التحدث بالحكايات الرتيبة. إن القلعة

المحاصرة لن تسقط. إن هذا التوازن المزعزع بين الأمل واليأس التام هو المصدر الرئيس للتناقض فى رواية "مالون يموت".

إن الراوى فى رواية اعتراف زينون The Confession of Zeno من تأليف إيتالو سفيفو Italo Svevo (1923) هو أقل يأسا وأقدر من أجل ذلك على كفاحه. والفصل الخاص بموت أبيه ملهاة حقيقية عن الموت، وهى فريدة فى نغمتها. إن زينون يشعر باختلاط الأمر عليه وذبذبة الذات، مثل أدولف فى رواية كونستانت Constant – لكنه مثل أدولف أيضا مصمم على الصدق عن نفسه، مهما أدى إلى تدمير تقديره لذاته إلى حد كبير. وإذ يموت أبوه، فإنه يكافح فى الاستجابة المناسبة لخطورة الموقف. فهو يحب أباه، ويعيش أبوه فى الرواية على أنه إنسان متكامل جدير بالثقة، ويمكن أن نفهم السبب فى فزع زينون من فقدانه. لكن عقل زينون يسرح. إن معرفة الموت والحداد هى رحلة فى بحار غريبة، يعمل أى شىء فى سبيل تأجيلها. وهو يجد نفسه وقد استولى عليها كراهية الأطباء، وخوفه من المرض، وتصميمه على الامتناع عن التدخين مرات عديدة وعجزه عن ذلك مرات فى مثل عددها. وتستبد هذه التوافه بعقله، ولها نفس الخطورة لما عنده من أنواع قلقه على الموت. وهو يشعر بالفزع من ضعفه؛ لكنه فى الوقت نفسه يدرك مدى سخفه. ويحاول أن يجعل تسليته (وتسليتنا) تبدو طبيعية بتمثيل صوت حقيقى. يحاول أن يكون مهذبا، وأن يتخذ موقف إمبسون. ويمكن السماح للمهارة الأدبية أن تباعد الهستيريا الوشيكة. لكنه شديد الصدق مع مشاعره بحيث لا يقدر على استبقاء موقفه. ويسقط أبوه عند موته ويضربه على وجهه ويقتنع زينون بأن هذه اللطمة غير مقصودة باعتباره إنسانا منطقيا متحضرا. وهو مع ذلك لا يستطيع أن يمنع التعارض فى هذا الحادث من أن يوغر صدره بالحزن، حيث إنه حدث فى لحظة الألم الأقصى الذى يعمى الأبصار.

إن مالون وزينون من الصابرين المتوحدين، وهما على هذا المعنى شخصيتان نموذجيتان لعصرنا. ولا يزودهما المجتمع بأية حماية ضد تأثير الموت. إنهما يرفضان

صور الحداد فيه، كما يرفضان ألوان العزاء الدينية فى قرن مضى. وهما يحاولان المسايرة بالتهكم وحده. ولكن أليست هناك طريقة إيجابية بصورة أكبر يتمكن بها الرجال اللاأدريون من مواجهة فكرة الموت؟

تهتم روايتان بصورة بطولية بهذه المشكلة، هما "الغريب، The Outsider" (١٩٤٠)، "والطاعون The Plague" (١٩٤٧)، من تأليف ألبير كامو Albert Camus. إن ميرسو Mersault فى رواية الغريب رجل قادر على الاستمتاع، على خلاف مالون. يعيش فى الدنيا ومن أجلها. لكنه عند جنازة أمه، وبمناسبة إعدامه الوشيك فى المستقبل جزاء على جريمة لا مبرر لها، لا يشعر بشىء سوى عدم المبالاة. هذا الانعدام فى المبالاة - كما يبين كامو- مصدر للرضا. إنه يعيد ميرسو إلى التوافق مع ما يفتقده فى "اللامبالاة الحميدة" للكون. ويكون "للجمود blankness" موقف ميتافيزيقى فى رواية الغريب.

"عجزت عن الاهتمام ببنت ميتة. ولاح لى هذا طبيعيا تماما. كما أدركت بالمثل أن الناس سرعان ما ينسوننى حالما أموت. بل عجزت أن أقول إن هذا كان عسيرا على المعدة، والواقع أنه لا توجد فكرة لا يتكيف معها الإنسان بمرور الزمن".

إن ميرسو أقل صبرا من إنسان متبلد أمام مطالب الحداد، ويضطر المجتمع فى صورة المحاكم القانونية والصحافة إلى نعته بالوحش. لكن كامو يكتب عن أكثر من حالة واحدة شاذة. وهو يجمع التساؤلات الأخلاقية معا عند جيد Gide (الجريمة دون مبرر) ، والجرائر الأخلاقية حسب طريقة هيمنجواى Hemingway من أجل بناء صورة مركبة للبطل فى عصرنا- والمطلوب منا أن نتقمص شعور ميرسو. إن الكون يبدو لا مباليا، والرجال يظهرون كأنهم بشر آليون robots.

"رأيت بعض العرب يتسكعون حول نافذة صاحب دكان التبغ. كانوا يحدقون بالطريقة الخاصة المعهودة عند هؤلاء الناس، كأننا كتل من الحجر أو الأشجار الميتة".

أما فيما يتعلق بالصحفي الأوروبي في المحكمة: "ما لفت انتباهي كانت عيناه الصافيتان والباهتتان جدا، وقد تركزتا عليّ، وإن لم تكشفا أية عاطفة محددة. شعرت برهة بانطباع قديم، كأني أتفحص نفسي بنفسي" .

إن "الغريب" لا تقنع باعتبارها صورة لنوع جديد من الناس على الرغم من قوتها مع ذلك. وتبقى دراسة للمرض النفسي عند واحد من الرجال مثل رواية "الغثيان La Nausée" عند سارتر، وهي تشمل جانبا صغيرا فقط من أنفسنا. أما "الطاعون The Plague" فهو أكثر طموحا. مدينة كاملة هي أوران Oran، وليس فيها مركز استخبارات واحد في وسطها. وهناك مجال أوسع من الاستجابة أكثر مما في "الغريب" : وأغلب الناس الذين يموتون، أو يتعلمون العيش مع الموت، أقل شذوذا من ميرسو. والطاعون نفسه عالمي، يتعلق بكثير من الكوارث وأشكال الطغيان السابقة. ويراه كامو نوعًا من الاختبار . إذ يمكن أن يحول الرجال إلى حيوانات ، أو يدفعهم إلى أنواع متطرفة من السلوك، ويمكن مع ذلك أن يكشف عن صفات تدعو إلى الإعجاب، مثل تجربة التعذيب التي قام بها الجستابو. ويمكن أن يموت الرجال بطرق يظنها كامو فاضلة.

إنه معجب بصفة خاصة بأولئك الذين يرفضون أن يتصالحوا مع الموت، أولئك الذين يقاومون الموت في تحد، وأولئك الذين تظل أفكارهم حتى النهاية مع الحياة:

"إن أنانية الحب جعلتهم محصنين ضد الضغط العام، وإذا فكروا في الطاعون، فالتفكير فقط إلى الحد الذي يهدد بما يجعل انفصالهم أبديا. وحافظوا بناء على ذلك في قلب الوباء ذاته باللامبالاة التي تنقذهم، والتي تغري الإنسان بتسميتها ضبط النفس. أنقذهم يأسهم من الهلع، وكان لسوء حظهم جانب طيب كذلك. وإذا حدث مثلا أن واحداً منهم اغتاله المرض كان الأمر على الأغلب الأعم لا وقت فيه لإدراكه. وهو عند خطفه فجأة من التواصل الطويل الصامت مع خيالات الذاكرة يُلقى على الفور في أثقل الصمت كله. لا وقت لديه لأي شيء".

يقدم كامو إلينا نموذجا لكل طريقة من طرق الموت الثلاث التى تستأثر بإعجابه إلى أقصى حد. إن القسيس بانيلو Paneloux يكاد يهزم ميكروب الطاعون فى جسمه بقوة إيمانه. "حتى فى أقصى درجات الحمى عند بانيلو أبقت عيناه الجامدتان على سيكنتهما، وعندما وجدوه ميتا فى الصباح التالى وجسمه يتدلى على جانب السرير لم تكشفا عيناه شيئا وكان هناك تسجيل على بطاقة التعرف مقابل اسمه: "حالة اشتباه". أما الكاتب تارو Tarrou فقد كان يحارب الموت برفض الحل الوسط معه بالتهرب أو رثاء الذات. وأما أهم موت عند الجميع فهو موت ذلك الطفل، وهو مهم، لأنه قادر على كفاح الموت بصلابة كأى واحد من الكبار، وإن كان لا يملك فلسفة واعية.

"لقد شاهدوا من قبل أطفالا يموتون. فلا محاباة عند الموت الآن طوال شهور عديدة، لكنهم لم يلاحظوا أبدا عذاب طفل دقيقة بدقيقة، كما ظلوا يفعلون الآن منذ طلوع النهار. ولا حاجة إلى القول بأن الألم الذى يصيب هؤلاء الضحايا الأبرياء كان يبدو لهم كما هو الحقيقة شيئا كريها. لكنهم كانوا حتى الآن يشعرون بكراهته بطريقة مجردة إن صح التعبير ، حيث إنهم لم يلاحظوا قط على مدى طويل جدا آلام الموت عند طفل برىء.

" وعندئذ فقط أصاب الولد تشنج مفاجئ، كأنما عضه شىء فى معدته، وأطلق عويلا حادا. ولاح ذلك لحظة كأنه بغير نهاية، وبقى فى وضع ملتو غريب، وقد دمرت جسمه ارتعاشات متشنجة، وكأنما كان جسمه الواهن ينحنى أمام أنفاس الطاعون الوحشية ، وهو يتكسر تحت وطأة نوبات الحمى المتكررة. ثم مرت رياح العاصفة، وحلت فترة هدوء، واسترخى قليلا ، وبدا أن الحمى تتراجع، وتركته يلهث من أجل النفس على شاطئ الطاعون الرطب، ضائعا فى وهن يبدو كأنه الموت من قبل. وعندما هجمت عليه الموجة النارية للمرة الثالثة، ورفعته قليلا ، تكوم الطفل على نفسه إلى أعلى، وانكمش بعيدا على حافة السرير، كأنه فى رعب من اللهيب الذى يزحف عليه، ويلحس أطرافه. وبعد أن قذف رأسه بعنف إلى الأمام والخلف بعد لحظة فيما بعد،

اندفع خارجا من البطانية فاضت دموع كبيرة بين الجفنين الملتهبين، وانحدرت على الخدين الغائرين ذوى لون داكن. وعندما انقضى التشنج، كان منهكا للغاية، يشد رجليه وذراعيه الرفيعة، وكان اللحم فيها قد ضمر حتى العظام فى غضون ثمان وأربعين ساعة، واستلقى الطفل مسطحا مدمرا على السرير المنكوش فى محاكاة غريبة للصلب".

نحن هنا بعيدون عن فكرة الكاتب الذى يقتل شخصياته للتأثير الأدبى. إن مستوى هذه الفقرة له قوة الإيحاء بأن كامو قد لاحظ موت طفل، ثم اضطر فيما بعد لتسجيل التجربة، مهما كان استرجاعها لافحا. إن فى الإمكان قياس أصالتها بالمقارنة مع رواية شخصية لموت طفل صغير آخر اسمه نيبوموك Nepomuk "فى الدكتور فاوست Doctor Faustus" من تأليف توماس مان. إن الموقف الأدبى المتسامح عند مان أمام هذا الموت واضح من ملاحظة فى يومياته بعد قراءته هذا الفصل لعائلته. "قرأت هذه النوبة الجميلة المخيفة لعلها أكثر اللحظات الشاعرية التى تحققها الرواية، وقد قرأتها بعاطفة أحس بها المستمعون بصورة واضحة. وتحدثنا حديثا طويلا عن الحادث الأثيرى الذى يكسر القلب" .

إن كامو فى الجانب المقابل يتقمص موضوعه. إنه لا يُجَمِّل ولا يتخذ مواقف. إن الموت مدعاة للغضب الشديد، وليس ذريعه للأسلوب الجميل. وفى هذا، يتفق كامو مع سيمون دى بوفوار Simone de Beauvoir.

القسم الثالث
آفاق للتأمل

الفصـــل الأول

مـواقـف مـن الـزمـــان والمـكـان والـطـبـيـــعـة

أرنولد توينبى Arnold Toynbee

لوحظ فى فصل سابق[1] أن تقدم العلوم الطبيعية قد أنقص من مكانة الإنسـان، وقلل من أهميته فى عينى الإنسان الغربى، وذلك منذ القرن السابع عشر فى العالم الغربى الذى كان من قبل مسيحيا. وقد بين لنا العلم أن كوكبنا أولا ثم شمسنا بعدئذ وحتى مجرتنا فى النهاية ليست مركز الكون الطبيعى، كما اعتقد أسلافنا المسيحيون أن كوكبنا كذلك. كما بين لنا العلم أيضا أن أسلافنا قد أصبحوا بشرا منذ مليون سنة، ولم يخلقوا فى عام ٤٠٠٤ قبل الميلاد. إن مليون سنة فترة قصيرة إلى غير حد مثل خمسة آلاف أو ستة آلاف عام حسب مقياس الزمن فى عمر نظامنا الشمسى، والمقياس الأكبر للكون الطبيعى بصفة عامة. وقد جعلت هذه الاكتشافات العلمية قدمة الإنسان يبدو هزيلا لا أهمية له. كان هذا تأثيرها على عقل باسكال، على الرغم من أن العلم الحديث كان فى طفولته فى جيله، وإن كان باسكال نفسه قد تابع مسيحية أسلافه بطريقة متطورة لكنها عن قناعة.

إن إحدى خصائص العلم الحديث على كل حال هى أنه فى حركة متجددة وأنه يتسارع دائما. وهو فى سيره إلى الأمام يراجع صورة الكون عنده، وكلما تغيرت هذه

(١) مواقف متغيرة تجاه الموت فى العالم الغربى المعاصر: القسم الثانى ، الفصل الرابع.

الصورة تغير معها انطباعنا عن مكان الإنسان فى الكون. لقد قدم العلم فى عصرنا اكتشافين رئيسين. أصبحنا على وعى بالنسبية فى مجال الطبيعة الفيزيائية، كما كشف العلم فى مجال علم النفس عن جب اللاشعور فى النفس البشرية تحت قشرة رقيقة من الوعى والإرادة. وما زال كلا الاكتشافين من الحداثة لدينا بحيث نعجز عن التنبؤ بتأثيرهما فى النهاية على نظرتنا إلى مكان الإنسان فى الكون. ولعلنا نستطيع المغامرة بتخمينين. إن هذين الاكتشافين لن يستعيدا للإنسان المكانة المركزية التى ظل يشغلها فى نظام الأشياء تبعا للديانات الزرادشتية واليهودية والمسيحية والإسلامية. وقد لا يتركان الإنسان فى الوقت نفسه يبدو هزيلا لا أهمية له إلى حد كبير، كما كان يبدو منذ القرن السابع عشر حتى القرن التاسع عشر.

إن نظرية النسبية جعلتنا ندرك أن عالم الفلك الذى يلاحظ الحركات فى الكون الطبيعى مثله مثل عالم الأنثروبولوجيا الذى يلاحظ السلوك فى قبيلة بشرية فى أنه أكثر من ملاحظ، إذ هو فاعل أيضا، لأن ملاحظته تؤدى إلى تأثير لا يقتصر على عقله الخاص، ولكنه يمتد إلى موضوعه. كما أن سلوك القبيلة يتغير عندما يصبح تحت عينى عالم الأنثروبولوجيا.

إن العلاقات المشتركة والسرعات النسبية للأجسام السماوية تتغير عندما تقع هذه تحت عين المُراقب الذى يحط على واحد منها. والواقع أن المراقب ليس عاملا فقط، وإنما هو عامل يلعب دورا خلاقا فى الدراما التى يشاهدها. إن الكون الطبيعى ليس له مركز ولا نقاط ثابتة. والنجم الذى يجد الفلكى أنه فوقه يتحرك هو نفسه، بينما يراقب حركات النجوم الأخرى فى حدود معرفته. إن كل نجم يكون عليه الفلكى يكون موقعا للمراقبة طيبا أو سيئا مثل أى نجم آخر. وقد يكون هناك عدد لا يحصى من النجوم قابلة للسكنى، ويسكنها الفلكيون فى كون طبيعى لعله غير محدود، وحتى هذه النجوم القابلة للسكنى، والتى هى أقرب فيما بينهما قد تكون المسافة بينهما عددا لا يحصى من السنين الضوئية، وقد يكون الفلكى على أى واحد منها مثل ألكسندر سيلكيرك "Alexander Selkirk" – ملكا على كل ما

يحصيه" وإن كان من الجائز أن يكون مجرد واحد من كثيرين من أمثال هؤلاء الملوك متناثرين فى الكون. إن الإنسان على كوكبه ملك واحد يلاحظ الكون، وهو يعدله عند ملاحظته، وهو على ذلك يخلقه على معنى من المعانى. واكتشاف النسبية لم يستعد للإنسان ما كان يتمتع به من التفرد والمكانة المركزية فى الصورة الموجودة قبل كوبرنيكوس ونيوتون، لكنها على الأقل وضعته على قدم المساواة مع المواطنين الآخرين الذين يجوز وجودهم فى الكون، والذين يستطيعون مشاركة الإنسان فى قدرته على أن يلعب دور الخالق فى إجراء الملاحظات. وما لم يقم العلم بكشف هائل آخر، وحتى ذلك الحين فإننا فى جيلنا نستطيع أن نشعر بالمزيد من التفاؤل حول مكان الإنسان وعمله فى الزمان والمكان أكثر من آبائنا وأجدادنا فى حدود قدرتهم على ضوء المعرفة العلمية عند أجيالهم.

وإذا كان اكتشاف النسبية قد رفع قليلا من إعادة تقديرنا لأهمية الإنسان فى الكون الطبيعى فإن اكتشاف جُبّ ما تحت الشعور subconscious فى النفس الإنسانية أظهر أن الإنسان الفرد فى المجال النفسى هو عالم فى ذاته.

نحن ما زلنا بعيدين كما كنا دائما عن فهم طبيعة العلاقة بين الجانب النفسى والمادى من الواقع. وإنما نعرف فقط أن هذين الجانبين يتعايشان لا فى الإنسان فحسب، بل فى كل نوع آخر من الكائنات الحية على هذا الكوكب، ويمكن أن يوجدا فى كل شىء فى الكون. إن الوجود المشترك للعنصر النفسى والمادى فى جميع صور الحياة على الأرض يبدو أنه ضرورة تمكن من استبقاء الحياة نفسها. كما أن الحياة الأرضية للكائن الحى على الأرض تنتهى على كل حال عندما ينفصل العنصران النفسى والمادى.

المخ البشرى هو الأداة المادية للنفس الإنسانية، أو الوعاء أو التركيب أو الجهاز. ونحن فى الحقيقة لا نعرف ما نعنيه بهذه الكلمات والكلمات الأخرى التى نستعملها كلافتات للعلاقة التى لا نعرفها حتى الآن. نحن نعرف حقا على كل حال أن المخ

البشرى - باعتباره عضوا ماديا - يمكن مقارنته بكون مادى كامل من ناحية عدد مكوناته، وسرعة حركاتها، والتعقيد فى العلاقات بين هذه الحركات. ونعرف أيضا أن هناك ارتباطا بين المخ والنفس فى التركيبات والقدرات لكلٍ فى مجاله الخاص.

أما فيما يتعلق باستكشاف النفس البشرية، فإن الرواد الذين نفذوا من خلال قشرة الشعور فى عصرنا ، قد تحسسوا فى جب اللاشعور وما هو غير منطقى عمقا بعد عمق دون أن يبلغوا أى شىء يبدو كالقاع الصلد مثل الحجر فى نطاق البصر. (ومن المستحيل فى الواقع فى اللغات الغربية أن نصف الكون النفسى إلا فى تعبيرات مادية على سبيل المجاز. كان المتحدثون عن اللغات الغربية على الأغلب حتى الآن من المنبسطين extraverts، ولذلك طورت هذه اللغات تعبيرات نفسية ضعيفة فقط حتى الآن).

فى تلك الأثناء، كلما وصل المكتشفون عندنا للكون النفسى إلى مستوى أعمق من الجب النفسى ، كلما كان الجانب الشخصى أقل فى كل مستوى يتم اكتشافه على التوالى. وإذا كان السطح الذى يثقب فيه علماء النفس ثقوبهم هو الشخصية، فإن أعمق المستويات التى بلغوها حتى الآن تبدو كأنها ليست ملكا خاصا لهذه الشخصية المعينة أو أية شخصية أخرى. إن المواد النفسية الأعمق فى مكانها، والتى نجح علماء النفس فى رفعها إلى مستوى الشعور حتى الآن. تبدو وكأنها عينات من "اللاشعور الجمعى collective unconscious". كم يمتد هذا اللاشعور الجمعى؟ هل هو شامل لجميع البشر؟ هل هو شائع بين جميع الكائنات الحية على هذا الكوكب؟ هل هو شائع فى جميع الكون فى جانبه النفسى؟ وإذا كانت الإجابة بالإيجاب على كل سؤال من هذه الأسئلة، فلا بد أن نكون من ناحية البحث قريبين من الحدس الهندوسى "أنت هو ذاك Thou art That"، وأنت thou هو الساكن فى أعمق أعماق الروح الإنسانى، وذاك that هى الحقيقة الروحية النهائية وراء الكون. أما فيما يتعلق بالعمل، فقد نجد اكتشافاتنا الفكرية فى هذا المجال النفسى تميل بنا إلى اتباع وصفة بوذا بالتمرينات

الروحية الشاقة حتى نختزل النفس إلى حد تحقيق النرفانا، وهى حالة من الفناء تختفى فيها الذاتية، وتترك الحقيقة الروحية الكامنة سالمة ولكنها مطهرة، وعليها- حسب العقيدة البوذية - تكون الذاتية إضافة من سوء الطالع.

أشرنا في مكان آخر من هذا الكتاب[١] ما توقعه حدس الفلاسفة الهنود ووصفه بوذا منذ ٢٥٠٠ عام من العمل الرائد للجيل الأول من علماء النفس. لكن اكتشاف الحقيقة الروحية النهائية بالطبع وكذلك المساق الذى يجد به الإنسان طريقه نحوها بالعمل الروحى لم يكن حكرا على الهنود. فإن الصوفية الذين ترعرعوا فى أماكن وأزمنة مختلفة قد تجمعوا من أقطار مختلفة على المسألة نفسها بالنوع نفسه من السفر الروحى.

إن التشابه بين اكتشافات علماء النفس الغربيين المحدثين، والفلاسفة الهنود والصوفية من مدارس مختلفة يشير إلى إجابة على لغز عاقبة الموت. توحى هذه الاكتشافات بأن عاقبة الموت ليست عدما ولا خلودا، بل هى اندماج جديد فى الحقيقة الروحية النهائية التى انفصلت منها الشخصية الإنسانية مؤقتا بالإكراه ، وهى التى تعيش وتموت، وقد اكتسبت استقلالا جزئيا عن مصدرها على حساب اغتراب جزئى عنها.

وإذا كان هذا صادقا، فإن حدسه قد شارك فيه الفلاسفة والصوفية مع الشعراء. وهذا هو ما يصرح به يوربيدس **Euripides** عندما يضع السؤال:

من يدرى فى الحقيقة إن كان معنى أن يحيا الإنسان هو فى الحقيقة ألا يموت، وأن الموت لا يعتبر فى العالم السفلى بمثابة حياة الإنسان[٢]، من يدرى إن كانت هذه

---

(١) انظر القسم الثاني : الفصل الأول : مواقف تقليدية تجاه الموت.

(2) Euripedes from his lost play Polyidus.

التجربة التى نسميها الموت ليست فى الحقيقة هى الحياة، وأن الحياة ليست فى الحقيقة هى الموت[1].

إن هذا السؤال مهم حسب كلام بوربيدس، لأنه كان من زعماء الداعين إلى العقلانية، التى كانت فى جيله موضع إيمان قلة مثقفة فى العالم الهيلينى بديلا من الديانة التقليدية.

ومن المهم على قدم المساواة أن نرى الحدس المكتشف بعينه تعرب عنه الأشعار المكتوبة فى العالم الغربى منذ صعود العلم الغربى الحديث. وهناك مثلان إنجليزيان هما شعر كتبه هنرى فوجان Henry Vaughan (1621-1695)، وشعر أشهر كتبه وليم وردزورث William Wordsworth (1770-1850). والموضوع واحد فى هاتين القصيدتين.

وهو توسع فى الموضوع المفهوم ضمنا فى تساؤل توربيدوس. إن الحياة فى صورة الشخصية الإنسانية على الأرض هى امتداد لنوع آخر وأفضل من الحياة على مستوى آخر. والحياة على الأرض هى كذلك مسار تكون فيه الذروة الدنيوية، وهى المسماة "عنفوان الحياة"، هى الحضيض الروحى فى الواقع. إن الطفل يحتفظ بالذكريات عن بيته الحقيقى، وهى التى تبهت عندما يصبح الرجل الكبير فى غاية قوته مستغرقا فى شواغل الدنيا[2].

وعندما تنقضى ذروة الحياة المفترضة على كل حال، ويكون مسار الحياة الآن هابطا فى الشيخوخة نحو الموت ، فإن وعى الطفولة الغامض مؤقتا فى بيتنا الحقيقى قد يستعاد مرة أخرى. وقد سمى فوجان شعره الأخف باسم مناسب: التراجع The Retreat. أما وردزورث – وهو حائر فى تقاليد أسلافه المسيحيين– فقد سمى قصيدته الغنائية الأقوى: "تصريحات الخلود Intimations of Immortality" ، وإن كانت الحقيقة ،

(1) Euripedes from his lost play Polyidus.
(2) Mark, iv, 19.

أن تصـريحـاته وتصـريحـات فـوجـان ويوريبـيدس ليست عن الخلود، وإنما هـى عن النرفانا. تتجلى روح القصيدة القصيرة عند فوجان فى ثلاث ثنائيات:

سعيدة تلك الأيام الباكرة عندما كنت

أتلألأ فى طفولتى الملائكية

قبل أن أفهم هذا المكان

سعيت إلى سباقى الثانى

أواه، كم أتوق إلى السفر فى الماضى

وأسعى مرة أخرى على المساق القديم.

إن روح قصيدة ورذوورث الأطول عسير على النقل دون ذكر كل كلمة، لأن هذا الشعر عميق، ويظل مستوى إلهامه السامى من البداية حتى النهاية، وأجتزئ بالمقتطفات التالية على سبيل المجازفة التى أتحملها.

ميلادنا ليس سوى نوم ونسيان

والروح الذى يشرق معنا، نجمة حياتنا

لها مغربها فى مكان آخر

وتأتى من بعيد ...

أما الذكريات التى يرفع الشاعر فيها "أنشودة الحمد والتمجيد" فهى:

هذه الأطياف من الذكريات

ولتكن كما قد تكون

هى مع ذلك ينبوع النور فى يومنا كله

وهى مع ذلك النور الرئيس فى كل أنظارنا
تدعمنا وتهدهدنا ، ولها قدرة
على جعل سنواتنا الصاخبة تبدو لحظات
فى وجود الصمت الأبدى، حقائق تصحو
حتى لا تموت أبدا
على ذلك ، فى فصل هادئ الجو
وإن كنا بعيدا فى داخل البلاد
ترى أرواحنا منظر البحر الخالد
الذى جاء بنا هنا
يمكن أن يسافر فى لحظة هنا
ونرى الأطفال يتريضون على الشاطئ
ونسمع المياه الجبارة تزداد فى الهدير

ولا بد أن وردزورث كان على ألفة جدا بشعر فوجان، وربما عرف أبيات يوريبيدس. ويبدو تأثره بالفلسفة الهندية بعيد الاحتمال، ومع ذلك فإن النغمة الهندية لا يخطئها الإنسان فحسب، وإنما هى غالبة على تصريحاته.

إن الحقيقة النهائية قد تكون فى الحقيقة هى "الصمت الأبدى" للنرفانا، الذى يكون مقدمة الميلاد وعاقبة الموت كذلك. وإذا كانت النرفانا مع ذلك هى النهاية وهى النعمة أيضا، فلماذا انكسر صمتها على الإطلاق ؟ لماذا الانبثاق emanation ؟ ، لماذا الخلق ؟ لماذا المايا Maya ؟ لماذا الكارما ؟ لقد أنفق بلوتينوس Plotinus عمره فى إعمال عقله فى هذا السؤال دون أن يجد إجابة مرضية ورأى مارسيون Marcion فى الخلق

عمل إله حاقد، لكنه كان على وعى بوجود الحب وقوته، وتصور تدخل إله ثان، إله منقذ لتفسير ذلك.

إذا كانت الحقيقة عن الحياة والموت غامضة، فإن سبب الحياة والموت ما زال أشد غموضا" إنا لله وإنا إليه راجعون"(١)، وإذا ترجمنا إلى تعبيرات غير شخصية رؤية النبى محمد للحقيقة النهائية على أنها ذات إلهية، وإذا وضعنا مكان هذه الصورة المجسمة للحقيقة النهائية بلاغة "البحر الخالد" عند وردورث، فقد نفكر فى شخص إنسانى- وهو النوع الوحيد من الشخص الذى نعرفه على أنه موجة تعلو وتهبط، أو فقاعة تتكون وتنفجر على سطح البحر الخالد. إن الشخص الإنسانى - مثل الموجة أو الفقاعة - زائل فى حد ذاته ، وقد يكون الشخص مع ذلك مثل الموجة أو الفقاعة أيضا- صورة مؤقتة مفترضة بواسطة شىء ملتزم. إن الشخص الذى يعيش ويموت فى كائن نفسى جسمى Psychosmatic على هذا الكوكب قد يكون مظهرا للحقيقة الروحية النهائية. ولكن إذا كان هذا ما نحن عليه، فالواجب علينا أن نعيش ونموت دون أن نعرف أبدا ما هى العلاقة بيننا وبين الحقيقة النهائية التى هى مصدر وجودنا وغايته. وفى حياتنا الإنسانية الزائلة على الأرض، هل نحن حوادث لا معنى لها حسب هذه الحقيقة التى انفصلنا منها أشخاصا بصفة مؤقتة ؟ أم هل نحن غائبون اغتربنا بأنفسنا عن مصدر وجودنا بإكراه منحرف، لا يمكن أن نتحمله وراء المدى القصير لمسار الحياة الإنسانية ؟ أم هل تكون الحياة الإنسانية على الأرض رسالة يكون فيها "أنت Thou" المتماثل مع "ذاك that"مبعوثا من الحقيقة النهائية لغرض معين (بالتعبير الإنسانى) يكون له بعض الأهمية حقا؟

نحن لا نعرف - إننا نصحو على وعى فى موقف يكون وسيظل سرا علينا. هذا ثمن عسير ندفعه من أجل إنسانيتنا. ومع ذلك، هل يرفض أى إنسان عرض الحياة عليه، إذ تلقى تحذيرا مقدما بصعوبتها، وخيارا بالامتناع عن ولادته ؟.

(١) القرآن الكريم - البقرة ١٥٦ .

الفصل الثانى

مواقف من الموت على ضوء الأحلام والتجارب الأخرى للخروج من الجسم

روزالند هيود Roslalind Heywood

هذا الفصل والفصل التالى عن "الموت والبحث النفسى" يتعلق كلاهما بالأسئلة: ما هو الموت؟ لماذا يخافه كثيرون جدا من الغربيين ؟ هل تكون فكرة موت العقل والجسم معا أقل تخمينا من حياة بعض الوميض العقلى بعد موت الجسم ؟ هل هناك فرصة فى أن تكون تجارب معينة من الخروج من الجسم – وهى غالبا ما تخفف من خوف الموت عند أولئك الذين يشعرون بها – من الدلائل على أن الموت لا يؤدى إلى الفناء، وإنما إلى حياة أوسع؟

مهما كانت هذه الأسئلة غير شخصية ، فإن سؤالها على الإطلاق يتضمن موقفا، وهو أننا لم نحل طبيعة الموت حتى الآن. إن مثل هذا الموقف عند المادى الأرثوذكسى هو حماقة أطفال، لأنه يعرف أن العقل لا بد أن يموت مع الجسم، حيث إنهما ليسا سوى جانبين لشىء واحد.

كما أن تصور أى شىء آخر لا يزيد عن التمنى العاطفى. ما هو المغزى الممكن فى اعتبار الدليل على العكس معقولا مهما كان ؟ لا بد أن يكون هناك تفسير آخر للأمر. لكن الدليل لا يختفى لأنه محل للتجاهل.

وهناك عدد مما يمكن اعتباره - على الأقل - تلميحات ومفاتح على أن الموت ما زال سؤالا مفتوحا. إن الصعوبة هي دراستها منفصلة عن التمني من الجانبين، لأن بعض النـاس يتطلعـون إلـى النسـيان، كمـا يتطلع آخرون إلى البقاء. كيف نتأكد من أننا لا نفسر التلميحات والمفاتح تبعا لرغباتنا؟

خوف المـوت :

قد يساعد أن نبدأ بمحاولة فك الجوانب المختلفة من خوف الموت. أحدهما بصورة واضحة هو غريزة البقاء البيولوجية النافعة، التي تدفع الأرنب إلى الهرب من الثعلب، والرجل إلى تفادي سيارة قادمة، حتى لو كان في سبيله إلى القفز من فوق جسر وستمنستر **Westminister**. جانب آخر هو الخوف من عملية الاحتضار. وهناك تلميحات على أنها حين تأتي في أوانها تكون أقل إيلاما مما هو مفترض على نطاق واسع وتبين من استفتاء أمريكي حديث أن الأطباء والممرضات قرروا أن "الخوف لم يكن عاطفة غالبة بين المحتضرين" ، وأنه حسب تجربتهم: "قد حدث ابتهاج في المزاج عند واحد من عشرين محتضرا من المرضى تقريبا"[١]. ويمكن أن يكون هذا الابتهاج مثيرا جدا للمشاعر. أذكر أنني كنت مسئولة عن مريض يحتضر وكان في حالة هذيان وألم عظيم. ثم أصبح هادئا فجأة. واستنار وجهه. صاح في ابتهاج "أواه، النور! النور! آواه، هناك آني **Annie** وجون **John!**" ولست في موقف يسمح لي حتى أقول إنه رأى آني وجون حقا، لكنه بالتأكيد مر بهذه التجربة، وجعلته يموت سعيدا[٢].

(7) Karlis Osis, Deathbed Observation by Doctors and Nurses, Monograph, Parapsychology Foundation, New York, 1961.

(8) There are reports of many such experiences both in Dr. Osis Monograph and in an earlier book by the physician sir William Barratt, entited deathbed visions, methuen, 1926.

لكن على الإنسان ألا يجعل الصورة مبالغة فى اللون الوردى، فإن الخوف من الموت يستمر أحيانا حتى النهاية. وقد أخبرنى كانون جون بيرس هيجينز Canon John Pierce- Higgins كيف استطاع أن يساعد رجلا خائفا حتى يواجه الموت بالمزيد من الهدوء. وقال : "لكنى عندما استدعيت مرة ثانية ليلا، أوقفتنى ممرضة ضخمة فى النوبة الليلية بحملقة تثير الاضطراب وقالت: الآن يا بادر Padre لا كلام مع المريض عن الموت، إنهم عاجزون عن أخذه".

ربما يكون الموت اليوم أشق فى احتماله لسببين، إن ألفته أقل فى الحياة اليومية مما كانت عليه من قبل؛ إن عددا أقل من الصغار يموت، كما يُحمل المسنون بسرعة إلى المستشفى، بدلا من خروجهم من الحياة محاطين بعائلاتهم الخاصة، ويناظرهم القسيسون الذين لا يعبرون عن أى شك فيما سوف يجدون على الجانب الآخر. بل زاد انحلال الدين من تجاهل الموت، ويذهب المادى- دون شىء يتمسك به – فى الظلام والفناء. ومن العسير أن نكتشف – على المستوى العقلى- مدى رعب الإنسان السليم العادى من الفناء فى حد ذاته. وفى بداية القرن العشرين نشرت الجمعية الأمريكية للبحوث النفسية استفتاء عنوانه :"العاطفة الإنسانية فيما يتعلق بالحياة الآخرة" ، ودلت الإجابات على حماس أقل بكثير مما كان متوقعا لفكرة البقاء، وقد قيل لى منذ بضع سنين أن ناقدا شهيرا رفض مراجعة كتاب علمى يقيم الدليل على البقاء على أساس أنه حتى لو احتوى على دليل حاسم عليه فلن يهتم به قراؤه. وقد روى عن محرر أنه شعر بصدمة كبيرة نحو الفكرة القائلة بأن واجبه الرقابة على أى تقرير عن مثل هذا الدليل فى صحيفته. ولما سألت محللا نفسيا من مدرسة فرويد عن رأيه فى مثل هذا الموقف، قال إنه كان مجرد أسلوب هؤلاء الناس فى كبت خوفهم الخاص من الموت.

وقد يزداد ذلك الخوف اليوم حقا نتيجة لظل الفطر العظيم الذى خيم على الجنس البشرى بصفة عامة(*). ولا يبدو من الغريب جدا أن يحاول بعض الشباب الهروب من

(*) يقصد المؤلف شبح القنابل الذرية وصورة الإشعاع الذى يشبه الفطر. المترجم

تلك الغمامة ومن الخشونة والقسوة، وغالبا ما يخبرهم العجائز بالعالم الخالي من المعنى الذى يقع تحتهم. ولعله ليس من الغريب أن يلجئوا إلى أية وسيلة للهرب فى متناول أيديهم، بدءا بعقاقير الهلوسة إلى التأمل المتسامى، وبخاصة عندما يجدون أن تلك الوسائل تؤدى إلى نعمة مؤقتة فى بعض الأحيان على الأقل.

من الدلائل على أن الخوف من الموت شائع ولكنه مكبوت أن ذكره فى الحياة الشخصية غالبا ما يكون محظورا. وإذا قلت عن أحد المشروعات فى المستقبل: "حسنا ، عمرى ٧٣ عاما، لا ينبغى أن أهتم بذلك" ، جاءت الإجابة الأكيدة تقريبا: "لا تكن سقيما إلى هذا الحد!" إن جوفرى جورر فى كتابة الحديث "الموت والحزن والحداد فى بريطانيا المعاصرة Death, Greif and Mourning in Contemporary Britain" يبين أن الأقلية فقط من الشعب البريطانى تمارس الدين أو تصلى، وأن الغالبية ليس لديها دليل يرشدها إلى كيفية السلوك فى مواجهة الموت، وينتهى عدد من الناس إما إلى الاهتمام بالتفاهات أو إلى تبلد اليأس.

قد يكون من الأعراض الأخرى على القلق المكبوت تجاه الموت الاهتمام الشائع بالعنف والتخريب – على مسافة آمنة – فى كتاب أو فيلم أو فيتنام. ويجب أن يجد القلق صمام أمان بطريقة ما. ونشرت صحيفة رائجة فى زمن قريب صورة لجثة رجل ملطخة بالدماء كان قد تعرض لإطلاق الرصاص عليه فى أحد شوارع ضاحية هادئة لمدينة إنجليزية ، وتحت الصورة تعليق لأحد الجيران "لقد ذهلت، ظننت أن هذا الأمر يحدث فى الكتب أو الأفلام فقط".

من هم التابعون للقساوسة :

تولى الأطباء النفسيون والمحللون مهمة علاج المصابين بالقلق من مواجهة موتهم الأكيد ، إذا استبعدنا طبعا مدرسة فكرية تخفف القلق بالحبوب والصدمات الكهربية،

لكنها لا تبحث بالضرورة عن سببه. ويعرف كل إنسان أن الرجل العظيم فرويد كان أول من كشف عن القلق الخفى الشائع من الموت وقد اعتبر أنه فناء. ويمكن أن يقال على معنى من المعانى إن نظرة فرويد قد قلبت الديانة التقليدية مع تأكيدها للبقاء رأسا على عقب تقريبا. هذه الفقرة تصور مثلا كيف رأى الصورة الدكتور إرنست جونز **Ernest Johnes** وهو صديق مؤثر على فرويد ومن أتباعه:

"قد أقول إنه فى مجالات التفكير والعمل يكون التمييز بين الذين يؤمنون بأن العمليات العقلية أو الكائنات يمكن أن توجد مستقلة عن العالم المادى وبين أولئك الذين يرفضون هذا الاعتقاد هو أهم التقسيمات جميعا: ويجب أن أقيس أى أمل فى مزيد من التقدم التطورى بانتقال الناس من قسم إلى الآخر(١).

إن فكرة ثناتوس **Thanatos**، وهى غريزة الموت، التى ابتكرها فرويد أيضا أصبحت تقريبا جزءا كبيرا من الجو العقلى مثل فكرته عن إيروس، وهى غريزة الحياة (وهى تشمل النشاط الجنسى بالطبع). لكن الدكتور ستافورد كلارك **Stafford Clark** أشار إلى أن فرويد لم ينشئ حقا مفهوم ثناتوس كما فعل بالنسبة لذلك المفهوم عن إيروس، ولكنه ترك "مصدره .... ودافعه، وموضوعاته من دون مناقشة نسبيا"(٢).

وقد نترك المسألة هنا أيضا، لأن معظم الإخصائيين فى علم النفس لم يقبلوها قط، وأغلب تابعيه شخصيا يبدو أنهم يعتبرون المفهوم دفاعا من جانب فرويد نفسه ضد عذاب عدم المعرفة.. من الأفضل أن تؤمن بالأسوأ ، وقد فعل، بينما نحن نفترض فى هذا الفصل أن الإجابة على الموت ربما لم توجد بعد.

نحن نرجع إلى يونج فى بحثنا عن مفاتيح لتلك الإجابة. وجدير بالذكر أنه على خلاف مادية فرويد القاتمة، واهتمامه بالنفس الفردية، قد وسّع مجال دراسته فى علم

---

(1) Ernest Jones, Free associations, Hogarth press, 1959 chapter 3, p. 59 .

(2) David stufford Clark, what freud really said, Macdonald, 1965, and Pelican books, 1966.

النفس حتى يدرس كل نفسية فردية فى علاقتها بما افترضه من اللاشعور الجمعى العظيم للجنس البشرى، بل أبعد إلى اللامحدود. وكتب فى سيرته الذاتية: "السؤال الحاسم للإنسان هو : هل يرتبط بشيء لا محدود أم لا ؟ .... إذا عرفنا أن الشيء المهم حقا هو اللامحدود فإننا نستطيع أن نتفادى تركيز اهتمامنا على ما لا جدوى منه"(١).

الأحلام والموت :

درس يونج الأحلام دراسة عميقة مثل فرويد، لكنها عنده كشفت ما يزيد كثيرا على الموقف الفردى تجاه الموت، وكان لها ارتباط بالصورة البدائية العالمية، التى كانت مصدر كل أفكارنا اللاشعورية، وتشمل تلك الأفكار عن الحياة بعد الموت. وفى رأيه أن مثل هذه الأفكار كانت عالمية أيضا.

أيكون مفهوما أن وراءها معرفة فيما تحت الشعور subconscious ؟ انتهى يونج من التجربة الشخصية إلى الاعتقاد بأن جزءا من النفس على الأقل لا يتأثر بالمكان والزمان، وعلى ذلك "يكون فى اللاشعور مصادر للمعرفة أفضل مما فى العقل الواعى، الذى لا يملك سوى الإدراك الحسى فى إرشاده".

وبالتالى ، "فنحن نعتمد فيما يتعلق بأسطورة الحياة بعد الموت لدينا على تلميحات ضئيلة من الأحلام وكشوفات تلقائية مشابهة من اللاشعور". لكنه أضاف تحذيرا. "نحن لا نستطيع أن نعزو إلى هذه الإشارات قيمة المعرفة فضلا عن البرهان. وهى قادرة على كل حال على أن تزود الفكر الباحث بالمادة الخام التى لا غنى عنها فى حيويتها".

(1) Carl Jung Memories Dreams, Reflections, Collins and Routedge and kegan Paul, 1963. The following quotations from Jung are all taken from this book, mainly from the chapter "life after death".

شعر يونج شعورا واضحا بأن فكره الباحث الخاص قد تناول قدرا كبيرا من المادة الخام، "لم تكن أحلامي وحدها، ولكن تلك الأحلام الخاصة بالآخرين كذلك هي التي ساعدتني على تشكيل ومراجعة وتأكيد آرائي عن الحياة بعد الموت". ولم يكن يرغب بصفة خاصة في مثل هذه الحياة، لكنه قال إن الأفكار عنها جاءته دون طلب منه، ولذلك لم يكن مستعدا لكبتها من باب التحامل.

وقد وجد يونج - مثل البقية منا- أن من العسير تصور صورة الحياة بعد الموت، "نحن لا نستطيع تصور عالم آخر تحكمه قوانين أخرى تماما، لكنه ظل يعتبر مسألة الوجود في المستقبل بالنسبة لأغلب الناس: "عاجلة جدا، ملحة جدا، ولا يمكن استبعادها إلى حد كبير جدا أيضا، بحيث يجب أن نحاول تكوين بعض الآراء عنها"(١) .

هذه النظرة يجب أن تكون بالنسبة إليه أكثر من اعتقاد- "الاعتقاد عندي هو مجرد ظاهرة الاعتقاد، لا مضمون الاعتقاد. وينبغي أن أرى هذا مكشوفا بصورة عملية حتى أقبله". وكذلك كتب.

هنا مثلان من أحلام يونج الخاصة التي أثرت على نظرته:

"كانت لي تجربة أخرى عن تطور الروح بعد الموت ، عندما صحوت فجأة ذات ليلة - بعد عام تقريبا من وفاة زوجتي- وعرفت أنني قضيت يوما كاملا معها.. كانت مشغولة بدراسات عن الكأس المقدسة. وبدا هذا مهما بالنسبة لي، لأنها ماتت قبل إكمال عملها في الموضوع. إن التفسير - على المستوى الشخصي- بأن الجانب الأنثوي anima من شخصيتي لم ينته من العمل الذي كان عليها إنجازه لم يؤد إلى شيء مهم، فأنا أعرف جيدا تماما أنني لم أفرغ من ذلك. لكن الفكرة في أن زوجتي

(1) That the question of post- mortem existenance is ineradicable is illustrated in Edgar Hertzog's book Psyche and Death (Hoddetr and Stoughton, 1966). This compares myths about deah from prehistoric times onwards with unconscious attiudes which resemble them as revealed in dreams today.

كانت مستمرة بعد الموت فى المزيد من تطورها الروحى – مهما كان الفهم لذلك – صدمتنى كأنها ذات معنى، وحملت قدرا من الطمأنة لى".

لم يسمح يونج لنفسه أن يأخذ هذا الحلم بصورة حرفية. وعلق عليه بقوله:

" إن الأفكار من هذا النوع تُعطى صورة خاطئة ... مثل بناء نموذج ذى أربعة أبعاد من جسم ذى ثلاثة أبعاد ... وتبذل الرياضيات جهودا عظيمة لخلق تعبيرات عن العلاقات التى تتجاوز الفهم العملى. ومن المهم على نفس المنوال إلى حد كبير للتصور المنضبط أن يبنى صورا لما لا يكون محسوسا بواسطة المبادئ المنطقية، وعلى أساس المعلومات العملية، أى على البرهان من الأحلام" .

يوضح الحلم التالى اهتمام يونج بمشكلة النفس **self** والذات **Ego**، والمفهوم من النفس أنها توجد خارج الزمان والمكان الطبيعيين (ولو كان الأمر كذلك، هل يعنى هذا خارج الموت الطبيعى؟). دخل فى الحلم كنيسة صغيرة على تل، ودهش إذ لم يجد صورة للعذراء على المذبح، بل وجد بدلا من ذلك باقة مدهشة من الأزهار. وجلس أمام المذبح واحد من أتباع اليوجا فى تأمل عميق، ورأى يونج أنه يحمل وجه يونج نفسه. وصحا عند هذا الحد وهو خائف إلى حد عميق وظن : "آها! إنه يتأمل فىّ على ذلك، إنه فى حلم، وأنا حلمه". وشعر أن اليوجى عندما يصحو، فلن يكون هو نفسه موجودا.

كتب يونج : «إن هدف هذا الحلم أن يعكس العلاقة بين وعى الذات واللاشعور، وأن يمثل اللاشعور على أنه الخالق للشخصية العملية. ويوحى هذا العكس بأن فكرة "الجانب الآخر" هى أن وجود اللاشعور عندنا هو الوجود الحقيقى، وأن عالمنا الواعى ... ، وهو حقيقة ظاهرية مبنية من أجل غرض معين، مثل الحلم الذى يبدو حقيقة ما دمنا فيه".

عندما كنت أبحث عن أحلام قصيرة بصورة معقولة، وتتعلق بالموت من مصدر آخر، قفز إلى عقلى اثنان من أحلامى الخاصة من الماضى البعيد، وقد أثّرا فىّ إلى حد

عميق بحيث أننى لم أستطع قط نسيانهما. وأنا أسجلهما على استحياء باعتبارهما من الأمور الشخصية، لكن فيها مزية، هى أن معرفتى فى الحالة الأولى بنظريات اللاشعور كانت معدومة بالتأكيد، وأن معرفتى على غاية ما أتذكر فى الحالة الثانية كانت بدائية ، إن لم تكن معدومة.

يوضح الحلم الأول اهتمام ما تحت الشعور بفكرة الموت عند طفلة صغيرة، لأنه تكرر فى سن السادسة. تحول كرسى أختى العالى إلى شيطان ليلة بعد ليلة، وتعقبنى عبر أرض الحضانة وأمسكنى. وأننى مُت ، وصحوت وأنا أرتجف رعبا أخفيته لنفسى. لا توجد مربية طيبة صاحية حتى أقول لها إن واحدة قد ماتت. وربما قالت فقط: كلام فارغ أيتها الطفلة! اسكتى واذهبى للنوم. كم عدد الأطفال الذين يفعلون الشىء نفسه؟

فى الحلم الثانى ، وكنت عندئذ كبيرة، وجدت نفسى واقفة فى الزاوية الخلفية لفصل دراسى واسع جدا. كان مليئا بصفوف من المقاعد، وكلها مشغولة برجال عليهم ملامح الحزن ، يلبسون معاطف سوداء وعلى رءوسهم قبعات مستديرة سوداء، وقد جلس أمامهم على نعش شخصٌ ذو هيئة ملكية فى ملابس بيضاء كهنوتية. وبينما أنا أراقب، نهض الرجال جميعا وساروا فى حزن أمام الشخص وخرجوا من الباب البعيد، وعندما اختفوا ، بدأ الشخص نفسه بسرعة وتمرد وأخذ فى التحول إلى لون أخضر وهيئة فظيعة ثم يتحلل. أردت أن أطير ولكنى عجزت. إن ترك ذلك "الشىء" المسكين المتحلل وحده تماما يكون شديد القسوة، ولذلك جريت، وأنا أقاوم تمردا يثير الغثيان- عبر الغرفة، وانحنيت وقبلته وأنا أبكى قائلة: أحبك، أحبك!. وفى تلك اللحظة على الفور أصبح صابحا نظيفا، حيا كاملا سعيدا وقال: أنت تشاهدين، لقد هجرتنى الإنسانية. ثم صحوت، شديدة التأثر، وعندى شعور بأننى جربت شيئا مهما، وإن لم تكن عندى أية فكرة عن ماهيته. وقد يكون من الأهمية النفسية أنه عندما طفا الحلم فى عقلى باعتباره مناسبا لهذا البحث ، أشرق فى عقلى حقا تفسير ممكن.

إننا نتعلم الكثير من الأحلام فى هذه الأيام، وقد بين البحث فى أمريكا أنها لازمة حتى من الناحية الفسيولوجية. من زمن قريب سأل طبيب نفسى معاصر هو الدكتور كولين ماك جلاشان Colin Mc Glashan سؤالا طريفا: ما هو العقل الحالم؟ على خلاف السؤال المعهود: ما هى وظيفة الحلم؟ وهو يقترح أن من وظائفه أن يكون أداة للتحرير، يمكن أن يطلق صورا جديدة من الوعى، وهو يشبهه بالملف المهرب إلى زنزانة الزمان والمكان حيث يوجد الإنسان حبيسا، وهى زنزانة تكون جدرانها وسقفها هى حواسنا الخمس، ويكون حراسها مفاهيم المنطق التى لا مرونة فيها(1). وهو يظن أن هذا الملف قد يساعد الإنسان على الهرب، لا إلى الجنة الناعمة، بل إلى عالم رجراج غاض متناقض، عالم يكون فى الحقيقة خائفا منه. ويتصور الإنسان صورة طفل يدسّ إصبع قدمه فى بحر مجهول تدور فيه الدوامات.

تجربة الخروج من الجسم:

إن فكرة الحلم – كأداة للتحرر فى عالم أوسع – تؤدى إلى نوع من التجارب يتعلق بها إلى حد يزيد أو ينقص، وقد يكون كذلك من تلك الكشوفات القادمة من اللاشعور، والتى اعتبرها يونج تحتوى على مفاتيح ممكنة لطبيعة الموت. هذه التجربة هى الانطلاق الظاهرى المؤقت من الوعى فى الجسم المادى الى ما يمكن تسميته – دون التزام – بالمجالات فوق المادية ultra physical.

والسؤال الواضح هو كيف يختلف ذلك عن الأحلام العادية ؟ الإجابة الوحيدة حتى الآن أن المجربين الكثيرين يصرون على الاختلاف: إن الأشياء فى البيئة المحيطة تبدو أنها موجودة حسب ما هى عليه، وهى أكثر تناسقا ومنطقا مما تكون عليه فى الأحلام

(1) Colin Mc Glashan, The savage and Beautiful Country , Chatto and Windus, 1966, p. 122.

"العادية" ، وكذلك يشعر الوعى بالازدياد بل يكون الشعور بالواقع أكبر منه فى الوجود المادى. ويقولون إن هذا لا ينطبق على التجربة فى أثناء وقوعها فقط، وإنما عند استرجاعها فيما بعد. وقد أعلن وليم جرهاردى William Gerhardi أن العالم كله لو أخبره بأن تجربته فى الخروج من الجسم كانت حلما فسوف يظل غير مقتنع[١]. وربما كانت الإجابة كما قال يونج وماك جلاشان وآخرون أن الأحلام ليست كلها مجرد تخيلات شخصية، ولكن الإنسان يستطيع أن يخرج إلى مجالات أخرى من الوجود من خلال النوم والوعى الصاحى.

عندما يزعم الناس أنهم مروا بتجربة الخروج من الجسم، فإن المتسائل لا يملك بالطبع وسائل التأكد من أنهم لا يعانون من الأوهام أو الرومانسية ببساطة، لأنهم يذهبون وحدهم دون مرافق يؤكد رواياتهم، وليست هناك أحداث دنيوية تحدد رحلتهم. هناك مع ذلك رجال عظماء من أمثال وليم جيمس William James تجاسروا وتصوروا أن أنواعا معينة من أمثال هذه التجربة يمكن أن تأتى بالمزيد من المعرفة عن البيئة العامة والطبيعة الخاصة للإنسان أكثر من أى سبيل آخر للكشف.

إن تجربة الخروج من الجسم – سواء أكانت وهما أم كشفا– تبدو كأنها عامل ملازم للطبيعة البشرية، حيث إنها مذكورة عبر العصور وفى أنحاء العالم، وغالبا ما تكون بواسطة أناس مشهورين، بصورة مستقلة ، وفى تعبيرات متشابهة جدا. وقد تلقت بعض الثقافات السابقة على العلم أمثال هذه التقارير على صفتها السطحية للدلالة على وجود حقيقى لعالم آخر، تذهب إليه الروح لتسكن فيه بعد الموت ويمكن أن يزوره الحى، إما فى الأحلام ، أو فى حالة متغيرة من الوعى، يستثيرها التدريب أو الطقوس أو عقاقير الهلوسة. ولا تزال هذه العقائد موجودة فى بعض المجتمعات المنعزلة، ويُنظَر إلى "المسافرين" بانتظام على أنهم مرشدون وعرّافون. من الواضح أن

(1) William Gerhardi, Resurrection, Cassells, 1934 A vivid account of Gerhardi's experience is given in this book.

مثل هذه العقائد – فى ثقافتنا المادية المتطورة – تذهب تحت الأرض، لكنها– حسب رأى يونج – تظل موجودة فى اللاشعور. وإذا صح ذلك ، فقد تساعد على تفسير الواقع فى أن التجارب الظاهرية للخروج من الجسم ما زال يذكرها بعض المتعلمين الذين تواتيهم الشجاعة على تحمل ما يثيرون من الضحك. وتشير الدراسات الاستطلاعية الحديثة إلى أنها أقل ندرة مما هو مفروض، وإن كان من غير اليسير تأكيد هذا، حيث تخشى التجارب التى تجرى فى مزيد من الاستحياء أن يؤدى ذكرها إلى أريكة الطبيب النفسى. إن المدى الذى يتم البحث فيه عنها الآن فى الوقت نفسه بطريقة صناعية بواسطة العقاقير يوحى بأنها قد تحقق حاجة إلى الاتصال بالواقع على نطاق أوسع مما تزودنا به التجربة الحسية، والمظنون اليوم فى العادة أنها كل ما هناك، بالإضافة إلى توفير الهروب من الخوف والمعاناة. خذ مقابلة تليفزيونية مع المغنية الشعبية ماريان فيثفول Marianne Faithful فى فبراير من عام ١٩٦٨ . أجابت عند سؤالها عن شعورها تجاه العقاقير "العقاقير هى الأبواب... أنت ترى مجرد شق. أظن أن ل س د LSD مهم. أعرف كثيرين جدا من الناس كانوا يثيرون السأمة، ثم تفتحوا حقا بعد أن تعاطوه. ثم توقفوا من تلقاء أنفسهم . لقد توقف كل واحد تقريبا عن تناول ل س د".

سُئلتْ : "ما الذى شاهدته من خلال الشق؟: "شىء أظن أننا نسيناه تماما، شىء يشبه الله، شىء يبعث الهدوء. أنت تتحقق أن الحالة التى ينبغى أن نكون فيها هى الكمال ، وأننا لسنا فيها، وأن السبب فى وجودنا هنا أن نبحث عنها".

ثم سُئلتْ فيما بعد إذا كانت تخاف الموت. فأجابت : "أعتقد أن من المهم جدا أن نبقى فى العالم، وننجز أمورا ، لكنى أظن أن الموت شىء جميل" .

شعرت ماريان فيثفول أنها اختلست نظرة فقط من خلال شق فى الباب. وليس من دواعى الدهشة أن الناس الذين زادت تجربتهم حتى مروا من خلال ذلك الباب قد واجهوا سؤالا ثمنه أربعة وستون ألف دولار هو: هل يكون الواقع الأوسع الذى يجدونه فى الجانب المقابل وهما، أو هو جانب آخر من الحقيقة الكلية ؟

إن مثل هذه التجربة جديرة بالاعتبار هنا، أيا كانت الإجابة، نظرا لتأثيرها البالغ على الموقف تجاه الموت لدى عدد من الناس مروا بها. ولنتناول ثلاثة أمثلة: تجربة تنيسون Tennyson جعلت الموت يبدو له "استحالة مضحكة" ، وتجربة كيستلر Koestler جعلتها تفاهة مزعجة على نحو غامض، وأما الأستاذ العالم بالرياضيات ج.هـ.م. وايتمان J.H.M. Whiteman فقد ظهرت مثل هذه التجارب طوال عمره عديمة الأهمية فيما يبدو له ، بحيث إنه لم يذكرها حتى مرة واحدة فى كتاب خصصه لفحصها، وكان اهتمامه مركزا بصورة كلية على استكشاف الحقيقة وهى أقوى وأدعى إلى الإلهام، والتى شعر بأنها كشفت عنها. وأيا كان المعنى المقصود بالتجارب على الحقيقة التى تكتب عادة بحرف التاج فهى كلمة تستخدم غالبا لوصف تجارب الخروج من الجسم. ويمكن أن يفترض الإنسان بناء على ذلك أنها إذا كانت عالمية، فسوف يعتبر الموت بصفة أكيدة أنه بوابة لحياة أكبر. ولا يعنى ذلك بالطبع أن الأمر سيكون على هذا النحو. إن عالمية التجربة قد تعنى عالمية التوهم. وإذا كنا جميعا سكارى فقد نرى الأفيال وردية. وحتى لو كان الموت مثل هذه البوابة ، فلن يعنى هذا بالضرورة أن الاعتبار الذاتى الضيق للوعى أمر طبيعى بالنسبة للشخصية المادية. لقد قال تينسون عن تجربته : "إن فقدان الشخصية لا يبدو فناء، لكنه الحياة الحقة الوحيدة".

بغض النظر عما إذا كانت تجربة الخروج من الجسم حقيقية أو وهمية، سوف نستخدم التعبير فى هذا الفصل كى يعنى كلا النوعين، النوع الذى يشعر فيه المجرب بما سأسميه ومضه من الوعى لا إدراك لها بأى جسم، حيث أنى لا أجد تعبيرا أفضل، والنوع الذى يبدو لنفسه أنه خرج من جسمه العادى إلى كيان آخر غير مادى، أكثر حركة واستجابة، ويشعر بعض الناس أنهم قادرون على النفاذ من خلال الجدران إلى آخر ذلك، لكنه لا يزال ذا شكل، وهو موجود فى حيز محدد من المكان[1]. وغالبا ما

(١) يصف الناس المختلفون أنواعا مختلفة من الجسم. وربما اختلف نوع التجربة من الوجهة الفسيولوجية مع تنبيه أعضاء الحس المختلفة، وأجزاء المخ المسئولة عن تجربة تكيف الجسم من ناحية الوعى ونصف الوعى واللاوعى. ويتحدث الإنسان أحيانا عن تجربة جسم مادى آخر. وقد يكون هذا حقا فى أغلب الحالات هلوسة ذاتية لها سبب فسيولوجى، وأهميتها على ذلك قليلة من ناحية الدليل.

يشعر المجرب نفسه بالحيرة. وذكر القديس بولس عن المناسبة التى شعر فيها بنفسه مختطفا إلى أعلى فى السماء الثالثة: "لا أدرى أن كانت فى الجسم، ولا أدرى إن كانت خارج الجسم، الله يعلم" سوف نستخدم التعبير حتى يشمل كل مجالات مثل هذه التجربة، وتشمل الانطباعات النفسية العابرة، مثل الوقوف إلى جوار الجسم المادى للمرء، ورؤيته نائما على سريره وسط بيئته الطبيعية، وكذلك السفر فى البيئة المحيطة المختلفة، والكشف الصوفى. إن توصيل الشعور بالتجربة الصوفية قريب من المستحيل عند الذين لم يجربوها. وربما أمكن أن تسمى بالمعنى الواسع زيادة بالغة فى الشعور بالمعنى والقيم، لكنها لا تأتى للمثالى القديس فقط. ويختفى العالم المادى أحيانا- لا دائما- فيما يسمى صوفية الطبيعة Nature Mysticism، إذ يبدو متغيرا، ويصبح الغلاف الخارجى للحقيقة الداخلية التى يركز الصوفى انتباهه عليها، والتى تبدو- كما يخبرنا الصوفى- أدعى إلى السمو وأحرى بالمعنى كلما تزايد القرب من "المركز". ويبدو أن هناك كل درجات الاستنارة، من الشعور البسيط الذى يسميه رودلف أوتو Rudolf Otto بالروحانى numinous، وهو يعتبر هذا الشعور بذرة التجربة الصوفية، حتى يبلغ الرؤى المتسامية عند عظماء العرافين.

من العسير جدا على غير الصوفى أن يحاول وصف المشابهات والمخالفات بين التجربة النفسية والتجربة الصوفية، وبخاصة أن فى الإمكان حدوثهما معا. لعل أقرب ما يمكن قوله هو أن الأولى أشبه بالوعى بالصورة، مهما كانت فضفاضة، والثانية أشبه بالوعى بالماهية والمضمون والمعنى. وهناك شيء واحد على الأقل، يبدو واضحا إلى حد كبير، وهو أن اللغة فى كلتا الحالتين قد تطورت كى تتناول الظواهر المادية، التى ندركها بالحواس، وهى ستكون مضللة وغير مناسبة. وإذا كانت تلك الكلمات من قبيل: " عالم آخر" تستعمل فى الغالب كثيرا، وتعنى شيئا، فقد لا يكون "مكانا مختلفا"، بمعنى أن فرنسا مكان مختلف عن إنجلترا، وإنما بمعنى جانب آخر من الصورة الكلية totality. إن عبارة "مجالات فوق المادية ultra physical realms" ربما كانت أدعى إلى

الأمـان ، حـيث إنهـا أقل ارتبـاطا بأفكار المكان والإدراك البـصـرى. والذى يمكن مـرة أخـرى أن يسـمـى التـقـدم نحـو الحـقـيـقـة الأعظم، التى يتـحـدث عنهـا الكثـيـر جـدا من الصـوفية وأصـحـاب المواهب النفسية الخـارقة فى الحقيقة psyehics، يوصـف أحيانا "بالاتجاه إلى أعلى"، و"الاتجاه إلى الداخل" أحيانا، كما أن النبرات المبالغة فى السفر المادى لعلها تُضلِّل غيـر الصـوفي، والخـالى من المواهب النفسـيـة الخـارقة عن المعنى المقصود. ولكن ما هى التعبيرات المتاحة الأخرى؟.

من الحسن أن يكون الإنسان واضحا فيما يتعلق باستجاباته للفكرة نفسها، قبل قـراءة الأمـثلة على تجـربة الخـروج من الجسم. إن أولئك الذين يفـتـرضـون أن وسـيلة الإنسـان الوحيدة فى التواصل مع بيئته أو أقرانه هى من خـلال الحواس فربما كانت تلك الاستجابة شيئا مثل "حلم فقط"، أو أنها مجرد "تجربة شخصية" أو "لعلها مرضية وهى خالية من المعنى على كل حال". أو إذا كنا متسامحين جدا "ربما تكون صـادقة من الناحية النفسية". بالإضافة إلى ذلك، وبغض النظر عما إذا كانت التجربة ممكنة أو غير ممكنة، فإن مـجرد تصـور مـجـالات تبـدو أكثـر واقـعـيـة من مـجـالاتنا عند الذين يتجـردون من أمـثـال هـذه التـجـارب لن يكون هينا، والأدنى من ذلك كـثـيـرا أن نتـصـور احتمالها كأنه فى مثل السهولة التى نتخيل بها حمارا يقفز فى طريقين مرة واحدة.

إن الاسـتـجـابات للفـقـرتين المنقولتين التـاليـتين يمكن أن تكون مـفـتـاحـا للاتجـاه الأساسى عند الإنسـان . فى الفقرة الأولى يتأمل الأسـتاذ الفيزيائى دينيس ولكينسون Denys Wilkinson فى الأكـوان المتـداخلة interpenetrating universes، وفى الفـقـرة الثانية يقدم العـالم النفسى وليم جيمس William James خـلاصـتـه عن طبـيـعـة الوعى، وهى خلاصة فرضتها عليه دراسته وتجربته الخاصة.

الأسـتـاذ ولكينسـون : "ربما كـانت هنـاك حـقـا أكـوان مـتـداخلة فى كـوننا، ولعل تعقيدها كبير، وربما كانت تحتوى على صورهـا الخاصة من الوعى، وهى مكونة من

جسيمات أخرى وتفاعلات أخرى غير تلك التى نعرف الآن، لكنها فى انتظار الكشف من خلال بعض التداخلات العامة المحيرة التى ينبغى أن نميزها فيما بعد"[1].

وليم جيمس: "فُرضت على عقلى نتيجة واحدة فى ذلك الوقت، (من تجربته عند استنشاق أكسيد النترو. المؤلفة)، وظل انطباع صدقها عندى دون اهتزاز إلى الأبد. وهو أن وعينا الصاحى العادى، أى وعينا المنطقى كما نسميه، ليس إلا نوع واحد خاص من الوعى، وإذا كان كل ما حوله قد خرج منه كأنه من صور السينما، فهناك صور كامنة من الوعى مختلفة تماما. وقد نجتاز الحياة دون الشك فى وجودها ، لكن قدِّم المُنبه المطلوب تجدها هناك بلمسة فى كمالها، وهى أنواع محددة من العقلية لعل لها فى مكان معين مجالها فى التطبيق والتكيف. ولا يمكن لأى تفسير للكون فى مجموعه أن يترك هذه الصور الأخرى من الوعى مهملة تماما. والسؤال هو كيف يمكن الالتفات إليها، لأنها- إلى حد كبير- لا تتصل دوما بالوعى العادى. وهى مع ذلك قد تحدد المواقف وإن كانت لا تهيئ الوصفات، وقد تفتح مجالا وإن كانت لا تستطيع تقديم خارطة. وهى على كل حال تمنع الإغلاق قبل الأوان لحساباتنا مع الحقيقة"[2].

من الرهان الآمن إلى حد معقول أن يتقبل معظم الناس تأملات الأستاذ ولكينسون بغير صعوبة، فقد تعلموا أن يبلعوا الأفكار المدهشة كاختفاء جسيمات ما تحت المادة ثم ظهورها من جديد، ووجودها دون وزن أو كتلة، وأن تسافر فى الزمن إلى الوراء. لكن الكثيرين تعلموا أن يضحكوا أيضا على أفكار مثل الوعى الممتد **extended consciousness**، وتلك الخاصة بوليم جيمس. وهذا يجعل من العسير جدا عليهم أن يتصوروا الحالة العقلية للناس الذين تغير موقفهم من الموت بما يعتقدونه من

(1) Denys. H. wilkinson, F. R. S., "Matter and Submatter", the Listener, July 31st, 1960, p.96.

(2) William James, The Varieties of Religions Experience, Gifford lectures, 1901-2, Longmans Green (1937 edition), p. 378.

تجربة الخروج من الجسم. ويبدو أن أفضل خطة بناء على ذلك هى قراءة بضعة نماذج من التقارير على سبيل المادة الخام فى بساطة، وإذا أمكن مع قول ت.س. إليوت: "البساطة الكاملة التى تساوى ما لا يقل عن كل شيء". ويمكن أن نسأل سؤالا بعد ذلك العمل : هل تصف هذه التقارير مجرد الجانب الشخصى من حالات فسيولوجية معينة، أو هل تخبرنا بشيء عن الجوانب فوق المادية لبيئة الإنسان التى يمكن أن يستمر وعيه فيها بعد الموت؟

أمثلة على تجربة الخروج من الجسم:

ها هنا نماذج للمادة الخام لبعض التجارب التى كان الباعث عليها الحضور الفورى للموت. قدم التقرير الأول المرحوم اللورد جيديس **Geddes**، الذى كان طبيبا وأستاذا للتشريح، فى خطاب إلى الجمعية الطبية الملكية فى إدنبره، قال فى حينه ١٩٣٧، إنه أخفى اسم صاحب التجربة لأسباب مهنية، لكن المعتقد الآن على نطاق واسع أنه هو نفسه كان المجرب.

"فى يوم السبت ٩ نوفمبر، بعد بضع دقائق من منتصف الليل، بدأت أشعر بمرض شديد، ولما حانت الساعة الثانية صباحا كنت بالتأكيد أعانى من نزلة معدية معوية حادة **gastro- enteritis** وعند الساعة العاشرة ظهرت علىّ جميع أعراض التسمم الحاد جدا ... وكان من المستحيل تماما قياس النبض والتنفس.. تأكدت أننى مريض جدا، وراجعت بسرعة كبيرة وضعى المالى كله، ولم يظهر لى فى أى وقت أن بدا وعيى غائما بأية طريقة، لكننى تحققت فجأة أن وعيى كان ينفصل عن وعى آخر كان ينتسب إلىّ أيضا. ويمكن من أجل الوصف أن نسميتها الوعى أ والوعى ب ، وقد كانت الذات **ego** متصلة بالوعى أ فى كل ما سيأتى. أما الشخصية ب فقد أدركت أنها تنتمى للجسم. وتحققت عندما ساءت حالتى البدنية أنها بدأت تبدى علامات على أنها مركبة **composite**، أى أنها مبنية على وعى من الرأس والقلب والأحشاء.. إلى آخره.

وأصبحت هذه العناصر أكثر فردية، وبدأت الشخصية ب فى الانحلال، بينما بدا الوعى أ – الذى كان أنا الآن – خارج الجسم تماما ، وأمكن له أن يراه. وتأكدت بالتدريج أننى لست قادرا على رؤية جسمى والسرير الذى كان راقدا فيه فقط، وإنما استطعت رؤية كل شيء فى جميع أنحاء البيت والحديقة، وعندئذ أدركت أننى لا أرى الأشياء فى البيت فقط، وإنما أراها فى لندن وإسكتلنده، وفى كل مكان حيثما وجهت إليه انتباهى فى الحقيقة، ولا أعرف التفسير الذى وجدته ولا من أى مصدر، لكنى وجدت نفسى أنادى على أستاذى، وكان التفسير أننى حر فى بعد زمنى للمكان، حيث يكون "الآن" مساويا لكلمة "هنا" على نحو ما، في البعد الثلاثى العادى للمكان فى الحياة اليومية. ثم أدركت بعد ذلك أن نظرى لا يحتوى على الأشياء فى العالم ذى البعد الثلاثى فقط، وإنما يحتوى أيضا على "أشياء" فى هذه الأماكن التى كنت فيها ذات الأبعاد الأربعة أو أكثر. ويجب أن يكون الوصف منذ الآن فصاعدا مجازيا تماما، حيث لا توجد كلما تستطيع أن تصف حقا ما رأيته، أو بالأحرى أدركته. وإذا لم يكن لى جسم، فقد كنت أملك ما كان يبدو أنه رؤية تامة للعينين، والذى رأيته يمكن وصفه بهذه الطريقة فقط، وهى أننى كنت واعيا بتيار نفسى يسرى بالحياة خلال الزمن، وأعطانى هذا انطباعًا بأننى تحت المشاهدة وأن لذلك – فيما بدا لى – توهجا شديدا بصورة خاصة وفهمت من أستاذى أن أمخاخنا جميعا هى مجرد أعضاء نهائية **end organs** منبثقة – كما كانت – من الكون ذى الأبعاد الثلاثة، وهى تسرى فى التيار النفسى معه فى البعدين الرابع والخامس. وكان يبدو هناك حول كل مخ كما رأيت ما يمكن أن أصفه فى الكلمات العادية بأنه تركيز للتيار النفسى..".

ويمضى صاحب التجربة فى وصف السحابات الصغيرة ذات الألوان المختلفة والتى كانت مركزة، ومتصلة بالناس المختلفين الذين عرفهم، وعندئذ يقول:

"رأيت أ تدخل غرفة النوم ، ورأيتها مصابة بصدمة رهيبة، ورأيتها تسرع إلى الهاتف ، ورأيت طبيبى يترك مرضاه، ويأتى سريعا جدا، وسمعته يقول ، أو رأيته يظن" "إنه انتهى تقريبا". سمعته يتحدث إلىّ بصورة واضحة تماما وأنا فى السرير،

لكنى لم أكن على اتصال بالجسم، ولم أستطع الرد عليه. كنت غاضبا فى الحقيقة، عندما تناول حقنة وحقن جسمى سريعا بشىء، عرفت فيما بعد أنه كافور(١). ولما بدأ القلب ينبض بالمزيد من القوة رجعت مرة أخرى، وكنت منزعجا بقوة لأننى كنت شديد الاهتمام، وكنت قد بدأت أفهم على التو أين كنت ، وماذا كنت أشاهد.. وحالما رجعت اختفى صفاء الرؤية لأى شىء واختفى كل شىء، وتملكتنى ومضة من الوعى غارقة فى الألم.

"من المدهش ملاحظة أن هذا الحلم ، أو الرؤية، أو التجربة ليس فيها ميل إلى الذبول كما يبهت الحلم. ولا هى أظهرت أى ميل – فيما أعرف – للزيادة أو تبرير نفسها كما يفعل الحلم. وأظن أن معنى الأمر كله ببساطة أنه لولا العلاج الطبى من نوع قوى فورى بصورة عجيبة لأصبحت ميتا بالنسبة للكون ذى الأبعاد الثلاثة ولو صح هذا، ولو كانت تجربة تحرر الوعى فى الكون ذى الأبعاد الأربعة ليست تخيلا حقا، فإن من أهم الأمور أن يتم تسجيلها.

"على ذلك ينتهى السجلّ. ما الذى يمكن أن نخرج به منه؟ .. هل كان حلما، أو أنه يسجل رؤية رمزية لجانب من الحقيقة مترجم إلى كلمات غير مناسبة، لست أدرى..؟"

يقول اللورد جيديس فيما بعد عند تحليل هذه التجربة وبعض التجارب الأخرى إنه يعتبرها انطباعا رمزيا قيمًا للعلاقة بين الجسم والروح إذ هى تتحلل عند الموت، لكنه يؤكد أن "المغامرة كلها – إن كانت كذلك – حدثت على مستوى الطبيعة. وعلى ذلك، ينبغى التمييز الحاد بينها وبين سجلات المغامرات الروحية عند الصوفية"(٢).

كانت التجربة السابقة راجعة إلى المرض الشديد. أما التالية فقد حدثت عند متسلق للجبال فى صحة مناسبة، فى أثناء كفاحه فى التسلق عائدا إلى بر الأمان بعد أن أشرف على شفا الكارثة. وهو يكتب :

(١) سوف يتذكر القراء تجربة يونج فى الخروج من الجسم فى أثناء المرض ، وأنه أُعطى كذلك حقنا من الكافور.
(2) LordGeddes, P.C., G. C. M. G., K.C.B., M.D., "A Voice from the Grandstand", The Edinburgh Medical Journal, (IVth), volXLIV, p. 367.

"وجدت نفسي معلقا بالحبل على بعد بضعة أقدام تحت قمة الحافة. استدرت واستمسكت بالصخور، وتشبثت بها فى طريق العودة. لقد سقطت كليا نحو عشرين قدما وأمسكنى الحبل..

بينما أنا أفعل هذا تملكني تيبس أو توتر عجيب استولى على كياني كله، العقلى والبدني .. كان شعوراً طاغيا، وبعيدا عن تجربتي تماما. وبدا كأن جميع قوى الحياة كانت تمر بعملية من التغير التطوري الأساسي، التغير الذى يُسمى بالموت .. وأعرف الآن أنه لا داعي للخوف من الموت ، إنه الوجود الفائق، وهو ذروة الحياة ، لا حضيض الحياة.

لا أستطيع الحديث عن مدى الزمن الذى جربت فيه هذا التصاعد فى القوة ... ثم غلب على هذا الشعور فجأة شعور بانعدام المبالاة تماما والانفصال ، الانفصال فيما يتعلق بما كان يحدث أو يجوز أن يحدث لذلك الجسم.. وبدا كأني أقف إلى جوار جسمي. لم أكن ساقطا، والسبب أنني لم أكن فى بعد يمكن أن يتيح السقوط منه. أنا، أى وعيي الخاص كان منفصلا عن جسمي، ولم أكن على أقل تقدير مهتما بما كان يحدث له".

ثم يتأمل المؤلف فيما أحدث هذه الحالة العقلية ، الانحلال الجزئى بين البدنى والروحى على افتراض حتمية الموت، هل هو الأثر العقلى للألم العنيف، أم ماذا؟ ويختم بقوله :"لا يدخل فى طاقتى مناقشة ذلك الذى لا يثبته إلا الموت فقط، وقد كانت هذه التجربة مع ذلك تجربة مقنعة ، إذ أقنعتني بأن الوعي يعيش بعد القبر"(١) .

إن التجربة التالية مأخوذة من خطاب ظهر فى سانداى تايمز Sunday Times يوم ٢٥ مارس ١٩٦٢ .

---

(1) F.S. Smythe, the Spirit of the Hills, Hodde and Stoughton, 1935.

"فقدت الوعى نتيجة لانفجار قنبلة فى أثناء الحرب فى الصحراء الغربية، وجربت الشعور الغريب بالوجود خارج جسمى، وأنا أشاهد المنظر من مكان يرتفع نحو عشرين قدما فوق الأرض... كنت أستطيع سماع الطائرة وهى تجىء فى هجوم آخر، وأصوات رفاقى. استطعت رؤية الغبار ينجلى بعيدا من الانفجار، الذى صدمنى فاقد الوعى، وجسمى راقد هناك فوق الحصى.

أتذكر الفكرة، لا بد أن أرجع ... وعندئذ رجعت إلى جسمى واعيا وأنا أحاول فتح عينى غصبا. والشىء الغريب هو أننى بينما استطعت أن أسمع تماما فى أثناء غيابى عن الوعى وأن أخبر رفاقى بما قالوه فى أثناء تلك الفترة ، فقد كنت أصم تماما ولبثت على ذلك أسبوعين فيما بعد عندما استعدت وعيى ...

أقنعتنى هذه التجربة بأن هناك جزءا من الإنسان يبقى بعد الموت .. وأنا واثق بأننى عندما أموت فى النهاية حقا، أو بالأحرى عندما يموت جسمى، فإن جزءا منى سوف يستمر، ولست أعرف أين يذهب أو ماذا يفعل".

فى عدد مارس عام ١٩٤٨ من مجلة البحوث النفسية يمكن أن نجد سجلات من تجارب مشابهة فى ظروف مشابهة، وهناك فى عدد يونيو عام ١٩٥٧ تجربة أخرى شارك بها الأستاذ ف.ج.م. ستراتون **F.J.M. Stratton**، وحدثت لصديق طبيب بعد حادث سقوط طائرة. وبينما كان الطبيب فيما يظهر- خارج جسمه لاحظ أحداثا معينة قريبة من بعض حظائر الطائرات، وكانت بعيدة عن مرآى المكان الذى رقد فيه جسمه، وقد تأكدت صحة التفاصيل التى رواها بعد عودته إلى الوعى. وعلق هو بقوله إن تأثيرا مهما للتجربة كان: "إزالة كل خوف من الموت، نظرا للتجربة السارة بصورة غير معهودة لما أحسه المرء وأدركه عندما كان المرء فيما يبدو منفصلا عن جسمه". وأضاف إنه لم يعد يشعر بأى اهتمام بجسمه، وإنما ألح عليه شعور قوى: "لماذا يهتم هؤلاء الناس بجسمى؟ أنا راض تماما حيث أنا " كما كان كامل السعادة لما سوف يحدث له.

وأخيرا، ها هي مقتطفات من تقرير كتبه جندي أمريكي شعر بالحيرة البالغة من جراء تجربته الخاصة بعد إصابته بالإغماء في بداية نوبة من الالتهاب الرئوي. كان على وشك ركوب القطار للذهاب إلى تدريبه الطبي، وعند عودته إلى الوعي من إغمائه أدرك فيما يبدو أن القطار سوف يفوته. ويقول تقريره: "ماذا حدث بعد ذلك. لا أفهم أكثر من سؤالي إياك ..." الذي ظهر أنه حدث له حقا هو أنه قفز من سريره، كي يرتدي ملابسه، ثم شاهد ما لاح له كأنه هو راقد على السرير وهو يلبس خاتم الإخوان. وهرب من الغرفة وهو مرعوب من ذلك. لم يلاحظه أحد، وأحس في النهاية أنه لا بد من الرجوع إلى جسمه. ولما وجده بصعوبة كانت تغطي وجهه ملاءة، لكنه لاحظ خاتمة في يده. وظن : "هذا ما يسميه البشر بالموت، هذا الانشطار في النفس" . وجرب في ذلك الحين أن الغرفة كانت "غارقة في أعظم درجات الرحمة التامة التي شعرت بها على الإطلاق. كان شعورا باعثا على بالغ التهدئة والابتهاج والرضا الكامل بحيث رغبت في فقدان نفسي إلى الأبد في أعجوبته... " ثم ذهب في رحلة بعيدة ، محملا بالتجربة ، وصحا عندئذ في السرير. أخبره طبيبه فيما بعد أنه مات فيما يبدو، ولكن حقنة من الإدرينالين أعادته مرة أخرى إلى الحياة»[1] .

كان الباعث على تلك التجارب مواقف الأزمة ، لكن الأزمة ليست هي المصدر الوحيد لتجربة الخروج من الجسم. إذ يمكن أن تحدث للموهوبين من أمثال أتباع اليوجا والقديسين بعد التدريب الروحي، لكنهم يعتبرونها نوعا من النتائج الثانوية، لا غاية لما يسمى بالاستنارة enlightment. ويمكن استثارتها أيضا بالعقاقير والخمر وعقاقير التخدير والتنويم المغناطيسي، وهي تحدث تلقائيا للأصحاء العاديين من الناس في حالة اليقظة. ويمكن أن يحدث هذا كاستجابة للجمال مثلا. واسمحوا لي بمثل شخصي، فعندما كنت صغيرة جربت ذات مرة أن يجرفني إلى الخروج من

(1) From an account by S. Smith in the Enigma of Out- Of- the Body travel, Helix press, New York, 1965, p. 146.

جسمى سيال من الموسيقى الرائعة إلى بيئات جديدة مدهشة. ولست أعرف بالطبع ما حدث حقا، ما عدا أن جسمى أصبح خامدا فيما قيل لى ، لكنى أعرف حقا ما جربته وحقيقته الظاهرة[1]. وعندما كنت فى "الخارج" لم أفكر فيما إذا كان لى جسم أم لا، وإنما كنت شديدة الاهتمام جدا ببيئاتى الجديدة.

وقد تعلم بعض الناس- كما يعتقدون- أن يخرجوا من أجسامهم إذا برحت بهم المعاناة فوق احتمالهم. وحققت هذا السيدة جوليا بوسوبر **Julia Beausobre** فى أثناء سجنها الطويل فى سجن لوبيانكا **Lubianka** كما أخبرنى مدرس فى كامل وعيه أنه عندما كان أسير حرب فى اليابان تعلم أيضا أن يمارس التجربة حية حين كانت الأمور تسوء إلى حد بالغ[2]. وذكر أنه استطاع تعليم أغلب أقرانه السجناء – لا جميعهم – كيف يقومون بالعمل نفسه[3].

نسبة حدوث التجربة التلقائية للخروج من الجسم:

نعود الآن إلى سؤال عن مدى انتشار التجربة التلقائية للخروج من الجسم الآن؟ وهذا أيسر فى السؤال منه فى الجواب؟ حيث إن بعض المجرمين لم يسمعوا بشىء

---

(١) قام الدكتور شارلز س.تارت Dr. Charles C. Tart فى قسم علم النفس بجامعة كاليفورنيا بإجراء بحث حديث من الناحية الفسيولوجية الاستكشافية على إنسان أخبر عن تجارب عديدة من الخروج من الجسم. وبينت الدلائل الأولية أن هذه التجارب وقعت بالتوافق مع حالة أمواج المخ غير الحالمة وغير الصاحية، وقد تميزت بنشاط ألفا البطىء، وعدم تنشيط الجهاز العصبى التلقائى autonomic nervous system، مجلة جمعية البحوث النفسية، يناير ١٩٦٨ .

(2) Julia de Beausobre, The Woman Who Could Not Die, Chatto and Windus.

(٣) علق صديق عالم قرأ النسخة المكتوبة لهذا البحث، وتفضل بالآتى تعليقا على الفقرة السابقة:

يبدو أن هذا النوع من الخروج من الجسم شائع عند ذوى الرؤية البصرية الحيوية vivid، وبخاصة عند الأطفال، والكبار الذين لا يقرءون كثيرا والنساء، وإذا ركزوا أبصارهم على بعيد، ثم أغلقوا عيونهم، رأوا الغرفة من زاوية مختلفة تماما، كأنهم فى حلم يقظة ، ولكن بحيوية غير عادية، ولذلك يصورون أنفسهم كما يراهم الآخر. عندما كنت اتعرض للتأنيب أمام الجميع فى الفصل، لم أجد صعوبة فى الهرب إلى ركن بعيد من السقف، حيث كنت أستطيع النظر إلى أسفل بإشفاق التسلية إلى الولد الصغير المسكين الجالس على الدرج فى الأسفل وقد خفتت قواى البصرية فى أوائل المراهقة، ولم أشعر بعد ذلك بمثل هذه التجارب أبدا. ويبدو أنها حيلة شائعة عند أولاد المدرسة ، حيث إننا سلمنا بها عند مناقشة حوادثنا فيما بيننا.

مثل هذا، وعلى ذلك يعتبرون التجربة فيما يخصهم شخصيا تجربة فريدة ذاتية ويمكن أن تكون غير عادية، والأفضل على أية حال ألا يشار إليها . وهناك بعض التلميحات على أنها قد تكون أقل ندرة مما هو مفترض على كل حال. وهناك - فضلا عن التقارير عنها والتى كدستها هيئات مثل الجمعيات البريطانية والأمريكية للبحوث النفسية، والباحثون الأوروبيون- حالات مذكورة ومناقشة فى الكتب المنشورة منذ الحرب الأخيرة بواسطة ستيفن فندلاى **Stephen Findlay**، ومارجنيتا لاسكى **Marghanita Laski**، والأستاذين ر.س. زينر **R.C. Zehner**، و.و.ت. سيتس **W. T. Stace**، والدكاترة رينور جونسون **Raynor Johnson**، وف.س. هابولد **F.C. Happold**، ولويزا راين **Louisa Rhine**، وقد جمع الدكتور روبرت كروكول **Robert Crookall** تقارير عن مئات من أمثال هذه التجارب ، وصنفتها حسب المشابهات العائلية، كما قام عالم شهير فى علم الاجتماع هو المرحوم الأستاذ هورنيل هارت **Hornell Hart** بدراسة طويلة المدى لها، وانتهى إلى نتيجة مفادها أن المشاهد الواعية للأحياء يتقبلها على أن من الجائز أن ترجع إلى السفر خارج الجسم ، وأن المشاهد ذات الأهداف الظاهرة للمشرفين على الموت تقدم دليلا يشير إلى البقاء لا يمكن تجاهلها . (انظر حاشية رقم ١٠ فى الفصل التالى).

وقد كتب عدد من المؤلفين المحدثين تقارير عن تجربة الخروج من الجسم والتجربة الصوفية ، وبعضها من قبيل السيرة الذاتية. كان من بينهم فى القرن التاسع عشر، وردزورث، وإميلى برونتى **Emily Bronte**، وجورج إليوت **Geroge Eliot**، وجورج مريديث **Meredith**، وتينسون **Tennyson**، وفى القرن العشرين أرنولد بينيت **Arnold Bennett**، و د.هـ. لورنس **D.H. Lawrence**، وفيرجينيا ولف **Virginia Woolf**، ووارنر ألين **Warner Allen**، وبرنارد بيرينسون **Bernard Berenson**، وجون بوكان **John Buchan**، ووليم جرهاردى **William Gerhardi**، وكستلر **Koestler**، وهيمنجواى **Hemigway**. كتب هيمنجواى بعد إصابته بجراح بليغة إلى صديق تقريرا بهيجا متبسطًا عن تجربة شبيهة جدا بتلك التجارب المذكورة فى أول هذا الفصل. "أحسست

بأن روحى أو شيئا ما يخرج حقا من جسمى، كأنك تخرج منديلا حريريا من أحد زواياه من الجيب. وقد حوم حول المكان، ثم رجع ودخل مرة أخرى ولم أعد ميتا أكثر من ذلك"(١).

وقد حصل الأستاذ هورنل هارت Hornell Hart على إشارة بسيطة لحدوث تجربة الخروج من الجسم. سأل السؤال التالى فى عام ١٩٥٢ مائة وخمسة وخمسين طالبا فى جامعة ديوك Duke بولاية نورث كارولينا North Carolina: هل رأيت قط جسمك المادى من زاوية خارج ذلك الجسم حقا، كأنك واقف إلى جوار السرير وأنت تنظر إلى نفسك راقدا على السرير، أو أنك تطفو فى الهواء قريبا من جسمك؟ والذى يبدو مدهشا أن نسبة كبيرة من الطلاب هى ٣٠ فى المائة أجابت "نعم" لكن هذه النسبة هبطت إلى نسبة ٢٠ فى المائة بالنسبة إلى إجابات أقل بالإيجاب من جماعتين أخريين. وقد جرب ذلك أكثر من مرة ما يزيد على سبعين فى المائة – ثم قام باحث إنجليزى هو س.إ. جرين C.E. Green فى عام ١٩٦٠ بعد أربعة عشر عاما بسؤال مشابه لطلاب الجامعة فى ساوثمبتون Southampton عددهم ١١٥، وطلاب جامعة إكسفورد فى عام ١٩٦٧ مرة أخرى وعددهم ٣٥٠ . أجاب نحو ١٩ فى المائة بالإيجاب فى ساوثمبتون، وفى أكسفورد أجاب بالإيجاب ما لا يقل عن ٣٤ فى المائة. ويذكر جرين أنه فى كلا الاستفتائين. لم يكن هناك فارق مهم بين طلاب الآداب وطلاب العلوم، أو بين الرجال والنساء ، أو بين طلاب المدارس العامة وطلاب الدولة". إن الطلاب الذين وصفوا تجاربهم فيما بعد بالتفصيل كانوا فيما يبدو بصفة عامة يتصورون أن هذه التجارب استثنائية، ولا يبدو لها أى تفسير عندهم. وربما وجدنا إشارة إلى القيد الذى يفرضه الجو العقلى على قدرة المجرب على تفسير تجربة الخروج من الجسم فى تقرير

(1) Quotad by S.Smith in The Enigma Of out- of- the Body Travel, Helix press New York, 1965, p. 22. Hemingway made use of this experience in chapter 9 of A farewell to Arms.

أحد الطلاب : " أنا أختفى ... وهناك شعور بأن العالم يتكون من أمواج من الطاقة تتصل جميعا، وهى تشمل مخى ، إنها تكاد تكون تجربة دينية، وإن لم أكن مسيحيا ولا أنا أؤمن بالله" وقال هذا الطالب إنه كان يشعر بهذه التجربة نحو مرة فى كل شهر ، وعندما سئل عن العواطف المصاحبة لها أجاب : "الروعة والإعجاب والابتهاج، لكنى شعرت بالخوف الرهيب مرة أو مرتين"(١).

التجربة المتكررة للخروج من الجسم:

نستطيع الآن أن نرجع إلى تجارب الناس الذين يعتقدون أنهم تعلموا ترك أجسامهم بإرادتهم تقريبا، وكتبوا تقارير عن العملية وأسفارهم. وليس من اليسير دائما أن نفصل بين ما يبدو للمجرب أنه حدث فعلا، وبين تفسيره له فيما بعد، أو نتجاوز عن الصعوبة البالغة فى وصف الأحداث فوق المادية ultra- physical الظاهرية فى اللغة والصور التى تطورت كى تتناول الأحداث المادية. وينطبق هذا بالمثل على الظواهر إن كانت شخصية. إن من أشهر أولئك الذين سجلوا "رحلاتهم" بعناية فى القرن العشرين رجلا فرنسيا . سمى نفسه يرام yram، ورجلا إنجليزيا هو أوليفر فوكس Oliver Fox وأمريكيا هو سيلفان مولدون Sylvan Muldoon.(٢) كانت أسفارهم بصفة عامة على مستوى الطبيعة plane of nature، كما يسميها اللورد جيديز Geddes. وهم من أجل ذلك يستخدمون التعبير التقليدى: "الطرحى"" Astral، وربما كان هذا داعيا للأسف، حيث إنه فى اعتبار المتسائلين الغرباء قد أدى أحيانا بالقائمين بهذه الأمور الهينة عليهم إلى إنكار الاتهام. وقد جاءت تقارير حديثة جدا من الأستاذ

(1) C.E. Green "Exosomatic Experience and Related Phenomena" Journal S.P.R., September 1967.

(2) Yram, Practical astral projection , Rider and Co., translation from the French, le medicin de l'Ame. Oliver Fox Aastral Projection: A record of Out- of- the Body Experience University Books, NewYork 1962. Original English Edition, undated, some time in 19305. Sylvan Muldoon and Hereward carington. The Projection of the Astral Body , Rider 1929 and a number of subsequent books.

ج.هـ.م. وايتمان J.H.M. Whiteman، وهو باعتباره عالما فى الفيزياء والرياضيات يبحث فى جعل التجارب موضوعية مثل تقارير داروين من جزر جالاباجوس Galapagos، وهى ذات أهمية خاصة، لأنها تشمل مجالا كاملا من التجربة على مستوى الطبيعة أو التجربة النفسية حتى يبلغ المستويات العليا من الاستبصار الصوفى. وهو يزعم أنه جرب هذه التجارب منذ الصبا وتعلم كيف يحللها ويتحكم فيها. ويسميها باسم عام هو نوبات الانفصال separations، وقد سجل منها حتى كتابة كتابه نحو ألفين(١).

يبدى الأستاذ وايتمان اقتناعا مدهشا بأن ليس من الحسن أن نؤسس حقيقة ما يسميه "الظواهر الداخلية" inner phenomena بدراسة الآثار الثانوية لها أحيانا فى العالم "الخارجى". إنها تستدعى "نظرة علمية جديدة تختلف اختلافا كبيرا عن تلك النظرة فى العلوم الطبيعية أو الحتمية فى علم السلوك" وكان غرضه أن يقدم نظاما عمليا صالحا "لدراسة وتفسير الظواهر والعمليات العقلية، أو أى نوع آخر من الوعى، وهو ما يهتم به علم النفس المجاور parapsychology والتصوف، على أساس الدليل فى مجالاتها الخاصة"(٢).

ها هنا مرة أخرى حالة ينبغى أن تتعلم أداء الأعمال قبل أن تأمل فى معرفة المبدأ. إن وايتمان بالطبع واحد فقط من طابور طويل من الصوفية الذين يقتنعون بوجود حقيقة منطقية فوق الطبيعة ultra- physical، أو كما يسميها حقيقة "داخلية inner Reality" ، ننتمى إليها بصورة تزيد حتى على انتمائنا إلى العالم المادى، وهى فى مجال الإدراك عند جميع الطلاب الذين يبذلون الجهد لاكتساب الأسلوب اللازم فى عبور التيار الذى لا ينتهى من أفكارهم وتخيلاتهم الخاصة. إن قوة اقتناعه تبدو فى الطريقة الواقعية التى يصف بها التجربة فوق الطبيعة ultra- physical.

(1) J. H. M. whiteman, The Mystical Life, Faber, 1961.
(2) Extracts from unpublished paper Which professor Whiteman has kindly allowed me to quote.

أ- إن موضوعات الإدراك والفهم والإحساس منظمة بطريقة بحيث تُكوِّن الظواهر في عالم ليس ماديا.

ب- إن الصورة الإنسانية أو أية صورة أخرى تبدو فيها هذه الملكات موجودة توجد كذلك في ذلك العالم(١).

ويبدو أن موقفه من الأحلام أنها يمكن أن تكون تخيلات ، ويمكن أيضا أن تقدم صورا غير منطقية لا ضابط لها لمجالات "داخلية" حقيقية، لكن الإنسان يمكن أن يتعلم منها أن يعبر إلى التجربة المنطقية "الداخلية".

إن وايتمان – مثل الصوفية الآخرين – لا يعتبر مستودع الأمور النفسية أكبر من التجارب المادية، فهي جميعا وسائل للاتصال بالبيئة، والذى يهم الصوفى هو الهدف الذى يمكن أن تقدمه التجارب جميعا، وهو المزيد من الاقتراب بالحب والروعة من مركز الأشياء. ويبدو حقا مع ذلك أنه يظن أن التجربة النفسية قد تدل على بداية الجهاد في سبيل الاستنارة الروحية، وأن الإنسان إذا وجد نفسه ينظر إلى إسفل نحو جسمه النائم مثلا فقد تكون إشارة على أنه تم اتخاذ الخطوة الأولى المتواضعة نحو الداخل، إلى ما يسميه – دون ترزمت – بالمصدر. خذ اثنين من المقتطفات التالية من كتابه حول تجاربه الشخصية. تصف الأولى الانفصال النفسي، والأخرى لحظة من الاستنارة الصوفية.

"أدركت عندما صحوت فى أثناء الليل أننى كنت راقدا على بطنى فى الفراش. وعلى الرغم من ذلك، نهضت فى صورة منفصلة، ووقفت على الأرض شاعرا بالابتهاج، لأنى فى صورة تزداد تناسبا مع عقلى أو طبيعتى الحقيقية من أية صورية مادية أخرى(٢)...».

(1) J. H. M. Whiteman, The Mystical Life, Faber, 1965, P. 48 Whiteman uses the ward "phenomena " in the original sense of "appearances".

(2) Ibid, The opposite reaction is shown by a woman whose experiences is quoted by C.E. Green in "Analysis of spontaneous cases," Proceedings S.P.R. 1960, p. 143. she reported: "when I got up with the intention of getting back into bed to my surprise and a feeling of horror, I saw my own body stretched on the bed a sleep- at any rate - completely motionlessi I was compressed back into that body as a picture into a frame). When I had recovered my composure I could think of no rational explanation of what had occurred, but I went over each impression and movement very carefully so I shold not give a garbled account of what had taken place.

الاقتباس الثاني يأتي من تقرير طويل عن تجربة صوفية حدثت قبل أن يدرس الأستاذ وايتمان تجارب كثيرة مشابهة فى المراجع الصوفية. كان خلال اليوم السابق عليها واعيا بصورة خاصة لما يصفه بأنه موقف الطاعة تجاه الحكمة الإلهية ثم يكتب:

"لم يبدأ الانفصال من حالة حلم، وإنما أصبحت فى أثناء الليل كامل الوعى بنوع من هذه الطاعة المُوجهة .. وانجذبت الصورة على الفور تقريبا إلى أعلى بسرعة، كأنها على مسافة كبيرة.. ثم تفتحت عيناى على التو دون أى تغير آخر. كانت عظمة النور التاريخى فوقى وأمامى وفى داخلى مع ذلك، ومنى وحولى.. نور خلاق يتدفق بالحب والفهم، ويخلق الحيوات الأخرى جميعا من مادته..".

بعد بعض المحاولات فى وصف هذه الحالة من الوعى عندئذ، وانطباعه عن المصدر، وهى تنتهى إلى التناقض ، مثل جميع أوصاف التجربة الصوفية بالتعبيرات والصور المادية، ينتهى التقرير:

"أما الآن فقد بدأ الفهم والطاعة فى التراجع. واستولى علىّ غموض العقل دون أن أشعر، نظرا لتداخل النفس ... واستقر الوعى عندئذ مرة أخرى فى الجسم فى ذلك الحين"(١).

هنا نعود إلى أفلوطين:

" كثيرا ما حدث أن أجد نفسى قد ارتفعت خارج الجسم، وأصبحت خارج الأشياء الأخرى جميعا، أشاهد الجمال الرائع، وأثق بالتلاحم مع أسمى نظام، وأتوحد مع الألوهية. ومع ذلك ، تأتى لحظة الهبوط"(٢).

(1) Ibid, pp. 35-6.

(2) Enneads IV, Viii, I, Mckenna's translation.

من المعروف تماما أن تجارب صوفية مشابهة يمكن اقتباسها بالمئات من الأوبانيشاد Upanishads وميلاريبا Milarepa، وأفلوطين، والقديس بولس فصاعدا، وبغض النظر عن الثقافة ومستوى الرقى فيما هو أبعد كثيرا من الأحداث الدنيوية الفارقة فى المادية، سواء كان هذا صوابا أو خطأ. خذ مثلا تجربة كيستلر الخاصة المتكررة بعد أسره بواسطة قوات فرانكو، بنيما كان يعمل فى صفوف اليسار فى إسبانيا. وعندما حدثت أول مرة، كان فى سجن انفرادى وهو محكوم عليه بالموت، لكنه يقول إنها نزعت كل الفزع من الموت. وينتهى وصفة للتجربة بقوله: "كنت عندئذ طافيا..." على نهر من السلام ... جاء من حيث لا أدرى، وذهب إلى حيث لا أدرى.. ثم لم يعد هناك نهر ولا أنا. توقفت الأنا عن الوجود"(١).

لقد حاول صوفى بعد صوفى أن يصف هذا الفقدان البهيج "للأنا" ، والذى يبدو أنه الحياة الحقة الوحيدة ، لكنه يبدو خاليا من المنطق فقط عند الذى لا يكترث له. مَنْ غيرى أنا يمكن أن يلاحظ أنه لا يوجد أنا؟ ربما كانت هناك إشارة إلى تفسير التناقض فى ملاحظة وايتمان: "أما الآن فقد بدأ الفهم والطاعة فى التراجع. واستولى علىّ غموض العقل دون أن أشعر، نظرا لتداخل النفس... وربما كانت النفس الوعى ب (الجسم) الذى ذكره اللورد جيدين، وأيا كانت الإجابة، فإن التجربة قد أدهشت بصورة واضحة كيستلر، وهو المفكر ذو المنطق الصارم، وهو يذكر أنها أرست الأساس للتغير فى الشخصية. وتعليقاته - بعد كتابة الفقرة المقتبسة سابقا- طريفة جدا.

"من دواعى الحرج البالغ أن يسجل الإنسان عبارة مثل تلك بعد قراءة "معنى المعنى The meaning of meaning" ، وانتقد المنطق الوضعى logical positivisism، وقصد الدقة اللفظية، وكره الإطناب الغامض. ومع ذلك، فإن التجارب الصوفية - كما نسميها ونحن مترددون- ليست غامضة غير محددة أو ضبابية، وإنما تصبح كذلك

(1) Arther Koestler, The Invisible Writing, Hamish Hamilton, Collins, 1954 p. 352.

فقط عندما نزعزع أساسها بالألفاظ. إن توصيل ما لا يمكن توصيله بحكم طبيعته على كل حال يستدعى أن يضعه الإنسان فى ألفاظ، وعلى ذلك يتحرك الإنسان فى دائرة مفرغة. وعندما أقول "توقفت عن الوجود»، فإنى أشير إلى تجربة محددة، لا يمكن توصيلها مثل الشعور الذى يثيره عزف كونسترو على البيان، وإن كان الشعور حقيقيا ، بل هو أمعن كثيرا فى الحقيقة. وعلامته الأولى فى الواقع هو الشعور بأن هذه الحالة أمعن فى الحقيقة من أى شعور آخر سبقت تجربته، حيث سقط القناع لأول مرة واتصل الإنسان "بالحقيقة الحقة" ، والنظام الخافى للأشياء، الذى دعت إلى غموضه طبقات من توافه الأمور.

... تتوقف "الأنا" عن الوجود لأنها قد أرست قواعد التواصل مع الحوض العالمى وذابت فيه، بواسطة نوع من الانتشار الأسموزى العقلى. إنها هذه العملية من الانحلال والامتداد بغير حدود التى تؤدى إلى الشعور بالإحساس المحيط **Oceanic feeling** كأنه استنفاد كل توتر ، والتفريغ المطلق، والسلام الذى يتجاوز كل فهم"(1).

ثم يضيف فيما بعد أن التجربة كانت ذات معنى، "ولكن ليس فى التعبير بالكلمات". إن الترجمة اللفظية التى تكون الأقرب إليها هى: "الوحدة والتشابك بين جميع الأشياء الموجودة". وكذلك يقول إنها ملأته "باليقين المباشر بوجود نظام أعلى للحقيقة، وهو وحده يمكن أن يضفى المعنى على الوجود".

إن كيستلر كاتب يبذل غاية الجهد حتى يقول ما يعنيه بدقة. ولكن هل يعنى ما سبق أى شىء عند الناس الذين يتركز كل انتباههم دائما على المعلومات التى تأتيهم من طريق الحواس، والتى يمكن وصفها بتعبيرات الألفاظ؟، أم أنهم فى موقف أهل **Tierra del Fuegans** عندما رست السفينة بيجيل **Beagle** على شواطئهم، إذ إنهم حتى لم يلاحظوها لأن خيالهم عجز عن تصور سفينة على هذا النحو من الحجم الهائل.

(1) Ibid p. 353.

والسؤال الذى يسأل، كم نقدر على الملاحظة إذا صادفنا أشياء جديدة تماما حين سفرنا فى الفضاء؟

تجربة الخروج من الجسم بطريقة صناعية:

إن الميل الطبيعى لرفض التقارير عما يبدو أنها حقائق فوق المادية واعتبارها لا تزيد على تخيلات يشجع عليه الواقع فى أنها لا تأتى فحسب من أصحاب المواهب النفسية الخارقة والصوفية، ولكنها تأتى أيضا من مرضى العقول والذين يتعاطون المخدرات. إن جون كونستانس John Custance مثلا فى تقريره الرائع عن مرضه العقلى الخاص فى كتاب "الحكمة والجنون والحماقة "Wisdom, Madness and Folly يقدم أوصافا حيوية حتى فى أوقات الظواهر المتسامية، كما يصف ألدوس هكسلى Aldous Huxely العالم الخارجى بعينين زاد من حدتهما عقار المسكالين Mescalin وكأنه قد تحول بشىء يشبه النور الداخلى إلى حد كبير عند الصوفى. وربما أمكن أن يقال أيضا إن هذا النوع من الشهادة يدعم الحجة القائلة بأن الجوانب فوق المادية من الحقيقة ليست مجرد اختراع شخصى من المجرب، ولكنها توجد بحكم جدارتها فى الوجود.

ها هنا ثلاثة تقارير عن تجربة الخروج من الجسم تستثيرها عقاقير الهلوسة. يصف الأول ما يبدو تغيرا فى العلاقة بالمكان، والثانى تغيرا فى العلاقة بالزمان ويبدو الثالث كأنه يقارب النوع الصوفى.

حدث الأول فى عام ١٩٥٥ عند عالم إنجليزى فى الأنثروبولوجيا هو كولين تيرنبول Colin Turnbull، عندما كان فى الهند يدرس اللغة السنسكريتية، وقد ذهب مبكرا فى يوم الاحتفال بالإله كريشنا Krishna لزيارة بيت أستاذ الفلسفة فى جامعة بنارس Banaras، حيث شارك بشغف فى تناول الحلوى التقليدية اللذيذة والمرطبات

التى تقدم تكريما لهذه المناسبة، ولم تكن لديه فكرة عن احتوائها على مادة البهانج **bhang** (القنب أو الحشيش). ثم ذهب فيما بعد لقضاء العصر فى صومعة السيدة الفاضلة أناندا ماى Anandamai وهى مدرسة متدينة تحظى بالاحترام، وهناك بعد أعراض بدنية مختلفة، وشعور متزايد بالصحة والسلام أحس كأن وعيه قد ترك جسمه تماما. ويكتب: "لم يتعلق الأمر فقط بفقدان الأحاسيس فى الجسم، بل كان الأحرى أننى لا أستعمله بعد ذلك. شعرت بأن حريتى كاملة." بينما كان يشعر بصفاء العقل تماما كانت له تجربة الصعود إلى أعلى من خلال السحب، بعيدا فوق جبال الهيملايا، حيث نظر إلى الآفاق الهائلة من تحته بطريقة عادية فيما يبدو. ثم عاد فى النهاية إلى جسمه وهو آسف فوق الشرفة فى بنارس. ويعلق بأنه "فى أثناء التجربة، كانت الدنيا كلها حوله تبدو له أكثر امتلاء بالحياة مما كانت من قبل على الإطلاق، وكانت مليئة بتلك الصفات التى وصفتها كتب الهندوس الدينية بأنها أعظم الصفات جميعا، وهى الحق والخير والجمال". وتحدث فيما بعد عنها مع الفاضلة أناندا ماى.

"أخبرتها بأن الأمر لم يشبه حلما أو خيالا، بل بدا حقيقيا جدا، وعلى ذلك فليس تجربة شاذة جدا. وقالت إن ما رأيته كان حقيقة، وكان من الخير لى أن أراه، لكنها أضافت تحذيرا بأن كثيرين من حكماء الهنود والفضوليين استخدموا البهانج حتى يحققوا الانفصال بين العقل والجسم، لكن الأمر كان فى غاية الخطورة. الطريقة الآمنة الوحيدة هى الطريقة التقليدية فى تدريب العقل والجسم كليهما معا، حتى تصبح مطالب كل واحد من الآخر فى أدنى حد"(١).

يبدو أن كولين تيرنبول جرب تحت تأثير البهانج حرية جديدة تتعلق بالمكان، ويمكن أن يأتى الشعور بالحرية فيما يتعلق بالزمان تحت تأثير عقاقير مشابهة، مثل ما حدث للمجرب الذى أشرف على الموت، والذى ذكره اللورد جيديز. ومن الأمور المعروفة

(1) The Drug Experience, edited by David Benn, Orion press, New York, 1961, p. 106 et seq.

جيدا ما رواه كريستوفر مايهيو Christopher Mayhew عن تجربة حوادث تحت تأثير المسكالين فى الثالثة بعد الظهر، وقد حدثت فى الواقع فى الثالثة والنصف. إن اقتناعه بوقوع هذا فى الحقيقة لم يتراجع مع الزمن، كما يظهر من التعليق التالى المكتوب كما قال بعد التفكير مليا فى التجربة طوال شهور عديدة.

"ما زلت أعتقد أن اقتناعى الأول المدهش كان صوابا، وذلك أنى كنت فى مناسبات عديدة فى عصر اليوم خارج نطاق الزمن... وأعنى "بأنى" فى هذا المجال بالطبع نفسى الخارجة من الجسم، وأعنى بأنى جربت أنى تعلمت بنوع خاص من الوعى يعنى الفهم وهو مع ذلك يختلف عن الرؤية والسمع.. إلى آخره. وأنا أعد هذه التجربة – التى حدثت حين كنت صاحيا تماما ذكيا جالسا على مقعدى الخاص ذى الذراعين – أدعى الأمور إلى الدهشة واستثاره التفكير فى حياتى"[1].

هذا النوع من تجربة الخروج من الجسد لا يخبو من الذاكرة مثل الحلم العادى. وقد رأيت خطابا من اللورد جيديز كتبه بعد ١٩ عاما من محاضرته المذكورة سابقا، ذكر فيه أن المجرب ما زال يجد التجربة المذكورة فيه مؤثرة مثل ما أحس فى حينها. وعلى منوال تلك التجربة التى كان يشعر صاحبها بأنه "حر فى البعد الزمانى للمكان، حيث يكون الآن معادلا "لهنا" بطريقة ما، قد يكون السيد مايهيو كذلك وعيا مباشرا متنقلا لجوانب من المسار المتصل للمكان والزمان space- time continuum، وهو ما يتناوله علماء الرياضيات بواسطة المعادلات فى الحياة العادية. وهم لا يجربونه مثل ما يجربون ومضة من البرق. وحتى عند غير المشتغل بالرياضيات قد تبدو التجربة التى نتناولها هنا أقرب إلى الاعتبار، عندما نتذكر أن كتب الفيزياء الحديثة تعتبر الإطار المكانى الزمانى شيئا يضفيه الملاحظ على العالم الخارجى. وقد قال إدنجتون إن علينا ألا نغفل عن طبيعته الصناعية القسرية.

(1) The Observer, October 26 th 1956.

إن ريتشارد جيفريز Rihchard Jeffries، وهو ابن فلاح يميل عقله نحو التصوف، وصل إلى هذا المفهوم منذ قرن مضى، من دون مساعدة من الرياضيات أو العقاقير. وكتب : "لا أستطيع فهم الزمان. إنه الأبدية الآن. أنا فى وسطه. قد يكون هناك زمان عند الساعة... وليس عندى منه شيء"(١).

أما المثل الثالث الذى كانت العقاقير حافزا عليه فقد حدث فى عام ١٩٥٧ . وصفه المُجرب إخصائى علم النفس فى نيويورك فى خطاب إلى الآنسة سوزى سميث Susy Smith، وفيه نبرات نصف صوفية.

"شعرت كأنى منفصل تماما تقريبا عن جسمى المادى... كان مجرد ثقل ميت كنت على وعى به، إذ كنت أنظر إلى أسفل من ارتفاع عظيم. كانت التجربة تتعلق بالارتفاع والنور... كأننى رأس دبوس فى المكان ، والمكان حولى من كل الأبعاد، والنور يملأ المكان، وليس نورا يغشى الأبصار، لكنه نور الأشعاع، ولم يكن المكان مجرد مكان خال ، لكنه مكان ملىء بالمعنى، الذى عجزت عن فهمه لكنى شعرت به شعورا متميزا جدا لعله مكان يعمره أناس ذوو قوة عارفة". مضى إخصائى علم النفس يقول إن أظهر صفات التجربة كان صفاء العقل.

"عندما أقول العقل، فإنى أعنى العقل الأعلى، الأنا بالبنط الكبير. كانت هذه "الأنا" وهى أعلى جزء حقيقى من نفسى التى شعرت بأنها متعبة فى هذا الطيران.. صاحية تماما، حساسة تماما، وأشد حساسية بكثير من الحالة العادية تجاه القوة حولى ، وهى بالتأكيد من وراء المجال الذى أعيه فى الحالة العادية. وقد جلبت معى بالتأكيد من هذه التجربة مزيدا من الاقتناع ببقاء هذه الأنا بعد ذلك الشيء الذى نسميه الموت المادى. وقد شعرت بالانفصال الكامل والتميز الكامل من نفسى المادية بحيث يبدو من غير المفهوم وغير المنطقى تماما أن تصبح هذه الأنا فانية، عندما تستسلم فى النهاية تلك الجثة البالية"(٢).

(1) Richard Jeffries, The Story of My Heart.

(2) Susy smith, the Enigmas of Out of the Body Travel, Helix press, New York, 1965, pp.134-5.

يمكن أن نضيف هنا مثلا آخر على تجربة من النوع الصوفى التى حدثت استثارتها بطريقة صناعية، لأن سببها ليس عقارا، ولكنه مادة للتخدير هى أكسيد النيتروز Nitrous Oxide، ولأن المجرب السيد ر.هـ. وارد R.H.Ward يبدى تعليقا طريفا على الإجهاد الذى يمكن أن تجلبه مثل هذه التجربة على الجسم المادى.

"عرفت، وفهمت، وكنت فى الواقع أكثر معرفة وفهما ووجودا مما كنت فى الحالة العادية، وأنا أعبر على هذا النحو، حيث لم يكن لدى انطباع بتلقى معرفة جديدة، أو فهم جديد، أو وجود جديد، والأحرى أنى كنت أعيد اكتشاف هذه الأمور، التى كانت ملكى ذات مرة، ولكنى فقدتها منذ سنوات عديدة من قبل.

وإذا كانت هذه الحالة غريبة تماما، فإنها كانت مألوفة كذلك، بل كانت حالتى الصائبة على معنى من المعانى. أما الذى كان فى تلك الأثناء يصير غير حقيقى، بطيئا متثاقلا هو العالم الطبيعى الذى كنت أتركه ورائى.. [١]".

أما بقية وصف وارد فهو أطول كثيرا من اقتباسه كاملا، وإن كان طريفا. وبعد انطباع بالطيران إلى أعلى خلال ما يسميه : "منطقة الأفكار" وصل إلى ما كان يبدو له حالة من :

"الصفاء التلقائى الكامل، حيث لم تكن هناك حاجة إلى أدنى تفكير. فقد عرف المرء ببساطة، ولم يعرف مجرد شىء هنا وآخر هناك، وكلها مجهولة تماما للوعى العادى، وإنما عرف هناك كل ما يمكن معرفته. من أجل ذلك عرف المرء أن كل شىء هو شىء واحد، وأن المعرفة الحقيقية هى المعرفة بالعالم وكل ما يحتويه فى الوقت نفسه، ويشمل المرء نفسه. وكان من الحق تماما ما قرأه المرء فى الكتب، وهو أن الكل فى الحقيقة واحد (على خلاف انعدام الحقيقة الذى نعيش فيه بالمقارنة)[٢].

(1)R.H.Ward, A Drug Taker's Notes, Gollance, 1957, p. 27 .
(2) Ibid.

كان لدى وارد عدد من أمثال هذه التجارب ، التلقائية وتحت تأثير أدوية التخدير وعقاقير الهلوسة، وقد دعته إلى ذكر التعليق التالى: "يستحيل ألا نفترض علاقة، أعتقد أننا لا نفهمها، بين التجارب التى تصل إلى نقطة معينة فى مقياس الوعى المتصاعد وموت الجسم، وربما كانت هناك على ذلك المقياس نقطة يعجز الجسم عن الحياة بعدها[1]".

لكن من الأمور الحيوية أن نتذكر أن الزيارات للمجالات فوق المادية كما تبدو والتى تكون العقاقير هى الباعث عليها، ليست جميعا زيارات "للجنة". وقد كانت السيدة الفاضلة أناندامای على حق كافٍ فى قولها إن من الممكن أن تكون خطيرة جدا. والمظنون اليوم أنه حتى بعض عقاقير الهلوسة التى لا تؤدى إلى الإدمان يمكن أن تسبب الأذى المادى للجينات genes، وهى إذا تعاطاها الإنسان فى حالة مزاجية خاطئة مع رفاق غير مرغوب فيهم، يمكن أن تؤدى إلى الجحيم، وإلى الانتحار فى بعض الأحيان. وقد شاهدت بنفسى مؤلفا معروفا جدا يسلك السبيل المظلم تحت تأثير المسكالين، ولا أرغب فى تكرار التجربة. وعلى ضوء مثل هذه المخاطر المعروفة، فقد تكون هناك أسباب قوية تتجاوز الرغبة فى الهرب وتعلو عليها لدى الكثير جدا من الناس الراغبين فى السفر فى "رحلات trips". ومن أجل أن نستخدم مشابهة شعبية جدا نفترض أن نشبه بيئتنا كلها بالبصلة، وأن حواسنا تجلب لنا ما لا يزيد على نتف من المعلومات عن قشرتها الخارجية، وتكون أجسامنا جزءا منها. لكن بقاءنا الروحى يحتاج إلى التسرب من لبها المركزى إلى الخارج. لعل إحدى الطرق فى الماضى فى وصول هذا الوجود الروحى إلى أنفسنا الواعية كانت من خلال الطقوس الدينية والصلاة، ولم يعد هناك اليوم أنشطة حية عند أغلب الناس. وربما كان جزء من أنفسهم جائعا حبيسا تحت غطاء عقلى وعاطفى. ولعل يونج كان يشير إلى مثل هذا الجوع الأساسى عندما قال إن نقص النظرية الدينية كان من جذور أسباب المتاعب

(1) Ibid, p. 26.

عند مرضاه المسنين. إذا صح ذلك، فليس من الأمور المبالغة فى الغرابة أن تفشل الكارثة أحيانا فى منع الشباب من السفر فى رحلات خطيرة، بحثا عما يأملون فيه من الطعام والحرية، وهى غرابة لا تزيد على مثلها فى مخاطرة الحيوانات العطشى فى التعرض لإطلاق الرصاص للوصول إلى نبع الماء.

ما هى تجربة الخروج من الجسم ؟

هذا يكفى من المادة الخام. هذه الأمثلة القليلة لما يبدو أنه تجربة الخروج من الجسم يمكن أن تتضاعف بالآلاف من التجربة على مستوى الطبيعة للسيدة المسكينة التى عجزت عن الانتظار حتى تعود إلى الجسم الذى شاهدته فى سريرها، حتى الاستنارة الصوفية التى تجعل المجرب ينسى كل ما يتعلق بالجسم والأنا التى تهتم بالنفس، وإعجابه البهيج بما يبدو له كأنه المصدر الروحى للكل. ما الذى نخرج به منها؟ هل هى لا تزيد على تخيلات، أو الجانب الشخصى من الاضطرابات الفسيولوجية، أو حتى- كما يقول البعض- ترجع فى سببها إلى أخطاء فى التدريب المبكر على أمور الصحة، أو أنها إشارات إلى ما يوجد فى الإنسان من ومضة الوعى الذى يمكن أن يعمل وهو طليق من الجسم المادى فى الحياة، وقد يستمر فى العمل بعد الموت؟ لكن الخلود الشخصى مسألة ثانوية، والسؤال المهم هو: هل يمكن أن يكون هناك "نظام أعلى من الحقيقة"، "وهو وحدة يضفى المعنى على الوجود" ، كما يعبر عنه كيستلر، وهل يمكن للناس أن تكون لهم تجربة الخروج من الجسم، التى تؤدى إلى وعى أكبر به؟

لنأخذ تجربة كولين تيرنبول التى كانت بصفة أساسية تجربة على مستوى الطبيعة، من أجل توضيح السؤال. من المعروف أن شيئا مثل تجربة الخروج من الجسم يمكن استثارته بالتنبيه الصناعى لحاسة الشعور بالتوازن الموجودة فى الأذن الداخلية (القنوات الهلالية). هذه التجربة شبيهة بشعور الانجذاب إلى أعلى فى مصعد

سريع، ويبدو كأن الجسم يتخلف، وتسبب بعض العقاقير هذا التنبيه المزعج، ولعل السبب زيادة فى ضغط الدم موضعيا، ويمكن أن تسبب أيضا هلاوس حيوية. وهذا يأتى بسؤال يخطر على العقل فورا: هل يسبب البهانج اضطرابات فى الأذن والمخ، وكان انطباع تيرنبول بالطيران الحر مجرد جانبها الشخصى؟ هل يكون من الحكمة - مع ذلك - الافتراض بأن الأصل الشاذ لتجربة يهدم مصداقيتها على الدوام؟ هل يكون من الأفضل أن نسأل: هل يمكن أن يسبب البهانج حالة عقلية مكنت وعيه من الهرب والطيران فوق جبال الهيمالايا؟ هذا الأمر الأخير عسير على التصديق. لكن السؤال ربما كانت صياغته خاطئة. إن فكرة الزمن باعتباره تيارا مستمرا يبدو أنها نموذج فكرى خلقه الإنسان من أجل حقيقة مختلفة تماما. هل تكون فكرته عن المكان نموذجا آخر مشابها؟. هل يكون هذا النوع من السؤال التالى أفضل؟ هل أطلق العقار العقل من الجسم مؤقتا، بحيث استطاع تجربة بعض العلاقات، التى يترجمها نموذج تفكيرنا المعهود بالسفر فى الفضاء؟ وقد يكون هذا السؤال والسؤال السابق كلاهما سخيف، لكنهما يساعدننا حتى نتذكر أن بعض الصعوبات فى هذا الموضوع قد ترجع إلى أن طريقة تفكيرنا تجبرنا على تقديم الأسئلة الخاطئة. وشىء آخر جدير بالتذكر، وهو أن الحاجة لا تدعو إلى جمع كل حالات الخروج من الجسم فى خانة معا. فقد يكون لها تفسير مختلف وأهمية مختلفة فى حالات مختلفة.

نعود إلى السؤال الأساسى : هل هناك نظام أعلى للحقيقة؟ وهل كان للناس تجربة الخروج من الجسم وإدراكه على الإطلاق؟ يمكن الإجابة على هذين السؤالين بنعم أو لا على مستوى الاعتقاد بغير اهتمام كبير بالدليل على أى اتجاه. أو يمكن تنحيتهما جانبا، وترك كل ذلك للخبراء وممارسة الحياة، وإن كان إنسان فى ممارسة الحياة يقدم إجابته الخاصة على ضوء اختيار أهدافه وأولوياته. أو يمكن البحث عن آراء الخبراء. ماذا يقول العلماء والفلاسفة؟ هل يعتبرون العالم المادى عالما مغلقا، أو يوافقون مع عالم الرياضيات العظيم هيرمان ويل **Mermann Weyl** على أن العالم

عند العلم الحديث "يبدو عالما مفتوحا أكثر فأكثر.......... ويشير إلى ما وراء نفسه"؟ ما هى نظرتهم بصفة خاصة إلى طبيعة الإنسان ؟ .

دعونا نذكّر أنفسنا أولا بالنظرة المادية. هذا هو الرأى الذى قدمه حديثا إخصائى علم النفس الدكتور هدسون Hudson:

"يؤكد البحث الفسيولوجى المعاصر بصورة متزايدة مبدأ واحديا Monistic بسيطا، وهو أن الوعى ليس أكثر من ظاهرة ثانوية، تولدها عملية فيزيائية كيماوية physicochemical فى المخ، وأن الثنائية dualism هى مضاعفات لكيانات افتراضية لا حاجة إليها"(١).

إن تلخيص المشكلة عند الفيلسوف جيلبرت رايل Gilnbert Ryle قد انتهى إلى اللغة. وقال: "لا يوجد شبح فى المكنة". وقام زميله الفيلسوف أ.ج. آير A.J. Ayer فى كتاب سابق يمسح الأرض حقا بالصوفى المسكين.

"نحن لا ننكر مقدما أن الصوفى قادر على اكتشاف حقائق بطرقه الخاصة به. ونحن ننتظر سماع الاقتراحات التى تشمل اكتشافاته، حتى نرى ما إذا كان يمكن التحقق منها أو رفضها بواسطة ملاحظاتنا العملية الخاصة. لكن الصوفى، بدلا من تقديم اقتراحات يمكن إثباتها عمليا، ما زال عاجزا عن تقديم أية اقتراحات مفهومة على الإطلاق حتى الآن. لذلك نقول إن حدسه لم يكتشف له أية حقائق. وليس من النافع أن يقال إنه فهم حقائق، ولكنه عاجز عن التعبير عنها. ذلك بأننا نعرف أنه لو اكتسب حقا أية معلومات، لاستطاع التعبير عنها. وكان يقدر أن يبين بطريقة أو أخرى كيف يمكن التحقق من أصالة اكتشافه بطريقة عملية.. والحقيقة فى عجزه عن كشف "ما يعرفه" ، أو حتى ابتكار اختبار عملى لإثبات "معرفته"، تدل على أن حالة حدسه ليست حالة معرفية

(1) Quoted by sir Cyril Burt in Journal S.P.R. December, 1967.

حقيقية. ولذلك لا يقدم الصوفى أية معلومات عن العالم الخارجى عند وصف رؤياه: وإنما هو يعطينا معلومات غير مباشرة عن حالة عقله الخاص"(١).

على الرغم من أن الأستاذ آير قد عدل هو نفسه هذه النظرة، فهى لا تزال تمثل نظرة – ربما كانت قائمة على أساس الفيزياء فى القرن التاسع عشر– وقد قبلت على نطاق واسع ما وصفه السير أليستر هاردى Alister Hardy: " إن فكرة الجانب الروحى للكون باعتباره متميزا عن الجانب المادى تعتبر خرافة بقيت منذ العصر السابق على العلم عند نسبة متزايدة من الجمهور"(٢). إن الاكتشافات الثورية لعلماء الفيزياء أنفسهم فى الجانب المقابل قد دفعت البعض من أعظم الفيزيائيين فى القرن العشرين : إدنجتون Eddington، وجينز Jeans، وهيزنبرج Heisenberg مثلا إلى اعتبار تلك النظرة محدودة للغاية. أما فيما يتعلق بطبيعة الإنسان فإن عددا متزايدا من علماء الفسيولوجيا العصبية neurophysiologists يعارضون بصراحة – فيما يبدو– فكرة الدكتور هدسون، وهى أن المخ يؤكد الوعى، ولا مزيد من القول. بل إن شيرنجتون sherrington منذ ثلاثين عاما وصل إلى نتيجة أن الفيزياء والكيمياء لا يمكن أن تفسرا العقل، وقد ذكر الأمر نفسه اخصائى المخ الشهير السير جون اكليس John Eccles فى محاضرة ادنجتون التذكارية التى ألقاها فى عام ١٩٦٣ .

"أعتقد – على خلاف العقيدة المادية – أن الحقيقة الأولية فى تجربتى للنفس لا يمكن من ناحية الملكية أن تتعلق بالأمخاخ والأعصاب والنبضات العصبية، أو الأنماط المكانية الزمانية للنبضات.. ولا أستطيع الاعتقاد بأن هبة تجربة الوعى لا مزيد فى مستقبلها، وألا احتمال فى وجود آخر تحت بعض الظروف الأخرى غير المادية. وأرى أن هذا الاحتمال فى وجود مستقبلى لا يمكن إنكاره على أساس علمى على أقل تقدير»(٣).

---

(1) A. J. Ayer Language Truth and Logic, Gollancz, pp. 118-119.

(2) Sir Alister Hardy, F.R.S. The Divine Flame, Collins, 1967.

(3) J.C.Eccles, the Brian and the Unity of Conscious experience , Cambridge university press, 1963, pp. 42-3.

ربما لوحظ أن إيكليس يعتبر أن فكرة توقف الوعى بالضرورة عند الموت مسألة اعتقاد، لا حقيقة معروفة، وهو يشير إلى النظرة المادية ويعتبرها عقيدة كذلك.

إن الاتجاه المغامر عند علماء الفسيولوجيا العصبية يبدو أنه يتزايد، فقد ظهر فى عام ١٩٦٦ تقرير الندوة العالمية عن المخ والوعى، وكان فيها مجموعة من النجوم مثل اللورم أدريان Adrian، والدكتور وايلدر بينفيلد Wilder Penfield، والأساتذة سبيرى Sperry، و و.هـ. ثورب W.H. Thrope، وجوميز Gomes، وقد رفضوا النظرة المادية أيضا، وهى أن المخ قادر على توليد الوعى[1]. إن هذا الميل بعيدا عن النظرة الأرثوذكسية ينشأ من أبحاثهم الخاصة، كما أشار السير سايريل بيرت Cyril Burt.

" المعروف الآن عن كيمياء الخلية العصبية وفيزياء التوصيل فى العصب nerve conduction يدل على أن العمليات المتعلقة بها، مثل أجزاء الجهاز العصبى المصحوبة بالوعى، والأجزاء غير المصحوبة بالوعى، لا تختلف عن الخلية العضلية بطريقة أساسية، حيث لا توجد عملية فيزيائية أو كيميائية فريدة ترتبط بصورة معينة بظهور الوعى. إن تركيب المخ معقد إلى درجة مدهشة حقا، لكنه يوحى بأسلوب مخطط حتى يدرك أو ينقل النشاط الواعى أكثر من توليده"[٢].

هناك أرواح مغامرة بين الفلاسفة المشهورين كذلك. قارن الفكرة القائلة بانعدام وجود أى جانب من الحقيقة سوى ذلك الذى يمكن تحقيقه بملاحظاتنا العملية مع تلك الفكرة عند س. د. برود C.D. Broad، لم يكن عند برود عقيدة دينية، ولم يجرب أى نوع من التجربة الدينية أو الصوفية. وهو يقول إنه بناء على التقييم العقلى فقط للدليل:

"أنا على استعداد للاعتراف بأن أمثال هذه التجارب تحدث بين أناس من أجناس وتقاليد اجتماعية مختلفة، وأنها قد حدثت فى كل عصور التاريخ. وأنا على استعداد

---

(1) J.C.Eccles, (ed.), the Brain and Conscious Experience , spirnger. Heidelberg, 1966.

(2) Cyril Burt, Journal S.P.R. December, 1967, P. 190.

للاعتراف بأنه على الرغم من الاختلاف الكبير بين التجارب فى أزمنة وأمكنة مختلفة، وعلى الرغم من زيادة الاختلاف فى تفسيراتها، لعل هناك خصائص معينة شائعة بينها جميعا، وهى كافية للتمييز بينها وبين جميع أنواع التجارب الأخرى. وأظن على ضوء هذا أن الأقرب إلى الترجيح من عدمه أن الناس يتصلون بنوع من الحقيقة، أو جانب من الحقيقة، لا يتصلون به بطريقة أخرى، وذلك فى التجربة الدينية والصوفية"(١).

نلاحظ أن برود كان أحرص من آير. فقد ظن أن الأرجح فى الاحتمال من عدمه أن التجربة الدينية والصوفية يمكن أن توصل الإنسان بجانب أبعد من الحقيقة. وعرف آير أن هذا لو كان صحيحا، لاستطاع الصوفى أن يعبر عنه ويثبته لنا بصورة ترضينا. وكان من المفروض أن فشله فى أداء ذلك هو خطؤه الخاص، وليس بأية حال راجعا إلى جمود لغتنا، أو أى قصور فى الفهم أو الوعى من جانبنا. تلقى هذه النظرة تأييدا من جماعات كبيرة، لكن صوتا يرتفع أحيانا بالشك فيها. وكتب فيليب توينبى **Philip Toynbee** فى صحيفة الأوبزيرفر **Observer** فى مارس من عام ١٩٦١:

"يبدو من الافتراضات المحتومة عند بعض المفكرين العقلانيين أن للحالة الطبيعية لعقولنا بعض الأفضلية التجريبية لبعض الأمور على كل ما عداها، وأن جميع التجارب غير الطبيعية لا بد أن ترتبط بها فى النهاية لكن من حسن الطالع للطبيعة بالتأكيد أن حواسنا تعمل كما هى تعمل فى العادة. ونحن على صواب حين نعطى الأولوية العملية للأنماط الطبيعة من الفهم، لأن علينا ببساطة أن نعيش فى نطاق قوانين هذه الأنماط طوال كل حياتنا تقريبا. ولكن إذا كان الذى يتعاطى المسكالين مثلا يرى عالما من الألوان الرائعة غير المألوفة، وإذا كان يجرب نقيض التقدم الطبيعى للزمن، فلا يمكن لأى دليل من الحواس الطبيعية أن يُستخدم بصورة فعالة كى يقنعه بالعدول عن هذه الحقائق. ومن الواجب دائما أن نميز بين التجربة والنتائج الفكرية المستخلصة منها".

(1) C.D. Broad Religions, Phioshphy and Psychical Research Routledge, and kegan paul, 1953, pp. 172-3.

يتكلم الخبراء بناء على ذلك بأصوات منقسمة. تعرف الجماعة الأولى أن المخ يُولِّد الوعى، وأن التجربة تكون "شخصية" ، عندما نعجز عن التحقق منها بالوسائل المادية فى الواقع . (هل ينبغى علينا نحن عامة الناس أن نفهم من ذلك أن معرفة الإنسان بوظيفة المخ المادى تامة إلى حد كبير) وأن فكره قادر على ما هناك، حتى فى هذه المرحلة المبكرة من مستقبله باعتباره من الجنس البشرى؟

أما الجماعة الثانية – مثل هيرمان ويل – فهى على استعداد لترك الباب مفتوحا. وهى لا تدعى أنها اكتشفت الطبيعة المحددة "للنفس المجربة" فى المحل الأول "Prime Experiencing self"، لكنهم لا يرون فى مقدورهم إلحاقها بالأمخاخ أو الأعصاب وهلم جرا.. وهى عند عالم النفس السير سيريل بيرت تبدو أشبه بالعضو الذى يتأثر بالنشاط الواعى أو يوصله، أكثر من توليده. وحتى الفيلسوفان برود، وهـ.هـ. برايس H.H. Price مستعدان لنظرة جديدة إلى فكرة بيرجسون Bergson، وهى أن النفس عضو التحديد limitation، وظيفتها توجيه الانتباه إلى تلك الأجزاء من العالم الخارجى، التى يمكن أن تكون من الناحية البيولوجية نافعة للإنسان. ولعل من المفيد أن نذكر أنفسنا بفكرة برجسون. وقد سمى المخ عضو الانتباه إلى الحياة، وظن أن طبيعته هى توجيه الإنسان كى يدرك أن جميع الأشياء الخارجية قابلة للتقسيم، وأن فى إمكانه جمع الأجزاء وتركيبها من جديد حتى تتلاءم مع نفسه، وقد نشأ من هذا تفسير ميكانيكى للطبيعة. واقترح أنه ربما كان الإنسان يدرك ويتذكر لا شعوريا ما هو يفوق بكثير ما يتحقق منه، وربما كانت عنده القدرة الكامنة على إدراك أى شىء فى أى مكان. (كان هذا قبل زمان طويل من أيام الجلبة حول الإعلان المستخفى subliminal القائم على أساس اكتشافنا بأننا ندرك أكثر بكثير عن المكان والزمان مما نعتقده فى حالة الوعى).

وإذا كان بيرجسون على الطريق الصحيح، فقد يصبح من المعقول فى حالة الصدمة أو المرض أو التدريب أو العقاقير أو الغرابة الشخصية، عندما يتراخى المخ

فى وظيفته من تثبيت الانتباه على ما هو الآن هنا، أن بعض العوامل فى الإنسان قد يهرب إلى مجالات أخرى من الوجود، حتى فى أثناء الحياة. ويسمى برود هذا العامل الممكن – فى غير تزمت – بالعنصر النفسى psi- component ويظن مع الأستاذ هـ.هـ. برايس أن مثل هذا العنصر قد يبقى بعد الموت، وأن بعض الأنواع من المجالات غير المادية ربما كان موجودا حيث يمكن أن يعمل فيه، وإن كان الأستاذان يريدان ألا يكون العنصر على هذا النحو. ولا يبدو أن هذا المفهوم بعيد عن المستوى الروحى عند العرافين. أما وصف الدلائل التى دعت هذين الفيلسوفين الشهيرين إلى مثل هذه النظرية غير التقليدية فهى خارجة عن نطاق هذا الفصل، لكن بعض المشابهات التى اقترحها برود قد تساعدنا على الهرب من عادة سيئة، هى الافتراض – دون نقد– بأن الفكرة ذاتها فى وجود عامل فى الإنسان يمكن أن يعمل دون جسم مادى لا بد أن تختلف بلا أمل مع المعلومات المكتسبة من العلوم الطبيعية. ولسنا فى حاجة بعد الآن أن نفترض– كما يقول – إنه وإن كان العامل النفسى الباقى بغير جسم فهو بالضرورة غير ممتد ولا هو بغير محل، لأننا اليوم معتادون إلى حد كبير على مثل هذا الظواهر من قبيل المجالات الكهرومغناطيسية، والتى لا يمكن أن تسمى أجساما بالمعنى العادى، لكن لها مع ذلك خصائص وتنظيمات محددة. وهو يستخدم تشبيه قطعة من الموسيقى المذاعة يمكن أن توصف بوجودها على أمواج شعاع ناقل، ويقول لعل الفكرة القائلة بنفى البقاء عن أى عنصر نفسى بعد هدم الجسم المرتبط به تساوى أن نتصور انعدام الفرصة فى بقاء شىء يقابل عزف قطعة موسيقية من الأوركسترا فى أى مكان بعد هدم المحطة التى أذاعتها(١).

(1) These ideas were taken from professor C.D Broad's Myers Mamorial lecture, "persons identity and survivial", published by the S.P.R.

ما هى النتائج التى يمكن استخلاصها:

عندما يصر العلماء والفلاسفة المحافظون على أنه لا مهرب من عالم مغلق، بينما يرى آخرون - على نفس القدر من الشهرة - أنه قد يكون مفتوحا، نجد أنفسنا، نحن عامة الناس، فى حاجة إلى التفكير بعقولنا فيما إذا كان الأحرى بالموت أن يكون فناء، أو بوابة إلى حياة أخرى.

من المسائل الحاسمة التى تؤدى إلى افتراق الجماعتين أن الداعين إلى العالم المفتوح مستعدون فيما يبدو- مع حرص واجب - ليأخذوا فى اعتبارهم مادة تختلف فى نوعها عن تلك التى يمكن تحقيقها أو نفيها بالملاحظة المباشرة على المستوى المادى. وليس المحافظون مستعدين لذلك كما هو الظاهر. ولكن إذا كانت هناك جوانب أخرى من الحقيقة فعلا، ولا تدخل فى الاعتبار ، فقد تُستخلص نتائج خاطئة حتى عما تمت ملاحظته. وينطبق هذا على أى مستوى من التعقيد. خذ حالة الطبيب المشعوذ الذى سُئل عن حالات لم يفشل فيها سحره قط.

فأجاب إجابة منطقية بصورة كافية على ضوء معرفته الخاصة:

" كثيرا ما يحاول وحش أسود أن يلتهم الشمس، لكن سحرى يدفعه بعيدا دائما فى بضع دقائق". وكان الخبراء منطقيين على قدم المساواة عندما أعلنوا أن ماركونى لن يستطيع التواصل بين كورونويل Cornwell ونيوفوندلاند Newfoundland بواسطة الراديو. وكان هذا واضحا تماما، لأن موجات الراديو تسرى مستقيمة، والدنيا كروية. كان الأمر واضحا ، لكنه كان خاطئا، لأنهم تحدثوا قبل اكتشاف طبقة هيفيسايد Heavyside(*). وإذا كان للمنطق مقدمات غير مناسبة للعمل بمقتضاها ، فإن النتائج التى يستخلصها قد تكون بعيدة جدا عن الهدف.

(*) طبقة فى الجو تعكس موجات الراديو التى تكون متوسطة التردد. المترجم

أن النظرية القائلة بأن الأنواع العليا من الحياة هرمية فى التركيب قد تساعدنا هنا. لقد كانت مقدمة كثيرا في الماضي، وقد قدمها للظهور حديثا الأساتذة ميكائيل بولنْياى Michael Polanyi، وآرثر كيستلر ، وآخرون. وهى تقترح أنه إذا كانت الفكرة في انعدام وجود أى شيء سوى العالم المادى فرضا مناسبا فى مستويات معينة من الوعى، فهناك احتمال فى أن تكون غير مناسبة تماما فى مستويات أخرى. ويقول بولنياى: "إن التركيب الهرمى للأنواع العليا من الحياة يستلزم افتراض عمليات أخرى من الانبثاق". ويقول مرة أخرى: إن التركيب المنطقى فى الهرمية يتضمن أن مستوى أعلى يمكن أن يخرج إلى الوجود فقط من خلال عملية لا تظهر على المستويات الأدنى ، وهى عملية تستحق أن توصف بالانبثاق".

ذكر وليم جيمس فى عام ١٩٠١ سابقا فى محاضرات جيفورد Gifford التذكارية بعنوان "متنوعات من التجربة الدينية The varieties & Religious Experience" فكرة للطبيب النفسى الكندى ر.م. بيوك R.M. Buke، ربما أمكن اعتبارها امتدادا للخط الهرمى(١).

"إن الوعى الكونى فى لحظاته الأدعى إلى الدهشة ليس فى بساطة توسعا أو امتدادا للعقل الواعى بنفسه، الذى نألفه جميعا، ولكنه إضافة أعلى لوظيفة متميزة عن أية وظيفة يملكها الإنسان العادى، حيث إن الوعى بالنفس يتميز عن أية وظيفة يملكها أحد الحيوانات العليا".

تتناسب نظرية وايتمان مع هذا النمط كذلك : حيث إن دراسة أنواع الوعى التى يهتم بها علم النفس المجاور parapsychology والتصوف mysticism يجب أن تكون على أساس الدليل فى ميادينها الخاصة، لأن من المستحيل وجود دليل مادى مباشر على الأحداث فوق المادية ultra- physical، وأفضل ما نأمله هو دليل غير مباشر على

(1) Michael Polanyi, Tacit knowing , English edition, Routledge and Kegan Paul, 1967.

أن شيئا مجهولا فى مكان مجهول أدى إلى حادث مادى معين. من الواضح أن هذا الأمر الأخير لن يتقدم بنا بعيدا نحو فهم طبيعة الوعى فى الأحوال فوق المادية. وقد قال بوذا من زمن بعيد : "إن معرفة الأشياء النهائية لا يمكن الوصول إليها بالمنطق فقط. فهى تستلزم التجربة".

كذلك الحال عند المتسائل الخارجي، الذى يريد أن يكتشف أن كانت تغيرات الوعى تهيئ أية إشارات على طبيعة الموت، فعليه أن يعمل ما يستطيع – وعليه أن يسلم بالحقيقة، وهى أن الصوفية وذوى الحساسية المرهفة يغلب عليهم بحكم أمزجتهم حين يتعلق الأمر بتفسير تجاربهم ، أن يفتقدوا عقول العلماء المنظمة مثل الأستاذ وايتمان ، فضلا عن الطبيعة اللامادية للإشارات والتلميحات التى يشعرون بها. والتفسيرات على أية حال تتلون دائما بالثقافة التى يعيش فيها المجرب. واعتقد أبوليوس Apuleius أنه وجد نفسه ذات مرة فى حضرة الربة إيزيس Isis، واقتنع أصدقاء برناديت Berna-dette بأنها رأت السيدة مريم Madonna، وربما كان كوان ين Kwan Yin عند راهبة بوذية. وذكر كولدى Coldly أن التجربة الواقعية فى كل حالة – أيا كان سببها– ربما كانت تمثل حضور سيدة رمزا للحب والحكمة والرحمة. ومن الصعوبات الأخرى أمام المتسائل الذى يحاول فهم التجربة فوق المادية من الخارج أن الصوفية والمرهفين معرضون للشعور بالاختناق من النظرة الدنيوية . وقد صاح المتصوف العبقرى وليم بليك William Blake:" يا رب احمنا من النظر المنفرد، ونوم نيوتن" . وكان على ما يظهر لا يستطيع أن يرى أن أعظم الصوفية ربما حسد نيوتن على استبصاره. ويميل المزاج الواقعى فى الجانب المقابل إلى نعت جميع الصوفية بالتفكير الغامض، وينسى أن القليلين من العظماء يمكن أن يُساووا من جانب الكفاءة والصلابة فى الدنيا، أفلوطين، والقديس بولس، والقديسة تيريزا Teresa من أفيلا Avila، والقديس أغسطين ، وليس التواصل سهلا بين المتسائل وصاحب الرؤية.

لقد صادفنا من قبل صعوبة أساسية أخرى فى التواصل تنشأ حتى عند المجربين ذوى أكبر نصيب من المنطق العقلى حين يحاولون أن يشاركوا تجاربهم فوق المادية مع أولئك الذين يفتقدونها، وهى أن اللغة التى يجب عليهم أن يستخدموها مهيئة لتناول الأحداث المادية، وهى لذلك أداة غير مناسبة جدا. يظهر هذا فى مجاهدة كيستلر الحرجة حتى يجعل تجاربه الخاصة تبدو مفهومه. وعجز عن الهرب من التناقض. ويتفق المجربون فيما بينهم – مع ذلك – على أن الأحوال فوق المادية التى صادفوها – فيما يظنون – تبدو طبيعية إلى حد كاف فى حينها. وإنما هو استخدام الكلمات فقط الذى يجعلها متناقضة. حتى فى التجربة الناشئة عن عقاقير الهلوسة، ما يمكن أن يسمى "إما وإما" ، مثل هنا وهناك، عندئذ أو الآن، داخل أو خارج، أعلى أو أسفل، يبدو أنه غير قابل للتطبيق تماما، وقد يجد المفكرون من الطبقة الأولى أنفسهم أمام هذه المشكلة دون مساعدة من العقاقير.

كتب ت.س. إليوت فى أربع رباعيات:

أستطيع أن أقول كنا هناك فحسب، لأننى أعجز عن ذكر المكان ولا أستطيع تحديد مدى الزمان ، فذاك يعنى أن نضعه فى نطاق الزمان لا من أين، ولا إلى أين.

ولا سكون ولا حركة، ولا تُسمه تثبيتًا.

إن تجربة الشاعر الحديث – على قدر ما نستطيع الحكم – فيها مشابهات كثيرة مشتركة مع تلك التجربة الخاصة بالمتصوف فى العصور الوسطى وهو القديس جون ذو الصليب **St. John of the Cross** هذا ما وصف به إحدى مكاشفاته الخاصة.

دخلت ، لا أعرف أين.

وبقيت ، وإن كنت لا أعرف

أتجاوز المعرفة بفكرى

متى دخلتُ ، لست أدرى

لكنى عندما رأيت أنى هناك

وإن كان المكان لا يعنينى

أشياء غريبة تعلمتها ، ملأى بالعظمة

أما ما سمعته مع ذلك ، فلن أعلنه

لكنى بقيت هناك، وإن كنت لا أعرف

أتجاوز المعرفة بفكرى(١)

إذا نظرنا إلى هذه الأشعار من زاوية إما وإما ، فإنها تخلو من المعنى. هل تلك إشارة إلى أن التفكير بإما وإما فقط قد لا يكون كافيا، من وراء مجال الزمان - والمكان كما نعرفه؟ هل يضطرنا حتى إلى تقديم الأسئلة الخاطئة عما يجرى بعد الموت، وهى أسئلة لا تناسب الحالة، كما وصفها بوذا عن الأشياء النهائية بصفة عامة ؟ خذ مثلا هذا الثنائى المحير جدا، شخصى- موضوعى. هل يمكن أن يكون ذلك ثنائية كاذبة خلقتها طبيعة المخ المادى والكلمات التى نستعملها؟ وقد ظن كل من الأستاذين جاردنر مورفى Gardner Morphy وهـ.هـ. برايس H.H. Price أن النفس- على مستوى دون الوعى- يقل انفصالها عن النفس بصورة تزيد على انفصال الجسم المادى عن الجسم المادى، حيث إننا- حسب تعبير مورفي- أقل انحصارا . وقال أوسينسكى Ousepensky فى أحد المواضع إنه انطلق أحيانا فى عالم من العلاقات الرياضية المعقدة ، حيث تهدم التناقض كما نعرفه بين الذات والموضوع ، ويبدو إلى حد كبير كأن بعض الخواص من الشعراء والفنانين والموسيقيين فى عالم اليوم يبحثون غاية ما يستطيعون للتعبير عن ومضاتهم الوثابة الخاصة بهم عن مثل ذلك العالم، حسب

(1) St. John of the Cross, Poems translated by Roy Campbell Harvill press, p.31.

تعبيرات فنونهم بعد اقتراح الأستاذ و. ت. ستيس W.T. Stace فى كتابه بعنوان "التصوف والفلسفة Mysticism and philosophy" أنه ربما كانت هناك حالة من الوعى يسميها متجاوزة للذات trans- subjective، لكنه يقول بصراحة إن الكشف الصوفى يتجاوز العقل فى رأيه. لعل هذا يصدق فقط إذا اعتبر العقل أداة للتحليل لا غير، وليس أداة كذلك للتركيب الحدسى intuitative synthesis، الذى يبدو أن أى فهم للكشف الصوفى يتطلبه.

أشعر عند هذه المسألة بالفتور نظرا للصعوبات والمفاهيم الخاطئة التى تتكاثر دائما كأسراب البعوض كلما بذلت المحاولات للتوفيق بين نظرتنا العادية والاحتمال فى وجود جوانب فوق المادية من الحقيقة ، وحتى وجودها أحيانا فى متناول الوعى، وهى تلقى مزيدا من الضوء على طبيعته. وعلى ذلك كتبت أنعى هذا الموقف إلى صديق عالم شهير. وأنا عاجزة عن مقاومة ذكر إجابته، مع تعليقاته بأن الفيزياء تضطرنا إلى إدراك أن العالم المادى نفسه قد أصبح يتزايد فى الغموض. ولعل هذا فى النهاية يجعل امتداده الممكن أقرب إلى التفكير، حتى عند العقل المحافظ.

"..... لكن منطق العلوم الطبيعية استقرائى inductive، ويقوم على الاحتمالات. وإذا كان غرضك إثبات الأشياء، فلا بد أن تكون احتمالاتك عالية جدا. (إذا أردت مثلا إثبات الأمان فى الصعود إلى أعلى فى صاروخ)، أما إذا كان غرضك أن تفهم الأشياء، فقد تقنع باحتمالات منخفضة جدا. والفيزياء النووية المعاصرة ملأى بمثل هذه النظريات ، وكذلك علم الكون الحديث (الخلق المستمر للمادة والمعجزات الأخرى). إن تفسير التجارب النفسية والصوفية يجب - فيما أظن - أن تكون منطقية صارمة. لكن مقدماتها لا تحتاج إلى العقلانية. فقد تكون إلهامية، أو مجرد حدسية، أو كشفية.. إلى آخره.

إن النقص ينشأ على المستوى الحسى. إن أعضاء الحس عندنا تطورت من أجل البقاء باعتبارنا كائنات إنسانية على الأرض اليابسة. وعلى ذلك كان البصر واللمس (والحس العضلى فى الواقع) هى حواسنا الغالبة. ويتطلب العلم الكلاسيكى

منا أن نفكر باعتبار الأشياء المرئية ذات الكتلة المادية، وهى تتحرك فى مجال البصر فى المكان. إن عالِم الفيزياء الحديث يرجو الطلاب الآن على الدوام ألا ينظروا إلى الكون أو المكان، وألا يفكروا فى الجسيمات Particles باعتبارها أشياء مادية. انسى جهازك الحسى، واستخدمى المفاهيم المنطقية فقط، فقد تكون الجسيمة موجة أيضا. من أجل ذلك، تكون إحدى الأساليب لتفادى جمود الكلمات، التى نتحدث بها، أن نفكر بالتعبيرات الرياضية (وليس بالضرورة بالقياس الكمى: فهناك كذلك الرياضيات النوعية mathematics of qualities). ولما كانت التجربة على هذا النحو لا يمكن وصفها بصورة كلامية فى المقام الأخير (ويعترف العلم اليوم بأنه قادر على تقديم النماذج Models فقط)، فالواجب علينا، كلما دعت الضرورة، أن نرجع إلى الرموز والشعر، وحتى الأساطير" .

كنا قد سألنا سؤالين : هل تخبرنا تجربة الخروج من الجسم الظاهرة بأن بعض الناس يعانون فقط من تخيلات شخصية غريبة ، أم أنها حقيقية مثل تجربة البحارة فى الشرق الأقصى ، الذين عادوا من رحلة طويلة فى الجنوب بقصة سخيفة عن الشمس التى تشرق من الشمال، وإذا كانت التجربة حقيقية، فهل توحى بأن الموت قد يؤدى بنا إلى حقيقة أوسع؟

إن الإجابة عند المفكرين المحافظين لا شك فيها: حيث أن المكنة لا شبح فيها، فهى لا تعيش بعد كسرها. أما ذوو المزيد من المغامرة، فهم لا يقدمون دليلا إيجابيا على البقاء، لكنهم لا يستطيعون تجاهل المؤشرات الممكنة عليه. وقد لاحظنا اثنين من تلك المؤشرات هنا: إن أحدث الأبحاث توحى بأن المخ قد لا يولد الوعى، والأحرى أن يكون أداة يستخدمها الوعى، وأن التركيب الهرمى للأنواع العليا من الحياة يستدعى افتراض مزيد من عمليات الانبثاق. هل يحق لنا أن نسأل: أين يجب أن تتوقف هذه العمليات؟ هل هناك أى سبب يستوجب ألا يتطور الوعى إلى مستوى من الحقيقة فوق المادى، حيث يمكن أن يوجد مستقلا عن الجسم المادى؟ وليس من الأمور المحققة على

نطاق واسع أن مثل هذا التأمل قد يكون أقل جنونا مما كان على ضوء العلم فى القرن التاسع عشر. وقد قال السير سيريل بيرت فى مقام آخر حديثا : "إذا كانت المعرفة العلمية الحديثة لا تقدم دليلا على البقاء، فمن الحق على قدم المساواة أن نقول إنها لم تعد تقدم أى دليل ضده(١).

وإذا كان هذا كذلك ، فهو يعنى أن الإنسان العادى يمكن أن يدرس الآن المادة التى يبدو وكأنها تشير إلى البقاء، بل تنتهى إلى ترجيحه، دون أن يرمى بها فى سلة النفايات الفكرية، باعتبارها غير علمية. أما بالنسبة لأولئك الذين يشعرون من واجبهم أن يظلوا على السور، فإن ذلك على الأقل يهيئ نظرة أوسع من العالم المغلق على الجانب المحافظ منه.

لعل حاشية متناقضة إلى حد ما يجب أن تضاف إلى هذا الفصل، وهى أن التأثير العادى للتجربة الصوفية العليا يبدو أنها تجعل المجرب لا يعود مهتما على الإطلاق بالبقاء أو عدمه باعتباره وحدة تعنى بذاتها. إن هذا يبدو أمرا لا أهمية له تماما، على ضوء العظمة التى شاهد ومضة منها.

(1) Cyril Burt, Article in International Journal of Neuropsyehiatry, October 1966.

الفصل الثالث

الموت والبحوث النفسية

Death and Psychical Research

روزاليند هيود Rosalind Heywood

وظيفة البحوث النفسية وموضوعها:

وظيفة البحوث النفسية، أو علم النفس المجاور parapsychology – كما يسمى غالبا فى الوقت الحاضر – هو أن يبحث بروح علمية أية ملكة للإنسان؛ سواء كانت حقيقية أو مدّعاة، والتى لا يمكن تفسيرها حسب القوانين المعروفة للطبيعة.

وتأتى تحت هذا العنوان تجارب تبدو فى ظاهرها الوجود المستمر للأشخاص الذين فقدوا أجسادهم. وتكون وظيفة البحوث النفسية فيما يتعلق بالموت إذن هى هذا السؤال: هل تُقدّم مثل هذه التجارب المذكورة دليلا علميا صحيحا على أن عنصرا من الإنسان يمكن أن يبقى بعد موت جسده؟ وإذا كانت الإجابة بالنفى، فما الذى يسببّها؟ وينشأ من هذا سؤالان:

(1) As the writer of this and the preceding chapter is a member of the society for Psychical research, She would like it made clear that any views expressed in them are hers alone, and should not be attributed to that society which holds no corporate views.

ما نوع العنصر الذى يمكن أن يعيش، وفى أية بيئة؟

إن مثل هذه الأسئلة تعتبر عند المادى الذى يتبع المدرسة السلوكية هراء واضحا بالطبع. فالعقل والجسم ليسا سوى وجهين لشيء واحد، ويستطيع أى أحمق أن يرى توقف أحدهما مع الآخر. وكذلك لا يبدو من المعقول فى سهولة أن نتجاهل عددا من الظواهر التى توحى بالعكس. وعلينا إما قبول هذه الظواهر، وإما تفسيرها بطريقة مناسبة، أو يظل السؤال مفتوحا. ويصف يونج Jung الموقف على نحو صحيح إلى حد كبير حيث كتب: " على الرغم من غياب أية طريقة لتقديم دليل موثوق على استمرار الروح بعد الموت، فهناك - فضلا عن ذلك - تجارب تحفزنا على التفكير. وأنا أعتبرها إشارات ولا أدعى نسبتها إلى أهمية الاستبصارات"(١) .

إن المسيحيين بالطبع وكثيرين من الأعضاء فى جماعات مثل الثيوصوفيين(*) تؤمن - كجزء من عقيدتها - بأن الروح تبقى بعد فناء الجسد، لكن جماعة كبيرة حقا هى جماعة الروحانيين Spiritualists يذهبون إلى ما هو أبعد من ذلك؛ فهم ليسوا على قناعة بأن الشخصية الإنسانية كما نعرفها تبقى بعد الموت فحسب، بل إن أشخاصا لديهم مواهب خاصة يسمونهم وسطاء Mediums لديهم قوة على الاتصال بالموتى حسب إرادتهم.

أما أن هذا الاعتقاد له جاذبية واسعة فالدليل عليه فيما يبدو هو التقرير الصادر من المركز الروحانى الرئيس فى لندن فى عام ١٩٦٦، والذى سجل أكثر من مائة ألف زائر.

وإذا كانت مواقف الروحانيين والباحثين النفسانيين لا يمكن أن تتباعد أكثر مما هى عليه، كما أن الأولين يؤمنون بأنهم يعرفون ما يسعى إلى اكتشافه الآخرون،

(1) C.J.Jung, memories, Dreams, Reflections, Collins and Routledge and Kegan Paul, 1963. P. 289.

(*) جماعة تؤمن بمعرفة الله من طريق الكشف الصوفى أو التأمل الفلسفى أو كليهما معا. المترجم

ويكون بعض المادة الخام التي يتناولونها واحدا، وهم على ذلك يسببون الخلط في عقول عامة الناس. وقد يُسهّل فهم هذا الفصل على أولئك الذين لا يختلفون مع المادة الخام أن نبدأ بتقديم مثلين نموذجين ثابتين جيدا للأمر: الأول تجربة تلقائية يأخذها الروحاني على ظاهرها، كأنها آتية من المتوفي، ويسميها يونج إشارة، ويدرسها الباحث النفساني باستفاضة حتى يجد أرجح تفسير لها. كانت التجربة خاصة بمشاهدة طيف توافقت مع موت مفاجئ لأحد الطيارين كان في رحلة طيران روتينية، لا قتالية. وقد قرّر مشاهدة الطيف صديق رآه قبل سماعه بموت الطيار.

"كان المشاهد هو الملازم أول ج.ج. لاركن J.J.Larkin من سلاح الطيران الملكي، وكان الطيف خاصا بأحد الضباط من زملاء الملازم لاركن وهو الملازم دافيد ماكونيّل David Mc'Connel، وقد قُتل في حادث سقوط طائرة في يوم ٧ ديسمبر من عام ١٩١٨. وقرر الملازم لاركن أنه قضى عصر يوم ٧ ديسمبر في غرفته في المعسكرات. جلس أمام المدفئة يقرأ ويكتب، وكان شديد اليقظة طوال الوقت. ثم سمع صوتا لأحد الناس يمشي في الطّرقة في الساعة الثالثة والنصف عصرا تقريبا.

"فُتح الباب بالصخب والضوضاء التي يحدثها دافيد دائما، وسمعت صوته قائلا: أهلا، يا ولد! واستدرت في مقعدي ورأيته واقفا في مدخل الباب، وهو نصف داخل ونصف خارج من الغرفة، ويده على مقبض الباب. وكان يرتدي كامل ملابسه للطيران، لكنه يضع على رأسه قبعة البحرية، وليس في هيئته أي شيء غير عادي.... علّقت: أهلا! رجعت من قبل؟ فأجاب: نعم، رجعت بخير، وكانت رحلتي طيبة. كنت أنظر إليه حينما كان يتحدث. قال: حسنا، وداعا! أغلق الباب بصوت، ثم خرج".

"جاء بعد ذلك بفترة وجيزة صديق لزيارة الملازم لاركن، وأخبره لاركن بأنه قد شاهد وتحدث على التو مع الملازم ماكونيل (وقد أرسل هذا الصديق شهادة بذلك إلى جمعية البحوث النفسية). ثم تبين فيما بعد في ذلك اليوم أن الملازم ماكونيل قد قتل على الفور في حادث طيران وقع في نحو الساعة الثالثة والربع عصرا. واستبعد الخطأ

فى تحقيق الشخصية فيما يبدو؛ حيث إن النور كان جيدا جدا فى الغرفة التى ظهر فيها الطيف. ولم يكن هناك - فضلا عن ذلك - فى ذلك الوقت أى رجل آخر فى المعسكر يشبه الملازم ماكونيل على أى وجه.

وتبين أنه كان يلبس قبعته البحرية عندما قتل، وهى مناسبة تبدو غير عادية. كان المشاهد والزائر "أصدقاء طيبين جدا، وما كانوا حميمين جدا بالمعنى الحقيقى للكلمة"(١).

المثل الثانى من المادة الخام التى توحى فى ظاهرها بالوجود بعد موت الجسد هو الحالة التالية عن وسيطة توصل معلومات لم تكن بالتأكيد معروفة لها، ويبدو أنها لم تكن معروفة لأحد من الأحياء. كانت الوسيطة هى السيدة حرم أوزبورن ليونارد، وقد خضعت طوال سنوات عديدة لدراسة الباحثين النفسانيين، والتى لم تكن مصداقيتها محل شك على الإطلاق، حتى من جهة أقسى الناقدين للروحانية لو عرفوها. كانت الحاضرة السيدة حرم هيوتالبوت **Hugh Talbot** وكان القائم بالاتصال المشار إليه هو زوجها، الذى كان يحاول محاولة ناشطة كى يثبت وجوده الباقى. وفى أثناء قيامه بهذه المحاولة، بدأت السيدة ليونارد تتحدث عن كتاب، وأشارت بيديها إلى ما يبلغ فى طوله نحو ٨-١٠ بوصات، وفى عرضه ٤-٥ بوصات. وذكرت السيدة تالبوت أنها قالت:

"إنه ليس كتابا بالضبط، وليس مطبوعا... فيه كتابة بـ... هناك كتابان، ستعرفين الكتاب الذى يقصده بواسطة شكل للّغات على الغلاف... لغات هندية أوروبية، وآرية وسامية... جدول من لغات عربية ولغات سامية". وبدأ الأمر عندى تفاهة تامة فلم أسمع أبدا عن شكل للّغات، وكان مسمع هذه الأسماء(٢) الشرقية وهى مختلطة جميعا كأنه

(1) Summarised by Professor Gardner Murphy in Three papers on the survival problem (American Society of Psychical Research, 1945), from a longer report in Proceedings S.P.R., vol. XXXIII, 1923, PP. 151-160.

(4) A book has recently appeared by Professor C.E.M. Hansel, entited ESP: A scientific Evaluation, Seribner, New York, 1966. In this he expresses the opinion that as E.S.P. seems inherently impossible, all evidence for it is more reasonably attributable to fantasy or Fraud. Hence, he seems to think rhere never can have been an honest medium.

لا شيء مطلقا، وظلّت تكررها وتقول هذه هي الطريقة في كيفية معرفة الكتاب، وأخذت تُعيد وتُعيد. من فضلك شاهدي صفحة ١٢ أو ١٣ . إذا كانت هناك فسوف يدعو الأمر إلى اهتمامه كثيرا جدا بعد هذه المناقشة".

"ذكرت السيدة تالبوت أنها وجدت في اليوم التالي كرّاستين قديمتين يملكهما زوجها، ولم تكن مهمتة بفتحهما على الإطلاق. وكانت واحدة من الجلد الأسود رثة وتشبه في الحجم وصف السيدة ليونارد".

" ما أشد دهشتي إذ وقعت عيناي على الكلمات: جدول "أوه" لغات سامية أو لغات سورية عربية، وعند شد الورقة وكانت طويلة مطبّقة وملصقة نحو الداخل، رأيت على الجانب الآخر "جدول عام للغات الآرية والهندية الأوروبية". وكان هناك في صفحة ١٣ من هذه الكراسة خلاصة من عمل بغير اسم المؤلف عنوانه: بعد الموت **Post Mortem** وهو يصف أحاسيس شخص يدرك أنه ميت، ويحكي لقاءه مع أقاربه الموتى"(١). إن مثل هذه الظواهر المحيّرة وإن كانت ذات معنى فيما يبدو مع ذلك قد كانت مذكورة منذ بداية التاريخ وفي كل ثقافة. إن الحلم الذي أخاف زوجة القيصر، والاختبار الذي وضعه الملك كريسوس **Croesus** للعرّافين، ونشروه بألوان براقة، والقصة التاريخية للمشعوذ في إندور **Endor**، كلها أمثلة نموذجية. وكانت في الماضي تسمّى بأسماء مثل الكهانة والرؤية الثانية، والتلبّس وكان من المسلّم به أنها فوق الطبيعة **Supernatural**.

كان العالم الوثني يميل إلى إرجاع كثير من الظواهر النفسانية، أو كما تسمى الآن غالبا الظواهر الشبيهة بالنفسية **Psi Phenomena** إلى الآلهة. واعتبرتها الكنيسة المسيحية؛ أيا كان أصلها، فوق الطبيعية **Supernatural** وهي لذلك تبعث على الشعور بالروعة، وليست مسائل يُشجّع المؤمن على زيادة الفضول فيها. ثم تغير كل شيء

(5) Taken from a summary by Professor Gardner Murphy in Three papers on the survival problem, American S.P.R., 1945 of a detailed investigation of the case in Proceedings S.P.R. 1920-21, PP. 253-60.

بدخول عصر العلم – وأصبح ما فوق الطبيعى لا يعتبر عند المتعلم باعثا على الشعور بالروعة، ولكنه غير موجود. لم يعد هناك مكان لمثل هذا الهراء فى الكون المنظم الذى يمكن التنبؤ به، وافترضه نيوتن وخلفاؤه. ويجب – حتى يكون الإنسان محترما من الناحية العلمية – أن يحيل كل أمثال هذه الظواهر إلى الخيال أو الخداع. وعلى الرغم من ذلك، دأبت هذه الظواهر "المستحيلة" هنا وهناك على الظهور، كما كانت دائما من قبل. ثم بدأت بعض الدراسات أخيرا عنها فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر، قام بها بعض الأستاذة والعلماء ذوى العقول المستقلة، الذين لا يبالون بضحك الناس عليهم. ونجمت عن هذه الدراسات سؤالهم الثورى: هل يمكن أن يوجد دخان كثير جدا من دون أية نار؟ كيف يكون الحال لو كانت الظواهر فوق الطبيعة تحدث فعلاً، وليست فوق الطبيعة بعد هذا كله، ولكنها طبيعية وخاضعة للقانون الطبيعى؟

تكنية البحوث النفسانية وتطورها:

سرعان ما أصبح واضحا أن الأبحاث فى أمثال هذه الظواهر بواسطة الأفراد المنعزلين لن يتقدم كثيرا، ويجب التنسيق بينها. وقام السير وليم باريت وهو عالم الفيزياء الشهير فى عام ١٨٨٢ بعد إدراك هذا وشعوره بالحافز من نجاح بعض تجاربه الخاصة فى انتقال الأفكار **Thought transference**، فدعا جماعة من زملائه لتأسيس جمعية البحوث النفسانية (ج.ب.ن) **(the Society for Psychical Research S.P.R)** كانت جماعة ممتازة يرأسها الفيلسوف الأساتذة هنرى سيدجويك **Henry Sidgwick**، وتشمل العالم اللورد رايلى **Rayleigh**، والأستاذة فردريك مايرز **Frederic Myers**، وإدموند جورنى **Edmund Gurney** وأول لوردين من أسرة بلفور **Balfour**[1].

---

(1) They were soon joined by people of eomparable stature, amony them the scientists Sir oliver lodge, Professor J.J.Thomson, and Mrs.Henry Sidgwick Principal of Newham college, Cambridge. A similar society was founded in the U.S.A. with William James among its early members.

وكان هدفهم المعلن استخدام وسائل العلم في دراسة جميع الظواهر، الحقيقية أو المزعومة، والتي لم يعرف لها من قبل تفسير علمي. كانت هذه الظواهر في تلك الأيام تشمل التنويم؛ وله الآن منفعة في نظام التأمين الصحي القومي في بريطانيا). وقد أصروا على إجراء الدراسة دون تحيز أو رأي مُسبق من أي نوع. إن هذا المستوى العالي من الانفصال كان يتطلب الكثير من الطبيعة البشرية في موضوع كان يهدف إلى سبر أغوار تلك الطبيعة ذاتها، وسرعان ما أصبح شديد الوضوح فقط. ولا يصبح أقل في هذا المجال مع مرور السنوات.

أما بالنسبة للقراء الذين لم يطلّعوا على البحوث النفسانية، فقد يكون من النافع أن نذكر الأسماء التي تُطلق اليوم على المظاهر المختلفة لما فوق الطبيعة سابقا؛ وهي تشمل تلك المتعلقة بالأحداث الدنيوية، لأنها يمكن أن تؤثر على تقديرنا للأحداث التي تظهر خارج نطاق الأحداث اليومية، وهي لا تزيد على أن التفسير الطبيعي لظواهر معينة لم يتم اكتشافه بعد.

إن جميع أمثال هذه الظواهر تقع كلها تحت غطاء التسمية "بالظواهر الشبيهة بالنفسية Psi"، وهي تنقسم إلى قسمين: مادية وعقلية. في القسم الأول، تبدو المادة الطبيعية متاثرة أو حتى متحركة بوسائل مجهولة، ربما كانت عقلية، لكن الدليل على هذا متناقض، ويستغرق كلاما طويلا جدا في مناقشته هنا.

أما القسم الثاني، وهو الظواهر العقلية الشبيهة بالنفسية Mental Psi فقد أُطلق عليه الإدراك خارج الحواس Extra sensory perception E.S.P بواسطة العالم المجرب الشهير في الموضوع الدكتور ج.ب.راين J.B.Rhine من جامعة ديوك Duke بالولايات المتحدة. يرمز الإدراك خارج الحواس (إ.خ.ح) إلى الاستجابة لانطباعات لا يستقبلها أي عضو من أعضاء الحس المعروفة، ثم يتبين أنها تتوافق مع الأحداث الدنيوية التي يمكن أن تكون بعيدة في المكان أو الزمان أو فيهما معا. (ولعل الاسم غير مثالي لأنه - فيما يبدو - يوحي بانعدام وسائل مادية تتعلق بالتواصل، وذلك لم يثبت بعد). وقد تم

تقسيم الإدراك خارج الحواس من أجل أغراض الدراسة إلى أربعة أقسام إضافية: التخاطب على البعد؛ التليباثي Telepathy (وهو الاستجابة للحالة العقلية عند إنسان آخر)، والكشف Claivoyance (وهو الوعي بحادث موضوعي بعيد)، والمعرفة بالماضي retrocognition (وهي الوعي بحادث في الماضي دون استخدام الذاكرة، أو الشهادة، أو الاستدلال)، والمعرفة المُسبّقة (وهي الوعي بحادث في المستقبل من غير استدلال). لكن هذا التقسيم يفيد بأن الإدراك خارج الحواس ليس سوى ملكة واحدة تعمل في مواقف مختلفة.

أما أن الإدراك خارج الحواس واقع فعلا فقد تأكد إثباته بصورة متكررة على مدى ثلاثين عاما سابقا بواسطة علماء من جامعات مختلفة، الذين بيّنوا وجوده في مئات من التجارب العملية في إنجلترا والولايات المتحدة وروسيا وتشيكوسلوفاكيا وغيرها من البلاد، لكنّ هناك أعدادا كبيرة من الناس درجوا على النظرة الميكانيكية التقليدية بحيث يعجزون عن تصوره. ويجدون من الأيسر أن يفترضوا أن الأساتذة الكثيرين المحترمين المشاركين إما أن يكونوا جميعا مخدوعين في أحوال بذلوا جهودا مضنية حتى تكون منيعة على الغش والخطأ، وإما أن يكونوا أنفسهم قد تعمّدوا الغش فيما يبدو حتى يقدموا دليلا على الإدراك خارج الحواس، وهو ما لم يجلب إليهم شهرة ولا ثروة(١).

إن متابعة وتأكيد الإدراك خارج الحواس للأحداث الدنيوية - كما سبق ذكره - قد عقّد الأمر فيما يتعلق بالمزيد من تقييم ظواهر الإدراك خارج الحواس، التي يبدو أن

(1) See op.cit.by Professor Hansel. His gallant and very ingenious attempt to prove all the evidence for E.S.P. a fake takes us back to the days when the great chemist lovoisier read paper to the French Academy whichproved that meteric stones could not fall from the sky because there were no stones in the sky to fall. (Quoted by John Langdon davis in Man: known and Unknown, Seckey and Warburg, 1960.) It is extremely diffcult even for most brilliant man to accept, phenomena which run counter to their own basic assumptions.

لها أصولا غير دنيوية. وربما كان أوضح سبيل في بيان سبب هذا التعقيد هو ذكر تخطيط وجيز للمساق الذى اضطر البحث النفسانى إلى السير فيه نتيجة لاكتشافاته الخاصة فى طريقه للأعماق والتعقيدات المجهولة فى الطبيعة البشرية من جهة، وجو الشكوك البالغة التى جرى فيها البحث من جهة أخرى.

لقد تأسس البحث فى الإدراك خارج الحواس فى وقت كانت قوة الاكتشافات العلمية تهدم بأقسى وحشية القلعة العظيمة للعقيدة التقليدية. كان علماء تلك الأيام مقتنعين بأنهم بلغوا حدود المعرفة. وأعلن العالم إرنست هيكل Ernest Haekel أن لغز العالم قد حلّ. وفى مجال البيولوجيا فى الوقت نفسه أدت اكتشافات داروين وآخرين إلى زعزعة مدمرة للعقيدة الدينية فى أن الإنسان روح مخلوق على صورة الله وهو يسكن مؤقتا فى جسد فانٍ.

هذه الهجمة المدمرة للعلم الجديد على العقائد القديمة، والتى بدا أنها تختزل الإنسان إلى مجرد مكنة، كانت هى الحافز الرئيس للمؤسسين فى جمعية البحوث النفسية S.P.R على القيام بمغامرتهم التى جلبت عليهم كثيرا من السخرية. ولاح لهم أن البحث النفسى قد يلقى بعض الضوء على الطبيعة الحقيقية للإنسان. هذا كيف وصف الأستاذ هنرى سيدجويك موقفهم بعد بضع سنين "عندما أخذنا مأخذ الجد دراسة غامضة محيرة وهى التى نسميها البحوث النفسية كان حافزنا الرئيس على القيام بذلك هو الانقسام والصراع الكبير المؤلم فيما يتعلق بطبيعة الروح الإنسانى ومصيره، وهو الذى وجدناه فى تفكير عصرنا. فمن جهة، تحت تأثير التعاليم المسيحية، التى كانت قوية التأثير حتى على الكثيرين من أولئك الذين تخلّوا عن نظامها الجامد، كان مفهوم الروح أنه مستقل عن نظام الجسد، وأن مصيره البقاء بعده. وكان الاتجاه الغالب للفسيولوجيا الحديثة – فى الجانب المقابل – أن يستبعد هذا المفهوم أكثر فأكثر، وأن يتناول الحياة والعمليات فى أى عقل فرد على أنها ترتبط دون انفصال بالحياة والعمليات بالجسد ذى الحياة القصيرة الذى تحييه. وكان موقفنا الخاص الآن هو هذا الذى يلى:

آمنا دون تحفظ بوسائل العلم الحديث، وكنا على استعداد للقبول والتسليم بنتائجه المنطقية، عندما يدعمها اتفاق الخبراء، لكننا ما كنا على استعداد للتسليم بالسهولة نفسها للتحيزات المجردة لرجال العلم. وبدا لنا أن هناك قدرا مهما من الدليل يميل إلى تقرير استقلال الروح بصفة مبدئية حتى يثبت العكس، وهو ما نحّاه العلم جانبا مع سخرية جاهلة، وبهذا التجاهل كان غير أمين مع طريقته التى يعترف بها، وأنه وصل إلى نتائج سلبية قبل الأوان. لاحظ أننا لم نقل إن هذه النتائج السلبية كانت خاطئة. ولو قلنا ذلك لوقعنا فى الخطأ نفسه الذى حاولنا اجتنابه. وإنما قلنا فقط إنه تم الوصول إليها قبل الأوان..."(١).

وفضلاً عن بعض التجارب الرائدة فى التخاطب على البعد (التليباثى) كان الموضوع الرئيس للبحوث النفسية طوال عدد من السنين:

١- حالات تلقائية من الظواهر الشبيهة بالنفسية ذكرها عامة الناس.

٢- أنشطة الوسطاء الورحانيين، والتى تعلقت بصدورها من الموتى.

ولما كانت عملية الإدراك خارج الحواس تعتبر غير مادية، وكان المخ حسب المعرفة فى تلك الأيام ليس من نوع الأداة التى يمكن أن يكون لها دخل فى الأمر، فقد كانت الفكرة طوال فترة من الوقت أننا حتى لو نجحنا فى إثبات أن الإدراك خارج الحواس للحوادث الدنيوية حقيقة، فإن هذا يدل على أن الروح منفصل عن الجسم، وعلى ذلك يجعل فكرة البقاء أدعى إلى القبول. وقد تم مراجعة وتحقيق آلاف من الحالات الظاهرية للإدراك خارج الحواس، وكان الهدف فى رأى سيدجويك وزملائه إقناع معاصريهم من العلماء بتحقيقها. لكنهم كانوا مخطئين. فقد بقيت الفكرة العامة حيث قال الأستاذ جوزيف جاسترو **Joseph Jastrow**: "التليباثى خطيئة منطقية بالغة".

(1) Presidential Address, 1888, Proceedings S.P.R.Vol v, P.291.

ولا عبرة لوجود الآلاف من الحالات. ويقول النقاد خذ الحالات كلاً على حدة، ويمكن تفسير كل واحدة بإرجاعها إلى بعض الضعف البشرى؛ مثل الملاحظة السيئة، أو الفكر بالتمنى أو التفسير اللاشعورى، أو الاستنساخ الكاذب أو الذاكرة الخاطئة وإذا فشلت كل هاتيك الأمور، فيمكن إرجاع أى حادث إلى التوافق مع المصادفة دائما. إن عشرة آلاف من جرادل الماء المتسرب لا يمكن أن تحتجز من الماء أكثر مما يحتجزه واحد منها كما يصرّون.

إن الجو العقلى المستريب فى عنف بالغ وجّه التيار الرئيس فى البحوث النفسانية فى النهاية إلى الجهود لتقديم الدليل التجريبى على الإدراك خارج الحواس للأحداث الدنيوية بحيث لا ينطبق عليها أى نقد من الأنواع السابقة. ذلك بأنه يمكن على الدوام فى التجارب أن نمحّص دعوى القائمين بها بتحقيق نتائجها بحيث يمكن أن نستبعد شبح المصادفة دائما. (ها هنا تكمن الصعوبة البالغة فى بحوث البقاء، حيث إن أى كلام منسوب إلى الميت لا يمكن تحقيقة أبدا إلا إذا تعلق بحادث دنيوى؛ ولذلك يجوز من الناحية النظرية دائما أن يكتشف المعلوماتِ فيه بعضُ الأنواع المباشرة للإدراك خارج الحواس. وقد يكون لبعض الأدلة وزن فى محكمة قانونية، ولكن ليس هناك حتى الآن دليل محكم بصورة كافية للتحقق منه فى مختبر علمى).

من دواعى التناقض الكافى ، أن الدليل التجريبى على الإدراك خارج الحواس للأحداث الدنيوية قد تم الحصول عليه فى النهاية، بحيث يدفع إلى نتيجة لا مهرب منها وتفرض نفسها على علماء من طبقة الأستاذة س.د.برود، و هـ.هـ. برايس، والسير سيريل بيرت، والسير أليستر هاردى، و هـ.ج. أيزنك H.J.Eysenck، وعلى الرغم من ذلك فإنه لا يقدم الدليل المأمول على الطبيعة الثنائية للإنسان. والسبب أن مفاهيم الفيزياء قد تغيرت بصورة أساسية فى الوقت نفسه. ولم تعد وحدات البناء للكون ذرات صغيرة جامدة، وإنما تركيزات بالغة الضآلة للطاقة غير المادية، وعندما يتعلق الأمر بالمجالات الضخمة جدا والضئيلة جدا فإن الأفكار الكلاسيكية لا تنطبق على طبيعة الزمان

والمكان والمادة كذلك. وتبين في الوقت نفسه أن المخ في مجال الأشياء الصغيرة جدا يقوم بوظيفته كأداة كيماوية كهربية ذات دقة مدهشة، وبطريقة لا يمكن تصورها عند استبعاد تدخله في الإدراك خارج الحواس بأية طريقة. وعلى ذلك تصور بعض الباحثين في الغرب والاتحاد السوفيتي في العصر الحديث أن التليباثي مثلا قد يبدو صورة مجهولة من التواصل بين مخ ومخ أكثر من التواصل بين عقل وعقل. ولو صح هذا، فهو لا يقدم أي دعم للنظرية القائلة بعقل أو روح مستقل. ولكن الباحثين الآخرين، ولعلهم الأغلبية، ما زالوا يعتبرون أن الإدراك خارج الحواس للأحداث الدنيوية بصورة عامة هو أمر يتعلق بالعقول لا الأمخاخ فقط، وإذا كانوا على صواب فربما يشير الأمر إلى احتمال البقاء.

نعود إلى أوائل الباحثين. سرعان ما اكتشفوا أن البحث عن دليل على الظواهر التلقائية الشبيهة بالنفسية كان عملا أشق مما توقعوا، وأن أمثلة ظاهرية عديدة عليه يمكن تفسيرها حقا بإرجاعها إلى بعض الأسباب الطبيعية كما أكد النقاد. وقد قرّروا قاعدة أساسية بصفة خاصة تمسك بها تابعوهم دائما وهي: لا يمكن اعتبار أية تجربة للإدراك خارج الحواس دليلا إلا إذا بلّغ عنها المجرِّب، أو أتخذ فيها إجراء محدّدا قبل أن يتلقى أخبارا عن الحادثة المعنية بالوسائل العادية. وإذا كان هذا الإجراء صارما من ناحية الضرورة العلمية، فقد يقدم نظرة مشوهة للتجربة الحقيقية للإدراك خارج الحواس، ذلك بأن الحالات الموثّقة إذا كانت حقيقية، فيستحيل أن تكون جميع الحالات المشابهة كاذبة، إذا كان إثباتها غير ممكن بسبب بعض الأسباب الطبيعية. خذ هذا الملخص التالي لمثال قريب الشبه بطيف الملازم ماكونيل السابق ذكره، الذي قيل لي بعد الحرب العالمية الثانية إنه حقيقة وكان الملازم الطيار متحيرا للغاية من تجربته. فقد أرسل سرية من الطائرات لاعتراض موجة من قاذفات القنابل للعدو، وبعد قتال وحشي عاد الطيارون إلى القاعدة متباعدين. وقال الذي أخبرني بالمعلومات أنه في أثناء السير نحو خيمة النادي بعد الهبوط، صاحبه زميل طيار، وهو رجل أحمر الشعر له مظهر

فردى جدا . وبعد بضع ملاحظات صادرة من القلب عن عنف القتال، توجه الرجل ذو الشعر الأحمر إلى مكان معسكره بعيدا، وذهب محدِّثى إلى خيمة النادى وطلب شرابا. وحينما كان يشربه دخل طيار ثالث، وقال إن الرجل الذى كان يكلمه محدّثى منذ بضع دقائق قد تمزق أشلاء منذ نحو ساعة. ولو أنه ذكر الحديث قبل دخول الرجل الثالث لأمكن تقسيم الحالة باعتبارها دليلا على شىء شبيه بالأمور العادية paranormal على الأقل، وهى فى وضعها مجرد "رواية Anecdote".

توجد إشارة نافعة إلى معدل حدوث تجارب الإدراك خارج الحواس فى كتاب حديث من تأليف الدكتورة لويزا راين Louisa Rhine عنوانه "الإدراك خارج الحواس فى الحياة والمختبر E.S.Pin life and Lab"[9]. وهى تستخلص أمثلتها من البيانات النفسية الملاحظة فى العمل التجريبى طوال أكثر من ثلاثين عاما فى جامعة ديوك بولاية نورث كارولينا، ومن عشرة آلاف مثال على التجارب التلقائية للإدراك خارج الحواس يتعلق كثير منها بالوفيات، وقد أرسلها إليها الجمهور العام. (ولعل من الافتراض المعقول أن الحالات المرسلة إلى الدكتورة راين كانت مجرد نسبة من تلك الحالات التى وقعت فعلا) ويعتبر أن للجماعتين سمات مشتركة كثيرة بينهما.

بعض الاكتشافات النفسية للبحوث النفسية :

كانت إحدى النتائج لقيامهم بتصفية الحالات بدقة هى أن الباحثين الأوائل توقعوا بعض كشوف فرويد عن الحياة المعقدة لما تحت الشعور Subconscious عند الإنسان، وأدى بهم هذا مع مرور الزمن إلى تأكدهم بصورة متزايدة من الصعوبة البالغة فى الحصول على دليل على البقاء لا يمكن إرجاعه إلى الإدراك خارج الحواس للأحداث الدنيوية على الأقل، وحتى إذا لم يتيسر إرجاعه إلى المصادر العادية. لقد اكتشفوا

(9) Collier Macmillan, 1968.

مثلا أن الإنسان قابل للإيحاء للغاية على المستويات الخفية من النفس، وهو عظيم التعبير بصورة مسرحية Great dramatiser ونادرا ما ينسى إن كان له أن ينسى على الإطلاق. ربما تكون المعلومات التى صدرت عن المتوفى حسب ما يعتقد بكل أمانة قد أمكن الحصول عليها بصورة عادية منذ سنوات قبل ذلك، وتم نسيانها بطريقة شعورية، وليس من طريق ما تحت الوعى Subconsciously . وانتهى بعض الباحثين إلى أن الظن بأن الأطياف أيضا يمكن تفسيرها بالهلاوس البصرية الناشئة من اللاشعور عند المجرّب نفسه حتى يحضر إلى انتباهه السطحى معلومات كان قد تلقّاها بواسطة التليباثى على مستوى أعمق، وربما تم منعها بنوع من الرقابة النافعة بيولوجيا حتى لا تظهر مباشرة. (حدث فى إحدى المناسبات مثلا أن سيدة قرأت فى خطاب بعض الأخبار التى لم تكن فيه، ثم تبين فيما بعد أنها صحيحة). كما تبين كذلك أن ما قد يسميه الإنسان إشارة تليباثية تبدو أحيانا كامنة تنتظر فيما تحت الشعور حتى يهيئ لها مزاج المجرّب وظروفه مجالا للظهور، حتى يذهب إلى الفراش فى البيت مثلا بعد أمسية فى المسرح. وتوحى هذه المكتشفات باحتمال أن يكون الطيف الذى يتعلق بإنسان توفى حديثا ربما كان فى الحقيقة إخراجا مسرحيا لهلوسة عند المجرّب نفسه "لإشارة" تليباثية مبكرة، تلقاها بواسطة ما دون الشعور من إنسان على شفا الموت.

اكتشف الباحثون النفسانيون - بالمناسبة - بواسطة الاستفتاءات المتكررة على نطاق واسع أن الهلاوس البصرية يراها عشرة فى المائة تقريبا من الناس العاديين مرة على الأقل فى حياتهم، وليست لها أية علاقة ضرورية بالشراب أو العقاقير أو المرض كما هو المفروض بصورة شائعة.

وهناك نسبة قليلة فقط من هذه الهلاوس يظهر أنها تتوافق مع أحداث أو أشخاص فى الواقع، ولكن تبين - على غير المتوقّع - أن من بين أولئك كان أكثر المُشاهَدين من الأحياء لا الأموات. وبتعبير آخر من زاوية وجهة نظر الباحث المتثبت

لا يمكن اعتبار ظهور طيف لرجل توفى حديثا ببساطة دليلا أكيدا على البقاء، مهما كان مقنعا للمجرّب[1].

وينطبق الغموض نفسه على الأشباح "haunts"، أى الهلاوس البصرية أو الخارجية الأخرى، أو الانطباعات العاطفية أو العقلية الداخلية، التى تتم تجربتها بصورة مستقلة فى مكان معين بواسطة أناس مختلفين فى أوقات مختلفة. وإذا استبعدنا التفسيرات العادية، مثل قرقرة المياه فى داخل الأنابيب، والفئران التى تتواثب فى المخازن تحت الأسطح، والبوم الأبيض الذى يُتَصور أنه سيدات بيضاوات وهلم جّرا؛ فإن حدوث أمثال هذه التجارب بصورة مؤكدة يصعب الشك فيه بواسطة الباحثين الدارسين للدليل بغير عاطفة. لكن تفسيرها موضوع آخر. (إن مشكلة من أعسر المشكلات النفسية فى البحث النفسى هى الاتجاه البشرى الطبيعى لتفسير التجربة من ناحية وجهة النظر الشخصية.) وقد لا تستدعى الضرورة من أجل سبب واحد – على ضوء نظرية المجال الحديثة – Field theory أن نستبعد النظرية القائلة بأن مكانا يمكن أن يظل على الدوام متأثرا بحادث مشحون بالعاطفة وقع هناك ذات مرة – ومن الأسباب الأخرى، أن التجارب والحالات التلقائية كذلك توحى بأن الإدراك خارج الحواس – فيما يبدو – ذو علاقة أكثر مرونة بالزمان والمكان أكثر من الإدراك الحسّى. ويكون للتعرف على الماضى – بناء على ذلك – فى حالة " الأشباح" دور عامل، أو التعرف على

(1) It is perhaps fair to note that in The Enigma of survival, Rider, 1969, Dr. Hornell Hart, who was Professor of Sociology at Duke University, North Carolina for nearly twenty years, has pointed out that some people have had the experience of mentally projecting themselves to distant sports and that their apparitions have been seen at those sports at the time they did so. He argued as these apparitions of the living have various features in common with apparitions of the dead, the possibility that the latter may represent conscious personalities who have survived bodily death can not lightly be set aside.

المستقبل بالإخبار عنه فيما بعد(١)، وهناك دائما فرصة لإنسان مرهف أن يلتقط الفكرة بواسطة التليباثى من الأحياء الذين يعرفون التقاليد، ثم يجرّب الحادث التقليدى فى صورة خارجية ظاهرية، لكنها فى الحقيقة نابعة ذاتيا بطريقة الهلوسة. إن الشبح المسيطر بتعبير آخر قد يكون تجربة حقيقية، لكنه لا يعنى مرة أخرى ظهور حقيقة تتعلق بالميت.

لا يوجد باحث فى الوقت نفسه يحاول أن يرقى إلى مستوى دراسة الظواهر الشبيهة بالنفسية Psi phenomena" دون تحيز أو رأى مُسبق من أى نوع، ويمكن أن يتجاهل حالات من تدخل ظاهرى غير متوقع من الموتى يكون له هدف، ويحمل معلومات لا يعرفها أحد من الأحياء فى ذلك الحين. وأيا كان التفسير، فهناك شىء يحتاج إلى تفسير. إن حالة شافين ويل Chaffin Will مثال شهير على مثل هذا التدخل، وقد قام بتلخيصها التالى المحامى والباحث النفسى الشهير الأستاذ و.هـ. سالتر W.H. salter، الذى استفاض فى بحثها بنفسه(٢).

مات جيمس شافين James Chaffin فى عام ١٩٢١ من أثر سقوط، وهو فلاح من نورث كارولينا، وترك أرمل وولدين. كتب وصية فى عام ١٩٠٥، وترك أملاكه كلها لولده الثالث مارشال، الذى سجّل الوصية ومات هو نفسه بعد عام تقريبا، تاركا أرمل

(1) In Noted witnesses to psychic Occurrences, Boston S.P.R., 1928, Dr. Walter Franklin Prince reports on experience of seeing a ghost of the future which was interpreted as of the past. An American singer, a Quaker, David Bispham, was taken to visit an old bookseller who was a sensitive and who claimed to see one of Bispham's ancestors standing by him. He described the ancestor's appearance in detail: red brocade coat, lighter Satan waistcoats, gold chain with locket sword, grey hair, clean-shaven. Knowing of no such ancestor, Bispham did not think anymore about the matter until eighteen months later he was offered his first engagement to sing in opera in England. This was to take the part of a French Duke, and for it he has to shave off his bread and wear a grey wig and just the clothes described by the old man.

(2) Zoar, or The Evidence of Psychical research concerning survival, by W.H. Salter, Sedgwick and Jackson, 1961, PP.45-6.

وابنا صغيرا. وفي يونيو من عام ١٩٢٥ بدأ الابن الثاني جيمس يرى أحلاما واضحة فيها يظهر أبوه إلى جانب سريره وهو يتحدث، وربما كانت هذه الرؤية تجربة على الحدود، إذ كانت تحدث بين النوم واليقظة. وكانت أكثر واقعية من الأحلام المحض فى العادة، لكن التمييز قليل الأهمية فى تجربة لها مثل هذه الدلالة.

"كان الشخص يرتدى معطفا أسود، وغالبا ما كان جيمس يرى أباه يرتديه. قال جيمس إنه أمسك بمعطفه على هذا النحو وشدّه إلى الوراء وقال: "ستجد وصيتى فى جيب معطفى". ثم اختفى.

"ذهب جيمس إلى أخيه الأكبر فى بيته ووجد المعطف، وفى الجيب الداخلى الذى كان مخيطا، حزمة من الورق عليها كلمات: " اقرأ الإصحاح السابع والعشرين من سفر التكوين فى الإنجيل القديم لوالدى، ووجد جيمس الإنجيل القديم فى أحد الأدراج فى بيت أمه، ووجد فى حضور الشهود بين صفحات مطوية كان مطبوعا فيها الإصحاح السابع والعشرون من سفر التكوين وصية أخرى بتاريخ ١٦ يناير من عام ١٩١٩ حيث يذكر الموصى بعد قراءة الإصحاح السابع والعشرين من سفر التكوين حيث يتعلق بيعقوب الذى سبق عيسو، وتم تقسيم الأملاك بالتساوى بين أبنائه الأربعة وأضاف عليكم جميعا أن ترعوا أمكم".

"أما الوصية الثانية وإن كانت غير مصحوبة بالشهود، فقد كانت صحيحة حسب قانون الولاية... وقبل التثبت من صحة الوصية على كل حال، ظهر الموصى مرة أخرى لابنه جيمس قائلا: " أين وصيتي القديمة؟ وكان يبدى مزاجا بالغ التوتر".

إن مثل هذه الحالات يكون لها وزن أكبر لو أنها لم تكن وحيدة، ومع ذلك فإن الحصول على آخرين موثوق بهم جيدا على قدم المساواة عسير الاحتمال، كما سبق ذكره من قبل. خذ المثالين التاليين، وقد يدلاّن على شىء شبيه بالحالة العادية Paranormal مثل حالة شافين، ولكن لا يمكن لأى باحث جاد أن يعاملهما على هذا النحو فى الجو العقلى الراهن.

لفتتى إلى المثال الأول بصفة خاصة صديق كان يعرف الأشخاص المتصلين بالقصة، وقد بحثت الأمر من خلاله قدر الإمكان. فى أوائل عام ١٩٦٧، أصيب رجل بالسكتة المخية Stroke، ومات فى المساء نفسه. وسمعت أخت زوجته فى الساعة الخامسة تقريبا من صباح اليوم التالى كلمات واضحة عالية تقول: "راعى مارى"؛ وهى زوجته، وعلى الرغم من أنها لم يخبرها أحد بوفاة الرجل، فإنها أيقظت زوجها، وأخبرته بأنها تعرف أن الأمر لا بد أن يكون كذلك. وذكرت صديقة للعائلة أيضا أنها فى الساعات الباكرة من الصباح نفسه رأت الرجل بوضوح، وأنه طلب منها أن تخبر زوجته بمدى أسفه لأنه لم ينظم شئونه. ولم تكن الصديقة تعلم بوفاته، ولم تكن تدرى أنه لم ينظم شئونه. لكن مصادر النقد التى يمكن تقديمها واضحة هنا: فقد علمت كلتا السيدتين بالسكتة المخية وكانت تتوقع موتا مبكرا على سبيل الاحتمال. ويمكن التساؤل عما إذا كانت الصديقة تصورت الرجل غير شبيه برجل الأعمال؟ وفى الإمكان أن ينجز خيالها ما تبقى.

هناك حالة مشابهة مسجّلة فى كتاب أمريكى حديث(١).

فقد حصل المغنى تيتوشيبا Tito Schipa علي غرفة في فندق كان على وشك البيع، حيث إن وصية المالك السابق كانت ضائعة – وأقلقته فى أثناء الليل أصوات، ثم سمع أخيرا كلمات: " انظر إلى الحائط الأيسر". فعل ذلك ولم يشاهد شيئًا، ولما استمرت الاضطرابات سحب فى النهاية مائدة إلى جوار الحائط، وطلع فوقها ، وأنزل صورة مرسومة بالزيت. وكانت الوصية المفقودة ملصقة على ظهرها. ومن سوء الطالع ألا يوجد توثيق لهذه الرواية، ولا سبيل إلى معرفة ما الذى اكتسبته مع مرور الزمن، أو من شهر إلى شهر، أو على النقيض ما عدد الأمور البارزة التى تم حذفها. وهى حتى إن كانت موثقة بناء على ذلك، فليست دليلا.

(1) Esp, by susy smith, Pyramidal Books, New York, 1962.

بعض الجوانب النفسية فى الوساطة العقلية Mediumship :

حان الأوان الآن حتى نتحول من الإدراك التلقائى خارج الحواس إلى الظاهرة الثانية التى توحى بأن الشخصية الإنسانية يمكن أن تبقى بعد موت الجسد: وهى الوساطة العقلية؛ وهى نشاط يمكن بعثه حسب الإرداة إلى حد ما، ويبنى عليه الروحانيون بصفة رئيسة عقيدتهم فى إمكان الاتصال بالموتى"(١).

لعل من الأفضل أن نبدأ بوصف الحقائق البسيطة للوساطة العقلية كما يراها الباحث الذى يُقدم على دراستها بعقل ناقد لكنه متفتح. أول هذه الحقائق الأساسية أن رجلاً أو امرأة يمكن أن يقوم بواسطة الكلام أو الكتابة بتوصيل معلومات إلى الآخرين، يبدو أنها تنبع من بعض الأماكن الخفية فى النفس، ويظهر أنه أو أنها لا تصل إليها بالوسائل الحسية أحيانا. ويطلق على هؤلاء أيضا اسم المرهفين، وهو اسم أكثر حيادا لأولئك الذين يملكون مواهب من هذا النوع، دون أن تكون لهم عقائد روحانية نحوها. ولما كانت الوساطة العقلية فى ثقافتنا أكثر بين النساء منها بين الرجال، فسوف أشير إلى الوسيطات من الآن فصاعدا.

إن الوسيطات فى الحالات القصوى يقدمن معلوماتهن فى أثناء حالة الجذب Trance، وهى حالة تُسلّم فيها الشخصية الواعية أمرها باختيارها إلى شخصية أخرى مختلفة تماما. ويمسى الروحانيون هذه الشخصية الجديدة ضابطا Control، لأنهم يعتقدون أنها روح ميت تملك جسم الوسيطة بصفة مؤقتة، والذى يزعم أحيانا أنه يصل إلى دائرة أوسع من المعرفة أكثر من الأشخاص ذوى الأجسام.

---

(1) Spiritualists also claim that what they call physical mediums can produce material indication of survival, but as the evidence for this is controversial and bed evlled by much fraud it will not be discussed here. Nor will fraudulent mediumship in general, because although being profitable, it is unfortunately widespread and reflects most unfairly on the many honest mediums, it clearly has nothing to do with what may be genuine evidence for survival and can of course be unmasked by the methods used in any other from of deception.

والظاهرة منتشرة فى أنحاء العالم، ويمكن أن يكون الضابط فى ثقافات أخرى من غير البشر، إذ يكون عند الإغريق مهبط الوحى Oracles أو يكون إلها عند الفودو Voodoo اليوم(*)، أو روحا مألوفا عند المشعوذ فى إندور Endor. لكن الوسيطة فى جميع الحالات هى وسيطة تواصل بين حالة أخرى من الوجود وبين حالتنا، ويأتى الضابط من الجانب الآخر من الستار إن صح التعبير.

إن أغلب من يكونون من غير الروحانيين لا يعتبرون الضابط روحا للميت، والأحرى أن يكون وجها آخر لشخصية الوسيطة نفسها، وبخاصة على ضوء علم النفس الحديث. وإذا صح ذلك، حيث إن الدليل رائع على أنها تقدم معلومات تخرج عن نطاق معلوماتها العادية الخاصة، فالمفروض أنها لا بد اكتسبتها إما بواسطة نوع من الإدراك خارج الحواس للأحداث الدنيوية، وإما أن يكون الجانب من شخصيتها الذى يظهر فى حالة الجذب قادرا على التواصل مع نظام آخر من الوجود بنوع من الإدراك الممتد خارج الحواس؛ وهو ما لا يستطيع الباحث غير المتحيز أن يستبعده. وقد يكون الروحانى أو إخصائى علم النفس عاجزا بالطبع عن الإجابة الصحيحة هنا، حيث يجوز ألا نسأل الأسئلة الصحيحة؛ ولن نحصل على الإجابة الصحيحة حتى نفعل ذلك.

المسألة التالية التى نلاحظها؛ هى أن الوساطة - حتى من نوع الجذب Trance - ليست أمرا ينفصل انفصالا كليا عن الأحوال العادية. فهناك درجات عديدة من الانفصال. ونحن جميعا فى الجانب القريب مثلا نلجأ إلى أحلام اليقظة، وفيها ينسحب انتباهنا من العالم الخارجى. وأغلبنا يعرف كذلك حلا لمشكلة عسيرة يظهر بصورة غير متوقعة بينما نفكر فى شىء آخر. ومن الحقائق المقررة الآن أن كثيرا من العمل الخلاّق - إن لم يكن كله - يتم بوساطة مثل هذه المنابع الفجائية - ممّا دون الوعى Subconscious: أى إن الأجزاء الخافية من العقل تعمل دائما. ويبدو أن هناك كل

(*) نحلة دينية عند الزنوج فى منطقة البحر الكاريبى تحتوى على عناصر الكاثوليكية الرومانية والتقاليد الأفريقية وتؤمن بتلبس الأرواح والسحر. المترجم

درجات الانفصال بدءا من حالة اليقظة، حيث يتركز الانتباه بصورة ناشطة على العالم الخارجي، وانتهاء بأعمق درجات الجذب في الوساطة. تأمل الخطب الملهمة. فقد قال واعظ عظيم ذات مرة موعظة مدهشة إنه لم تكن لديه أية فكرة عما سيقوله حتى سمع نفسه وهو يقوله. ويبدو أن هناك بعض التبرير للسيدة التي أعلنت أنها عجزت عن معرفة ما فكّرت فيه حتى سمعت ما قالتْ إن الكتابة التلقائية خطوة أبعد. ويستطيع عدد كبير من الناس أن يفعل هذا. وإذا تعودوا الإمساك بقلم يستقر على ورقة بيضاء فسيجدون أن القلم - بغض النظر عن نيتهم الواعية - سوف يكتب صفحات مفهومة إلى حد ما، وإن كان من النادر أن تثير الاهتمام. والواقع أن هناك كل درجات الانفصال بدءا من أحلام اليقظة حتى الجذب الكامل في الوساطة عند القليل جدا من الناس، وحتى المرض العقلي بالطبع عند الآخرين.

إن كثيرا مما تقوله الوسيطات في حالة الجذب يشابه فيما يبدو ما ينشأ في حالة الأحلام، وغالبا ما لا يكون متناسقا ولا مطابقا للحقيقة.

إن إحدى الوسطيات التي تهتم بمعنى كلامها، والتي طُلب مني اختبارها قد ناشدتني مرات متكررة بالنيابة عن زوجي الميت ألا أجلس في البيت حدادا على موته، وإنما عليّ أن أخرج وألعب البريدج أو أيّ شيء حتى أهرب من نفسي. وعلى الرغم من إخبارها بصراحة وتأكيد بأن زوجي حي يرزق بحق، وأنني شديدة الابتهاج حين أجد وقتا للبقاء في البيت، فإن شخصيتها المجذوبة - كالتسجيل التالف - ظلت محشورة فيما يبدو في شق الأرمل الحزينة، واستمرت تناشدني أن أبتهج وأخرج.

لكن انتشار الوسيطات المتوسطات وحتى الخادعات لا ينبغي أن يصدّ الباحثين عن تلك الأمثلة النادرة - وهي تقابل الفنانين العظام - الذين يبدو أنهم في بعض الأحيان يستطيعون الاتصال بالأحداث البعيدة في الزمان والمكان. وينبغي أن نسأل عما يتعلق بهم: كيف وأين يحصلون على معلوماتهم؟ ومن المعقول فقط أن نسأل تلك الأسئلة " من دون تحيز أو رأي مسبق"؛ أي على ضوء ما يظهر حدوثه عندما تدخل

وسيطة جيدة فى حالة الجذب. والذى يحدث فيما يبدو أن شخصية الضابط - وهى مختلفة تماما عن شخصيتها العادية - تملك الزمام، ولعلها لا تعمل شيئا سوى توصيل الرسائل من الموتى المتواصلين. لكنها فى بعض الأحيان قد تتجاوز إلى ما هو أبعد بتسليم الأمر - كما تزعم - إلى واحد منهم. وعندئذ قد يأتى تغيير مدهش فى صوت الوسيطة وطريقة حديثها، وحتى كلماتها.

ويبدو كأن شخصية ثالثة مختلفة عن شخصية الوسيطة العادية وشخصية الضابط كليهما، هى التى تتحدث من خلال شفتيها، ويبدو أحيانا للجالسين أن لهذه الشخصية من الأخلاق والخصائص ما يشبه تماما ما عند الشخص الذى يشار إليه. ويصر الكثيرون من المتصلين المزعومين أن عملية الاتصال بالأحوال الدنيوية عسيرة مؤلمة، مثل الغوص فى ضباب كما قال واحد منهم، وأن توصيل أكثر من أطراف مشوهة غير متناسقة من خلال الوسيطة عسير للغاية. ويزعمون أن هذا يساعد على تفسير التفاهات العادية فى الكثير جدا من الاتصالات المفروضة، ولا تبدو الشكوى خالية تماما من المنطق فى نظر العيون التى تبدو أمامها الفكرة كلها فى التواصل خارج الدنيا أمرا بعيد التصديق.

إن أداء المتصلين المزعومين أحيانا مع وسيطة من الدرجة الأولى يمكن أن يكون مقنعا ومشابها للحياة جدا. وأيا كانت الأفكار التالية عند الباحث بعد ذلك، فإن من دلائل التحيز أن نستعبد بصفة مطلقة أن ما يبدو حادثا ربما يكون أمرا واقعا. ومن الواضح إلى حد كافٍ أنه يجب على الباحث أن يتصور كل التفسيرات البديلة؛ بدءا بأبسطها.

أبسط التفسيرات بالطبع أن تكون الوسيطة فيما يبدو فى حالة الإدراك خارج الحواس، بينما هى ليست كذلك. وقد تبين مثلا حين - وجودها فى حالة الجذب أن المستويات الخفية من نفسها التى تحب الدراما تقدم الخدمة كأنها قادمة من المتوفى؛ أى نتفا من المعلومات التى تستنتجها لا شعوريا من سلوك الجالس أو عمره أو جنسه،

أو حتى من الملاحظات الكاشفة بغير اكتراث. ولا ينبغى إلقاء اللوم على الشعور الواعى لدى الوسيطة الأمينة بسبب هذا الخداع، لأنها حتى إذا أدركت ما قيل أو كتب فى حالة وعيها فى أثناء الجذب، فليست لديها أى فكرة عن مصدره.

إن الذاكرة اللاشعورية تعتبر من البدائل الأخرى للاتصال الحقيقى للوسيطة مع المتوفى. والمرحوم الدكتور إريك ستراوس Eric Strauss رئيس قسم الطب النفسى فى مستشفى سانت بارثولوميو St. Bartholomew فى لندن كان يستطيع هو نفسه أن يكون كاتبا تلقائيا، وأنتج فى إحدى المناسبات نسخة طويلة مكتوبة باللغة الألمانية بالمقلوب، ومنسوبة إلى صدورها من ألمانى مات من زمن طويل، وكان فى حالة الوعى لا يعرف أكثر من اسمه. ونظرا لدهشته فقد بحث عنه فى دائرة المعارف واكتشفت أن النسخة لا تحتوى على شيء لم يكن موجودا فى الدائرة. وأبسط تفسير فى رأيه لتصرفه أنه نظر عفوا ذات مرة فى المقال ثم نسى تماما فى حالة الوعى أنه فعل ذلك. ولكن الذى يبدو أن ما دون الوعى لا ينسى أبدا.

الحقيقة أن هناك لدينا جميعا - حتى أكثرنا واقعية، وأقلنا ميلا إلى الوساطة من الناحية العقلية - مستوى معينا فيما دون الوعى يبدو أنه يميل إلى الدراما البالغة، ولا يضيع الفرصة فى إظهارها. والأحلام تبين هذا بصورة واضحة كافية - وقد أوضح الأستاذ هـ.هـ. برايس أنه كلما زاد ميل الإنسان إلى رفض تفسير البقاء في ظاهرة الوساطة، كان الإنسان أميل إلى تأكيد قوة ما دون الوعى فى التصور الدرامى. وهو يقول إن من الممكن أحيانا أن يتم الحوار مع أحد المتصلين المزعومين. وهو يقدم إجابات مناسبة، ويوافق أو لا يوافق، ويجيب على الأسئلة.... ويبدو الأمر فى الحقيقة كأن الواحد يتحدث بطريقة عادية مع أجنبى. ويقول الأستاذ برايس:

" إذا كان كل هذا دراما صادرة مما دون الوعى لدى الوسيطة فهو شبيه بأداء المرحومة الآنسة روث درابر Ruth Draper فى أحسن أدوارها"(١).

(1) Script for a B.B.C. broadcast.

من أين تحصل الوسيطة على معلوماتها؟

السؤال التالي: افرض أن الوسيطة قدمت بعض المعلومات التى لم تحصل عليها من المتوفى ولا من الوسائل الحسّية، فكيف حصلت عليها؟ يبدو أن أسهل بديل هو التليباثى مع بعض الحاضرين، ويليه التليباثى من إنسان بعيد حىّ، أو حتى بواسطة الجلاء البصرى Clairvoyantly لوثيقة بعيدة مثل خطاب كتبه إنسان ميت ولم يقرأه واحد من الأحياء.

ها هنا مثل من الطراز الأول. قررتُ بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية بفترة وجيزة أن أختبر وسيطة بالجلوس معها دون ذكر أسماء، وسؤالها بعقلى عن مصير صديق ألمانى، لم أسمع عنه شيئا منذ عام ١٩٣٨ . وكان رجلا بارزا ذا مصداقية عظيمة، وكنت أخشى أن يكون قد قتل، إما بواسطة النازيين وإما بواسطة الروس. وسرعان ما ظهر أنه موجود فى الجلسة، وذكر اسمه وتكلم من خلال الوسيطة بشخصيته، وذكّرنى بتجارب مختلفة سارة شارك عائلتى فيها فى أمريكا، وكنت قد نسيتها. وقال عندئذ إنه قتل فى ظروف كئيبة لا يريد أن يتحدث عنها. وقمت بعد الجلسة بإجراء تساؤلات عن مصيره. وتمت فى النهاية متابعة مصيره بواسطة الخارجية السويسرية إلى بلد محايد. وقد أجاب على خطاب منى فذكر إنه هرب من النازيين والروس جميعاً، وتزوج، وهو يعيش فى غرفتين، ولم يكن فى حياته قط فى مثل سعادته الآن. يبدو الأمر هنا إذن كأن الوسيطة - بغير معرفتها - كانت تبنى صورة للألمانى من ذكرياتى فيما دون الوعى، ومخاوفى على مصيره.

وهناك حالة شهيرة توضح أن الوسيطة لا تستطيع أن تذكر إن كانت معلوماتها تأتى من مصدر حىّ أو ميت. قام الدكتور س.ج.سول S.G.Soal؛ وهو محاضر فى الرياضيات فى جامعة لندن باختبار وسيطة، وأحضرت له كواحد من المتصلين جوردون دافيز Gordon Davies، وهو صديق فى الطفولة، كان يظن أنه قتل فى الحرب العالمية الأولى. ومن خلال الوسيطة تحدث "جوردون دافيز" عن تجارب شاركا فيها فى

صباهما، ثم استمر يصف فى شىء من التفصيل بيتا قال إنه عاش فيه ذات مرة، ويحتوى على صور وطير من الصينى الأسود فوق البيان وهلم جرًا. وبعد ثمانية عشر شهرا علم الدكتور سول أن جوردون دافيز لم يقتل، وإنما كان يعمل وكيلا للعقارات فى ساوثيند Southend. وعلى ذلك، ذهب لزيارته، وكان عظيم الدهشة إذ وجده يعيش فى البيت الذى وصفته الوسيطة، لكنه كان قد ذهب هناك بعد جلوس الدكتور سول معها فقط. وراجعا يومياته المهنية، فاكتشفا أنه فى وقت الجلسة كان يقابل أحد العملاء فى اطمئنان، على غير وعى تماما بوجوده الظاهرى على مسافة أميال عديدة بعيدة.

هذه الحادثة العجيبة تلقى الضوء مرة أخرى على الصعوبة الدائمة فى أبحاث البقاء، والعلاقة المرنة فيما يبدو للإدراك خارج الحواس مع الزمان كما يصل إلينا من خلال الحواس؛ لأن وسيطة الدكتور سول - مثل الرجل العجوز الذى وصف أحد أسلاف دافيد بيسفام - تحدثت عن أحداث لم تكن وقعت بعد وكأنها كانت فى الماضى.

نعود الآن إلى الباحث النفسى عندما يواجه حالات تكون الوسيطة قد أنجزت عملا مجيدا، إما بحصولها - كما تعتقد - على معلومات من المتوفى، أو من اثنين أو ثلاثة من الأحياء - وهنا مناسبة عندما فعل هذا السيد أوزبورن ليونارد Osborne Leonard الشهير فى أحوال لم يظهر فيها احتمال للتسرب، وعندما كانت التفاصيل المقصود بها إثبات شخصية المتصل المفروض كثيرة ونوعية جدا، بحيث لا يكون من المعقول إرجاعها إلى المصادفة.

الأستاذ إى. د. دورز كان فى ذلك الحين أستاذا ملكيا للغة الإغريقية فى جامعة أكسفورد، وكان بالمناسبة لا يؤمن بالبقاء، وقد سأل السيد درايتون توماس Drayton Thomas وكان قسيسا من المنهجيين أن يجلس بالنيابة مع السيدة ليونارد (فى جلسة بالنيابة، يكون الجالس يمثل إنسانا آخر، ولا يعرف أية تفاصيل عن حياة المتوفى الذى يكون المأمول أن يتم الاتصال به، ولم تكن الجلسة حتى من الدرجة الثانية بالنيابة

عن الأستاذ دودز نفسه، ولكنها من الدرجة الثالثة بالنسبة لإحدى أصدقائه، هى السيدة لويس. وأرادت أن تحصل على براهين على الشخصية من أبيها الميت السيد ماكولى macauly، وكان فى حياته مهندس مياه. وكل ما قيل للسيد توماس هو اسمه، وبلدته التى هى موطنه، وتاريخ الميلاد، وهى أقل المعلومات الأساسية المفروضة إذا كان للوسيطة أن تحدد مكان أى إنسان بين الملايين التى لا عداد لها من الموتى. هذا الحد الأدنى كان يبدو كافيا عند فيدا feda، وهى ضابطة السيدة ليونارد، حيث إنها اتجهت على الفور إلى التعرف على السيد ماكولى. بدأت أولا بوصف مُعدّاته ومكتب الرسم عنده، وهذا شىء حسن جدا بالنسبة لمن لم يكن مهندسا. ثم ذكرت اهتمامه العظيم بتوفير المياه، وبخاصة مياه الاستحمام. وذكرت اسم التدليل لابنته وهو بجى Puggy. وأشارت إلى يده التالفة وهلم جرّا .... ثم أضافت عنصرا ضئيلا كان يبدو منطبقا بصورة فريدة على عائلة ماكولى، وهو تقديم أسماء بعض الأشخاص الذين هم الآن مع السيد ماكولى، كما قالت (وكان هؤلاء الشخاص موتى فى الحقيقة)، والذين شاركوا فترة سعيدة بخاصة فى أثناء حياته على الأرض. وحيّرها أحد الأسماء. "وقد يكون ريس Reece, R.E.E.C.E وقالت: " لكنه يبدو مثل رس Riss, R.I.S.S. وأضافت أيضا دليلا إضافيا على الشخصية؛ هو أن السيد ماكولى عرض الزواج على زوجته الأولى فى أثناء لعبة البريدج.

ما كان هذا يعنى شيئا عند السير توماس، وأرسل السجلات إلى الأستاذ دودز، . الذى أرسلها إلى السيدة لويس. وقد أكدت أن جميع العناصر كانت صحيحة، بما فيها الأسماء، وأضافت أن ولع أبيها بتوفير مياه الاستحمام كان دعابة فى العائلة، وأن أخاها فى المدرسة – فى أثناء الفترة السعيدة المشار إليها – كانت بالغ الوله بولد آخر يسمى ريس Rees، وكما يقول فى غالب الأحيان إن هجاء اسمه R.E.E.S وليس R.E.E.S.E، وأن أخواته الصغيرات كن يغنين من أجل إغاظته: "ليس ريس ولكن رِسْ Not Reece But Riss"، وأن السيد ماكولى عرض الزواج فعلا على زوجته الأولى فى أثناء لعبة البريدج.

إن مثل هذه الحقائق - وإن كانت تافهة - تبدو مناسبة تماما لتحديد السيد ماكولى، إذا اعتبرنا وسائل التواصل التى نعترف بأنها غير كافية، مشوهة، متناثرة ومتنقلة كما تكون من خلال الوسيطة. لكن السؤال الذى يبقى على الباحث النفسى أن يسأله: من أين تأتى هذه المعلومات فى الحقيقة ؟

وإذا استبعدنا الخداع المقصود من جانب قسيس وأستاذ محترم، لن يكسبا منه أية منفعة، والبديل غير المحتمل فى أن تقع السيدة ليونارد على مثل هذه العناصر العديدة غير المعهودة بواسطة الصدفة المحض، فليس أمامه سوى أن يواجه إما وإمّا. فإما أنها استخلصت تلك العناصر من عقل أحد الأحياء فى أماكن عديدة، وإما أنها ألمت بماضى إنسان لم يعد حيًّا. وحتى إذا كان هذا الاحتمال الأخير هو الجواب، فلن يكون دليلا محكما على بقاء السيد ماكولى، حيث إن التجارب المتكررة وكذلك الروايات التى لا حصر لها توحى بأن الإدراك خارج الحواس يرتبط بالزمان بصورة فضفافة أكثر من الإدراك الحسّى، كما سبق أن ذكرنا. وقد يكون هذا - بناء على ذلك - حالة من المعرفة بالماضى، إن لم يكن بواسطة التليباثى مع الأحياء فى أماكن متعددة.

يجد الباحث مرة أخرى أنه مضطر إلى العودة إلى حالات تشير فيما يبدو إلى القصد والتخطيط المستمر من جانب الموتى حيث إن المادة أشد إيحاء بالبقاء، كما هى الحال فى التجارب من نوع الإدراك التلقائى خارج الحواس.

ربما كان أفضل مثال معروف على مثل هذه المادة هو سلسلة الإنتاج من الوساطة؛ وأغلبها فى صورة الكتابات التلقائية والمعروفة بالمراسلات المتبادلة فى جمعية البحوث النفسية S.P.R. Cross Correspondences وقد استمرت هذه الكتابات فى الظهور نحو ثلاثين عاما، ودرسها الباحثون الخبراء دراسة عميقة، ولاحت أمامهم أنها تبين دليلا متكررا على التخطيط والقصد. وهى فريدة فى أنها لم تنشأ من شخص واحد فقط، ولكن من عدد يبلغ اثنى عشر، وبعضهم متباعدون إلى حد كبير، وبعضهم لم يتقابل قط. ومع ذلك، فقد أظهرت الكتابات مرة بعد أخرى كل علامة على

الترابط بينها. وكانت من صنف أرقى وأكثر تناسقا في الغالب من إنتاج أكثر الوسطاء. والأمثلة الفردية على الأنماط الدالة على الترابط بينها طويلة معقدة جدا بحيث لا يتيسر نقلها هنا، لكن إطارها الذي يفيد المعنى فيما يبدو وهو مدهش غير متوقع يمكن الإشارة إلى خطوطه العامة(1)، ونقدم ملخصا لأحدث تقرير.

حدث حوالي عام ١٩٠٠ أن مات ثلاثة من الأستاذة المشهورين في جامعة كامبردج؛ إدموند جورني **Edmund Gurney**، وهنري سيدجويك **Henry Sidgwick**، و ف. و.هـ مايرز **F.W.H.Mayers**، كانوا جميعا من الأعضاء المؤسسين لجمعية البحوث النفسية **S.P.R**، وكانوا جميعا مهتمين إلى حد عظيم بمشكلة بقاء أو فناء الروح الإنساني بعد موت الجسم. كان آخر المتوفين مايرز، وبعد وفاته بفترة وجيزة بدأت سيدات كثيرات في إنتاج أجزاء من الكتابة التلقائية بصورة مستقلة، وكانت هناك حالة أو حالتان من الكلام الذي زعم صدوره من الأساتذة الثلاثة. كانت هذه الأجزاء بغير معنى عند تناولها مستقلة، لكنها فيما بعد عندما قام بجمعها كلها معا شخص خارجي، تبين أنها تقدّم معنى متناسقا. كانت الإشارة إلى هذا المعنى موجودة في إحدى الكتابات من قبل، وكانت تتعلق غالبا بموضوعات كلاسيكية عويصة لا يسمع بها أبدا سوى القلة من الباحثين المثقفين. كان الكتاب التلقائيون متناثرين حول العالم، وكانت اثنتان فقط منهم تعرفان اللغة اللاتينية أو الإغريقية. كانت واحدة من الاثنتين هي السيدة فيرّال **verrall**، وكانت زوجة الدكتور فيرال، وهو باحث شهير في اللغات

(1) Most of the original scripts were printed in the Proceedings of S.P.R., with many commentaries. Valuable studies of them can be found in the following books:
Zoar: The Evidence of Psychical Research concerning Survival by W.H. Salter, Sidgwick and Jackson, 1961. Lectures on Psychical Research, by Professor C.D. Broad, International Library of Philosophy and Scientific Method, Routledge & Kegan Paul, 1962. The challenge of Psychical Research, by Professor Gardner Murph, Harper, New York, 1961. Evidence of Survival from the Cross Corres pondences, by H.F. Salt march, Bell, 1938. The present writer has also made a shorter summary of the evidence in the sixth sense, Chatto and Windos, 1959 and Pan Books, 1966.

الكلاسيكية، كما كانت هى نفسها محاضرة فى الآداب الكلاسيكية فى جامعة كامبردج[1]. وكانت الأخرى ابنتهما هيلين Helen التى تزوجت الدكتور و.هـ. سالتر W.H. Salter فيما بعد، وهو باحث نفسى طوال عمره وعلى درجة عظيمة من المهارة.

كان من بين الآخرين دام إديث ليتلتون Dame Edith Lyttelton، والسيدة فلمنج Fleming، وهى أخت روديارد كيبلنج Rudyard Kipling الذى عاش فى الهند، والسيدة كومب تينانت Combe Tennant؛ وهى سيدة معروفة فى الحياة العامة، وكانت فى بعض الأحيان ممثلة للحكومة فى عصبة الأمم[٢،٣] وكانت هناك أيضا أمريكية واحدة هى السيدة بيبر Piper وهى الوسيطة المحترفة الوحيدة فى الجماعة. وتمت دراستها بصورة مستفيضة طوال سنوات عديدة بواسطة الجمعية الأمريكية للبحوث النفسية، وكانت موهبتها مدعاة للدهشة مثل موهبة السيدة ليونارد.

كانت الكتابات التى تحتوى على الأجزاء المبعثرة موقعة فى العادة بأسماء "مايرز"، أو جورنى، وظل الأمر بعض الوقت قبل ملاحظة أنها فيما يبدو تُكوّن أجزاء من ألغاز لفظية معقدة، وهى فى رأى الباحثين تبين كل علامة على أنها مخطّطة بواسطة إنسان، يكون فضلا عن ذلك خبيرا بمعرفة الآداب الكلاسيكية. وكانت هناك عناصر أخرى غير متوقعة. وقبل أن تعرف السيدة فلمنج فى الهند مثلا أن أناسا آخرين فى أمكنة أخرى يكتبون الكتابات المنسوبة فى صدورها من مايرز، فقد طلبت

(1) After Dr. Verrall's death, he purported to be among the communicators.

(2) Mrs Lyttelion, Mrs Fleming and Mrs coombe -Tennant used the Pseudonyms Mrs King, Mrs Holland and Mrs Willet respectively, as they all wished to keep secret their unpopular gift of automatic writing.

(3) A book entitled Swanon on Black sea, Routledge & Kegan Paul, appeared in 1965, which consists of a automatic scripts by Miss Geraldine Cuammins purporting to come from Mrs. Coombe-Tennant. It has long and valuable analytical forward by Professor C.D Broad. The scripts contain material apparently unknown to Miss Cummins, and the characterisation of Mrs. Coombe - tennant, whom she had never met, is remarkably good.

منها الكتابات التلقائية نفسها أن تبعثها إلى ٥ سيلوين جارذز Selwyn Gardens فى كامبردج – كان هذا العنوان مجهولا لعقلها الواعى على الأقل، فى مدينة لم تزرها قط – لكن تبين أنها السيدة فيرال التى كانت الأولى فى المجموعة لتقوم بالتجربة على الكتابة التلقائية، على أمل فى أن تُمكّن مايرز من إثبات وجوده هذا، إذا كان ما زال موجودا.

حالما تمت ملاحظة الخطط الظاهرية فى الكتابات، فقد أُرسلتْ إلى جميعة البحوث النفسية حتى يقوم بترتيبها شخص خارجى. وفى رأى الباحثين الذين درسوها بالتفصيل طوال سنين، وكان رئيسهم هو الإيرل الثانى بلفور، وكان هو نفسه باحثا كلاسيكيا، أن المزيد بعد المزيد من الإشارات تُنشئ موضوعات متكاملة عند ترتيبها معا. وكانت معظم هذه المجموعات من الإشارات تتعلق بالآداب الكلاسيكية، كما سبق أن ذكرنا، وإن أشار بضع منها إلى كتّاب متأخرين؛ مثل دانتى وبراوتنج Browning. أصرت الكتابات نفسها على ألا يرى الكتّاب التلقائيون المختلفون أعمال بعضهم، لأنهم زعموا أن مايرز وسيدجويك وجورنى قد ابتكروا هذه الطريقة لإثبات بقائهم المستمر وقدراتهم على التخطيط. وقد اكتشف هؤلاء الثلاثة فى أثناء حياتهم أن إثبات البقاء المستمر عسير للغاية. وإذا قال القائم بالاتصال حسب الافتراض: " أنا مايرز" فحسب، فليس دليلا على الشخصية مطلقا. وإذا قال: " هل تتذكر هذا أو ذاك؟" وكانت الإجابة: " نعم، ولأنى أتذكر، وحتى لو كانت الكاتبة التلقائية لم تكتشف الأمر بالوسائل الطبيعية، فمن الأسهل أن يقال إنها حصلت عليه بالتليباثى من عقلى الحىّ بدلا من الميت". وقال خبراء الكتابة إننا هنا نقدم دليل التخطيط الذى كان غائبا عن أى عقل حىّ. بناء على ما سلف، من أين جاء ذلك؟ وقالوا بصورة متكررة أيضا – كما قال المتصلون المفترضون الآخرون – إن استخدام مخ شخص آخر لنقل الرسائل كان عسيرا للغاية، لأنه إذا كان ما جعلوها تكتبه واضح المعنى جدا عندها، فإنه أحرى أن يثير تيارا من التداعيات الخاصة بها، وستبدو هذه مسألة خارجية مُضللة فى

الكتابات. ويجب – بناء على ذلك – تقديم الدليل على التخطيط فى أجزاء خفية. وقد سموها " تشابكا من أجل حلّه." وقالوا إن الاتصال حتى بإنسان حىّ كان عسيرا إلى حد مؤلم. قالت السيدة فلمنج (السيدة هولند): " إن مايرز كتب ذات مرة: أقرب تشبيه أجده للتعبير عن صعوبات إرسال رسالة هو ظهورى واقفا وراء لوح من الزجاج المغطى بالجليد؛ الذى يغشى البصر ويصدّ الصوت، وأنا أملى بصورة ضعيفة على سكرتيرة نافرة متبلدة. ويثقل علىّ شعور بالعجز الرهيب." وكتب مرة أخرى فى رسالة: " من المستحيل علىّ أن أعرف مبلغ ما يصل إليك مما أرسله... أشعر كأنى كرّرت البراهين على شخصيتى بطريقة معادة متعبة، وإنى مع ذلك أشعر بالعجز عن إحداث الانطباع حقا.....". فى الوقت الذى كانت السيدة فلمنج تكتب فيه مثل هذه الرسائل، قالت السيدة بيْبر Piper إن مايرز كتب "إنه كان يحاول بكل القوى أن أثبت أننى مايرز"، وغالبا ما كانت القوة نفسها موجودة فى كتابات السيدة ويلّيت Willett. كتب صاحبها جورنى: "... إن الرغبة الحادة فى دفع العقول المتجسدة إلى الاقتناع بشخصية الإنسان الخاصة، والنجاحات الجزئية وأنواع الفشل الفارغة... أعرف أثقالها ... إلى أقصى حد.." .

أحد السّعف[1] :

سواء أكانت الرسائل المتبادلة هى ما تزعمه أم لا، فإن تقدير مذاق الأصالة الذى تحمله يحتاج إلى قراءة مئات منها. لكن فكرة ما عن نوع الأجزاء المتناثرة، وهى تصر بذاتها على تقديم الدليل على أنها من تصميم المتوفى مايرز وأصدقائه، يمكن تقديمها بملخص للنوبة الأخيرة المذكورة وهى حالة أحد السّعف. ولهذه أهمية إنسانية تفوق تلك الأهمية فى الكتابات المتعلقة بالآداب الكلاسيكية الشهيرة، حيث إن هدفها الواضح

(1) The Palm Sunday Case: new Light on an old Love story, by Jean Balfour, Proceedings S.P.R., vol. 52, Part 189, 1960.

هو توصيل الحب الباقى عند إنسان ميت إلى آخر لا يزال حيًا وهو هدف يشاهد مرة أخرى فى الكتابات الحديثة المنسوبة فى صدورها إلى واحدة من الكاتبات التلقائيات فى حالة أحد السّعف، وهى السيدة كوم تينانت[1]، بعد وفاتها بفترة وجيزة نوعا. وهذه تعبر عن جمالها المستمر واهتمامها بأبنائها، وأسفها على الأخطاء فى حقهم، وهى تدرك الآن أنها ارتكبتها فى أثناء حياتها.

الخلفية :

ترجع حالة أحد السّعف إلى قصة حب قديمة ويُعرف القليل عنها، وهى تتعلق بفتاة صغيرة تدعى مارى كاثرين ليتلتون Mary Catherine Lyttelton، وآرثر Arthur وهو إيرل بلفور الأول، واستمرارها فيما يبدو بعد الموت. ونقدم هنا العناصر البارزة فقط. إن القليلين الذين يستطيعون اليوم أن يتذكروا آرثر بلفور سوف يعتبرونه فليسوفا منعزلا، أو رئيسا للوزراء فى بريطانيا العظمى. وليس بين الأحياء من عرفه اجتماعيا، وإن كان شابا خجولا بعض الشىء، كان يعشق الموسيقى الجميلة والأحاديث الطيبة ومصاحبة أصدقائه.

فى عام ١٨٧١، قابل مارى ليتلتون فى حفل راقص بمناسبة عيد الميلاد فى هواردن Howarden؛ وهى مقر وليم جلادستون William Gladstone، ووقع فى غرامها على الفور. وإذا كانت نظراتها غير متميزة، فقد كان لها سحر عظيم وشعر جميل بصورة غير مألوفة، وكانت عازفة ماهرة جدا على البيان. لكن آل بلفور لم يكونوا متعجلين قط، وكانت الشابات الصغيرات اللاتى نشأن نشأة طيبة فى ذلك الوقت لا يقابلن من يخطبهن حتى فى منتصف الطريق، ولم يحدث شىء حتى انقضاء أربعة أعوام عندما انتهى به الأمر إلى الحديث عن شعوره العميق نحوها فى عام ١٨٧٥ . بل

(1) See note 373.

إنه حتى فى ذلك الحين لم يعرض عليها الزواج فى الواقع. وكان ينوى أن يفعل ذلك فى الفرصة التالية. ولكن الفرصة التالية لم تكن هناك - فقد خرّت صريعة لمرض التيفوس بعد حديثهما على الفور، وماتت يوم أحد السّعف فى عام ١٨٧٥، قبل عيد ميلادها الخامس والعشرين بفترة قصيرة.

كان فقدانها عند بلفور سببا فى تحويل دنياه إلى رماد وتراب، وإن علم بذلك القليلون. وقد أعطى أختها خاتم أمه الجميل من الزمرد حتى يدفن حول إصبعها (إصبع مارى). وكتب إلى صديقه إدوارد تالبوت Edward Talbot، وهو زوج أختها: "أظن، بل أنا واثق تقريبا أنها لا بد أدركت مشاعرى نحوها... ولعلها الآن حين تراقب مسار أولئك الذين تحبهم، وهم ما زالوا يكافحون على الأرض، لا تنسانى". لم يتزوج قط. لكنه كان يقضى أحد السّعف من كل عام، وهو يحتفى بذكراها مع أختها فى عزلة، حتى وفاته، ما لم تمنعه شئون الدولة.

الكتابات:

إن ما توحى به حالة أحد السّعف هو أن ضوءا جديدا على هذه القصة القديمة عن الحب قد تقدمه الكتابات التلقائية المستقلة بعد سنوات عديدة بواسطة أربع سيدات، يبدو أنهن لم يسمعن شيئا عن الأحداث التى يُشرن إليها. ويُنسب إلى الكتابات أنها تحتوى على دليل على أن مارى ليتلتون، وفرانسيس Francis الأخ الأصغر لبلفور الذى قُتل فى أثناء قيامه بتسلق الجبال فى عام ١٨٨٢، كانا فى عداد الأحياء حقا، وأنه كان يساعدها كى تبلغ حبيبها بإخلاصها الدائم له.

كانت الكاتبات الأربع هن: السيدة فيرّال، وابنتها هيلين، والسيدة فلمنج، والسيدة كوم - تينانت: وهن سيدات ذوات مصداقية مفرطة. ولا يبدو أن واحدة منهن عرفت أى شىء عن القصة الغرامية القديمة. كان من بين الباحثين والمفسرين للكتابات أخو

آرثر بلفور، وهو جيرالد، وكان فيما بعد لورد بلفور الثانى، وهو كذلك باحث ورجل دولة، وأختهما العالمة السيدة حرم هنرى سيدجويك. ونظرا لطبيعة الكتابات الشخصية جدا، فقد أحيطت بالسرية الصارمة فى ذلك الحين، ثم ورثتها فى النهاية جين Jean وهى الكونتيسّة بلفور، التى شعرت بالحرية لنشرها فى عام ١٩٦٠، عندما مات كل الناس الذين ارتبطوا بالقصة بصورة مباشرة. وهى تقع فى مجموعتين. تتكون الأولى من عام ١٩٠١ حتى ١٩١٢ – على أجزاء خفية ضمنية، وهى مكتوبة بصورة مستقلة بواسطة السيدة فيرال والآنسة فيرال، والسيدة فلمنج التى كانت تعيش فى الهند. أما الأجزاء التى أشارت إلى مارى ليتلتون فيما يبدو فكانت متناثرة بين قدر كبير من المواد الأخرى، ويتكون بعضها من الموضوعات الكلاسيكية والألغاز الأخرى المذكورة سابقا، بالإضافة إلى بعض التحذيرات والتعليقات على الموقف العالمى العاصف وخطط السلام فى المستقبل.

لم يحدث شىء حتى عام ١٩١٢ عندما تناولت كتابات السيدة كوم – تينانت موضوع مارى ليتلتون، وبدأ هذا يقدم إشارات أدت إلى الربط بين الأجزاء المتناثرة التى كانت بغير معنى حتى الآن، وكتبها الآخرون فى زمن مبكر. وكانت قد أنتجت عددا من الرسائل منسوبة فى صدورها إلى مايرز وجورنى، وكانت كتابتها التلقائية قد أخذت الآن صورة غير معهودة. كانت تكتب أحيانا، وكانت فى أحيان أخرى تتحدث – بدلا من ذلك – إلى الباحثين والمفتشين على الكتابات. قال هؤلاء إنهم يدربونها على أداء هذا، حيث إنهم لا يريدون لها أن تصبح وسيطة عادية للجذب، تفقد وعيها العادى تماما. وهم يريدون لها أن تتعلم كيف تضع وعيها فى توازن على حدّ السكين؛ بحيث تصبح واعية لما يقولون، ثم تحتفظ مع ذلك باتصال كافٍ مع العالم الخارجى كى تقدم تقريرا بعد ذلك إلى الباحثين.

فى عام ١٩١٢، أصرت كتابتها – على عكس رغبتها الواعية – على أنها لا تحب الجلساء الأغراب، وأن على جيرالد، وهو أخو آرثر بلفورد أن يأتى ويجلس معها فى

أثناء كتابتها. ثم جاء، وقد أبدى الباحثون فى الكتابات - أيّا كانوا - إحساسا دراميا لطيفا، حيث إنهم اختاروا أحد السّعف للبدء فى كشف السّر. وقالوا إن من الواجب مراجعة ثانية للكتابات المبكرة التى قامت بها الكاتبات التلقائيات الثلاث الأخريات. وتم هذا، وعلى ضوء الإشارات التى قدمتها السيدة كوم - تينانت فى الكتابات الجديدة، فقد وصل الباحثون إلى النتيجة؛ وهى أن الحب الدائم عند مارى ليتلتون لآثر بلفور غالبا أشير إليه بطريقة رمزية طوال عشر سنوات.

كانت هناك تلميحات فى الكتابات المبكرة مثلا تجاه سيدة السّعف Palm Maiden ومـاى الزهراء May Blossom، وداموزيل المباركة Blessed Damozel، وبيرنيس Berenice. كانت الثلاث الأولى واضحة بصورة كافية. وقد ماتت مارى فى يوم أحد السّعف، وسمتها عائلتها ماى، وكانت داموزيل المباركة شغوفة بحبيبها؛ حتى وهى فى السماء. ولكن لماذا برنيس؟ (سنذكر أنها ضحت بشعرها للآلهة من أجل عودة زوجها سالما من الحرب) وكذلك اشتملت الكتابات على إشارات متفرقة إلى الشمعة وحامل الشمعة، وخصلة من الشعر، وشيء قرمزى، وصندوق معدنى، وزهرة الونكة الزرقاء Periwinkle.

إن العلاقة بين كل هذه العناصر التى تبدو متباعدة فى الظاهر لم تكن واضحة حتى للباحثين حتى عام ١٩١٦؛ عندما جاء آرثر بلفور بنفسه للجلوس مع السيدة كوم - تينانت استجابة للالتماسات الحارة من كتاباتها. وقد كتبت فى شهر يوليو رسالة طويلة إليه تحرك المشاعر، وتتحدث عن وجود ماى الزهراء، وتشير إلى رموز مختلفة مذكورة فى كتابات مبكرة، وإلى خصلة من الشعر، كما كتبت بين فقرات عاطفية أخرى:

"سوف أحبك أكثر بعد الموت إن شاء الله". كان التوقيع على هذه الرسالة بحرف م. M (أما الرسالات المبكرة الأولى فكانت موقعة بالحروف الأولى من اسمها، وكانت إحدى الرسائل إلى السيدة فلمنج موقعة باسم مارى ل.، لكنّ ذلك لم يكن له بالطبع أى معنى عندها).

إن هذه الرسالة الطويلة الموحية فى يوليو ١٩١٦ كانت ملأى بالمعنى عند آرثر بلفور. وقد أخبر أخاه الآن لأول مرة أنه بعد موت مارى ليتلتون بفترة وجيزة منذ أكثر من أربعين عاما، أطلعته أختها على خصلة من شعرها الجميل، كانت قصّتها فى أثناء مرضها الأخير، وأنه صنع لها صندوقا من الفضة، مُبطنا بقماش قرمزى، ومُزيّنا بزهرة الونكة وغيرها من أزهار الربيع. إن حادثة خصلة الشعر هذه حادثة نموذجية، كما بدت للباحثين تشير إلى حادثة فيما بعد، إذ تلقى الضوء على كتابات مبكرة، كتبها أناس لا يعلمون شيئا عن الأحداث المشار إليها. ومن الحوادث الأخرى الاستعمال المتكرر للرمز فى حامل الشمعة إلى مارى لبتلتون بواسطة ثلاث من الكاتبات التلقائيات اللواتى لم يعرفن شيئا عن تصويرها وهى تحمل شمعة عند بيت الدّرج.

إن رمزا واحدا أو رمزين بالنسبة لإنسان معين يمكن أن نهملها بدعوى المصادفة، لكن عدد الرموز فى هذه الحالة يجعل المصادفة أدعى إلى رفضها إلى حد كبير. وقد كان ينبغى على آرثر بلفور على الرغم من ذلك، ومن دواعى الحكمة أن يتريث قبل أن يلزم نفسه بأمر أساسى مثل أصالة الكتابات، لكنه انتهى بالتدريج على مدى سنوات إلى قبول الرسائل التى تلقاها باعتبارها من مارى ليتلتون حقا، وكانت سببا فى راحة عظيمة له كما يبدو. وفى عام ١٩٢٦ عندما كان عجوزا جدا ضعيفا بعد إصابته بالالتهاب الرئوى كتب ردّا على رسالة عاطفية ترجوه أن يؤمن ببقائها الدائم، وقد قُرئت على السيدة كوم تينانت؛ حين كانت فى حالة انفصال نصفى half Dissociated، وهى التى كانت تكتب فيها الرسائل. ويقرأ جزء منها:

" فهم الرسالة وقدرها تقديرا عميقا... من المؤكد أنه لا يحتاج إلى إخباره بأن الموت ليس هو النهاية.... إن ساعة اللقاء من جديد لا يمكن أن تتأخر طويلا... من خلال حرمانه من المواهب النفسية، لا يملك حدسا بذلك التقارب سوى ما تتحدث عنه الرسائل بمثل هذا الإيمان العميق، والذى يتقبله بتقدير لا نهاية له - إن المزيد من الرسائل يقدم مساعدة عظيمة...".

بلغ آرثر بلفور فى أكتوبر من عام ١٩٢٩ إحدى وثمانين عاما، وكان ضعيفا جدا يعيش مع أخيه جيرالد فى فيشرهيل Fisher's Hill قريبا من وُكنج Woking. ذهبت السيدة كوم – تينانت إلى هناك فى زيارة وبينما كانت تجلس ذات ليلة فى هدوء مع الأخوين بلفور وأختهما السيدة سيد جويك دخلت فى حالة انفصال نصفى، وشعرت بتجربة حرّكت مشاعرها إلى حد عظيم. وقد سجلت السيدة بتى بلفور Betty زوجة جيرالد ما قالته حين كانت تعود إلى وعيها الطبيعى. كانت كلماتها الأولى أن الغرفة كانت "ملآى بالحضور "يا للنور، يا للإشعاع سألت السيدة بتى : أى نوع من الحضور" ؟ كانت الإجابة:

"هناك شخصية، وتخرج منها أشياء فى غاية الروعة ... إنها شخصية سيدة، شابة حقا، وهى ترتدى ملابس من الطراز القديم قدر كبير من الشعر الجميل يلتف حول رأسها... يشع منها كل صورة من الحياة، يمكن أن تتصوريها. كانت يدها على ذراعة، ولم ترفع عينيها قط عن وجهه.... عندما تشعرين بتجربة مثل تلك، فليست هناك كلمات مجردة يمكن أن تصفها...".

أصيب آرثر بلفور بالسكتة المخية Stroke بعد بضعة أشهر، وسرعان ما مات بعدها. كانت معه قبل السكتة مباشرة زوجة ابن أخيه (وهى الآن جين Jean الكونتيسة بلفور، وهى التى قامت بجمع حالة أحد السعف) .

ظلت السرية فى الرسائل صارمة جدا بحيث إنها فى ذلك الحين لم تكن تدرى عنها شيئا، ولا عن عمل القائمين بتفسيرها. وكتبت بعد ذلك فى يومياتها الخاصة أنها شعرت فجأة – كما قد يفعل الإنسان الكفيف – بأن الغرفة ملآى بالنور الباهر، وأن هناك أناسا تجمعوا حول سريره " محبين شغوفين أقوياء... أحسست أنهم هناك من أجل هدف معين. ثم شاهدت وجه آرثر بلفور وقد تجلّى عليه الرضا والجمال"، كأنه يرى رؤيا رائعة. وأصيب بالسكتة المخية بعد لحظة من ذلك، مما أصابها بضيق عظيم، لكنها كتبت على الرغم من ذلك فى يومياتها فيما بعد:

"الشيء الغريب أننى كنت على وعى حاد بأن الشعور فى الغرفة لم يتغير، وأن إشعاع البهجة والنور ما زال يتلألأ حوله، وأن المشهد الأليم لإصابة الجسد المسكين لم يسبب أى جزع على الإطلاق عند أولئك المراقبين الذين لا يراهم الحاضرون. ولما جريت إلى الطبيب، كنت أقول فى نفسى مرة بعد مرة أخرى: كانت المسألة مقصودة، كانت المسألة مقصودة".

إن المادة من هذا النوع أدعى إلى إثارة استجابات عنيفة موافقة أو معارضة. لكن السؤال الذى يتعيّن على الباحث النفسى أن يسأله لنفسه ليس عما إذا كان يحب الحكاية أم لا، ولكنه عن مصدرها؟ هل يجب عليه أن يعترف بأمانة بأن أنسب نظرية لتفسيرها هو فى الحقيقة الدعوى المدهشة فى الرسائل بأنها مخطّطة من جانب مايرز وجورنى وأصدقائهما لإثبات وجودهم الخاص المستمر؟ أو هل يمكن أن يجادل بأن الباحثين الأصليين تعرضوا للضلال بالتمنى من أجل رؤية أنماط ليست موجودة هناك؟ أو إذا كانت الأنماط هناك هل يمكن إرجاعها إلى سلسلة من المصادفات؟ أو هل من المعقول أن عددا من الرجال والنساء المحترمين جدا يجتمعون حتى يقترفوا خداعا متعمّدا؟ ولو صح هذا، فما هو الهدف؟ فلن يجلب الأمر لهم أى مكسب، ولكنه على النقيض قد يجعلهم أضحوكة باعتبارهم من ذوى الأطوار الغريبة. أو هل يمكن أن يكون مصدر الموضوع كله فيما دون الوعى فى عقل السيدة فيرال؟ فى تلك الحالة، هل استطاعت – وهى سيدة صارمة الاستقامة – أن تصل إلى ما يمكن تسميته طبقة ما دون الوعى لدى سيدات مستقيمات أخريات، وبعضهن على بعد آلاف الأميال، حتى تخدع أنفسهن الواعيات وكذلك تلك الأنفس الخاصة بأصدقائهن؟ هناك فى هذا التفسير عقبة: وهى أن الأنماط استمرت بعد موتها، ولم يكن هناك فيما يبدو أى واحد لديه المعرفة الكلاسيكية، والتعرف الوثيق على الباحثين الموتى وأصدقائهم كما تبين الرسائل، وكذلك الاهتمام الكافى بالموضوع حتى يحفز ما دون الوعى لديه أو لديها كى يشارك فى تخطيط طويل يستدعيه مثل هذا الخداع المعقد.

الموقف الراهن فيما يتعلق بالدليل على البقاء:

يواجه الباحث النفسي في أفضل حالات الوساطة إذن حقائق معقدة للغاية في بعض الحالات، وهي في حاجة إلى كثير من التفسير. وقد يظن أن في الإمكان في حالات مثل حالة ماكولي أن يستطيع جزء من نفس الوسيطة إنجاز عمل رائع من جمع معلومات عن السيد ماكولي عن طريق المعرفة بالماضي، أو التليباثي من الأحياء في أماكن متعددة، ثم تقديمها على أنها اتصالات من إنسان متوفى. لكنه عندما يتوجه إلى حالات معقدة مثل حالة المراسلات المتبادلة cross Correspondances فإن الاحتمال في أن عقل إنسان عاش بعد موت الجسد يظل مستمرا في التفكير والتخطيط وتنفيذ النوايا يندر أن يكون أمعن في الخيال من التفسير البديل المتاح. وإذا كانت هناك – بتعبير آخر – أية ظواهر للوساطة، لا يمكن تفسيرها بصورة من الإدراك خارج الحواس للأحداث الدنيوية، ويجب بالمناسبة أن تكون بصورة لم تُلْحَظ قط في مكان آخر، بالإضافة إلى المبالغة الدرامية اللاشعورية من جانب الوسيطة، فقد يكون من اللازم أن نفترض بقاء شيء ما.

إن نتائج البحث النفسي فيما يتعلق بالموت إذن يبدو أنها من وجهة نظر الباحث تصل إلى شيء مثل الآتي. إن الإمكانات الظاهرية للإدراك خارج الحواس يجعل من العسير أن نتصور نوع الدليل الذي يكون برهانا قاطعا على البقاء، وهو البرهان الذي لا يمكن بجهد يسير أن يُعزَى إلى اجتماع التليباثي، والجلاء البصري، والمعرفة بالماضي، والمعرفة بالمستقبل فيما يتعلق بالأحداث في هذه الدنيا، هذا من جانب. ويعارضه أننا كلما ازددنا علما بمدى هذه القدرات على قدرة الإنسان الظاهرة في تجاوز حدود الحواس المعروفة وحدود الزمان والمكان كما تقدم إليه بواسطة تلك الحواس زاد الاحتمال في أن الباحثين الأوائل كانوا على سواء السبيل في حدسهم بوجود شيء في الإنسان لعله يستطيع العمل مستقلا عن الجسم المادي، وهو ما يسميه الأستاذ س.د.برود في تحفظ ببعض العنصر النفسي **Psi Component**.

فى كــتاب يهتـم بالمواقف تجاه الموت، ربما تدعو الحاجة إلى بعض الإشارة – لا إلى موقف الباحث العلمى فيما يتعلق باحتمال البقاء فقط – وإنما نشير كذلك إلى أولئك الذين كانت لهم تجارب من الإدراك خارج الحواس ترتبط بالموت. وقد نظن أن أغلب المسيحيين المتدينين الناشطين من ذوى مثل هذه التجارب يقبلونها على ظاهرها، وأن عددا من غير المسيحيين الذين يجربونها ينضم إلى بعض الجماعات مثل الثيوفيين والروحانيين، حيث تتوافق عقائدهم معهم، لأن ذلك يكسبهم سكينة العقل. لكن كم عدد الناس هناك مثل الملازم الطيار، الذى ظهر وهو يتحدث بصورة طبيعية تماما مع زميله الطيار الميت، وليس عنده إطار عقائدى يدعم تجربته؟

وإذا حكمنا بناء على الحالات الكثيرة المرسلة إلى الدكتورة لويزا راين Louisa Rhine والكتاب الآخرين للكتب الجادة عن العنصر النفسى، فلا بد أن هناك عددا كبيرا، ونظرا للاعتقاد التقليدى الراهن بأن الموت هو النهاية، يبدو أن بعضهم لا يجرؤ على ذكر مثل هذه التجارب خوفا من أن يُظَنّ بهم الجنون. وبعضهم يعجب: هل يجوز أن يكون ذلك حقا؟ وهم يكتبون: " هل يمكن أن تفسر هذا؟ لم أجرؤ قط على سؤال أى واحد من قبل. هل تظن من الجائز أن أكون مجنونا؟"

إن أغلب التجارب المذكورة بالمناسبة، مثل معظم الحالات الثابتة فى حوليات البحث النفسى بعيدة عن حالات القصص الخاصة بخشخشة السلاسل التى تربط الأشباح والغيلان، وأرقام أعياد الميلاد.

وإذا تركنا جانبا الأشباح الهائمة بغير هدف، فإن "الأشباح" الحديثة يبدو عادة أنها تريد المساعدة أو التحذير، أو مجرد الظهور لصديق أو قريب محبوب. وهى لا تتميز أحيانا عن الأحياء إلا عندما تختفى.

أما بالنسبة لأولئك الذين يكونون منا وقد تعودوا على الاعتقاد السائد بموت العقل والجسم معا، والذين لديهم اتصالات ظاهرة مع الموتى ذوى الأهداف، فما هو موقفنا

المنطقى من تلك الاتصالات، وبخاصة أنها متفرقة ومتنقلة ولا تتكرر على نحو منظم؟ ولعلى ألتمس الصفح فى تقديم ملخص شخصى لتوضيح هذه الحيرة، حيث لا يسهل وصف تجارب الآخرين من ناحية الشعور الداخلى.

فى الخمسينيات، حدث الموت المتوقع لصديق مخترع، وكنت قد اتفقت معه قبل موته بفترة وجيزة للأسف أنه لن يستطيع أبدا تحقيق الأفكار الكثيرة التى ما زالت تضطرب فى عقله، وكنا معا وافقنا على أن الموت هو النهاية. أدهشنى وأبهجنى بعد عشرة أيام تقريبا من موته أن أقابل شخصيته الحية - فيما يبدو - بصورة طبيعية تماما، وأن أتحقق بالتأكيد أننا كنا خاطئين تماما، وأن لديه الآن مجالاً وفرصة تفوق غاية أحلامه - ويبدو أننى استطعت - بطريقة لا صور فيها - أن أشارك فى وعيه بالمجال والفرصة، وكنت أتمتع بهذا عندما خطر على بالى أن من واجبى السؤال عن الدليل على تحرره الرائع. لكن الإجابة التى قدمها كانت: " لا أستطيع تقديم أى دليل ليس لديك أية مفاهيم عن هذه الحالات(1). "أستطيع أن أقدم إليك صورا شعرية فقط". وهو الذى فعله. ولكن سرعان ما أدركت أننى لا أستطيع البقاء فى الحالة التى تحول إليها وعيى على غير توقع، ولذلك قلت: "وداعا، ينبغى أن أهبط الآن". وقد "هبطت" على الفور إلى الوعى العادى بالبيئة الدنيوية.

وإذا كانت هذه التجربة لا تبدو استثنائية جدا، فليس هناك أى نتفة من الدليل لتدعيم روايتى لها، وعلى ذلك سيجد الباحثون أن من واجبهم رفضها على أنها مجرد حكاية، ولهم الحق تماما، ولكن ما هو الموقف المنطقى مرة أخرى عند الذين جربوا مثل

(1) In an article in The New Scientist for August 30th 1962, Dr. Richard Gregory has suggested that travellers in space might be Faced with a similar problem. "Suppose", he says, "We were to meet something really odd - say a new life form - could we see it properly? The perceptual System is a compute, programmed by evolutionary experience and by our own personal experiences of the world. A new Kind of object requires the perpetual computer to solve a new problem with an old programme, which may be neither adequate nor appropriate."

هذه التجارب، وبصورة متكررة أحيانا. هل يجب علينا إهمالها جميعا على أنها أوهام، على سبيل الطاعة للتقاليد؟

هل ينبغي أن نشك حتى في سلامة عقولنا؟ (سألت طبيبين من مشاهير الأطباء النفسيين للكشف على عقلى، وشهدا كلاهما بسلامته الصحية. لكن واحدا قال فى حزن: " أخشى أن تكونى عاقلة تماما"). أم يجب علينا أن نرفض صوت العلم الحديث، ونراهن على واقع تجاربنا، مهما كانت متنقلة، ولا يمكن التنبؤ بها؟.

ربما استطاع اللاأدرى بالنسبة للعنصر النفسى أن يراهن على شيء واحد، وهو أن الإنسانية جميعا لو جربت تجارب شبيهة بتجاربه؛ وهى الوجود الهادف للموتى بصورة مؤقتة أحيانا، وهو ما عرفه فى الحياة، فلن يحدث عند الناس مهما كانوا فى الواقع خاطئين، أن يرتابوا فى حقيقة البقاء. والمكان الوحيد الذى يمكن أن يشعر فيه عقله بالاطمئنان والأمانة - باعتبار الأحوال الراهنة - هو أن يبقى على الحياد. هناك يجد التشجيع على الأقل على البحث عن عدد من الباحثين البارزين، الذين ظنوا دراسة الدليل على البقاء جديرة بذلك الجهد على مدى سنوات عديدة. وهذه هى النتائج التى لخصها ثلاثة منهم فى الستينيات. أولهم عالم النفس الأمريكى الشهير الأستاذ جاردنر مورفى **Gardner Murphy**.

"أين موقفى إذن؟ إن الإجابة على هذا: ما الذى يحدث عندما تصدم قوة لا تقاوم شيئا لا يمكن تحريكه؟. إن الدليل بالنسبة لى - لا يمكن تجاوزه، ولا يمكن - فى الجانب الآخر - تحقيق الاقتناع به.... بوصفى مُدرّبا على التخصص فى علم النفس وأنا الآن فى الستينات من عمرى، فلست أتوقع أن أجد نفسى فى الواقع موجودا بعد الموت الجسدى. إذا كانت هذه هى الإجابة التى يريدها القارئ ففى إمكانه أن يأخذها. ولكن إذا كان هذا يعنى فى جدال فلسفى جاد أننى أدافع عن قضية المعارضة للبقاء فإن النتيجة تكون خاطئة. وأنا أتردد لأننى عاجز عن عبور المجرى. نحن فى حاجة إلى

مـزيد من الدليل؛ ونحـتـاج إلى مـواقف جـديدة، ولعلنا فى حـاجـة إلى عـقـول أكثـر شجاعة"(١).

يأتى بعـد ذلك عـميد علمـاء النفـس البـريطانيين الأستاذ السير سيْريل بيرت Sir Cyril Burt.

"إن انعدام التأكيد يترك الموضوع مفتوحا على الجانبين. إن الإخصائى فى علم النفس النظرى (ويشـمل هـذا الإخـصـائى فى علـم النفس المجـارو Parapsychology) ينبغى عليه فى هذا الموضوع بعينه أن يحتفظ بموقف اللاإدرية الصارم، ويستقصى التفسيرات المادية غاية ما تنتهى إليه، وحتى لو شعر فى النهاية أنه مضطر إلى قبول نظرية بقاء العقل، فيجب أن يتذكر أنها - مثل نظرية الأثير القديمة - لا تعدو أن تكون نظريـة. أما فى الجانب الآخر، فإن أولئك الذين يصدرون عن أسباب عقائدية أو تتعلق بما وراء الطبيعة، أو بالكشف الشخصى، وما زالوا يرغبون فى البقاء لأنفسهم، أو لأولئك الذين يحبونهم فلا حاجة بهم إلى الخوف من الرقابة العلمية. من أجل ذلك، يجب أن يكون حكمنا على الموضوع كله هو الحكم نفسه مثل ذلك الذى أعلنه أفلاطون منذ ألفى سنة فى الماضى؛ وهى الإجابة التى وضعها على لسان سقراط عندما كان ينتظر أن يشرب السّم. " لن أستطيع التأكيد بصفة إيجابية بأنى سوف أنضم إلى صحبة أولئك الرجال الطيبين الذين فارقوا هذه الحياة من قبل، لكنى أتعلق بأمل طيب". و لا يتضمن الأمل النجاح الأكيد فى الواقع، وإنما يتضمن احتمال النجاح. وأظن أنه من النتائج المهمة للأبحاث النفسية والشبيهة بالنفسية الحديثة أنها بيّنت فى وجه ألوان الإنكار الواثق عند الماديين وأتباع المدرسة السلوكية الاحتمال على الأقل فى البقاء على صورة ما أو أخرى وإن لم يكن ذلك بالضرورة فى الصورة التى صورتها التقوى التقليدية أو ما وراء الطبيعة فى القرن الرابع"(٢).

---

(1) Challenges of Psychological Research, Harpers, New York, 1961, P. 273.

(2) R. Smythies, International Library of Philosophy and Scientific Method, Routledge and Kegan Paul, P.140.

وأخيرا الأستاذ س.د.برود وكان فى إحدى الفترات أستاذا فخريا للفلسفة الأخلاقية فى جامعة كامبردج. وهو بالمناسبة لا يخفى الحقيقة فى أنه لا يريد البقاء.

"الموقف كما أراه هو هذا. فى نطاق الحقائق المعروفة المهمة التى تكون طبيعية أو غير طبيعية، ليس هناك ما يوحى بالبقاء، وهناك الكثير الذى يعارض الاحتمال فى بقاء أى نوع من الجانب النفسى للإنسان بعد موت جسده. وهناك فى الجانب المقابل كثير من الظواهر الشبيهة بالطبيعية والثابتة تمامًا توحى بقوة بمثل هذا البقاء، وهناك بضع ظواهر توحى بقوة بالبقاء الكامل للشخصية الإنسانية. وأغلب الناس يغمضون أعينهم لإحدى المجموعتين أو الأخرى من هذه البيانات، لكنّ من عمل الفيلسوف المحترف أن يحاول تصور المجموعتين معا بصورة ثابتة. والنتيجة هى بالطبع حالة من التردد والارتياب (بالمعنى الصحيح للكلمة لا بالمعنى الشائع). وقد أقول من جانبى إننى أظن نفسى أكثر انزعاجا قليلا من شعورى بالدهشة إذا وجدت نفسى باقيا على معنى من المعانى بعد موت جسدى الراهن على الفور. ويمكن أن ينتظر الإنسان ويرى، أو - بدلا من ذلك - أن ينتظر ولا يرى (وهو أمر ليس أقل احتمالا)"(١).

ويبدو عندئذ كأن القفز على السور فى أحد الجانبين فى الوقت الراهن فيما يتعلق بالبقاء يحتاج إلى عمل الإيمان. ويمكن أن نؤمن من جهة، ولا نستطيع إثبات أن رجال العلم يعرفون الكفاية من قبل عن طبيعة الأشياء حتى يؤكدوا بصورة مأمونة أن الأمر مستحيل، ويمكن من جهة أخرى أن نؤمن - ولا نستطيع الإثبات بالمثل - بأن ظواهر معينة تثبت أن الأمر حقيقة.

(1) Lectures on Psychical research, International Library of Philosophy and Scientific Method, Routledge and Kegan Paul, 1962, P.430.

تعقيب شخصى :

أرسلت الفصول السابقة إلى الناشرين، وأنا أشعر باحتوائها على كل ما كان علىّ قوله فى مسألة البقاء. كان ردهم أن سألونى: " هل يمكنك الآن أن تستمرى فى مزيد من تأملاتك الشخصية الإيجابية فى تأكيد آرائك الشخصية عن طبيعة الحياة ومداها بعد الموت؟" كان هذا مدهشا. لم أكن حتى مقتنعة بأن هناك حياة بعد الموت، ومن أكون أنا حتى تكون لى آراء شخصية إيجابية عن سرّ هزم الجنس البشرى كله؟

لكن الأمر جعلنى أفكر. حتى لو كنت غير مقتنعة، فالواجب أن يحاول الإنسان حتى تكون له آراء عما يمكن أن تكون مثل هذه الحياة شبيهة به. نحن نعلم أننا ينبغى أن نموت جميعا بعد كل شىء. ونحن لسنا على اليقين نفسه بأنه معظم العلماء المعاصرين على صواب فى التأكيد على وجوب توقف الوعى عند موت الجسد. ولعل من واجبنا أن نستمر فى تذكير أنفسنا بأن علم اليوم لم يصل إلى نهاية الطريق، وأن بعض العلماء العظام لا يوافقون على حكم الأغلبية - إن شرودنجر Schroedinger واحد منهم وهو يعتقد أن الوعى لا يقبل الفناء. وكتب: " لا يوجد فى أية حالة فناء للوعى الشخصى نحزن عليه. ولن يكون على الإطلاق أبدا"[1]. تبدو هنا إذن قفزة بعيدة عن الموضوع، إن لم يتعلق الأمر بشىء إيجابى مثل الآراء، وهى على الأقل فى سبيل التأ ل فى موقف الإنسان الممكن فى الجانب الآخر من الموت على الفور.

إن السؤال الأول الذى نسأله واضح: كيف تلتمع شرارة من الوعى الإنسانى عندما تنعزل عن التفاعل مع البيئة الطبيعية من طريق الحواس، ومن الحافز على التفوق والتملك وحفظ النوع والإبقاء على الجسد حيا؟ هل تتفاوت بين ومضة عود ثقاب عند صاحب العقل الأرضى وبين المصباح ذى المائة وات عند القديس والعبقرى؟

(1) What is life? By Erwin Schroeginger, C.W.P., 1951 edition, P. 92.

هل يكون أ نصف نائم، وب مثل المخترع صديقى المشار إليه صاحب المجال والفرصة من وراء غاية أحلامه؟ أم أن كل شرارة تفقد ذاتها فى بحر هائل من الوعى؟.

السؤال التالى: إذا بقيت الشخصية، كيف يمكن أن يتصل الموتى مع بيئتهم؟ هل يمكن أن يبقى الوعى من غير أداة تحمله Vehicle؟ أو يكون الأمر كما يؤمن كثير من المفكرين الشرقيين، وتوحى بعض التجارب خارج الجسم به فيما يبدو، بل هل يملك الناس فى هذه الحياة وعيا يربطهم بجوانب أخرى من الكون، لكنه يخفى على الإدراك ما دام انتباههم أسيرا للتأثيرات الملحّة للحواس؟

إن تقديم مثل هذه الأسئلة يسير ، لكن الفلاسفة وحدهم يقدرون على محاولة الإجابة عليها. وسرعان ما انتهيت إلى النتيجة؛ وهى أن كل ما أطمع فى الإسهام به هو شىء قليل من المادة الخام: بعض التقارير عن تغيرات شخصية فى الوعى تتفق مع ظنى بأنها لا تحتاج إلى الاعتماد فحسب على نوع المعلومات التى تصل إليه من خلال الحواس. لعل الأمر جدير بتذكير أنفسنا بمدى التخصص فى هذه الحواس. ولو كان للناس عيون النحل، حتى فى الحياة الطبيعية، لرأوا ألوانا لا يمكن تخيلها، ولو أنهم كانوا مزودين بالرادار بدلا من العيون لرأوا أشياء صلبة فى السماء، إذ تبدو مكانا فارغا هناك. وإذا لم يكونوا بشرا، بل كانوا ديدانا أو قواقع لأدركوا أشعة إكس؛ وإذا كانوا أسماكا معينة لأدركوا المجالات المغناطيسية.

سأذكر بإيجاز ثلاثة أنواع من الوعى المتغير التى جرّبتها. (وكذلك جربها آلاف من الناس الآخرين، ولكن - كما قلت سابقا - يميل المتعلمون اليوم إلى الصمت حيالها خوفا من ضحك الناس عليهم، وهو ما يفعلونه فى العادة، إلا إذا كانوا بالصدفة شعراء، ولا يتوقّع منهم دائما أن يقصدوا حرفيا ما يقولون). كان الحافز على التغير الأول عقار الهلوسة الميسكالين Mescalin. ويندر التغير الثانى جدا، ويحدث على غير توقع على سبيل الاستجابة للوجود الظاهرى لصديق ميت. أما الثالث فهو نادر جدا وعلى غير توقع أيضا فى حالة الاستجابة للجمال الطبيعى الفائق.

إذا كان ذكر عقاقير الهلوسة اليوم يتعرض لاستدعاء كل أنواع العواصف وألوان التحامل، فالواجب عليّ مع ذلك أن أسجل أن جرعة من الميسكالين قد أعادت إليّ الشعور بضيق الإدراك الحسيّ، والإمكان في أنواع من الوعي والتواصل أكثر حيوية. وقد كنت سعيدة الحظ بدرجة كافية، حيث تناولته قبل صدور كتاب الدروس هكسلي أبواب الإدراك Doors of Preception، وقبل أن تصبح عقاقير الهلوسة ذائعة، وقد فعلت ذلك لا من أجل دفعة من النشاط - إذ كنت شديدة الخوف في الحقيقة - ولكن لأن طبيبا كان يبحث عن علاج لمرض الفصام، واحتاج إلى متطوعين مستعدين لتجربة نموذج من الجنون. وما كانت لديّ أية فكرة عما أتوقع، ولكني عندما خرجت تماما عن عقلي، تبين بصورة كافية واضحة أن عملي بالنسبة للطبيب كان النفاذ إلى أبعد ما يمكن في "أعماق الوعي". ثم اختفى جسمي والعالم الخارجي بعد فترة من الوقت، ووجد وعي نفسه في محيط جديد أكثر حيوية من البيئة الدنيوية. إن اللغة العادية - كما هو معروف جيدا - أداة غير نافعة في وصف هذه البيئات، وأحد الأسباب أن كلمات من قبيل الآن أو حينئذ، وهنا أو هناك، وقريب أو بعيد، لا تنطبق - والأحرى فيما يبدو أنني كنت في عالم من العلاقات الليّنة، تتغير أنماطها استجابة للتفكير والشعور.

في أبعد مكان من أعماق الوعي، عندما شعرت بأني على حافة الانحلال من خلال محض الإفراط في الروعة، ظهر أنني أوريت - وأنا أؤكد على أوريت - بواسطة كائن سماوي أن القوة التي تربط الكون معا هي الحب، الذي يتغلغل كله، دافئا مثل ضوء الشمس، وهو على أحد المعاني شخصي، ولكنه بعيد تماما عن التأثر بالعاطفة. وقد يكون من الحرج كتابة هذا، فهو نور جانبي طريف على ثقافتنا، إذ إنني حين كنت "خارج عقلي" لاح ذلك الحب حقيقة في الطبيعة بالمعنى نفسه في أن كل الدفء المتغلغل والذي يأتي من الشمس في السماء هو حقيقة. وكلما زاد تقمص الإنسان له أيضا، زادت حيوته فيما يبدو. الحقيقة الثانية الواضحة بذاتها هي أن القيم حقيقة مثل حقيقة القديس بولس. وكذلك لم يكن في الإمكان - بالمناسبة - في ذلك البعد من الأعماق أن توجد القبور البيضاء؛ كانت الأشياء واضحة جدا بما هي عليه فحسب.

هل يمكن أن يسمع الإنسان أبدا تعليقا مهيّجا مثل: ما علاقة مثل هذه الثرثرة التى أثارها العقار بالتأمل فى الحياة بعد الموت؟ إن الإجابة عندى لا تعنى أن عقار الهلوسة يقدم أى شىء عما يمكن أن تكون تلك الحياة شبيهة به، وإن كنت لا أستطيع أن أقول إنه يفعل ذلك، ولكنه يطلق الخيال من النظرة الدنيوية الوحيدة. وعندما يختفى العالم المادى وتموت الرغبات، يبدو الوعى فائقا والبيئات ذات معنى للغاية، ويجوز كما فكرت فيما بعد أن يكون السبب موت الرغبة، وكنت على وعى - مثل الفنان - بأن جميع الأشياء موجودة بحقها الخاص، لا من أجل العلاقة بذاتى الشخصية الصغيرة. هل كان هذا كله وهما جنونيا، أو كان إشارة إلى أن المخ - كما اقترح بيرجسون والفلاسفة الآخرون - قد يكون عضو التحديد Limitation، يؤدى اختلال وظيفته مؤقتا نتيجة للعقار إلى إطلاق وعى فى عالم أرحب؟ (وقد واجه الشعراء أيضا هذه المشكلة. وأحس كيتس keats بالإحباط بسبب حيرة المخ البليد وتخلفه"). فى كلتا الحالتين كما قلت، جعلتنى التجربة أتخيل أنواعا أخرى من الوعى. وأنا أعجب الآن إن كان أحد الأسباب فى وعينا القليل جدا بوجود الموتى (على حسب النظرية بوجودهم) - كما قال صديقى المخترع المشار إليه - هو غياب المفاهيم لدينا عن أحوالهم، وأنهم أصبحوا غير حقيقيين بالنسبة لنا. ويساعدنى أيضا على فهم السبب عند كثير من الناس، وانا منهم، فى أن الوجود الظاهرى المقصود للموتى يكون خافيا فى الغالب - كما كتبت السيدة كوم - تينانت ذات مرة: " هم بالنسبة لى كالعقول والشخصيات". إن أطياف الموتى تتوافق مع هذه الفكرة. وقد قال صديقى المخترع إنه يستطيع أن يوصّل شيئا عن موقفه بطريقة غير مباشرة فقط بواسطة الصور الدنيوية. وربما دعت الحاجة إلى صور الموتى كما كانوا فى الحياة لتوصيل وجودهم إلى الأشخاص الذين لا يعرفونهم "كشخصيات"[(١)].

(1) This may not apply to apparantly aimless apparitions which haunt a particular spot and for which, as mentioned earlier, several other explanations can be envisaged. Occam's razor can sometimes be made to cut too vigorously.

إذا عاش الوعى بعد موت الجسد، فأنا أظن عندئذ أن ما يسميه الإنسان شخصية على المستوى الفردى يمكن أن تبقى وأن الفرصة تزداد. وكذلك الطاقة. على سبيل المثال، بعد بضعة أيام من موت المرحومة السيدة روندا Rhonadda، أصبحت واعية - على غير توقع - بأنها توجه شعاعًا من القوة نحو صديقتها ثيودورا بوزانكيه Theodora Bosanquet التى تركت لها عملا ثقيلا تؤديه بالنيابة عنها (فى تلك الحالة الغريبة من الوعى يكون شعاع القوة حقيقة حقيقة مثل حقيقة شعاع الضوء فى الحالة العادية). وقد أدهشتنى حيوية السيدة روندا؛ لأنها كانت منهكة جدا قبل وفاتها بفترة من الزمن. وأظن كذلك أن أحزاننا المفرطة على الموتى حديثا نظرا للخسارة الظاهرة قد لا يكون لها معنى، وقد تكون مدعاة للضيق فى الحقيقة. وقد شعرت ذات مرة بأن صديقة شابة تحدثنى بصورة إيجابية - وكانت ماتت فى تحطم طائرة - وطلبت أن أذهب وأمنع أمها - التى كنت أعرفها نادرا - حتى لا تفرط فى الحداد. وقالت: " أنا سعيدة جدا. ولا أستطيع أن أتحمل ذلك".

إن هذا الموقف يبدو طبيعيا بصورة كافية، وإذا لم يشعروا بانقطاع صلاتهم الأرضية. وكما كتب مايرز المذكور بحرارة إلى حد ما من خلال رسالة متبادلة مع كاتبة تلقائية إنه ليس أدعى إلى مزيد من الضيق سوى معاملته على أنه "غير موجود" - إن تلك الفكرة بالمناسبة - حتى لو عجز الإنسان عن قبول البقاء تماما من الناحية الفكرية - قد تبرر الشعور والسلوك على اعتبار أن الموتى موجودون، وأنهم لا يريدون الشعور بالانقطاع عن أولئك الأحياء على الأرض. وإذا لم يكن هذا صحيحا، وإذا كان الموت هو النهاية، فالإنسان مجرد أحمق. أما إذا الأمر صحيحا، فإن رفضهم باعتبارهم غير موجودين، يجعل الإنسان مخادعا.

إن وقوع حادثتين أوحى إلىّ أن نقص اتصالنا بهم قد يرجع جزئيا إلى إصابتنا بالصمم والعمى الذى يتركز حول ذواتنا. وكان لدىّ انطباع ذات مرة بأن جورج تايريل George Tyrell وهو صديق من الباحثين النفسيين كان قد مات حديثا، وكان يحاول

إرشادى إلى كتابة فقرة عن التواصل مع الموتى بطريقة معينة، لكنى لم يكن عندى انطباع عما إذا كنت فهمتها بصورة صحيحة أم لا. ثم جاءت لزيارتى بالصدفة صديقة مشتركة، وهى من المرهفات غير المهنيين وعلى الرغم من جهلها بانطباعى، فقد شاهدته فى غرفتى، وكان يعنى موافقته. ولكن، إذا كان هو جورج، لماذا كنت صماء عمياء؟ هل كانت ذاتى شديدة الاهتمام بجهودى القليلة الخاصة؟ إن التغير الحديث فى الوعى الذى أثاره الجمال الطبيعى يوحى بهذا. وقفت فترة من الزمن فى الصباح فى أحد فصول الصيف على جانب المصبّ للنهر، وأنا مفتونة بالسحب المتحركة وطيور النورس وضوء الشمس على المياة الزرقاء، ثم تحولت إلى الشارع فى المدينة النائمة الذى يتجه نحو كنيسة قديمة تقف عند نهايته. كانت الأزهار شائعة فى حدائق البيوت الريفية، وعندما رأيت شجيرة ورد متوهجة بالروعة، تحرر وعيى من قشرته، كما يخرج الكتكوت من بيضته، وانطلق إلى وعى رائع بوعى أسمى كان يحتوى فى محيطة كل ذلك الجمال البهيج مترابطا بالحب (ليست هناك أية كلمات من هذه الكلمات الصغيرة العاجزة صالحة للتعبير.) وتسللّت فى صمت الكنيسة الفارغة بالتسليم الهادئ لذلك الحضور الهائل، ثم ظهر عندئذ فجأة كأنى أنظر إلى أسفل وأرى نفسى. وكنت (من الناحية الرمزية) مخلوقة صغيرة ذات جوانب متعددة، حسنة النية بصورة ضعيفة، لكنّ كل جانب ملطخٌ بأنانية هيّنة. لم يكن أى من الجوانب صافيا، ولا جانب واحد. هبطت بالتدريج إلى "الحالة العادية"، "كانت ركبتاى ترتجفان، ودموع التواضع تنهمر. إن الذى أتيح لى مشاهدته لا يقل وضوحا مع انقضاء السنين. إن الإنسان لا يتوقع رؤية أى شيء بوضوح للمرة الأخيرة من خلال الزجاج الملطّخ بالأوحال، ويشمل ذلك الراحلين؛ إذا كانوا موجودين.

الفصل الرابع

أى نوع من العالم الآخر

هـ. هـ. برايس H.H. Price

إذا كان لنا أن نناقش بذكاء مشكلة البقاء، فيجب أن نحاول رسم صورة لما يمكن أن تكون الحياة بعد الموت شبيهة به. وإذا عجزنا عن مثل تلك الفكرة - مهما كانت مبدئية غير محدد - فلا معنى فى مناقشة الدليل الموافق أو المعارض "لنظرية البقاء". وقد يقول الناقد؛ إن مثل هذه النظرية غير موجودة، على أساس أن التعبير القائل "ببقاء الشخصية الإنسانية بعد الموت" ليس له معنى مفهوم على الإطلاق.

عندما نتحدث عن الحياة الآخرة أوالحياة بعد الموت، فالذى نعنيه فى عقولنا ليس الحياة بالمعنى الفسيولوجى (فإنها حسب التعريف تتوقف عند الموت).

إن الحياة هنا تعنى الوعى أو التجربة. ويجب أن يكون الوعى وعيا بشىء. ويجب أن يكون للتجارب موضوع من نوع ما. وتكون فكرة الحياة بعد الموت بهذه الطريقة وثيقة الارتباط بفكرة " العالم التالى" أو " العالم الآخر". هذا العالم الآخر هو ما يُفترض أن يكون الإنسان الباقى واعيا به. فهو يقدم موضوعات تجربته بعد الموت. إن فكرة الحياة بعد الموت تكون فى الحقيقة فارغة تماما ما لم يستطع الإنسان تكوين بعض المفاهيم العامة على كل حال لما يمكن أن يكون "العالم الآخر" شبيها به.

هناك فيما يظهر طريقتان مختلفتان لتصور العالم التالى. وهما يقابلان مفهومين مختلفين للبقاء نفسه، وينبغى أن نذكر شيئا عن هذين. هناك فى أحد الجانبين ما

سوف أسميه مفهوم البقاء "المتجسد". فى هذه النظرة، لا يمكن أن توجد الشخصية على الإطلاق من دون جسد من نوع ما. إن الإنسان يفقد عند الموت جسده المادى. وعلى ذلك يجب أن يكون له جسد من نوع آخر، جسد أثيرى أو روحى، يتكون من مادة ذات نوع "أعلى". أولئك الذين يقبلون هذه النظرة يؤمنون بصفة عامة بأن كل واحد منا يملك حقا مثل هذا الجسد الأعلى حتى في هذه الحياة الراهنة، وأن هذا هو تفسير ما يسمى "بالتجارب خارج الجسم" (التجارب التى تحدث خارج الجسم المادى).

من دواعى الاهتمام ملاحظة أن هذا المفهوم للبقاء يتوافق مع صورة جديدة من المادية. وتبعا للصورة الكلاسيكية للنظرية المادية، وهى التى يسميها الفلاسفة بالظواهر المصاحبة Epiphenomenalism فإن الوعى يعتمد من جانب واحد على العمليات التى تحدث فى الجسم المادى، ولا يمكن أن يستمر حالما يتحلل الجسم المادى. ولكن افرض – حسب الاقتراح – أن الوعى يعتمد من جانب واحد على العمليات التى تحدث – بدلا من ذلك – فى الجسم "الأعلى". إن هذا سيكون صورة جديدة من النظرية المادية للشخصية الإنسانية، وسوف تتوافق مع البقاء، حيث لا تتوافق الصورة القديمة.

ويمكن كذلك أن تكون هناك صورة جديدة من المدرسة السلوكية Behaviourism وبدلا من القول بأن الوعى يمكن اختزاله بطريقة أو أخرى إلى سلوك الكائن المادى (وهى نظرة تستبعد احتمال البقاء)، قد يقترح البعض أن فى الإمكان اختزاله إلى سلوك الكائن "الأعلى". وربما كانت فكرة من هذا النوع؛ أى مادية " الجسم الأعلى" – كما يمكن أن نسميها – سوف تكون سائدة بين المفكرين الطبيعيين ذوى العقول الصارمة فى القرن الواحد والعشرين. ولعلها الفكرة الشائعة من قبل بين المفكرين ذوى العقول الصارمة فى العالم التالى، إن كان موجودا.

أتحول الآن إلى مفهوم البقاء بغير جسد والذى يبقى بعد الموت – حسب هذه النظرة – هو الروح فقط، وهو كيان غير مادى كليا، وخصائصه الأساسية هى الوعى

والفكر والذاكرة والرغبة والقدرة على الشعور بالعواطف. ويتفاعل الروح اللامادى فى هذه الحياة الراهنة تفاعلا مستمرا مع الكائن المادى، والمخ بصفة خاصة. ويتوقف هذا التفاعل عند الموت، أو الأحرى أن يكون الموت هو مجرد التوقف الدائم لهذا التفاعل. ثم يستمر الروح اللامادى فى البقاء فى حالة لا جسدية. إن أغلب المفكرين الذين فهموا البقاء بهذه الطريقة، مثل أفلاطون وديكارت قد قبلوا أيضا عقيدة الروح المادية. لكن مفهوم البقاء بغير جسد يتوافق بالمثل مع "التحليل المتسلسل Serial Analysis" للشخصية الذى دعا إليه الفليسوف دافيد هيوم David Hume، وعالم النفس وليم جيمس، والبوذيون فى الشرق. ويجب أن نكتفى هنا بالقول إن سلسلة العلميات العقلية التى تكوّن الشخص يمكن تقسيمها إلى قسمين؛ قسم قبل الموت، وقسم بعد الموت؛ وأن تلك العلميات فى القسم الأول ترتبط ارتباطا وثيقا بالأحداث المادية فى مخ معين بينما لا ترتبط تلك العلميات فى القسم الثانى بالأحداث المادية من أى نوع. هذا المفهوم التسلسلى للذات الشخصية يتوافق بالطبع أيضا مع مفهوم البقاء المتجسد، ويبدو أن البوذية تتقبل الأمرين كليهما، تبعا لبعض التفسيرات الغربية على الأقل.

العالم التالى - رأيان :

هناك مفهومان مختلفان للعالم التالى فى مقابل هذين المفهومين المختلفين للبقاء؛ مفهوم شبه مادى له من جانب، ومفهوم نفسى من جانب آخر.

إذا قبلنا المفهوم المتجسد للبقاء فنحن نعتبر العالم التالى نوعا من العالم المادى. وسيكون بيئة للجسم الأثيرى أوالروحى ، ويتكون من النوع نفسه من المادة "العليا". والمفروض أن يملك هذا الجسم أعضاء للحس من نوع ما، وإن كان الأحرى أن تكون شديدة الاختلاف عن أعضائنا الراهنة، ويجب أن نكون بواسطتها واعين بالبيئة حولنا بعد الموت. وينبغى أن تقدم إلينا الموضوعات التى ندركها بهذه الطريقة، ويمكن أن تكون لنا رغبات وعواطف تتعلق بها. وسوف يكون من بين هذه الموضوعات أجسام

"عليا" لأناس آخرين من الباقين ويمكن كذلك أن نقابل بعض الشخصيات المتجسدة بنفس الطريقة، الذين لم تكن لهم أجسام مادية على الإطلاق.

إن العالم الآخر - حسب هذا المفهوم - لا بد أن يكون عالما مكانيا بالطبع. لكن الجسم "الأعلى" والأشياء التى تصنع بيئة يجب أن يكون لها خصائص مشابهة على كل حال للشكل والحجم والموضع والحركة كما نعهدها فى هذه الحياة الراهنة. لكن العالم الآخر لو كان عالما مكانيا، فأين يكون؟ هل هو فوق السماء الزرقاء البراقة، أى (لعله فى أعلى طبقة الغلاف الجوى Stratosphere أو فيما وراءها)؟ أو هل هو فى مكان ما فى أعماق الأرض؟ هل نستطيع بلوغه بواسطة صاروخ، أو بحفر نفق عميق كافٍ؟ إن أى واحد يقبل هذا المفهوم عن العالم الآخر لا بد أن يفهم صدور مثل هذه الأسئلة عن سوء فهم. فليس لدينا مقدما سبب حتى نفترض أن المكان المادى الذى نألفه الآن هو المكان الوحيد الموجود. فقد يكون هناك عالمان كاملان، لا يتعلق أحدهما بالآخر من الناحية المكانية، وقد يكون هناك فى الحقيقية أكثر من عالمين. افرض أن هناك مدينة القدس الجديدة فى العالم التالى، وذلك مكان حقيقى من الناحية الحرفية تماما، بما فيه من الشكل والحجم والعلاقات المكانية المعقدة بين أجزائه كالمفهوم من أوصافه التقليدية. فلا يترتب على ذلك أن يكون لمدينة القدس الجديدة أية علاقة مكانية بالقدس القديمة فى فلسطين على الإطلاق. إن العالم التالى وجميع ما فيه قد يكون فى مكان خاص به ، مختلف عن المكان فى الكون المادى وقد يكون - فضلا عن ذلك - نوعا مختلفا من المكان كذلك، ولا تحتاج هندسته حتى إلى هندسة إقليدس تقريبا. وقد يكون له أكثر من ثلاثة أبعاد. وعندما أقول إن المكان فى العالم التالى قد تكون له بعض الخصائص الغريبة فإنى أعنى أن امتلاكه لها يتوافق مع المفهوم المتجسد للبقاء، الذى ابتدأ به هذا الخط من التفكير. إن القوانين السّببية التى تسود فيه قد تكون بالمثل شديدة الاختلاف عن قوانين الفيزياء. ولا بد أن تختلف فى الحقيقة إلى حد ما

عن قوانين الفيزياء، وإذا كان لتعبيرات من قبيل الجسم "الأعلى" و" النوع الأعلى من المادة" أن يكون لها أى معنى.

نوع من عالم الأحلام :

لنفرض الآن أن نبدأ بما سمّيته مفهوم البقاء بغير جسد. إذا كانت الشخصية بعد الموت شيئا غير مادى بصورة كلية، فهل يمكن أن يكون هناك أى نوع من العالم الآخر على الإطلاق ؟ يبدو لى أن الأمر ممكن. ونستطيع أن نتصوره على أنه من عالم الأحلام. ويمكن - بتعبير آخر - أن نفترض فى الحياة التالية قيام التصور العقلى بلعب الدور الذى يلعبه الإدراك الحسى فى هذه الحياة. ويتساءل الناس أحيانا: عمّا هو "الهدف" أو "الحكمة" من حياتنا الراهنة فى هذه الدنيا، أو عما إذا كان لها أى شىء من هذا القبيل.

وربما كان هذا السؤال لا يخلو من المعنى كليا، كما يفترض معظم الفلاسفة المعاصرين. ولعلنا نستطيع اقتراح الإجابة عليه. وقد نقول إن الحكمة من الحياة فى هذه الدنيا الراهنة أن تزودنا بذخيرة من الذكريات، نبنى منها صورة للعالم بعد موتنا.

وقد يكون هناك اعتراض على كل حال بأننا فى هذه الحياة الراهنة نعرف - أو ندّعى المعرفة - بمكان الصور فى الأحلام. ونحن نميل إلى القول بأن صور الأحلام عند الإنسان توجد "فى رأسه"، أى فى مكان أو آخر من مخه، ومن الواضح أنها لا يمكن أن تحدث هناك بعد تحلل المخ نفسه. ولكن ما الذى نعنيه بالضبط بكلمة "فى"، عندما نقول (عن أحد الأحياء فى جسم مادى) إن صور أحلامه فى رأسه؟ أظن أننا نعنى فقط أن بعض العمليات الدماغية أو غيرها - التى تحدث بصورة حرفية فى رأسه - هى أسباب أو أسباب جزئية لصور الأحلام عنده فى هذه الحياة الراهنة. لكن موضع الصور نفسها ليس فى مكان مادى على الإطلاق. افرض أننى أحلم بذئب خارج

من غـابة مـعـتـمـة. إن صـورة الذئب عندئذ مـوجـودة فى عـلاقة مع صـور الأشـجـار فى الواقع. ولكن هل يكون من المعقول على الإطلاق أن نسـأل عن مكان صـورة الذئب هذه فى العالم المادى؟ هل يكون مثلا على بعد بوصتين ونصف من الأذن اليسـرى للحالم فى اتجاه الشمـال الغربى؟ ليس هناك أى معنى فى مثل هذا السؤال على قدر ما أرى. (وهو أحـرى أن يكون كـالسـؤال عن مـدى بعـد مـدينة الجنيـات عن لندن). إن صـور الأحلام فى مكان خاص بها ولها علاقات مكانية فعلا بصور الأحلام الأخرى. أما فيما يتـعلق حـتى الآن بالمكان المادى، فـلا مكان لهـا، أو الأحـرى ألا ينشـأ السـؤال: أين مكانها؟

نحن مـعرضـون أيضـا للظن بأن هناك شيئا "غير حقيقى" يتعلق بالصـور العقلية بصفـة عامـة وصـور الحلام بصفة خـاصـة. ويبدو لى هذا كذلك داعيا للخلط. فـالصـور العقلية ليست مادية بالتأكيد، لكنها حقيقية مثل أى شىء حقيقى. إنها تحدث أو توجد حـقـا. وبعض الصـور العـقليـة – فـضـلا عن ذلك – هى كـيـانات مـادية (مـثل الصـور البصرية والواقعية). ولكن الناس عندما يقولون إن الصور العقلية غير حقيقية فربما كانوا يسـتخـدمـون الكلمة على سـبيل مـعنى من التقييم. ولعلهم يقصـدون أن الصـور العقلية لا تُغرى مشاعرنا، وأنها لا تلفتنا ولا تثيرنا ، ولا تكسر الجليد بيننا من زاوية النظرة العـاطفية. لكنّ هذا خطأ بالتأكيد، كمـا يعرف أى واحـد جرّب الكابوس. لكن تجارب أحلامنا – سواء كانت خيرًا أو شرا. قد نشـعر بـها بصـورة حيوية مـثل أية تجارب فى يقظتنا أو أكثر. إن الصـور العقلية التى يجربها بعض الناس أو أكثر من الناس فى الواقع أحيانا فى يقظتهم أدعى إلى مزيد من الطرافة وتركيز الانتباه مما تستدعيه الأشياء المادية التى يدركونها. والصور العقلية فى حالة اليقظة – فضـلا عن ذلك – قد تلفت الانتباه بصـورة مـزعجة أو مرعبـة مـثل مـا تفعل صـور الأحلام. وقد تفرض نفسها على انتباهنا عندما نكون خالين منها.

يجدر بنا تأكيد هذه الأمور لأن هذه الطريقة فى تصور الحياة بعد الموت تمكننا حقا من الإجابة على اعتراض ليس مهما من الناحية المنطقية وإن كان قويا من الناحية العاطفية، وهو اعتراض على فكرة البقاء كلها، أى إنها "فكرة طيبة جدا بحيث لا تصدّق". إن مثل هذا العالم الآخر الذى يشبه الأحلام، ويتألف من الصور العقلية قد يكون – على النقيض – عالما لا يبعث السرور جدا عند بعض الناس، وهو أحرى ألا يبعث السرور عندنا جميعا فى بعض الأحيان.

قد يكون عالما نفسيا بالطبع، وليس ماديا. وقد يبدو ماديا حقا عند أولئك الذين يجرّبونه. وربما لاحت صور الموضوعات التى تكوّنه شبيه جدا بالموضوعات المادية، كما تفعل موضوعات الأحلام غالبا؛ إلى حد أننا قد يشق علينا فى البداية إدراك أننا موتى (وهى مسألة غالبا ما تكون مذكورة فى الاتصالات عن طريق الوساطة). إن القوانين السببية التى تخضع لها موضوعات الصور هذه لن تكون قوانين الفيزياء على الرغم من ذلك، ولكنها أشبه بقوانين الأعماق النفسية، التى بدأ فى استكشافها باحثون من أمثال سيجموند فرويد وكارل جوستاف يونج. وقد يقال أحيانا إن الأحلام غير متناسقة Incoherent، وقد يكون هذا مرة أخرى جزءا من المقصود عند تسمية موضوعات الأحلام بأنها غير حقيقية. لكن الأحلام (أو تخيلات اليقظة) غير متناسقة عند الحكم عليها بالقوانين الفيزيائية على مستوى لا يناسبها؛ وهذه طريقة أخرى فقط من القول بأن موضوعات الأحلام ليست موضوعات مادية، وأن عالم الصور كما نفهمه قد يكون عالما "آخر" حقا، وهو بالضبط ما ينبغى أن يكون.

إن العالم الآخر حسب هذا المفهوم عنه – بتعبير مختلف نوعا ما – قد يكون مظاهر بالصور عن الذكريات والرغبات عند سكّانه، وتشمل ذكرياتهم ورغباتهم المكبوتة أو اللاشعورية. وقد يكون فى أى نتفة على نحو من التفصيل والحيوية والتعقيد مثل هذا العالم المحسوس الذى نجرّبه الآن.

وقد نلاحظ أنه يحتوى على صورة حيوية مستمرة لجسم الإنسان نفسه. إن الشخصية الباقية تبعا لهذا المفهوم للبقاء هى فى الحقيقة كيان غير مادى. ولكن إذا فكر الإنسان فى نفسه باعتباره متجسدا بحكم العادة (كما يحدث تماما على مدى زمن طويل على الأقل) فقد تكون صورة جسد الإنسان نفسه كأنها المركز الدائم لصورة العالم عنده، كما يكون الجسد المادى المحسوس هو المركز الدائم للعالم المحسوس عند الإنسان فى هذه الحياة الراهنة.

وقد يكون المظنون أن مثل هذا العالم الآخر عالم ذاتى خاص خالص، وأن كل شخصية بعد موت الجسد سوف تجرّب عالما آخر بها، دون التدخل فى العالم الخاص لأية شخصية أخرى. ولكن لنفرض أننا نأتى بالتليباثى فى الصورة. فقد يستدعى الأمر فعلا فى هذه الحياة الراهنة أن يكبت المخ نشاط قوى التليباثى عندنا، أو يتجه إلى منع نتائج نشاطها من الوصول إلى الوعى. أما فى الحياة الأخرى، إذا كانت هناك، فقد يكون التليباثى فعلا أكثر امتداداً واستمراراً بكثير مما هو عليه الآن. وإذا كان الأمر كذلك، فقد نتوقع ألا تُظهر الصور عند الشخصية أ رغباتها وذكرياتها فحسب، وإنما تظهر كذلك الرغبات والذكريات عند الشخصيات الأخرى ب و ج و د..... إلى آخره، لو كانت هذه الشخصيات شبيهه بشخصيته إلى حد كافٍ. وقد تكون هناك بهذه الطريقة صورة مشتركة للعالم لكل جماعة تتشابه فيها العقول الشخصية؛ فهى مشتركة لكل الأعضاء فى الجماعة، وإن كانت خاصة بها فى المجموع. وقد تكون هناك عوالم أخرى كثيرة، لا عالم واحد (وأظن أنه اقتراح تدعمه معظم التقاليد الدينية)، ولكن لن يكون واحد منها ذاتيا خاصا بصفة كليّة.

المفاهيم المادية والنفسية :

دعنا الآن نقارن هذين المفهومين للعالم الآخر؛ المفهوم الشبيه بالمادى له وهو يتمشى مع مفهوم البقاء المتجسد، والمفهوم النفسى له الذى يتمشى مع مفهوم البقاء

غير المتجسد. وتبدو هاتان الفكرتان مختلفتين تماما عند أول وهلة ولا تتوافقان حقا. وإذا كانت إحداهما صحيحة، فلا بد أن تكون الأخرى خاطئة، ولكن لعلهما ليستا مختلفتين تماما كما تظهران. فهما تُوافقان حقا على أمور مهمة عديدة. والعالم الآخر في كليهما عالم مكانى (وأذكر القارئ بأن الصور البصرية والصور الحسية هى كيانات مكانية). كما أن المكان فى العالم الآخر فيهما مختلف عن المكان المادى. وكذلك تختلف قوانين السببية فيهما عن قوانين الفيزياء. وفى الحالة الأولى، يكون لشخصية المتوفى جسد، لكنه ليس جسدا ماديا عاديا. وفى الحالة الثانية، يكون له جسد الأحلام أو صورة للجسم.

إن الذى فعلناه حقا فى هذه المناقشة عن العالم الآخر هو البداية من مَثلين مختلفين، وناقشنا عواقبهما.

كان المثل الأول الذى درسناه مثلا ماديا، توحيه تجربتنا فى العالم المادى. وكان المثل الثانى نفسيا توحيه تجربتنا فى الأحلام والصور العقلية الأخرى. ويستريح بعض الناس إلى المثل المادى، بينما ينجذب الآخرون انجذابا أكبر نحو المثل النفسى. ولكن ربما كان الاختيار بينهما خيارا بين نقاط البداية. ويجب الامتداد فى كل منهما بطريقة أو أخرى إذا كان لنا أن نحقق هدفنا ، وهو أن نقدم بعض المحتوى المفهوم لفكرة "الحياة الأخرى" أو "العالم الآخر".

وقد يكون الأمر حقا أن يتقابل الأسلوبان فى التفكير فى منتصف الطريق لو امتد التفكير إلى مدى كاف فى كل منهما. ومن التأمل الجذاب على كل حال، أن تكون هناك فى الكون حقائق متوسطة بين المجالات المادية والمجالات النفسية حسب فهمها فى الأحوال العادية. وإذا كان هناك عالم آخر فقد تكون المحتويات فى هذا المكان المتوسط؛ حيث تكون أكثر مادية من صور الأحلام العادية، كما تكون أكثر شبها بالصور أو الأحلام من الأشياء المادية العادية؛ مثل الأشياء المادية فى امتلاكها

لخصائص مكانية من نوع ما ودرجة ما من البقاء على كل حال، ومثل الصور العقلية من حيث إن القوانين التى تخضع لها أحرى أن تكون القوانين النفسية بدلا من القوانين الفيزيائية.

تعقيب

العلاقة بين الحياة والموت، وبين العيش والاحتضار

أرنولد توينبى Arnold Toynbee

" فى منتصف الحياة، نحن نواجه الموت"(١). هناك احتمال دائم منذ لحظة الميلاد فى موت الإنسان فى أية لحظة، وسوف يصبح هذا الاحتمال حقيقة محتومة ناجزة فى النهاية آجلا أم عاجلا. وينبغى على كل كائن بشرى من الناحية المثالية أن يعيش كل لحظة تنقضى من حياته؛ وكأنما ستكون اللحظة التالية آخر لحظاته. ويجب أن يستطيع الحياة على توقع دائم للموت الفورى، وأن يعيش على هذا النحو فى حالة السكينة، لا فى حالة مرضية. لعل هذا من باب طلب الكثير جدا من أى إنسان. وأنا لم أقترب شخصيا قط من الارتفاع إلى هذا المستوى الروحى. إنى أعرف بعض الناس الذين كانوا ورعين وكانوا فى الوقت نفسه شجعانا أقوياء. وقد نجحوا فى نظرى فى الحياة دائما على مستوى لا يقل كثيرا عن المستوى المثالى، واستطاعوا الارتفاع إلى المستوى المثالى فى مناسبات فائقة؛ لكنى أشك فى قدرتهم على الحياة فى هذه المستوى الروحى الأعلى أكثر من فترات متقطعة، وإن كان إنجازهم يدعو إلى الإعجاب. والذى يمكن قوله بالتأكيد هو أنه كلما اقترب الإنسان من تحقيق هذه الحالة المثالية للقلب والعقل كلما كان هو أو هى أفضل وأسعد.

(1)The Order of the Burial of Dead in the Book of Common Prayer of the Episcopalian Church of England.

إن الحياة على توقع دائم للموت الفورى ليست بالطبع غاية فى ذاتها. والسبب الذى يجعل الإنسان أفضل وأسعد ما دام يستطيع الحياة على هذا النحو هو أنه أحسن استعدادا للمواجهة مع الموت حتى ذلك المدى، إذا غلبه الموت فجأة، وهو فى حالة الرحمة (وهى فى أحسن الحالات غير كاملة)، وهى التى يرغب كل إنسان أن يموت فيها، مهما تكن تخميناته عن العاقبة. وقد لوحظ من قبل أن تخمينات الناس مختلفة فى هذه المسألة. يظن بعض الناس أن عاقبة الموت الفناء، ويظن آخرون أن العاقبة هى الاتحاد من جديد مع الحقيقة الروحية النهائية من وراء الكون، والتى خرج منها الروح الإنسانى وأكد ذاته الشخصية المستقلة فى مواجهتها، وهو تبعا لهذه النظرة سريع الزوال بالتأكيد وربما كان وهما؛ بينما يظن آخرون مرة أخرى أن عاقبة الموت هى الخلود. إن العقائد تختلف اختلافا واسعا، لكن الذين يؤمنون بها يشتركون فى رغبة واحدة، إننا نرغب جميعا عند لحظة الخروج من هذه الحياة أن نحصل على شهادة بالسلامة الروحية على قدر ما يمكن أن يحوزه الإنسان. وإذا اعتبرنا هذه الرغبة بصورة جادة فإنها تدفعنا إلى الحفاظ على حالتنا الروحية تحت المراجعة بصورة دائمة.

إننا جميعا فى الأوقات كلها نرتكب كل أنواع الخطايا، ونحن فى أغلب الأحيان لا نتذكر أكثر هذه الخطايا. ومن الممارسة الطيبة أن نتذكر - بصورة متكررة - أغلب ما يمكن تذكره من خطايانا، لكن كل واحد منا أكثر حساسية تجاه بعض خطاياه من حساسيته نحو الخطايا الأخرى. وأنا شخصيا ربما تجاوزت خطايا تخصنى وهى تكون أشنع، وأجد نفسى حساسا على نحو يقلقنى تجاه الشعور بأنى غير كريم فى العطاء، أو تجاه ضعف الإدراة، أو العدوان، أو الضّغينة لرفيق فى الإنسانية، "ادع ألا تغرب الشمس على غضبك[1]". وما دمت أشعر بالعداء نحو أى إنسان فإنى أحس

(1) Eph., iv, 26.

بالضيق، وإذا لم أتخلص من عدائى سلفا فإنى أحاول تطهير نفسى منه عند الذهاب إلى الفراش، تحسّبا لاحتمال الموت فى أثناء الليل، وأنا لا أزال ملوثا به. ولست من المؤمنين بالخلود الشخصى، ولست أعتقد بأن الحساب يعقب الموت، ومع ذلك فأنا أرغب فى التحرر من هذه الخطيئة قدر إمكانى، ومن باقى خطاياى كذلك بالطبع عندما تستولى علىّ لحظة الموت، كما يؤمن أتباع الزرادشتية واليهود والمسيحيون والمسلمون.

لا شك أن لكل واحد منا خطيئة معينة (وقد لا تكون أسوأ خطاياه) يشعر نحوها بتأنيب خاص للضمير. وهذه مسألة تتعلق بالشخصية الفردية والمزاج والتجربة. وقد تناولتها على ضوء تجاربى الخاصة، وسأكتب بقية هذا الفصل على نفس المنوال، لأن موضـــوع الفصل بصفة عامة موضوع لا تزيد فيه المعلومات الثانوية على التخمين؛ ولا بد أن تكون غير نهائية من أجل ذلك. إن المفتاح الذى يخص كل واحد فيما يتعلق بالعلاقة بين الحياة والموت هو فيما أعتقد مدى ألفته للموت ومرحلة الحياة التى أصبح فيها مألوفا لديه، على فرض أنه لم يكن سيئ الحظ حتى يظل بعيدا عن ألفة الموت حتى يواجهه بالقوة حين يكتشف هو نفسه أنه في براثن الموت. وهذا يُرجع مرة أخرى موضوعا لمسناه فى فصل سابق(1).

إن من أوائل الأشياء التى يتعلمها الإنسان عن نفسه الاسم الذى أطلق عليه من قبل آبائه – وفى حالتى، عندما تعلمت اسمى، عرفت فى الوقت نفسه سبب إطلاقه علىّ – عرفت أننى دعُيتُ به تبعا لأحد أعمامي، الذى مات قبل مولدى بست سنوات، وقد سمّيت باسمه لأننى كنت أول ذكر فى فرع أبى وعمى من عائلة توينبى يولد بعد موت عمى. وكان اسمى أرنولد على سبيل الذكرى البسيطة لعمى. (أما الذكرى الدائمة الشهيرة له فهى تاسيس مبنى توينبى Toynbee Hall الذى كان أول منشآت الجامعة فى شرق لندن). وكان هناك حماس فى تقديم الآثار التذكارية باسمه؛ لأن موته كان

(1) "Increased Longevity and the Decline of Infant Mortality" Chap.8.

مـأسـاويا مفاجئا غير متوقع، وقبل الأوان. فقد مـات فى سن الثلاثين – وكان عندئذ شهيرا – بشيء سمّاه الأطباء المعاصرون "الحمى المخية"؛ وربما يسميها أعقابهم فى العصر الحاضر فى التشخيص بالالتهاب السحائى Meningitis. (وليست لدىّ أية فكرة عن قدرة المهارة الطبية حتى فى الوقت الراهن على إنقاذ حياة عمى) أَلِفْت بناء على ذلك حقيقة الموت بالمرض قبل الأوان، منذ بواكير التاريخ فى حياتى على قدر ما وعيت فى الذاكرة، وهو الموت الذى عجز العلم الطبى عن منعه فى جيل عمى.

لقد أصبح الموت الذى تغلب على عمى أقلّ شيوعا بكثير، وأقل ألفة من أجل ذلك عند الناس فى أثناء حياتى، ويرجع الفضل إلى التقدّم المتزايد للعلم الطبى. وإذا كان عمى أرنولد قد مات قبل مولدى، بحيث لم تكن لدىّ الفرصة قط فى معرفته شخصيا، فإن معرفتى الباكرة بموته أثارت عندى انطباعا عميقا باقيا، لأننى من جهة أدركت أننى ورثت اسمه، كما ألفت ميدالية تخصه وعددا من الصور، تظهر رجلا نبيلاً، عليه ملامح الرزانة الجذابة، ولأن شخصيته من جهة أخرى كانت مدهشة جدا بحق، بحيث يمكن توصيل شيء منها بالأوصاف الثانوية له التى يذكرها الناس الذين عرفوه وأحبوه وأعجبوا به. وكان المعاصرون له من الأحياء يتحدثون دائما عنه؛ ولم يقتصر هذا على أفراد عائلته فقط، وإنما ذكره زملاؤه من جيله فى كلية باليول Balliol فى أكسفورد، وقد كان هو نفسه زميلا فيها. وقد كان واحد أو اثنان من هؤلاء المعاصرين له لا يزالون أحياء، ولم يعتزلا العمل عندما حضرت إلى أكسفورد للدراسة فى كلية باليول.

فى هذه التجربة الباكرة للموت قبل الأوان – وهى تجربة ظلت حية على الرغم من أنها كانت على السّماع – كنت أشارك فى علاقة بالموت كانت مألوفة عند البشر منذ عهد بعيد فى التاريخ. وأنا فى الحقيقة بحكم هذه التجربة مواطن فى العالم القديم. كما أنى – فى الجانب المقابل – مواطن فى العالم الحديث باعتبارى فردا من عائلة ذات ثلاثة أطفال فقط. فنحن من نواتج تنظيم الحمل. (والأخت الكبرى من أختين لى تصغرنى بثمانى سنوات). ونحن كذلك نموذج يوضح زيادة العمر المتوقع فى أثناء

حياتنا، حيث إن ثلاثتنا جميعا لا يزالون أحياء على الرغم من ذلك فى اليوم الذى أراجع فيه نسخة هذه الكلمات المطبوعة؛ وأنا نفسى أبلغ من العمر تسعة وسبعين عاما وثلاثة أشهر. وأنا مع الأختين مُحدثَون على ذلك من حيث انعدام تجربتنا فى أثناء الطفولة فى موت أى واحد من الدائرة المباشرة فى عائلتنا.

ينتمى آباؤنا من هذه الناحية إلى العالم القديم، على خلاف أطفالهم. وقد مات الاثنان من أجدادى كلاهما فجأة قبل الأوان. وإن كان جدى تويْنبى قد عاش حتى يزيد عمره إحدى وعشرين سنة عن عمر ابنه أرنولد، عندما مات أرنولد بعد ٢٢ عاما من موت أبيه. وقد ماتت جدتى لأمى فى أثناء ولادة أمى، ومات خالى عندما كنت لا أزال طفلا. ولا أستطيع أن أتذكر أننى قابلت خالى نيدمارشال Ned Marshall على الإطلاق؛ كان وما زال شخصية غامضة عندى بالمقارنة مع عمى أرنولد تويْنبى. وأستطيع أن أتذكر على كل حال بطريقة مثيرة كيفية استقبال أمى للبرقية التى أخبرتها بموته على غير توقع. إن الصدمة التى أصابتها بها هذه الأخبار سرَت إلىّ. وأصبحت منذ ذلك الحين فصاعدا أشعر بهبوط قلبى فى صدرى كلما تلقيت برقية، وإذا وجدت عند فتحها أنها لا تُعلن عن أخبار سيئة (والأغلب كثيرا أنها كذلك فى أغلب الأحيان طبعا بدلا من العكس)، فإنى أحس دائما بشعور الارتياح.

لقد ذكرت أن العائلة التى نشأت فيها كانت تنتمى إلى العالم الحديث من حيث إن عدد أطفال والدىّ كان مخطّطا، وكان صغيرا، وإن ثلاثتنا جميعا عاشوا طويلا. وكانت عائلتنا تنتمى على كل حال إلى العالم القديم من ناحية أخرى. فهى لم تكن تشمل جيلين فقط، وإنما ثلاثة . إن البيت الذى ولدت ونشأت وعشت فيه على الدوام حتى بلغت الثانية والعشرين كان لا ينتمى فى الحقيقية إلى والدىّ وإنما إلى أحد أعمامى. كان عمى الأكبر هارى Harry أرمل عند زواج والدىّ، ولذلك كان من المناسب له ولهما جميعا أن يأتيا للعيش معه. ورعاية شئون البيت له، والاهتمام بأمره باعتباره رجلا مسنا أرمل فى حاجة إلى الرعاية حيث كان معمرا. وكان عمى هارى الذى ولد فى

عام ١٨١٩ رجلا معاصرا من حيث إنجازه فى بقائه حيا حتى بضعة أشهر قبل بلوغ التسعين، وكان هذا أدعى إلى إثارة الاهتمام، إذا اعتبرنا أنه كان بحارا يخدم على ظهر السفن التى كانت تظل أسابيع وشهورا متتالية دون أن تحمل على متنها طبيبا.

وكان عمى هارى - فيما أظن - على غير وعى بالطب الحديث تماما (كان هو طبيب الأسنان لنفسه مثلا حتى آخر حياته)، وإن كان أخوه الأكبر جوزيف - وهو جدى - طبيبا شهيرا . وقد كان جوزيف توينبى أول إخصائى فى الأنف والأذن والحنجرة فى لندن، وكان نشطا فى العمل من أجل تحسين الإدارة فى الصحة العامة، وما أعقبه من انخفاض فى معدل الوفيات فى المدن الصناعية الجديدة الخام التى كانت تنبثق فى بريطانيا العظمى، مثل الفطريات القبيحة فى جيل جدّى.

ولد جدى فى عام ١٨١٥ ومات فى عام ١٨٦٦، كما ولد عمى هارى فى عام ١٨١٩ وكان عمره سبعين عاما ولدت فى عام ١٨٨٩، ثم ظل حيًّا طوال عشرين عاما أخرى. وأذكر أنى كنت واقفا مع أمى فى ليلة جنازته فى عام ١٩٠٩ عندما كنا نتطلع معا إلى وجهه، وهو مطمئن فى موته. ولم يكن فى حياته مطمئنا، وإنما كان صارما مزعجا مثيرا ديناميا. وقد أحدث لدىّ انطباعا عميقا دائما فى الحياة والموت كذلك؛ وكان مزيجا من دواعى الشعور بالروعة والإعجاب. والرابطة بينى وبينه لها مثل على العلاقة الوثيقة بين أفراد العائلة الواحدة فى جيلين متباعدين فى العمر، وكان الأمر طبيعيا فى العالم القديم، لكنه أصبح أقل شيوعا فى العالم الغربى الآن.

لقد ذكرت عمى هارى فى موقف آخر كممثل على المسيحى المؤمن[١] بغير سؤال، الذى كان يرهب فكرة الموت، ولا بد أنه آمن على الرغم من ذلك أن الخطر فى الذهاب إلى جهنم بالنسبة إليه كان بسيطا، حيث إنه كان واثقا بالتأكيد أنه من القلائل الذين فهموا ديانتهم بصورة صحيحة. وقد اكتشفت رعبه من الموت فى بواكير طفولتى

(١) انظر أواخر الفصل الأول من القسم الثانى.

الشخصية. ولما كانت عائلتى من أعضاء كنيسة إنجلترا الأسقفية وكان أبواى يذهبان معى إلى الكنيسة كل أحد، فسرعان ما ألفت المزامير فى ترجمتها الإنجليزية فى كتاب الصلوات العامة، وإذ كنت واعيا بعمى هارى المتقدم جدا فى العمر فقد لفت انتباهى الآية العاشرة من الزمور التاسع عشر حيث أنها تنطبق عليه. ولا بد أننى أدركت - فيما دون الوعى - أن فارق السبعين عاما بين عمرينا الذى وهبه مزية رائعة جدا علىّ قد وهبنى فى المقابل مزية عليه. وقلت له ذات يوم على أية حال : "أنت تعرف يا عمى هارى أن الإنجيل يقول: إن أيام عمرنا ثلاثة أضعاف العشرين مضافا إليها عشرة، وأنت الآن أكبر من ذلك". قلت ذلك ويرجع بعض الأسباب إلى رغبتى فى رؤية ما سيحدث. كنت أتوقع صاعقة. ومن دواعى دهشتى أن العم هارى لم ينبس ببنت شفة؛ مثل الخادم الذى يعانى، "مثل الشاة البكماء أمام من يجزّ صوفها، لم يفتح فمه"(1). لقد قمت أنا العفريت النحيل بتسديد ضربة قاضية دون قصد إلى الأولبى الجبار. وذكرته بان موته قد فات أوانه، حسب الإنجيل الذى يؤمن بأنه وحى من كلمات الله حرفيا. ولم يتحمل التذكرة، فأصابته صاعقة. وحالما أصبحت مع أمى وحيدين (وكانت أمى قد رأت المشهد) قالت لى بلطف - كالمعهود دائما - ولكن فى نبرة لم أنسها قط: "الذى قلتَه للعم هارى الآن كان قاسيا جدا". وأدركت أنه كان كذلك. كنت نادما، ولكنى انتصرت أيضا.

كنت فى تجربتى التالية مع الموت رجلا من جيلى، وليس نمطيا، لأننى لم أكن محاربا فى الحرب العالمية الأولى، حيث إننى أعفيت من الخدمة العسكرية الفعالة بسبب إصابتى بالزحار (الدوسنتاريا) فى أثناء رحلة فى اليونان فى عام ١٩١٢ . ولو أن هذه العدوى لم تستمر فى التأثير علىّ، كما فعلت طوال عدد من السنين قبل نجاحى فى التغلب عليها، لكانت الفرص أدعى إلى قتلى فى المعارك فى عام ١٩١٥ أو ١٩١٦، بدلا من كونى حيا والقلم فى يدى فى عام ١٩٦٨ . كان هذا مصير النصف تقريبا. من

(1) (Deutero-) Isaiah, liii, 7.

أولئك الزملاء لى فى المدرسة والجامعة الذين كانوا أصدقائى المقربين. أصبح الموت - منذ ذلك الحين - رفيقى الدائم؛ لأن المعاصرين لى الذين قتلوا فى الحرب العالمية الأولى لم يبرحوا عقلى قط منذ ذلك الوقت حتى الآن. وقد شعرت دائما حتى الآن بالغرابة لأنى ما زلت حيا، وقد حسبت أن كل السنين التى عشتها منذ عام ١٩١٦ هى مكافأة. (وقد مات أغلب أصدقائى المقربين فى الحرب العالمية الأولى قبل نهاية تلك السنة).

إن قصة سنوات مكافأتى قد بلغت الآن أكثر من نصف قرن وكان زمن المكافأة هذا قيما عندى بصفة خاصة لأنى كنت مؤرخا، والمؤرخون - مثل الفلاسفة والسياسيين - يحتاجون إلى زمن أكثر من علماء الرياضيات أو راقصى البالية أو لاعبى الكرة للحصول على نتائج فى أعمالهم الخاصة. ويبلغ عمرى الآن ضعفين ونصفا مثل عمر عمى أرنولد حين مات. ولو أنى متّ مثله فى سن الثلاثين، ولو أنى مت بحق فى منتصف العشرينات من عمرى؛ وهو عمر رفاقى عند موتهم فى الحرب العالمية الأولى لكنت قد مُت دون أن أترك تذكارا أتحدث عنه. إن الأعمال المنشورة بعد موت رفاقى الباحثين الذين قتلوا فى عامى ١٩١٥و ١٩١٦ قليلة الكمية بصورة محزنة، وإن كان بعضها عاليا من ناحية النوع، وهو واعد كذلك بصورة عظيمة. إن ضياع إسهاماتهم الكامنة وإسهامات زملائهم من الضحايا الألمان فى الإنجازات الفكرية البشرية المتراكمة كان خسارة للعالم، لا لخاصة أصدقائهم فحسب.

"فى منتصف الحياة نحن نواجه الموت". إن الموت مألوف عندى فى الحقيقة ؛ بعد أن عشت مع هذه التجربة، كالتى أملكها الآن، طوال أكثر من خمسين عاما. ولا عذر لى من أجل ذلك، إذا فشلت فى مواجهة الموت على بشاشة واستعداد، عندما يجىء دورى فى الموت، ولا يمكن أن يكون الموت بعيدا. ولست متأكدا بالطبع من أننى لن أفشل. فلا يعرف أحد كيف يواجه موته الخاص، حتى يبحلق الموت فى وجهه.

أستطيع التأكد من أمرين على كل حال. سوف أشعر بالخجل العميق لأنى لن أقدر على نسيان زمن المكافأة الذى تمتعت به. ويمكن أن أتأكد أيضا أن الموت لن يأخذنى على غرّة باعتباره حدثا لم يكن فى خاطرى حتى استولى علىّ. لقد كان فى خاطرى دائما؛ منذ موت عمى أرنولد فى فترة باكرة من حياتى على قدر طاقتى فى التذكر، وموت أقرانى منذ أكثر من نصف قرن الآن؛ وأكثر تجاربى المثيرة جميعا فى الموت حتى الآن موت ابنى الأكبر منذ تسعة وعشرين عاما. كان أول طفل ذكر بعدى فى فرعنا من عائلة توينبى. (كان أبى الولد الوحيد من أبناء جدى توينبى الذى كان له أطفال). مات ابنى على غير توقع، وبصورة مفاجئة مأسوية أكثر من عمى الكبير أرنولد، وكان كذلك فى عمر أصغر من عمر أقرانى الذين ماتوا فى الحرب العالمية الأولى. "فى منتصف الحياة نحن نواجه الموت". هذا الدرس قاس جدا وإن يكن مفيدا، وقد اندفع عميقا فى وعيى بضربات متتالية من المطارق.

إن هذه الألفة طول حياتى للموت قد أدت إلى تقبلى لمصيرى فى الموت فى عمرى الراهن. وإذا كان لواحد من أحفادى أن يقول لى الآن ما قلته لعمى الكبير هارى عندما كان عمره أصغر من عمرى الآن بعام أو عامين، فلست أعتقد أننى سآخذ شكّة الطفل بالصورة المأسوية على النحو الذى استجاب به عمى هارى لملاحظتى. آمل أن أتقبل مصيرى فى الموت بصورة صادقة. وسيأتى الاختبار بالطبع حين أعلم أن موتى شخصيا وشيك. لكن تقبل الإنسان لموته الخاص – على فرض صدقه فيه – لا يعنى تقبل الإنسان للموت نفسه، باعتباره حقيقة من الحقائق التى لا مهرب منها فى حالتنا الإنسانية. وإذا كنت أتقبل مصيرى فى الموت، فالسبب بالضبط هو أننى لم أتقبل وفيات عدد من الناس الآخرين، وهى وفيات تمثل حقائق مقررة منذ زمن طويل، وهى أحداث بارزة فى تجربتى الشخصية.

ربما كان من الجدير بالملاحظة أن جميع الوفيات المذكورة كانت وفيات قبل الأوان، فيما عدا موت عمى الكبير هارى، ولذلك قد تكون الحجة هى أن الوفاة التى

لا تُحتمل قبل الأوان هى التى أدت إلى قبولى لموتى القادم فيما سوف يكون العمر الناضج الكبير، إن كانت هى السبب فى قبولى. وقد يثور الإنسان على الموت قبل الأوان دون الثورة على الموت نفسه حين يجىء فى صورة الموت الطبيعى عند امتلاء السنين.

قد يحدث الموت قبل الأوان بطرق متعددة. فيجوز أن يقع عمدا بواسطة الأيدى الآدمية من المؤسسات العامة (مثل الحرب وتنفيذ الأحكام القضائية بالإعدام)، أو من الأفراد بصفة خاصة (كالاغتيال).

وقد يقع من الإصابة بكائنات حية غير إنسانية (مثل البكتريا وأسماك القرش، والنمور المفترسة للإنسان). وقد يحدث من الجوع أو العطش أو التعرض للعناصر؛ وهى هزائم للإنسان من الطبيعة غير الإنسانية، وقد أصبحت أقل شيوعا بين الأقلية المتقدمة من الناحية الاقتصادية فى الجنس البشرى، وإن كان النقص فى معدل الوفيات قبل الأوان من جراء هذه الأسباب فى هذه الأقلية قد تجاوزته الزيادة فى معدل الوفيات قبل الأوان التى تسببها الحوادث؛ وبخاصة حوادث المواصلات بواسطة المكنات ذوات القوة العالية المتزايدة، والتى مكّنتنا عند تطبيقها على وسائلنا فى الانتقال من "إلغاء المسافات"، وكان الثمن زيادة كبيرة فى حوادث الطرق والطائرات. (أما الثمن من حوادث السكك الحديدية – وهى الآن قديمة فقد كان بسيطا نسبيا).

إن الموت المتعمد قبل الأوان والذى يرتكبه إنسان ضد إنسان آخر يمثل جريمة شريرة، حيث إن الموت لا رجعة فيه. ولا يحدث هذا فى الاغتيال والحرب فقط، ولكنه يحدث فى تنفيذ أحكام الإعدام كذلك. إن القتل كان فى جميع العالم تقريبا محل إدانة، وإن كانت هناك وما زالت مجتمعات استثنائية لا يُعتبر فيها الشاب رجلا مقبولا حتى يُزهق حياة رجل آخر. أما القتل فى الحروب فقد ظل حتى الآن على مستوى العالم تقريبا يعتبر محترما، وإن كان من دواعى الريبة فى جدارته بالاحترام ما يكون من التمويه فى استخدام كلمة "الدفاع" كى تعنى الحرب والاستعداد للحرب مهما كان

القصد عدوانيا. كانت الصيغة الرسمية مثلا فى إسبرطة لأوامر التحرك بهدف الغزو لدولة أجنبية هى "إعلان حالة الدفاع" (Phrouran phainein)؛ وكذلك تندرج نفقات الأسلحة الذرية التى تفنى الجنس البشرى تحت شعار "الدفاع" فى ميزانيات الدول فى العصر الحاضر. إن تنفيذ الموت قبل الأوان بواسطة عمليات القانون تمت الموافقة عليه على نطاق أوسع وأدعى إلى الثقة من تنفيذه بعملية الحرب. وعندما نوقش إلغاء عقوبة الإعدام، فقد أثار هذا فى العادة خلافا عنيفا، ومع ذلك فإن إلغاءها اليوم حقيقة ناجزة فى بعض الدول فى العالم الراهن. والسبب فى هذا الإلغاء الذى يتعرض للمقاومة العنيدة لعادة قديمة فى التاريخ هو أنه "حيثما تكون الحياة فهناك أمل". كما أن تغير القلب قد يُجرّبه أقسى المجرمين فيما يبدو.

لا ينبغى لنا أن نتقبل الموت قبل الأوان، إذا كان سبب هذا هو التخطيط البشرى، أو بلادة الشعور، أو العجز، أو قلة المبالاة. وهناك مع ذلك حالات يكون فيها الموت قبل الأوان مقبولا، وهى الحالات التى يتحمل فيها الإنسان المخاطرة أو المعاناة باختياره من أجل منفعة الناس الآخرين من الرفاق، أو الجنس البشرى بصفة عامة. إن الموت الاختيارى قبل الأوان فى الحرب صورة من التضحية البطولية بالنفس التى كانت أكثر شيوعا، والتى لاقت أشد الإعجاب حماسة. وهى مع ذلك أشد صور البطولة تذبذبا أيضا، حيث إن الإنسان الذى يُقتل فى الحرب يموت قبل الأوان وهو يحاول أن يَقتل قبل الأول بعض رفاقه من الجنس البشرى. وليس هناك ما يدعو إلى الارتياب فى بطولة من يموت قبل الأوان، وهو أو هى يضحى بحياته أو حياتها فى محاولة لإنقاذ رفيق من البشر من لقاء الموت فى الغرق أو الحريق مثلا، ونحن نستطيع أن نقبل أيضا، ونحن نتأسى، موت الرواد والمخترعين قبل الأوان الذين خاطروا عمدا بحياتهم فى سبيل أن يجعلوا الحياة أفضل للجنس البشرى بصفة عامة.

إن كثيرين من الناس ضحوا بحياتهم قبل الأوان من أجل منفعة الجنس البشرى بإجراء التجارب الجريئة الخطيرة، وفن استئناس الحيوانات المتوحشة، وفن الملاحة،

وفن الطيران. (إن تسلق القمم الشاهقة والوصول إلى القطبين والخروج من الغلاف الجوى للأرض إلى الفضاء الخارجى لا يبدو عندى أهدافا تستحق من أجلها المخاطرة بحياة الناس وفقدانها). وقد ضحى كثيرون من الأطباء بحياتهم قبل الأوان برعاية ضحايا الأمراض المعدية، أو بإجراء التجارب الخطيرة على أنفسهم، وقتل جدى نفسه بغير قصد، وكان طبيبا؛ فى عنفوان قدراته، عندما كان يجرى التجارب على نفسه فى الأيام الباكرة من استعمال عقاقير التخدير حتى يكتشف القدر الصحيح من الجرعة. هناك من أجل ذلك مناسبات لا يكون فيها الموت قبل الأوان غير مقبول، مهما كان مدعاة إلى الأسى.

ماذا نقول عن الموت قبل الأوان للروح فى الجسم البشرى الذى لا يزال حيا من الناحية المادية ؟ لقد ألفتُ هذا النوع من الموت قبل الأوان أيضا؛ وهو الموت فى أثناء الحياة بسبب الجنون وخرف الشيخوخة وقد كنت قريبا جدا من مكان إنسان عاش من الناحية المادية حتى بلغ عمرا متقدما أكبر مما وصلت إليه الآن، وظل يعيش أكثر من ثلاثين عاما – وهو نحو ثلاثة أجزاء من ثمانية أجزاء من مدى حياته المادية كلها – بعد أن عانى من موت الروح. كما عرفت ثلاثة أشخاص معرفة وثيقة؛ كان اثنان منهما من الشخصيات المتسلطة، والثالث متين البنيان، وانتهوا إلى الخرف فى الشيخوخة. هذا الموت للروح الإنسانى قبل الأوان قبل موت جسده أدعى إلى مزيد من الترويع عن أى موت قبل الأوان إذ يموت الروح والجسد فى وقت واحد. إنه أمر ترتكبه الطبيعة فى حق الكرامة الإنسانية، وهو يبعث الغضب. " اقتلنا" بالطبيعة أو الإله إذا اخترت أو وجب عليك، ولكن اقتلنا فى "النور"(١). دع نور العقل – وهو الملكة التى تصنع الإنسان – يَعِشْ فينا حتى نهاية الحياة فى الجسم. إن مشهد الجنون والخرف روّعنى دائما أكثر من مشاهدة الموت الجسدى أو السماع به. لكن هناك جانبين فى هذا الموقف، هناك جانب الضحية، وكذلك جانب المُشاهِد، والذى يكدّر المشاهد قد يُخفف عن الضحية.

---

(1) Iliad, Book XVII, line 647.

ولن يكون من التخفيف عنه بالطبع لو كان الهبوط فى ملكاته العقلية بصورة تدريجية فقط، وعلى نحو يجعله واعيا عندئذ بما يحدث له فحسب. ولا أتصور مصيرا أسوأ من هذا، وقد رأيته يصيب أكبر وأقرب أصدقائى؛ وهو رجل أصغر منى بثلاثة أشهر. وبدأت صداقتنا فى المدرسة عندما كنا فى الثالثة عشرة من العمر، ودامت أكثر من ستين عاما قبل وفاته. ويصعب أن يعانى الإنسان خسارة أكبر مما عانيت منه فى فقدانه. ولم أستطع مع ذلك، ولا أستطيع الأسف على وفاته، وإن كنت افتقده بصورة محزنة، لأن الموت بالنسبة إليه كان خلاصا رحيما من ضغط لا علاج له، وأصبح عنيفا عليه. أما فيما يتعلق بأصدقائى الثلاثة الآخرين فلم يعانوا مثل ما عانى صديق المدرسة المسكين، لأن الفشل فى ملكاتهم العقلية كان كاملا، لا جزئيا، وكان كاملا كأنهم صاروا أمواتا من الناحية العقلية والناحية الجسمية كليهما، وكان هذا الموت العقلى لدى اثنتين منهم بعيدا جدا عن التعذيب، إذ كان خلاصا من الشقاء الحاد. كانت واحدة من هاتين الاثنتين فى حالة دائمة من القلق المؤلم، والخوف والتوتر، وجلب الخرف لها معه سكينة لم تتمتع بها منذ سنواتها الباكرة. أما الأخرى – التى كانت تجسيدا للحب – فقد كانت عاجزة عن التعزى عن فقدان زوجها، حتى خلصت من حزنها الذى لا يطاق بواسطة النسيان، أى الموت العقلى وقد كان توقعا رحيما للموت الجسدى؛ الذى جاء متأخرا لإنقاذها.

هذان الجانبان للموت سمة أساسية للموت، وليست خاصة بالموت الروحى قبل الأوان فقط، وإنما تتعلق بالموت فى أى عمر وفى أية صورة. هناك دائما قسمان فى الموت؛ الإنسان الذى يموت، والأحياء الذين يشعرون بالحداد.

إن الموت يخلّص ضحيته من جميع المعاناة التالية فى هذا العالم، ومن أية معاناة تالية على الإطلاق إذا كان الإنسان لا يؤمن بالخلود الشخصى أو التطور، وإنما يؤمن بأن الموت يعنى الفناء، أو يعنى الامتصاص من جديد فى الحقيقية الروحية النهائية، التى كانت حياة الشخصية الإنسانية استثناء مؤقتا لها.

كـان لوكريتيـوس Lucretius يؤمن بأن الموت يعنى الفناء، وهـو لذلك يضـفى على الميت حـصانة كـاملة دائمة من المعاناة، سـواء كانت عقليـة أو جـسدية. وقد دعـا إلى إنجيل الخلاص بالفناء عن قناعة عاطفية واهتمام حماسى من أجل التخفيف عن رفاقه الفانين، مما يجعل هذه الفقرة من شعره جديرة بالذكرى بصورة خاصة[١].

"إن الموت هو الفناء إذن بالنسبة لنا، ولا أهمية له، بحكم الخلاصة، وهى أن روح الإنسان فانٍ. لم نشعر بالسقم فى ذلك العصر الماضى الذى هرع فيه الفينيقيون إلى المعركة من كل جانب، العصر الذى اهتزت فيه الأرض جميعا باضطراب الحرب المخيف، اهتزت حتى زُلزلت بصورة مرعبة تحت غطاء الجو العالى، فى العصر الذى كان مصير الجنس البشرى كله يتأرجح فى الميزان. كانت إحدى القوتين المتصارعتين سوف تكسب الغلبة على العالم الواسع فى البر والبحر كليهما، ولم يستطع أحد أن يتنبأ بالقوة المنتصرة منهما. حسنا، لم نشعر بالسقم فى ذلك العصر ولن نشعر بالسقم كذلك عندما نتوقف عن الوجود، عندما يفترق الروح والجسد عن المشاركة بينهما، وقد كان اتحادهما يصنع وجودنا. سوف نتوقف عن الوجود، تلك هى المسألة، وهذا يعنى ألا يحدث لنا شىء على الإطلاق منذ ذلك الحين فصاعدا، ولا شىء يمكن أن يوقظ أى شعور عندنا؛ لا، ولا حتى إذا امتزجت الأرض بالبحر، واختلط البحر بالسماء"[٢].

نستطيع الاطمئنان إلى أنه ليس فى الموت شىء يدعو إلى الخوف. والإنسان فى مناعة من الشقاء، إذا كان غير موجود. وحالما يخلصنا الموت الخالد من الحياة الفانية، فالأمر طيب كأننا لم نولد قط[٣].

---

(1) Lucretius, Rerum De Natura, Book III, Lines 830 -930, minus lines 912-918, Which have been misplaced in the surviving manuscripts.

(2) Lines 830- 842.

(3) Lines 866-9.

من أجل ذلك، إذا رأيت أحدا ناقما يرثى نفسه (عند التفكير فى مصير جسده بعد الموت) ، فربما تأكدت أنه إذا كان ينكر بنفسه إيمانه باستبقاء أية قدرة على الإحساس بعد الموت، فإن اعترافه ليس صادقا. إنه ينكره بعاطفة كامنة فيما تحت الشعور. وليس– فيما أرى– يسلم بالمبدأ وأساسه فى الحقيقة. إنه لا يستبعد نفسه ويطـردهـا من الحياة بصورة جذرية. وهو يجعل بعض الأثر من نفسه يبقى، بطريقة لا شعورية... وهو لا يفصل نفسه تماما عن جسده المطروح، إذ إنه يتقمصه، وهو يحققه بقدرته الشخصية على الشعور، على وهم بأنه واقف هناك إلى جواره. هذا هو سبب النقمة فى رثاء نفسه، لأنه خلق فانيا. إنه يفشل فى ألا يرى فى الموت الحقيقى نفسا ثانية تظل حية قادرة على التأسى من أجل موتها، أو الحزن على نهشها بواسطة الحيوانات المفترسة ، أو حرقها، بينما يتخيل وقوفه على نفسه المطروحة على الأرض"(١).

يستمر لوكريتيوس حتى يضع إصبعه على الفارق بين مصير الميت ومصير الأحياء. وهو يصور زوجة رجل ميت وأطفاله ، وهم يقولون فى أثناء وقوفهم إلى جوار المحرقة فى جنازته:

"يا للبؤس، ما أتعس المصير– إن يوما قاسيا حرمك من جميع النعم فى الحياة". لكنهم فى هذا الانتقال لا يستمرون فيقولون: "إن الموت على كل حال قد خلَّصك فى الوقت نفسه من أية رغبة فى هذه النعم". ولو أنهم أدركوا هذه الحقيقة بصورة واضحة ، وقارنوها بما قالوه لاستطاعوا إراحة أرواحهم من عبء ثقيل من العذاب والخوف. ولعلهم قالوا: "أنت الآن غافل فى الموت ، وسوف تظل فى تلك الحالة حتى آخر الزمان ، خاليا من كل ألم وحزن. إننا نحن الذين نعانى، نحن الواقفين إلى جوارك، أنت الذى تحولت إلى رماد فوق المحرقة المرعبة. نحن شعرنا بالحداد عليك حتى النهاية القصوى

(1) Lines 870-887.

لقدرة الإنسان على الحزن، وما زلنا عاجزين عن التعزى. أسفنا دائم ولن يأتى اليوم الذى يخلص قلوبنا منه على الإطلاق"(١).

من هذا يستخلص لوكريتيوس النتائج الآتية فى السطور التالية المباشرة:

هذا الرجل (الذى يشعر بالنقمة فى رثاء النفس فى تصور مستقبلة بعد الموت) يجب - من أجل ذلك - أن يواجه بالسؤال: ما هو الشىء المرير بصفة خاصة فى هذا المستقبل، إذا كان هو مجرد العودة إلى النوم والهدوء؟ وما الذى فى هذا المصير هناك يجعل أى إنسان يهزل جسمه فى حزن دائم؟(٢)

هذه السهوة للروح الحساس فى مثل هذا التكاسل البليد تجذب قارئ لوكريتيوس فى انتفاضة إلى أعلى. هل يكون الإنسان الذى يشعر بالضيق من مصيره الخاص فى موته مهيأ للشعور بالخلاص كليا منه، إذا أدرك أن موته سيجلب تلقائيا إليه مناعة من معاناته شخصيا؟ هل يشعر بعدم الاهتمام بحزن زوجته وأطفاله فى الحداد عليه؟ هل يكون تأكده من دوام السلام والهدوء لنفسه فى الموت سبيلا إلى تعزية عن الأسف "الدائم" عند الأحياء.

قد تكون الإجابة إنه إذا كان الشاعر قد استخدم كلمة "الدائم" نفسها، ولعله تعمد استخدامها حتى يصف الحالات المتعلقة بالأحياء والموتى، فإن هناك مبالغة فى تطبيق الكلمة على الأحياء، على اعتبار أنهم بدورهم سوف يبلغون - عاجلا أو آجلا- حالة العودة إلى "النوم والهدوء" ، اللتين يجلبهما الموت إلى كل فانٍ فى النهاية. وسوف يجربون فى أثناء ذلك - كما بين لوكريتيوس فى عرضه نفسه - الشعور بأقصى المعاناة، وقد أنكر لوكريتيوس بنفسه الرخصة فى التهوين من شأن هذه المعاناة على أساس أنها مؤقتة فقط، لأنه فى فقرة تالية(٣) يجادل فى بلاغة وإقناع بأن ألوان العذاب

(1) Lines 898-908.
(2) Lines 909-911.
(3) Lines 973-1023.

الدائمة المتصورة للملاعين فى جهنم بعد الموت هى إسقاطات projections بالغة لعذابات حقيقية، أغلبها يصيب الناس من جنايتهم على أنفسهم. ونحن نجربها فى هذه الحياة. وهو يلخص الحجة فى هذه الفقرة فى سطرها الأخير بقوله : "ها هنا فى هذا العالم، يجعل الناس الحياة جحيما من خلال غباوتهم الخاصة". وقد اعترف – مع ذلك – بأن الحداد يجعل الحياة جحيما هنا فى هذا العالم عند من يعيشون فى الحداد. هل يكون مستعدا حتى يعزوا عذابهم أيضا إلى العقوبة التى يفرضونها على أنفسهم جزاء على غبائهم الكريه، الذى يمكن اجتيازه؟

والحق أن لوكريتيوس قد استولى عليه اندفاعه الذى تميز به كى يجرد الموت من شوكته والقبر من نصره عند الإنسان الذى يرهب مصير الموت لنفسه. وتغاضى عن حقيقة حاسمة، وهى أن فى الموت جماعتين في الحادثة هناك. "لا يعيش أحد منا لنفسه، ولا يموت إنسان لنفسه"(١). إن الإنسان كائن اجتماعى. وهناك حقيقة لها أهمية رئيسة فى شوكه الموت، وهى أنها ذات شعبتين. ولعل لوكريتيوس نجح فى استئصال الشوكة من الإنسان الذى يموت، لكنه فشل فى استئصالها من الأحياء بعد الموت. ويبدو فى الحقيقة أنه غفل عن أهمية الألم فى الحداد، الذى وصفه – بالمناسبة – فى مثل هذه الكلمات المثيرة للمشاعر. وقد كان يوربيدوس **Euripides** أكثر إدراكا. وهو بعد أن تساءل عما إذا كانت التجربة التى نسميها الموت ليست فى الحقيقة إلا حياة، وأن الحياة ليست فى الحقيقة إلا الموت، قد لاحظ على الفور أن المشاهدين للموت لا ينقذهم من المعاناة إدراكهم أن الموتى مُعفون من كل معاناة، ومن جميع الأسقام.

عندما أسأل نفسى من أجل ذلك عما إذا كنت أتقبل الموت، ينبغى أن أميز فى كل موقف مختلف بين تقبل الموت على حسابى الخاص، أو تقبلى له على حساب الطرف

(1) Romans, Xiv, 7.

الآخر. إذا افترضت أنني تقبلت حقا مصيرى فى موتى الخاص فى عمر ناضج متقدم، فهل أنا أتقبل أيضا مستقبل الأسف والوحدة اللذين يجلبهما الموت لزوجتى إذا عاشت بعدى؟ وإذا افترضت أننى أشعر بأن الناس الذين خاطروا وعانوا من الموت قبل الأوان عمدا من أجل رفاقهم من البشر قد وجدوا إنجازا مرضيا لإمكانات الحياة من أجل أنفسهم ، فهل أتقبل الخسارة التى جلبتها وفياتهم قبل الأوان للجنس البشرى، وهو يشملنى؟ (هذا السؤال هو موضوع رواية جورج ميريديث George Meredeth بعنوان مستقبل بوشان Beauchamps's Career). وإذا افترضت أننى أشعر بأن الغفلة التى يجلبها الخرف أو الجنون كانت نعمة عند إنسان كان يعانى من العذاب الروحى زمنا طويلا، حين كان يملك كامل قواه العقلية والروحية، هل أتقبل خسارتى لهذا الصديق بسبب سقوطه فى الموت وهو لا يزال حيا؟ وفضلا عن خسارتى الشخصية، هل أتقبل الإهانة القاسية للكرامة الإنسانية التى ارتكبتها الطبيعة فى اختيار هذه الطريقة المهينة فى تخليص إنسان من المعاناة الروحية ؟

أخيرا، هل أتقبل المصير فى أنى قد أعيش بعد زوجتى، ولو عاشت حتى تبلغ عمرا ناضجا متقدما فى كامل قواها، من دون معاناة أكثر من القدر الضئيل من الألم البدنى الطبيعي الذى يصاحب الموت حتى فى أيسر صوره، فيما عدا الوفيات الفورية والوفيات فى أثناء النوم؟ الحقيقة الصلبة هى أن وسائل الموت التى تفرض أخف العذاب على الإنسان الذى يموت، هى بطبيعتها نفسها الوسائل التى تحتم أشد الصدمات للأحياء حول الميت. لقد ذكرت صديقة قديمة لى توقف حزنها الذى لا يحتمل على موت زوجها بالغفلة الناشئة عن الخرف في النهاية. كانت الصدمة التى عانت منها بالغة. فقد وجدت زوجها ميتا على سرير ذات صباح. وكان يبدو فى صحة طبيعية فى اليوم السابق، ولكن قلبه ظل ضعيفا طوال بضع سنين، ومات من هبوط القلب فى أثناء نومه فى سلام، ودون ألم بالتأكيد. وقد تعرضت أنا نفسى من زمن قريب للتجربة فى تلقى صدمة عنيفة حين علمت بالموت المفاجئ لإنسان كانت حياتى وثيقة الارتباط به ذات

مرة ، وإن كان الموت فى هذه الحالة أيضا ليس بطيئا أو مؤلما جدا من الناحية البدنية، وقد وقع فى عمر يقل ستة أشهر عن عمرى، وفيه يكون الموت متوقعا.

إذا كان الإنسان يحب حقا أحد رفاقه من البشر فعليه أن يرغب فى أقل قدر ممكن من الألم يعانيه أو تعانيه عند الموت ، وأن يتحمل الإنسان أقصى ما يستطيع منه. ينبغى أن يرغب الإنسان فى هذا ، وربما استطاع النجاح فى رغبته بعقله نفسه. ولكن هل يستطيع الإنسان أن يرغب فيه حقا بقلبه؟ هل يتطلع الإنسان حقا إلى أن يكون هو الباقى عندما يحين الأوان وينهى الموت مشاركة تكون أغلى قيمة من حياة الإنسان الخاصة، وهى مشاركة تكون حياة الإنسان عبئا- لا نعمة - من دونها. هل يمكن للحب أن يرفع الطبيعة البشرية إلى هذا المستوى السامى من انعدام الأنانية ؟ لا أستطيع الإجابة عن هذا السؤال بالوكالة عن أى إنسان آخر سوى نفسى، ويمكن أن أخمن احتمال استجابتى فحسب فى حالتى الخاصة قبل أن يحين الأوان. سبق لى الاعتراف فى شىء من الفخر أننى سوف أستطيع مواجهة موتى الخاص برباطة جاش. وعلىّ الآن أن أعترف بتخمين آخر يجعلنى فى موضع الاستحياء. أخمن أننى إذا أخبرنى طبيبى ذات يوم بوفاتى قبل زوجتى، فسوف أستقبل الأخبار، لا برباطة جأش فقط وإنما بشعور الارتياح وسيكون هذا الارتياح لا إراديا ، إذا شعرت به حقا. سوف أخجل من نفسى لشعورى به، ويزيد فى ارتياحى ما أحسه من الاهتمام والأسف من أجل مستقبل زوجتى عندما أُختطف منها. وكذلك أخمن حقا بأننى لو أُخبرت بأننى سأموت قبلها فسوف يكون الشعور بالارتياح المشوب بالاستحياء أحد العناصر فى استجابتى.

إن نتيجتى الخاصة واضحة. وإجابتى عن سؤال القديس بولس :

"أيها الموت، أين وخزك؟" هى إجابة القديس بولس نفسه: "إن الخطيئة هى وخز الموت". إن الخطيئة التى أعنيها هى الفشل الأنانى فى الرغبة فى البقاء بعد موت

إنسـان ترتبط حـياتى بحـياته – هذه أنانية لأن وخـز الموت أخف لذعـا للإنسـان الذى يموت من أثره على الذى يبقى فى الحداد.

هذه هى الحقيقة الرئيسة – فيما أراها – حول العلاقة بين العيش والاحتضار. هناك طرفان فى المعاناة التى يجلبها الموت، وعند التوزيع لهذه المعاناة يتلقى الباقى نصيبا أوفى.

المؤلفون في سطور :

١- **أرنولد توينبي** Arnold Toynbee, C.H., Litt. D., D.C.L., F.B.A. عضو المعهد الفرنسي ، أستاذ تذكارى Emeritus للتاريخ الدولى فى جامعة لندن، والمدير السابق للدراسات فى المعهد الملكى للشئون العالمية.

٢- **أ. كيث مانت** M.D.,B.Phil. A. Keith Mant إخصائى الطب الشرعى فى مستشفى جاى Guy فى جامعة لندن ومؤلف كتاب الطب الشرعى : ملاحظة وتفسير Frensic Medicine - Observation and Interpretation

٣ - **نينيان سمارت** Nininan Smart, M.A., B. Phil أستاذ الدراسات الدينية فى جامعة لانكستر Lankaster.

٤ - **جون هينتون** John Hinton, M.D., M.R.C.P., D.P.M أستاذ الطب النفسى فى مستشفى ميدل سكس فى كلية الطب فى لندن.

٥- المرحوم **سيمون يودكين** Simon Yudkin, Ph., D., M.B., F.R.C.P. مستشار فى طب الأطفال سابقا فى مستشفى الكلية الجامعية ومستشفى ويتنجون Whittington فى لندن.

٦- **إريك رود** Eric Rhode مذيع وصحفى - مؤلف كتاب برج بابل Tower of Babel.

٧ - **روزالندا هيود** Rosalind Heywood، عضو مجلس جمعية البحث النفسى، ومؤلفة كتاب الحاسة السادسة والخلية اللانهائية the Sixth Sense and the Infinite Hive. وأسهمت فى تأليف كتاب العلم والإدراك خارج الحواس .Science and E.S.P

٨ - **هـ.هـ. برايس** H.H. Price, L.L.D, D., Litt., F.B.A أستاذ تذكارى ، فى جامعة أكسفورد ، والرئيس السابق لجمعية البحث النفسى.

المترجم فى سطور :

الدكتور عزت شعلان،

- من مواليد جمهورية مصر العربية،

- بكالوريوس فى الطب والجراحة، جامعة القاهرة،

- دبلوم فى طب المناطق الحارة والصحة العامة، جامعة ليفربول - المملكة المتحدة،

- ماجستير فى الصحة العامة، بلجيكا وهولندا .

- دكتوراه فى الصحة العامة - جامعة تكساس - هيوستون - الولايات المتحدة.

- شغل عدة مناصب فى وزارة الصحة بمصر - كما عمل فى دولة الكويت وكان أستاذاً مساعدا للصحة العامة فى كلية الطب بجامعة العلوم والتكنولوجيا فى المملكة الأردنية الهاشمية.

- يعيش الآن مواطنا مصريا أمريكيا فى الولايات المتحدة.

ترجم الكتب الآتية :

أ - فى سلسلة الألف كتاب الأولى - جمهورية مصر العربية:

١- المكنة البشرية والتربية الرياضية - دار القلم .

٢– مرضى وأطباء – دار التعاون.

٣– موجز تاريخ العلم – دار سعد مصر .

ب – فى سلسلة عالم المعرفة – دولة الكويت :

٤– الميكروبات والإنسان.

٥– مرض القلق.

جـ – دار الشويخات – المملكة العربية السعودية :

٦– فصول طبية من موسوعة الكتاب العالمى.

د – دار الساقى – بيروت ، جمهورية لبنان :

٧– الإسلام تحت الحصار .

هـ – دار الشروق – القاهرة :

٨ – الحب والطب ومعجزات الشفاء.

٩– السلام والحب والشفاء.

١٠ – مقدمة تحليلية لكتاب قصص قصيرة تأليف الدكتور محمد كامل حسين.

١١– من يتحدث باسم الإسلام .

و – المركز القومى للترجمة – جمهورية مصر العربية :

١٢–الطب الحديث – صعوده وهبوطه .

E-mail:eshaalan@hotmail.com

التصحيح اللغوى : سماح محمد

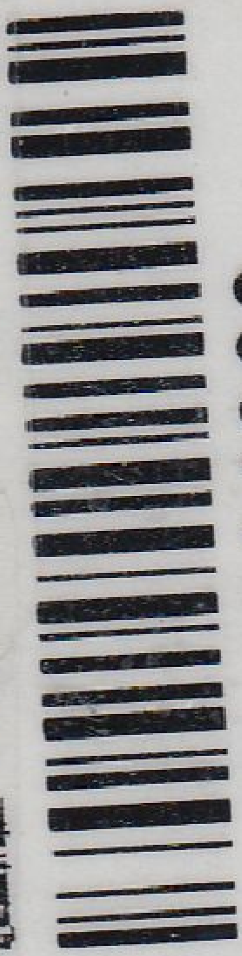
الإشراف الفنى : حسن كامل



هذا الكتاب عن الإنسان وهموم الموت يتناول الموضوع من جوانبه المتعددة وقد ألف نحو ثلثه المؤرخ البريطانى أرنولد توينبى ولعله أشهر المؤرخين الغربيين فى القرن العشرين، وقد عاصر حربين عالميتين، واشترك فى محادثات السلام بعد كل منهما مما أتاح له أن يقترب من مصائب الحروب وآثارها.

اشترك فى تأليف الكتاب إلى جانب توينبى طائفة من المتخصصين فى الطب الشرعى وطب الأطفال والطب النفسى والصحافة والدراسات الدينية والأبحاث النفسية. وتناول الكتاب المواقف التقليدية تجاه الموت فى الزمن القديم وتطورها فى العصور الحديثة والموت فى الحروب.

الواقع أن بقاء النفس بعد الموت من الأمور الغيبية التى ترجع فيها إلى العقيدة والإيمان، وفى القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة دلائل أكيدة على بقاء النفس وعلينا أن نؤمن بها فإن هذا يعصمنا من زعازع الشك والقلق والشعور بالضياع فى هذا الكون الهائل، أما الإيمان فهو السبيل إلى السكينة والسلام.





تصميم الغلاف: أمين الصيرفى